ترومان كابوتي

بدم بارد

قصّة حقيقيّة عن جريمة قتل عَديدة الضحايا وعواقبها

ترجمة راتب شعبو

ترومان كابوتي

بدمٍ بارد

قصّة حقيقيّة عن جريمة قتل عَديدة الضحايا وعواقبها

ترجمة: راتب شعبو

هذا الكتاب بدعم من:

مبادرة 1001 عنوان

بدم بارد

تأليف: ترومان كابوتي

ترجمة: راتب شعبو

تحرير: أحمد العلي

الترقيم الدولي (ISBN): 978-9948-10-061-4

روايات
REWAYAT

إصدارات روايات (إحدى شركات مجموعة كلمات)
الطبعة الأولى 2018

القصباء - مبنى D
هاتف: 5566696 6 971+ فاكس: 5566691 6 971+
ص. ب. 21969 الشارقة، الإمارات العربية المتحدة
info@rewayat.ae
www.rewayat.ae

جميع الحقوق محفوظة © روايات 2018
تمت الموافقة على المحتوى من قبل المجلس الوطني للإعلام
المرجع: 197728
محتوى هذا الكتاب لا يعبر بالضرورة عن رأي الناشر

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي
In Cold Blood
Copyright © 1965 by Truman Capote
This translation published by arrangement with Random House, a division of Penguin Random House LLC

KALIMAT GROUP ▪ مجموعة كلمات

إهداء المترجم

إلى هيثم شعبو، أخي.

شكر وتقدير

كل المواد التي يتضمّنها هذا الكتاب، إن لم تكن مستمدّة من ملاحظاتي الخاصّة، فإنها مأخوذة إمّا من السجلّات الرسميّة أو من المقابلات الكثيرة مع الأشخاص المعنيّين مباشرة. ولأن أسماء "المتعاونين" مذكورة داخل النصّ، فسيكون من الإسهاب ذكرها هنا؛ مع ذلك، أريد أن أعبّر عن امتناني الرسميّ إلى الأشخاص الذين لولا تعاونهم الصّبور لكانت مهمّتي مستحيلة. أيضًا، لن أحاول أن أجري تفقّدًا لكل مواطنيّ مقاطعة "فيني" الذين، رغم أن أسماءهم لا تظهر على هذه الصفحات، فإنهم منحوا الكاتب كرمًا وصداقة يمكنه فقط أن يبادلهم إيّاها دون أن يفيهم حقّهم. على كل حال، أودّ أن أشكر أشخاصًا محدّدين كانت مساهماتهم في عملي مميزة جدًا: د. جيمس ماكين، رئيس جامعة ولاية كانساس؛ السيّد لوغان سانفورد، وطاقم مكتب تحقيقات كانساس؛ السيّد تشارلز ماكاتي، مدير المؤسّسات الجزائيّة في ولاية كانساس؛ السيّد كليفورد ر. هوب جينيور، الذي لم يكن لي غنى عن مساعدته في المسائل القانونيّة؛ وأخيرًا، ولكن بالفعل قبل كل شيء، السيّد ويليام شون من مجلّة "نيويوركر"، الذي شجّعني للقيام بهذا المشروع، والذي وضعتني بصيرته على الطريق الصّحيح من البدء حتى الخاتمة.

ت.ك

إهداء المؤلّف

إلى جاك دونفي وهاربر لي
مع حبّي وامتناني

إخوتنا في الإنسانيّة، يا من تعيشون بعدنا
لا تجعلوا قلوبكم قاسية علينا
إنكم إذا شملتمونا -نحن البائسين- بشفقتكم
فسرعان ما يشملكم الله برحمته.

أغنية المشنوقين
فرانسوا فيون

الفصل الأوّل

آخر مَن شهدهم على قيد الحياة

تقع قريّة "هولكومب" على سهول القمح العالية في غرب كانساس، في منطقة معزولة إلى حدّ أنّهم في بقيّة كانساس يسمونها "هناك". للرّيف، على بُعد حوالي سبعين ميلاً من حدود "كولورادو"، بسمائه الزرقاء الصّلبة وهوائه الصحراويّ النقيّ، جوٌّ أقرب إلى أقصى الغرب منه إلى الغرب الأوسط. اللهجة المحليّة مَشوبة بلحن بريّ؛ خنّة المزارعين المأجورين، حيث يرتدي الكثير من الرجال سراويل ضيّقة الأطراف، وقبّعات "ستيتسون"، وأحذية عالية الكعب ذات رأس مدبّب. الأرض منبسطة، والمشاهد كثيفة إلى حدّ فظيع؛ خيول، وقطعان من الماشية، ورهط من مزارعي القمح البيض ينتصبون برشاقة كالمعابد الإغريقيّة، ويبدون للمتجوّل من بعيد قبل أن يصل إليهم!

هولكومب يمكن أن تُرى، هي الأخرى، من مسافات بعيدة. ليس لأن فيها الكثير ممّا يُرى؛ فهي مجرّد تجمّع سائب من الأبنية التي يقسمها في الوسط مسارات الخطّ الرئيسي للسكّة الحديديّة "سانتا في". إنها قرية عشوائيّة يحدّها من الجنوب امتدادٌ داكن من نهر أركانساس (يُلفظ أر- كان- ساس)، ومن الشمال طريق سريع، الطريق 50، ومن الشّرق والغرب تحيط بها البراري وحقول القمح. بعد المطر، أو مع ذوبان الثلوج، تتحوّل الشوارع غير المظلّلة وغير المعبّدة التي دون أسماء، من تراب سميك إلى وَحْل فظيع. في أحد أطراف البلدة ينتصب بناء قديم من الجصّ واضح الحدود، على سطحه لافتة كهربائية مكتوب عليها: مرقص. ولكن الرّقص توقّف واللافتة مُعتمة منذ سنوات عديدة. تجد في الجوار مبنى آخر يحمل لافتة لا علاقة لها بالرّقص، حيث تقرأ كلمتين بلون ذهبيّ تقشّر بفعل الزّمن،

على لوح زجاجيّ متّسخ: مصرف هولكومب. أغلق المصرف في 1933، وتحوّل إلى شقق للسّكن. وهذه هي "الشّقق السكنيّة" الثانية الموجودة في البلدة؛ أمّا الأولى فهي المبنى المتهالك المعروف باسم "سكن المعلّمين"، حيث يسكن قسم كبير من معلّمي مدرسة البلدة. أما بقيّة مساكن هولكومب فإنها بيوت من طابق واحد بشرفات أماميّة.

إلى جوار المحطّة، تُدير مكتب البريد المتهالك امرأةٌ نحيلة تلبس جاكيت من جلد البقر مع سروال "دينيم" وحذاء كاوبوي. المحطّة نفسها، بدهانها الأصفر المتقشّر، لا تقلّ كآبة. يمرّ بها المدير والمدير الأعلى والكابتن كلّ يوم، لكن هذه القطارات التي هي محطّ ترحيب، لا تتوقف هناك أبدًا! لا يتوقف أيّ من قطارات الركّاب. فقط، من حين إلى آخر، يتوقّف قطار شحن بضائع. وعلى الطريق الرئيسي توجد محطتا وقود. إحداهما تعمل أيضًا كدكّان بقالة فقير الحال، والأخرى تقوم بوظيفة إضافيّة كمقهى: "مقهى هارتمان" حيث تقدّم صاحبة المحلّ السيّدة هارتمان السّاندويتش والقهوة والمشروبات الغازيّة، وبيرة شبه خالية من الكحول (هولكومب "ناشفة" كبقيّة كانساس).

في الحقيقة، هذا هو كلّ شيء. إلّا إذا أضفنا، كما ينبغي، مدرسة هولكومب: البناء الحسن المظهر، الذي يكشف أن هناك حالة مغايرة يُخفيها مظهر القرية: فالآباء الذين يُرسلون أبناءهم إلى هذه المدرسة الحديثة ذات الكادر التعليميّ الكفؤ والمتكاملة -تبدأ من الروضة إلى الصفوف العليا، مع أسطول من الباصات لنقل الطلّاب البالغ عددهم حوالي ثلاثمئة وستين، من مسافة ستة عشر ميلًا- هم عمومًا من الميسورين. فغالبيّتهم من أصحاب مزارع تربية الماشية، وهؤلاء الناس البريّون ينتمون إلى مختلف الجنسيّات -ألمانيّة، وإيرلندية، ونرويجية،

ومكسيكية، ويابانيّة– يربّون المواشي والأغنام، ويزرعون القمح والميلو والعشب والشوندر. الزراعة من الأعمال المحفوفة بالمخاطر، غير أنّ المزارعين في غرب كانساس يعتبرون أنفسهم "مقامرون بالولادة"، فعليهم أن يرضوا بنسبة متدنيّة جدًّا من الأمطار (المعدل السنويّ هو 18 إنش) مع مشاكل منغّصة في الريّ. وقد أحسن صُنعًا مزارعو مقاطعة فيني، التي تُعتبر هولكومب جزءًا منها. ذلك أنّهم يكسبون النقود ليس فقط من الزراعة بل أيضًا من استغلال منابع الغاز الطبيعيّ الوافرة، وقد انعكست هذه الحيازة في المدرسة الجديدة، وفي الأثاث الوثير داخل بيوت المزارعين، وفي ثراء مزارعي الحبوب.

لم يكن سوى القليل من الأمريكيّين، أو القليل من الكانساسيّين في الحقيقة، قد سمع بقرية هولكمب قبل صباح ذاك اليوم من أواسط نوفمبر/تشرين الثاني 1959. فكما أن مياه النهر لا تتوقف عند هولكمب أثناء جريانها، ولا تتوقّف أيضًا السيّارات العابرة على طريقها السّريع، ولا القطارات الصّفراء على سكك حديد سانتا في، كذلك لم تعرف أيّ أحداث دراميّة تُلفت النظر، فمثلها لم تتوقّف قط في هولكومب. كان سكّان القرية الذين يبلغ عددهم مئتين وسبعين مقتنعين بأن هذا ما يجب أن تكون عليه أوقاتهم، راضين تمامًا أن يعيشوا مغمورين بالحياة العادية: عمل وصيْد ومشاهدة تلفزيون، وحضور الاجتماعات المدرسيّة، والغناء في الكورال، واللقاءات في نادي "فور- إتش". ولكن في الساعات الأولى من ذلك الصّباح في نوفمبر، صباح يوم أحد، اخترقت بعض الأصوات الغريبة الضجيج الليليّ المعتاد في هولكومب –العويل الهستيريّ للذئاب، وخشخشة الأشواك الجافّة، ونحيب القطارات السّريعة المبتعدة. لكن لم يسمع أحد في هولكومب

النائمة تلك الأصوات الغريبة في حينها: أربع رصاصات أنهت حياة ستة أشخاص. أهل القرية الذين كانوا حتى ذلك التاريخ مطمئنين بعضهم إلى بعض، فلا يجد أحدهم حاجة لإقفال بيته، وجدوا أنفسهم بعد ذلك أمام حدث خياليّ خلْخلَ كيانهم وأعاد صياغتهم من جديد.. تلك الإنفجارات الغامضة أوقدت نيران الشك في قلوب القرويّين حتى بات الجيران ينظرون إلى جيرانهم بطريقة غريبة رغم عمر الجيرة الطويل! بات ينظر بعضهم إلى بعض كغرباء.

° °

كان "هيربرت وليام كلاتر" سيّد مزرعة "ريفر فالي" رجلًا في الثامنة والأربعين من العمر. وبحسب نتيجة فحص طبيّ حديث أجراه من أجل وثيقة تأمين، تبيّن أنّه في صحّة تامّة. ورغم أنه يرتدي نظّارات دون إطار، وله قامة متوسّطة فلا يزيد طوله عن خمسة أقدام وعشرة إنشات، فإنّ السيّد كلاتر يعطي الانطباع بالرجولة. كتفاه عريضان، وشعره داكن لا يزال، وفكّه مربع. يحتفظ وجهه الدال على الثقة بلون الشباب، ولا تزال أسنانه البيضاء القويّة بما يكفي لتكسير الجوز، كاملة. كان يزن 154 باوند، وهو وزنه حين تخرّج من جامعة ولاية كانساس، متخصّصًا في مجال الزراعة. لم يكن بمستوى ثراء أغنى رجل في هولكومب: "السيّد تايلر جونس" صاحب مزرعة مجاورة. لكنه كان الشّخص الأشهر في مجتمعه. فقد كان معروفًا هناك وفي "غاردن سيتي"، مقرّ المقاطعة المجاورة، حيث ترأّس لجنة إشادة الكنيسة الميثودية الأولى التي اكتمل بناؤها مؤخّرًا: المبنى الضخم الذي كلّف ثمانمئة ألف دولار. وكان في غضون ذلك رئيس مؤتمر كانساس للمنظّمات الزراعيّة، ويلقى اسمه الاحترام في كلّ مكان بين مزارعي الغرب

الأوسط، كما في بعض مكاتب واشنطن، فقد كان أحد أعضاء المجلس الفيدرالي للائتمان الزراعي خلال إدارة الرّئيس الأمريكي آيزنهاور.

حصل كلاتر، الذي كان متيقّنًا دائمًا ممّا يريد من العالم، على ما أراد إلى حدّ كبير. كان يضع في يده اليُسرى، فيما تبقّى من إصبع بترته آلة زراعيّة، خاتمًا ذهبيًّا بسيطًا. كان رمز زواجه الذي بلغ عمره ربع قرن من المرأة التي أراد الاقتران بها؛ أخت زميله في الجامعة. وهي فتاة خجولة، وَرِعة ومُرهفة اسمها "بوني فوكس"، تصغره بثلاثة أعوام. وقد أنجبت منه أربعة أولاد: ثلاث بنات ثم صبيّ. البنت الكبرى، "إيفانا"، متزوّجة وأمّ لصبيّ بعمر عشرة أشهر، تعيش في شمال "إلينوي" لكنها تزور هولكومب بشكل متكرّر. كان من المتوقّع، في الحقيقة، أنْ تأتي مع عائلتها في غضون أسبوعين إلى القرية، لأن أبويها كانا يخطّطان، بمناسبة عيد الشكر، لعقد لقاء واسع لعائلة كلاتر (التي هي من أصول ألمانيّة، وقد وصل أوّل مهاجر منها إلى أمريكا في 1880). وُجّهت الدعوات إلى حوالي خمسين فردًا من العائلة. سوف يأتي العديد منهم من مناطق بعيدة مثل "بالاتكا" في "فلوريدا". كما لم تسكن "بفرلي"، البنت الثانية في العمر بعد إيفانا، مدّة أطول في مزرعة ريفر فالي، فقد ذهبت إلى "كانساس سيتي" في كانساس نفسها لدراسة التمريض. وكانت مخطوبة لطالب بايولوجيا شعرَ والدها بالحماس له. وكانت الدعوات لحفل الزفاف، المقرّر في أسبوع عيد الميلاد، قد طُبعت سلفًا. بقي في البيت من الأولاد، الصّبي "كينيون"، في الخامسة عشرة من العمر، وهو أطول من أبيه، وأخته التي تكبره بعام، مدلّلة البلدة، "نانسي".

من ناحية العائلة، لم يكن لدى كلاتر سوى هَمّ واحد: صحّة زوجته. فقد كانت "عصبيّة"، وتعاني من "نوبات بسيطة" بحسب

التعابير المخفّفة التي يستخدمها المقرّبون منها. الواقع أن حقيقة "آلام بوني المسكينة" لم تكن سرًّا، فالجميع يعلم أنها كانت مريضة تتردّد كثيرًا على العيادات النفسيّة خلال السنوات الأخيرة. ومع ذلك فإن الشمس لم تُلقِ ضوءها على هذا الجانب المظلّل إلّا في وقت متأّخر للغاية. ففي الأربعاء الماضي، بعد عودتها من أسبوعين من العلاج في مركز "ويسلي" الطبي في مدينة "ويتشيتا"، مكانها المعتاد للراحة، كان لدى السيّدة كلاتر أخبار تقولها لزوجها، رغم ضعف معقولية هذه الأخبار؛ فقد أخبرته ببهجة أن سبب بؤسها، كما اكتشف الأطباء أخيرًا، لم يكن في الرّأس، بل في النخاع الشوكيّ. إن الأمر "جسديّ"، يتعلّق بسوء توضّع الفقرات. بالطبع يجب أن تخضع لعمل جراحي، ولكن بعد ذلك، ستعود "ذاتها القديمة" ثانية. هل من المُمكن أن يكون التوتّر والانطواء والوسائد المبلّلة بالدموع وراء الأبواب الموصدة، كلّه ناجم عن سوء في توضّع الفقرات؟ إذا كان الأمر كذلك، فإن بمقدور السيّد كلاتر، أن يصلّي بامتنان خالص على طاولة عيد الشكر!

يبدأ صباح السيّد كلاتر عادة في السّادسة والنصف، ذلك أنه يستيقظ على قرقعة دلاء الحليب والأحاديث الهامسة للصبيّين اللذين يجلبانها، وهما ابنا أجير لديه اسمه "فيك إرسك". لكنه اليوم توانى، لم ينهض على أصوات أولاد فيك إرسك، لأن مساء البارحة، الثالث عشر من الشّهر يوم الجمعة، كان متعباً، مع أنه كان بهيجاً في جانب منه. فقد استعادت بوني "ذاتها القديمة"؛ وضعت أحمر الشفاه، وانشغلت كثيراً بشعرها، ولبست ثوباً جديداً، كما لو أنها تؤدي بروفة عن استعادة النشاط وكيف يكون المرء طبيعياً، ثم رافقته إلى مدرسة هولكومب، حيث صفّقا لعرض أعده الطلاب لمسرحية "توم سوير"،

لعبت فيه ابنتهما نانسي دور "بيكي تاتشر". استمتع كلاتر في ذلك المساء حين رأى بوني تخرج إلى الملأ، متوتّرة ولكنها مبتسمة، وتتحدث إلى الناس. كلاهما كانا فخورين بنانسي؛ فقد كان أداؤها جيداً؛ حفظت دورها بالكامل، وبدت، كما قال لها المهنئون في الكواليس: "حلوة جداً، وعسل، وجنوبيّة فاتنة بحقّ!". بعد ذلك تقمّصت نانسي الإطراءات، وسألت والديها وهي تنحني بلطف بتنورتها ذات الطارة، إن كان يمكنها أن تذهب بالسيارة إلى غاردن سيتي. فقد كان مسرح الولاية يقدم عرضاً خاصاً، الساعة الحادية عشرة والنصف من يوم الجمعة، في الثالث عشر من الشهر "عرض الأشباح"، وسوف يذهب إليه جميع أصدقائها. في ظروف أخرى، ما كان السيد كلاتر ليقبل. فقوانينه يجب أن تحترم، وأحد هذه القوانين: على نانسي – وعلى كينيون أيضاً – أن يكون في البيت قبل العاشرة في أيام الأسبوع، وقبل الحادية عشرة في أيام السبت. لكن الأحداث السعيدة في هذه الأمسية أضعفته وجعلته يوافق. ولم تعد نانسي إلى البيت حتى الثانية صباحاً على التقريب. وحين سمعها تدخل البيت، ناداها، ورغم أنه كان رجلاً لا يرفع صوته أبداً، إلا أنه كان يودّ أن يقول لها بعض الأشياء البسيطة، أشياء لا تتعلق بعودتها المتأخرة إلى البيت، بقدر ما تتعلق بالشاب الذي أوصلها بسيارته إلى البيت؛ "بوبي روب"، أحد أبطال كرة السلة في المدرسة.

كان السيد كلاتر يحب بوبي، ويعتبره ولدًا شهمًا ويُعتمد عليه، برغم أنه لا يزال في السابعة عشرة من عمره؛ لكن نانسي، ومنذ أن سُمح لها "بالمواعيد الغرامية" منذ ثلاث سنوات، لم تواعد أحداً غيره، رغم كل شعبيتها وحلاوتها. يفهم السيد كلاتر أن من عادة المراهقين في كل البلد اليوم أن يشكّلوا ثنائيات، وأن "يلتزموا" ويلبسوا "محابس

الخطوبة"، لكنه لا يوافق على هذا، ولاسيّما أنه رأى منذ فترة ليست بعيدة، وبمحض الصدفة، ابنته تقبّل ابن عائلة روب! عندها اقترح على نانسي أن تخفف من "مواعدة بوبي"، ونصحها قائلاً إن الانسحاب التدريجي الآن أهون من القطع المفاجئ فيما بعد، لأن الفراق يجب أن يتم في النهاية، كما نبهها. فعائلة روب من الروم الكاثوليك، فيما عائلة كلاتر من الميثوديست، وهذه حقيقة كافية بذاتها لإنهاء كل التصورات التي قد يكون بناها الصبي والبنت عن الزواج يوماً ما. كانت نانسي منطقية – إنها لم تجادل، على أي حال – والآن، قبل أن تقول "تصبح على خير" لأبيها، وعدته بأن تبدأ بالانفصال التدريجي عن بوبي.

ذلك الحادث أخّر موعد ذهابه إلى الفراش، الذي يكون عادة في الحادية عشرة. ونتيجة ذلك فإنه تأخّر في الاستيقاظ صباح السبت، 14 نوفمبر، 1959، إلى ما بعد السابعة. دائماً تأوي زوجته إلى فراشها في وقت متأخر. لكن السيد كلاتر لم يخش إزعاجها، فهو يحلق ذقنه ويأخذ دوش ويرتدي بنطال الويبكورد وجاكيت الجلد الخاصّ برعاة البقر، وحذاء الرّكاب الليّن. كان كل منهما ينام في غرفة منفصلة. لسنوات عديدة كان ينام وحيداً في غرفة النوم الرئيسية من الطابق الأرضي في البيت المؤلف من طابقين وأربع عشرة غرفة، والمبني على طريقة الهيكل والطوب. ورغم أن السيدة كلاتر كانت تخزن ملابسها في الخزنة الكائنة في هذه الغرفة، وتضع مستحضرات التجميل القليلة التي لديها، وأدويتها التي لا تعد ولا تحصى في الحمام ذي البلاط الأزرق والطوب والزجاج، المجاور للغرفة، فإنها كانت تأخذ على محمل الجد بقاءها في غرفة النوم السابقة لإيفانا، الكائنة في الطابق الثاني، مثل غرف نوم كينيون ونانسي.

بُني هذا البيت في 1948 بكلفة 40 ألف دولار (يصل سعره اليوم إلى 60 ألف دولار)، وهو في أغلبه من تصميم السيّد كلاتر، الذي أثبت بذلك أنه حسّاس ومتزن، إن لم نقل زخرفيّ ومعماريّ ممتاز. يقع البيت الأنيق الأبيض في نهاية طريق خاص طويل يشبه الجادات، تظلّله صفوف شجر الدردار الصيني، ويقوم وسط حديقة واسعة يغطيها عشب برمودا مُعتنىً به، ممّا أثار إعجاب هولكومب، حتى بات مكانًا يشير إليه الناس. أمّا من الداخل، فتجد سجّادًا خمريًّا سميكًا يُخفي بشكل متقطّع لمعان الأرضية المطلية بطلاء فاخر: أريكة ضخمة عصرية في غرفة المعيشة مغطاة بقماش خشن مطرّز بخيوط لامعة فضيّة؛ وهناك زاوية للفطور تضمّ طاولة منجّدة ببلاستيك أبيض وأزرق. هذا هو نوع الأثاث الذي كان يحبه السيد والسيدة كلاتر، كما يحبّه غالبية معارفهم الذين كانت تضم بيوتهم أثاثاً مشابهاً.

في الشؤون المنزلية، لم تعتمد عائلة كلاتر سوى على المدبرة التي تأتي إلى المنزل في أيام العمل، ولذلك فإن السيد كلاتر اضطر بعد مرض زوجته ومغادرة ابنتيه الأكبر سناً، لتعلم الطبخ: فكان هو، أو نانسي، ولكن نانسي بشكل رئيسي، يعدان الطعام للعائلة. كان السيد كلاتر يستمتع بالأعمال المنزلية اليومية، وكان بارعاً فيها. ما من امرأة في كانساس تخبز رغيفاً من الخبز المالح أفضل منه، كما أن كعك جوز الهند الذي يصنعه كان مشهوراً، وكان المادة الأولى المرغوبة في مبيعات الكعك الخيرية. لكنه لم يكن أكولاً، على خلاف زملائه المزارعين، حتى أنه كان يفضل الإفطار الإسبارطي المتقشّف. ففي ذلك الصباح، اكتفى بتفّاحة مع كأس من الحليب؛ ولأنه لا يتناول لا القهوة ولا الشاي، فقد اعتاد على أن يبدأ يومه "بمعدة باردة". الحقيقة إنّه لم يكن يرغب بأي

نوع من أنواع المنبّهات، مهما كان خفيفاً. لم يكن يدخّن، وبالطبع لم يكن يشرب الكحول؛ لم يتذوق المشروبات الروحية طوال حياته، وكان يميل إلى تجنب شاربيها، الشيء الذي لم يقلّص من دائرته الاجتماعية كما يمكن أن يفترض المرء، لأن مركز تلك الدائرة كان يتألف من أعضاء الكنيسة الميثودية الأولى في غاردن سيتي، وهم طائفة من ألف وسبعمئة عضو، غالبيتهم من المتقشفين كما يرغب السيد كلاتر. وفي حين أنه كان حريصاً على ألا يزعج أحداً بوجهات نظره، وألا يتصرف خارج مملكته بطريقة غير منضبطة، فإنه كان يفرض وجهات نظره داخل عائلته وعلى موظفي مزرعة ريفر فالي. "هل تشرب؟" كان هذا هو السؤال الأول الذي يتوجه به إلى المتقدمين للعمل، وحتى لو أجاب الشخص بالنفي، فإنه يبقى عليه أن يوقّع على عقد عمل يتضمن بنداً يقول إذا تبيّن أن المستخدم "يحتفظ بالكحول" فإنه يسرح على الفور. ذات يوم قال له أحد الأصدقاء، وهو من المزارعين الأوائل، يدعى السيد لين روسيل: "ليست لديك أيّ رحمة. أقسم لك يا هيرب! عندما كنت تمسك مستخدماً يشرب الكحول، كنت تطرده، دون أن تبالي إذا كانت عائلته جائعة". قد يكون هذا هو النقد الوحيد الذي وجّه إلى السيد كلاتر بوصفه ربّ عمل. سوى ذلك، كان معروفاً بالاتزان وحب الخير، وبأنه كان يدفع أجوراً جيّده لمستخدميه، ويوزع عليهم العلاوات بشكل متكرر؛ لم يكن لدى الرجال الذين عملوا لديه، وقد كان يبلغ عددهم أحياناً 18 مستخدماً، الكثير من أسباب الشكوى منه.

بعد أن شرب كأس الحليب وارتدى غطاء الرأس المبطن بالصوف، خرج السيد كلاتر يتفحص الصباح وتفاحته بيده. كان طقساً مثالياً لأكل تفاحة؛ ضوء شمس شديد البياض ينحدر من

أصفى سماء، وحفيف أوراق شجر الدردار الصيني التي تحركها بلطف نسمات شرقية. فصل الخريف يعوّض كانساس الغربية عن الشرور التي تفرضها عليها بقية الفصول: في الشتاء، رياح كولورادو القالعة، والثلوج التي تتراكم حتى تصل إلى مستوى الورك، وتفتك بالخراف؛ الطين والضباب في الربيع؛ وفي الصيف، عندما تبحث حتى الغربان عن أتفه ظل، وتنتصب سيقان القمح الصفراء اللانهائية جافةً متوهجة. وفي النهاية، بعد سبتمبر، يصل طقس آخر، صيف هندي يستمر أحياناً حتى عيد الميلاد. بينما كان السيد كلاتر يتأمل هذه القطعة الرائعة من الخريف، انضم إليه كلبٌ هجين، وسارا معاً صوب زريبة المواشي المجاورة لأحد المخازن الثلاثة التي يضمّها المبنى.

أحد هذه المخازن كان كوخاً معدنياً ضخماً مليئاً بالحبوب - ذرة ويستلاند البيضاء – وأحدها يحوي تلة داكنة وحادة الرائحة من حبوب الميلو، تقدّر قيمتها بمئة ألف دولار. وهذا الرقم وحده أكبر من كل دخل السيد كلاتر بحوالي 4000٪ عندما تزوج من بوني فوكس عام 1934 وانتقل معها من روزيل، مسقط رأسهم في كانساس، إلى غاردن سيتي، حيث عمل كمساعد للوكيل الزراعي في مقاطعة فيني. استغرقه الأمر سبعة أشهر فقط كي يترقّى، أي كي يصبح رئيس العمال. خلال السنوات التي شغل فيها هذا المنصب (1935-1939) شهدت المنطقة أحقر وأفقر فترة عرفتها منذ استوطنها الرجل الأبيض، وكان الشاب هيرب كلاتر، بذهنه الذي راح يكتسب بنشاط أحدث الممارسات الزراعية المتوفرة، مؤهلاً ليكون الوسيط بين الحكومة وأصحاب المزارع المحبطين الذين أحسنوا الاستفادة من تفاؤل ومعرفة الشاب الجدير بالمحبة والذي بدا أنه يعرف عمله جيداً. ومع ذلك، فإنه لم يكن يعمل

ما يريد هو أن يعمل؛ فهو ابن مزارع، وكان يريد منذ البداية أن يعمل في مزرعة خاصة به. ولتحقيق هذا الغرض، استقال بعد أربع سنوات من عمله كوكيل للمنطقة، وأنشأ، على أرض استأجرها بنقود مقترضة، جنين مزرعة ريفر فالي (هذا الاسم مستمد من نهر "ريفر" أركانساس الذي يجتاز المنطقة وهو يتلوّى، ولكنه ليس مستمداً بالتأكيد من وجود وادي "فالي"، ذلك أنه لا دليل على وجوده).

لقد كان مسعىً تسلّى العديد من محافظي مقاطعة فيني بمراقبته. يقول القدامى الذين كانوا مغرمين بإغاظة وكيل المنطقة الشاب في موضوع أفكاره الجامعية: "جيّد يا هيرب! أنت تعرف دائماً ماذا تفعل على أرض رجل آخر. تزرع هنا. تعمل مصاطب هناك. ولكن قد يكون الأمر مختلفاً إذا كانت الأرض لك!". كانوا على خطأ؛ فقد نجحت تجارب الشاب الصاعد نجاحًا جزئياً وحسب في السنوات الأولى لأنه كان يعمل في المزرعة ل 18 ساعة في اليوم. حدثت نكسات بالطبع، فقد فشل محصول القمح مرتين، وفي أحد الشتاءات خسر بضع مئات من رؤوس الغنم في عاصفة ثلجية؛ ولكن بعد عقد من الزمن كان يضمّ نطاق عمل السيد كلاتر أكثر من ثمانمئة فدان مملوكة وثلاثة آلاف مستأجرة، وكان هذا، كما يعترف زملاؤه، "انتشارًا ممتازًا". المحاصيل التي اعتمد ازدهار المزرعة عليها هي القمح وبذور الميلو وبذور العشب الموثقة. كما كان للحيوانات أهميتها، الغنم والبقر بشكل خاص. قطيع من بضع مئات من بقر هيرفورد يحمل العلامة التجاريّة "كلاتر"، رغم أن المرء لا يتوقّع ذلك من المحتويات الضئيلة لزريبة المواشي التي كانت محجوزة للعجول المريضة، وبضع بقرات للحليب، ولقطط نانسي، ول"بيبي"؛ حيوان العائلة المفضل، وهي فرس عمل سمين عجوز،

لم تمانع يوماً في أن تمشي بتثاقل في الأرجاء وهي تحمل على ظهرها العريض ثلاثة أطفال أو أربعة.

السيد كلاتر يُطعم بيبي الآن لبّ تفاحته، وهو يلقي تحية الصباح على رجل ينظف داخل الزريبة، إنه "ألفريد ستوكلين"، العامل المقيم الوحيد. تعيش عائلة ستوكلين وأولادهم الثلاثة في بيت لا يبعد مئة ياردة عن البيت الرئيسي؛ وسوى هذه العائلة، لا يوجد لعائلة كلاتر جيران أقرب من نصف ميل. سأل ستوكلين، وهو رجل بوجه طويل وأسنان بنيّة طويلة: "هل في ذهنكم عمل خاص لهذا اليوم؟ لدينا مريض في البيت. الطفلة. أنا وميسيس انشغلنا بها طوال الليل. أفكر أن أصطحبها إلى الطبيب". عبّر السيد كلاتر عن تعاطفه وقال له أن يتوقّف عن العمل هذا الصباح، وألح عليه أن يخبره إذا كان بحاجة لمساعدة منه أو من زوجته. ثم اتجه، والكلب يركض أمامه، إلى الجنوب صوب الحقول التي هي الآن بلون جلد الأسد، فبقايا الزرع بعد الحصاد تُضيء بلون ذهبيّ.

يقع النهر في هذه الناحية؛ وفي القرب من ضفته تنتصب أيكة من الأشجار المثمرة: الخوخ والإجاص والكرز والتفاح. قبل خمسين سنة، بحسب ذاكرة السكان الأصليين، كان يمكن لحطاب أن يقطع كل أشجار كانساس الغربية في عشر دقائق. وحتى اليوم، لا يزرع هنا بكثافة سوى أشجار الحور القطني والدردار الصيني المعمر والذي يشبه الصبار في مقاومته العطش. ولكن كما يكرر السيد كلاتر: "إنش إضافي من المطر سوف يجعل هذه البلد جنة عدن على الأرض". وما مجموعة الأشجار المثمرة التي زرعها بجانب النهر سوى محاولة منه في أن يبتكر، بصرف النظر عن المطر، بقعة من الجنة، عدن الخضراء التي

تفوح منها رائحة التفاح، كما تخيلها. قالت زوجته مرة: "زوجي يعتني بهذه الأشجار أكثر ممّا يعتني بأولاده"، والجميع في هولكومب يتذكرون يوم سقطت طائرة صغيرة بسبب عطل وتحطمت على أشجار الخوخ: "هيرب فقد صوابه، حتى كان من المناسب تكبيله! وقد رفع دعوى ضد الطيّار قبل أن تتوقف مروحة الطائرة عن الدوران!".

مرّ السيد كلاتر عبر البستان، وتابع مسيره على ضفة النهر الذي كان ضحلاً هنا وتتخلّله جزر متناثرة، مناطق من الرمل الناعم وسط المجرى، كانت العائلة تنقل إليها سلال النزهات أيام الآحاد الغابرة، وأيام السبت في الطقس الحار عندما كانت بوني لا تزال "تتذوق الأشياء"، وكانت العائلة تقضي فترة بعد الظهر بانتظار أن تهتز سنارة صيد السمك. نادراً ما صادف السيد كلاتر غرباء يتعدون على مزرعته التي كانت تبعد حوالي ميل ونصف عن الطريق السريع، ويتم الوصول إليها عبر طُرق معتمة، ولذلك لم تكن مكاناً يأتيه الغرباء صدفة. الآن، ظهرت له مجموعة كاملة من الغرباء، اندفع تيدي، الكلب، باتجاههم وهو ينبح محذراً. لكن الغريب أن تيدي، رغم أنه حارس جيد ويقظ وجاهز دائماً للدفاع، عنده نقطة ضعف، وهي أنه إذا لمح بارودة، كما جرى الآن – فالمجموعة كانت مسلّحة – فإن رأسه يتدلّى ويدخل ذيله بين رجليه. لم يفهم أحد سبب ذلك، لأنه ما من أحد يعرف تاريخ هذا الكلب، سوى أنه كلب مشرّد تبناه كينيون منذ بضع سنين. تبين أن هؤلاء الزوار هم خمسة من صيادي طيور التدْرُج (Pheasant) من أوكلاهوما. موسم التدرج في كانساس، وهو أحد الأحدث المعروفة في نوفمبر، يغري الكثير من الرياضيّين من الولايات المجاورة للقدوم إلى هولكومب. فخلال الأسبوع الماضي مرت أفواج من أصحاب القبعات

المنقوشة عبر المساحات الخريفية، متوهجي الوجوه ويملؤون الجوّ بصوت الرصاص وأسراب نحاسية اللون من طيور سمينة بفعل أكل الحبوب. في العادة، يدفع الصيادون، ما لم يكونوا مدعوّين، رسماً لصاحب الأرض لكي يسمح لهم بالصيد في ممتلكاته، ولكن حين عرض الأوكلاهومانيّون شراء حقوق الصيد، ضحك السيد كلاتر وقال: "لستُ فقيراً بالقدر الذي أبدو عليه. اذهبوا واصطادوا كل ما تستطيعون". ثم لمس طرف قبعته وسار باتجاه البيت ليبدأ يوم عمله، غير مدرك أنّه سيكون يومه الأخير.

○ ○

الشاب الذي يتناول الفطور في مطعم "ليتل جويل" لا يشرب القهوة، مثله في ذلك مثل السيد كلاتر. إنه يفضّل بيرة الجذور. مفهومه عن "الطعام" الصحيح ينحصر في ثلاثة أشياء: الأسبرين، وبيرة الجذور الباردة، وسلسلة من سجائر باول مول. وأثناء ما كان يرتشف مشروبه ويدخّن، راح الشاب يدرس خارطة منشورة على الطاولة أمامه: خارطة فيليبس 66 للمكسيك. لكن كان من الصعب عليه أن يركز، لأنه كان ينتظر صديقاً تأخّر عن موعده. نظر من النافذة إلى شارع البلدة الصغير الصامت، الشارع الذي لم يره طوال حياته حتى البارحة. لا أثر ل"دِك". لكنه كان متيقناً من أنه سيأتي؛ فالغرض من اللقاء، بعد كل شيء، هو فكرة دِك، "ضربة حياته".

استقر الأمر على المكسيك. كانت الخريطة مهترئة، تقلبت صفحاتها حتى باتت لينة كقطعة من الشاموا. في زاوية غرفته في الفندق الذي يقيم فيه، توجد مئات الخرائط المشابهة، خرائط ممزقة لكل ولاية من ولايات أمريكا، ولكل مقاطعة كندية، ولكل بلد في أمريكا اللاتينيّة،

ذلك لأن الشاب كان منظِّم رحلات لا يهدأ، وقد شارك هو نفسه في عدد غير قليل منها: إلى ألاسكا، إلى هاواي، وإلى اليابان وهونغكونغ. والآن بسبب دعوتة إلى "ضربة"، ها هو هنا مع كل ممتلكاته الدنيويّة: حقيبة من الكرتون، وغيتار، وصندوقين من الكتب والخرائط والأغاني والقصائد والرسائل القديمة، تزن ربع طن. (انقلب وجْه دِك عندما رآها: "كل هذه الصناديق! يا إلهي يا بيري، أنت تحمل هذه الخردة أينما ذهبت؟" فأجابه بيري: "أيّ خردة؟ أحد الصناديق يحوي كتبًا كلّفتني ثلاثين دولاراً!"). هو الآن في أولاث الصغيرة في كانساس. إذا فكرت في الأمر فستجده هزليًّا إلى درجة ما؛ تخيّل أن يعود إلى كانساس، بعد أن أقسم منذ أقل من أربعة أشهر، أولاً أمام مجلس الإفراج المشروط في الولاية، ثم أمام نفسه، على أنّه لن يطأ أرضها مرة ثانية أبداً. لكن الأمر لم يدم كذلك طويلاً.

أسماء المدن المحوطة بالحبر تملأ الخارطة. **كوزوميل**، جزيرة مقابل ساحل يوكاتان، وكما قرأ في إحدى المجلات الخاصة بالرجال، أن بإمكانك هناك أن "تخلع ملابسك، وترسم على وجهك ابتسامة مريحة، وتعيش مثل أمير، وتنال كل النساء اللواتي تريدهن مقابل 50 دولاراً في الشهر!". ومن المجلة نفسها لا يزال يذكر بعض البيانات الجذابة: "كوزوميل هي ملاذ ضد الضغوط الاجتماعية والاقتصادية والسياسية. ما من مسؤول يضغط على شخص في هذه الجزيرة"، و"كل سنة تأتي طيور الببغاء من موطنها الأمّ لتضع بيوضها هنا". **أكابولكو** التي تعني الكازينوهات والنساء الثريّات المتلهفات وصيد السمك في عمق البحر؛ **وسييرا مادري**، التي تعني الذهب، وتعني له بشكل خاص "كنز سييرا مادري"، وهو فيلم شاهده ثماني مرات. (كان أفضل فيلم لعب فيه

بوغارت دور البطولة، لكن العجوز الذي لعب دور المنقب عن الذهب، والذي ذكّر بيري بأبيه، كان رائعاً أيضاً. إنه والتر هيوستن. نعم، وما نقله إلى دِك كان صحيحاً: لقد كان يعرف كل شيء عن تعقّب الذهب، لأنه تعلم كل شيء من أبيه الذي كان منقباً محترفاً عن الذهب. إذن لماذا لا يشتريان حصاني نقل ويجرّبان حظهما في سييرا ماردي؟ لكن دِك، الشّخص العمليّ، قال: "على مهلك يا عزيزي، على مهلك! أنا رأيت الفيلم. ينتهي الجميع فيه إلى الجنون بسبب الحمّى ومصّاصي الدماء! أقصد كل الظروف المحيطة بهم. ثم إنّهم بعدئذ، حين يحصلون على الذهب، هل تتذكر كيف هبّت ريح قوية وأخذت كل شيء في طريقها؟"). فطوى بيري الخارطة. ثم دفع ثمن البيرة ونهض. يبدو بيري وهو جالس أنّه بحجم أكبر من العادي، يبدو رجلًا قويًّا، بكتفين وذراعين وجذع سميك محنيّ كجسم رافع أثقال، والحقيقة أن رفع الأثقال كانت هوايته. ولكن بعض أقسام جسمه لم تكن متناسقة مع الأقسام الأخرى. فقدماه الصّغيرتان اللتان ترتديان بوطًا صغيرًا أسودَ ببكلات صلبة، يمكن أن تناسبهما جيداً نعل رقص نسائي ناعم! عندما نهض عن الكرسيّ لم يكن أطول من ولد في الثانية عشرة من عمره! وفجأة ظهر، وهو يختال بمشيته، على ساقين قزمتين تبدوان غير مناسبتين -على نحو مشوّه- لحمل الجذع النامي الذي يعلوهما. إنه أشبه بجوكي متقاعد -منتفخ ومفرط العضلات- منه بسائق شاحنة ذي بنية قوية.

وقف بيري في الشمس خارج المتجر. كانت الساعة التاسعة إلا ربع، وكان دِك قد تأخر نصف ساعة عن موعده؛ ولكن لولا تأكيد دِك على أهمية كل دقيقة في الأربع وعشرين ساعة القادمة، لما لاحظ بيري هذا التأخر، فهو نادراً ما يكترث بالوقت، لأن لديه طرقًا

كثيرة لتزجيته، ومن بينها التحديق في المرآة. ذات مرة قال له دِك: "كلما رأيت مرآةً تبدو وكأنّك تدخل في غيبوبة، كأنك تتأمّل مؤخّرةً في منتهى الفتنة! أقصد، يا إلهي، ألا تملّ أبداً؟". إنه لا يملّ، فهو متيّم بوجهه. كل زاوية من وجهه تُعطي عنه انطباعاً مختلفاً! كان له وجه أبناء الجنّ؛ ولذلك فإنّ تجاربه الطويلة مع المرايا علّمته كيف يتحكم بملامحه، كيف يبدو مرّة تشاؤمياً، ومرة شيطانياً، ومرة عاطفياً.. بإمالة من الرأس مثلًا، والتواءة في الشفاه، يصير الغجريُّ الفاسدُ رومانسياً لطيفاً! كانت أمّه "شيروكيّة" هنديّة حمراء أصليّة، ومنها ورث لون بشرته، اللون اليوديّ، والعينين القاتمتين الرطبتين، والشعر الأسود، الذي كان يحرص على إبقائه لامعاً، وكان من الغزارة بما يكفي لصنع سالفين وغرّة زلقة متناثرة. كانت مورّثات أمه ظاهرة عليه أكثر من مورّثات أبيه، الرجل الإيرلندي المنمش ذو الشعر الذي بلون الزنجبيل. وكأن الدم الهنديّ قد هزم تمامًا كل أثر للسلالة السلتيّة في دمه. مع ذلك، فإن الدم السلتي أكد حضوره من خلال الشفاه الوردية والأنف الأنيق، كما من خلال الطبع الحيوي الخبيث، والأنانية الإيرلندية المتغطرسة، التي غالباً ما تبث الحياة في القناع الشيروكي وتتولى السيطرة بالكامل حين يعزف بيري على الغيتار ويغني. وقد كان الغناء، وفكرة الغناء أمام جمهور، طريقة أخرى ساحرة في قتل الساعات. كان يستخدم دائماً المشهد الذهني عينه – ناد ليلي في لاس فيغاس، التي صادف أنها مسقط رأسه. وغرفة مرتبة مليئة بالمشاهير، يركزون بانتباه على النجم الجديد اللافت وهو يقدم نسخته الشهيرة من (I'll Be Seeing You) بمرافقة الفيولونات، تليها آخر أغنية ألّفها بنفسه:

في كلّ نيسان، أسراب الببّغاوات

تطير فوقنا؛ حمراء خضراء،

خضراء برتقاليّة..

أراها تطير، أسمعها في أعاليها:

ببّغاوات تغني جالبةً ربيع نيسان..

(عندما سمع دِك هذه الأغنية لأوّل مرة، علّق: "الببّغاوات لا تغني! قد تتكلم ربما، أو تصرخ. لكنها بالتأكيد لا تغني". بالطبع كان دِك حَرْفيًّا جداً، ليس لديه أدنى فهم للشعر والموسيقى. ومع ذلك، بإمعان التفكير في الأمر، يُمكن الخلوص إلى أن حَرْفية دِك، ومقاربته البراغماتيّة لأيّ موضوع، هي السبب الرئيسي في انجذاب بيري إليه! لأن ذلك يجعل دِك، مقارنة به، أصيلًا في صرامته، ومنيعًا، و"ذكوريًّا بالكامل")

رغم سحر حلم لاس فيغاس، فإنه غدا باهتاً أمام حلم آخر في خياله. فمنذ وصباه، وعلى امتداد سنوات يصل تعدادها إلى نصف عمره البالغ الآن 31 عاماً، استمرّ يرسل في طلب مطبوعات. ("غُصْ للكنوز! تدرّب في البيت خلال أوقات الفراغ" و"اجمع ثروة سريعة بالغطس الحُرّ!" و"كرّاسات مجانيّة"). يجيب أيضًا على الإعلانات. ("ثروة في أعماق البحر!" و"خمسون خارطة حقيقيّة!" و"عرض مذهل.."). هكذا تغذّى شوقه إلى تحقيق مغامرة أحلامه التي راح يحققها في خياله وحسب مراراً وتكراراً: حلم الانجراف في مياه غريبة، والغوص نحو ظلمة البحر الخضراء، ثم الانزلاق إلى ما بعد هذه الكائنات ذات الحراشف والعيون الوحشية التي تحمي هيكل السفينة الذي يلوح في الأمام: سفينة شراعيّة إسبانية كانت محمّلة باللؤلؤ والماس، وصناديق فائضة بالذهب.

سمع صوت بوق سيارة. وصل دِك أخيراً.

o o

"يا للهول، كينيون! لقم سمعتك!"

كالعادة، كان العفريت قد ركب كينيون فتابع تكرار صياحه الذي ارتفع إلى الطابق الثاني: "نانسي تلفون!".

ركضت نانسي نازلةً السلّم بقدمين حافيتين ولباس نوم. لم يكن في البيت سوى جهازَي تلفون: الأول في الغرفة التي يستخدمها أبوها كمكتب، والثاني في المطبخ. أجابت من جهاز المطبخ: "ألو؟ أوه، نعم، صباح الخير سيدة كاتز"

قالت السيدة كلارينس كاتز، زوجة المزارع الذي يسكن على الطريق الرئيسي: "أخبرت والدك كي لا يوقظك. قلت له لا بد أن نانسي متعبة بعد ذاك التمثيل المدهش الذي قامت به الليلة الماضية. كنت رائعة يا عزيزتي. تلك الشرائط البيضاء في شعرك! وذلك الجزء حين اعتقدت أن توم سوير ميت، كانت في عينيك دموع حقيقية. جميل مثل أي شيء في التلفزيون. ولكن أباك قال أنّه حان وقت استيقاظك؛ لا بأس، الوقت يقترب من التاسعة. الآن، كنت أريد يا عزيزتي.. ابنتي الصغيرة، صغيرتي جولين، إنها تموت لكي تصنع فطيرة كرز، ونظراً إلى أنك بطلة في صناعة فطيرة الكرز، ودائماً تربحين الجوائز، قلت في عقلي، هل يمكن أن أحضرها إلى بيتكم هذا الصباح كي تعلميها طريقة تحضيرها؟"

في الأحوال العادية، كانت سترغب نانسي في تعليم جولين إعداد عشاء كامل تتوسّطه دجاجة تركيّة ضخمة؛ كانت تشعر أن من واجبها أن تلبّي طلب البنات الأصغر سناً حين يردن أن تساعدهن في الطبخ

أو الخياطة أو دروس الموسيقى، أو، كما يحدث غالباً، أن يأتمنها على أسرارهن. لطالما وجدت الوقت لذلك، وتنجح مع هذا في "إدارة البيت الكبير"، وأن تبقى طالبة متفوّقة، ورئيسة صفّها، وقياديّة في برنامج فور- إتش، وفي عصبة الميثوديّين الشباب الدينيّة، فضلاً عن كونها فارسة ماهرة، وموسيقية ممتازة (بيانو وكلارينيت)، وفائزة سنوية في معرض المقاطعة (معجنات، مكاييس، أشغال بالإبرة، ترتيب زهور). كيف لفتاة لم تبلغ السابعة عشرة بعد أن تشيل بكل هذا الحمل، ودون "تباه"، وبالأحرى مع مرح مشرق؟ كان هذا لغزاً احتار فيه الناس، ووجدوا حلّه بالقول: "إنها تتحلّى بشخصيّة ورثتها عن أبيها". الأكيد أن خصلتها الأقوى، الموهبة التي أعطت الدعم لكل ما عداها، أخذتها من أبيها: إحساس حاد بالتنظيم. لكل لحظة وظيفتها؛ كانت تعلم بدقة، في أي ساعة ستقوم بأي عمل، وكم سيستغرق منها. وهذا هو سبب مشكلتها اليوم: كان ذلك ثقيلاً على ما هو مُقرّر. فقد التزمت من قبل بمساعدة ابنَ جيران آخرين، روكسي لي سميث، بالعزف المنفرد على الترومبيت، الذي كان روكسي سيؤديه في حفل في المدرسة؛ ووعدت أمها بأداء ثلاث مهمات معقدة؛ ورتبت لحضور اجتماع فور- إتش في غاردن سيتي مع أبيها. وبعد الاجتماع عليها أن تعدّ العشاء، وبعد العشاء، هناك عمل على فساتين مرافقات العروس من أجل عرس بفرلي، الفساتين التي صمّمتها وخاطتها بنفسها. وعلى هذا لا يوجد أي وقت لتعليم جولين فطيرة الكرز، ما لم يتم إلغاء شيء آخر.

"سيدة كاتز؟ هل يمكن أن تبقي على الخط لحظة، من فضلك؟"

سارت على طول البيت باتجاه مكتب أبيها. كان بابٌ سحّاب يفصل بين الرّدهة والمكتب الذي كان له مدخل خارجي من أجل الزوار

العاديين. ورغم أن السيد كلاتر كان يشارك المكتب أحياناً مع "جيرالد فان فليت"، الشاب الذي كان يساعده في إدارة المزرعة، فإن المكتب كان أساساً معتزلَه الخاص: محرابًا منظّمًا، مكسوًّا بقشر الجوز، وتحيط به بارومترات الأحوال الجويّة، ورسوم بيانيّة لكميّات الأمطار، وفيه منظار بعينين. كان يجلس كقبطان في حجرته، ملّاح يقود سفينة ريفر فالي في مرورها المحفوف بالخطر أحياناً، عبر الفصول.

"لا تبالي" قال، ردًّا على سؤال نانسي. "احتذي الفور- إتش. سوف أصطحب كينيون بدلاً منك".

وهكذا، رفعت نانسي تلفون المكتب، وقالت للسيدة كاتز: "نعم، لا بأس، أحضري جولين الآن". ولكنها وضعت السماعة بعد ذلك وعلى وجهها عبوس قائلةً: "هذا غريب!" وكانت قد نظرت في أرجاء المكان ورأت أباها يساعد كينيون في تعليق عمود جديد من الرسومات البيانيّة، بينما يجلس السيد فان فليت على مكتبه المجاور للنافذة مُلقيًا بنظرات مهمومة قاسية الطيبة، الأمر الذي قادها إلى أن تدعوه من وراء ظهره: هيثكليف[1].

"ولكني أشمّ دائماً رائحة دخان!"

سأل كينيون: "في تنفّسك؟"

"لا يا ظريف. في تنفّسك أنت!"

هذا الجواب ألزمه الصّمت، لأن كينيون، كما يعلم وتعلم هي، كان يسرق سحبة سيجارة من حين إلى حين، ولكن نانسي تفعل ذلك أيضاً، فبقي الأمر سرًّا.

---

(1) شخصية خيالية من رواية مرتفعات وذرينغ لإيميلي برونتي، يعتبر نموذج البطل الرومانسي المعذب الذي يدمره حبه الجارف ويدمر من حوله. م.

صفّق السيد كلاتر بيديه: "انتهينا. يا لهذا المكتب!"

الآن، في الطابق العلوي، غيّرت نانسي ملابسها وارتدت بنطال جينز "Levis" ذا لون باهت مع بلوزة خضراء، وثبّتت حول معصمها ثالث أغلى ممتلكاتها: ساعة ذهبية؛ صديقتها القطة "إيفينرود"، كانت أغلى من الساعة، والشيء الأغلى حتى من إيفينرود، كان خاتم بوبي -البرهان الثقيل على "التزامها"- الذي كانت تضعه (حين كانت تضعه؛ فهو بالكاد توهّج قبل أن ينطفئ) في الإبهام، لأنه بحجم رجاليّ ولا يمكن أن يناسب إصبعاً أخرى حتى باستخدام الشريط اللاصق. كانت نانسي حلوة، نحيلة، برشاقة صبيانيّة، وكان أجمل ما فيها شعرها الكستنائيّ اللامع بقَصّته القصيرة (تمشّطه بمئة ضربة فرشاة في الصباح، ومثلها في الليل) وبشرتها الصقيلة التي لا تزال تحمل نمشاً خفيفاً ولوناً بنياً-وردياً من أثر شمس الصيف الماضي. غير أن عينيها المتباعدتين الغامضتين بشفافيتهما، مثل بيرة يتخللها الضوء، هما السبب في أنها تدخل القلب مباشرة، فهما يُظهران نقاء سريرتها ولطفها الغامر الذي ينداح بيسر.

"نانسي!" صاح كينيون "سوزان على التلفون."

"سوزان كيدويل"، كاتمة أسرارها. مرّة ثانية ردت نانسي من المطبخ.

"قولي لي،" قالت سوزان، التي تبدأ دائماً جلسة التلفون بهذا الأمر "ومنذ البداية، قولي لي لماذا كنت تغازلين جيري روث!" جيري روث كان، مثل بوبي، نجم كرة سلّة في المدرسة.

"الليلة الماضية؟ يا إلهي، لم أكن أغازله. تقصدين أني كنت ممسكة بيده؟ كل ما في الأمر أنه جاء إلى الكواليس خلال العرض. وكنت قلقة. فأمسك يدي. ليشجعني."

"حسنٌ. وبعد ذلك؟"

"اصطحبني إلى فيلم سبوك. وشبكنا يدينا معاً"

"هل كان مخيفاً؟ أقصد الفيلم وليس بوبي."

"بوبي لم يجده كذلك؛ فقط كان يضحك. ولكنك تعرفينني. بووووو! وأسقط عن المقعد."

"ماذا تأكلين؟"

"لا شيء."

"أعرف.. تقضمين أظافرك،" قالت سوزان، وكان تخمينها صحيحاً.

حاولت نانسي كثيراً، ولكنها لم تستطع الإقلاع عن عادة قضم الأظافر، حالما تشعر بالقلق، فإنها تمضغ أظافرها حتى الجذور. "قولي لي. ما الأمر؟"

"لا شيء"

"نانسي! C'est moi ..." كانت سوزان تدرس اللغة الفرنسية.

"حسناً – إن الأمر يتعلق بأبي. إنه في مزاج بشع منذ ثلاثة أسابيع. بشع. على الأقل معي. حين عدت إلى البيت الليلة الماضية عاود فتح ذلك مرة ثانية."

"ذلك" لم تكن بحاجة إلى شرح. كانت موضوعاً ناقشته الصديقتان بالكامل، واتفقتا بشأنه. وذات مرة قالت سوزان، وهي تلخص المشكلة من وجهة نظر نانسي، "أنت تحبين بوبي الآن، وتحتاجينه. ولكن في قرارة النفس، حتى بوبي يعلم أن هذه العلاقة لا مستقبل لها. فيما بعد، حين نذهب بعيداً إلى مانهاتن، سيبدو لنا العالم جديداً." كانت الفتاتان قد خططتا للتسجيل في جامعة ولاية كانساس في مانهاتن كطالبات فنون، وللسكن معاً. "كل شيء

سيتغير، شئنا أم أبينا. لكنك لا تستطيعين تغييره الآن وأنت تعيشين في هولكومب، وترين بوبي كل يوم، وأنتم في الصف نفسه – ولا داعي لذلك أصلاً. لأنكما سعداء. وسيكون من الممتع أن تستذكري ذلك، إذا بقيت وحيدة. ألا يمكنك أن تقنعي أباك بهذا؟" كلا، لا تستطيع. "لأنها،" كما شرحت لسوزان، "حين أبدأ بقول أي شيء في الموضوع، ينظر إليّ كأنه يجب أن لا أحبه. أو كأنني أحببت أبي أقل. وفجأة ينعقد لساني؛ كل ما أريده هو أن أكون ابنته وأن أتصرف كما يشاء." لم يكن لدى سوزان ردّ على هذا الكلام، لأنه كلام يتعلق بمشاعر، بعلاقة، لا خبرة لها بها. فهي تعيش وحيدة مع أمها التي تدرس الموسيقى في مدرسة هولكومب، ولا تذكر أباها بوضوح، فمنذ سنوات، في مسقط رأسها في كاليفورنيا، ترك السيد "كيدويل" البيت ذات يوم ولم يعد.

"وفي كل حال،" تابعت نانسي، "لست متأكدة إذا كان موضوعي هو ما يجعله ضيق الخلق. هناك شيء آخر، إنه مضطرب البال بالفعل من شيء ما".

"من أمك؟"

لا أحد من أصدقاء نانسي كان يمكن أن يقدّم مثل هذا الافتراض. لكن سوزان كانت لها حظوة. أول ما جاءت إلى هولكومب، طفلةً حالمة وحزينة، ممشوقة القوام وشاحبة وحساسة، كانت في الثامنة من عمرها، أكبر بسنة من نانسي؛ تبنتها عائلة كلاتر بحماس وسرعان ما غدت الطفلة اليتيمة الأب القادمة من كاليفورنيا واحدة من أفراد العائلة. سبع سنوات لم تنفصل الفتاتان عن بعضهما، لم يكن لأي منهما أن تتخلى عن الأخرى، بسبب ندرة وجود حساسية مشابهة ومساوية لحساسيتهما. لكن في سبتمبر/ أيلول الماضي، انتقلت

سوزان من المدرسة المحلية إلى مدرسة في غاردن سيتي؛ مدرسة أكبر ويفترض أنها أعلى مستوى. هذا إجراء معتاد لدى طلاب هولكومب الذين يريدون دخول الجامعة، غير أن السيد كلاتر، النصير العنيد للمجتمع المحلي، كان يرى في هذه الانشقاقات إهانة لروح المجتمع؛ مدرسة هولكومب كانت جيدة بما يكفي بالنسبة لأولاده، وسيبقون فيها. وهكذا انفصلت البنتان، وشعرت نانسي عميقاً بغياب صديقتها طوال اليوم، الشخص الوحيد الذي لا تحتاج أن تكون معه لا شُجاعة ولا مُتحفّظة.

"لكننا جميعاً سعداء بشأن الماما – سمعتِ الأخبار الرائعة."

ثم قالت نانسي: "اسمعي،" وترددت، كما لو أنها تستجمع قواها لقول ملاحظة مخزية. "لماذا أشم دائماً رائحة دخان؟ بصدق، أعتقد أنني أفقد عقلي. أصعد السيارة، أمشي في الغرفة، أشم دائماً رائحة الدخان، كما لو أن أحداً ما كان هناك يدخن سيجارة. ليست أمي، ولا يمكن أن يكون كينيون. كينيون لا يجرؤ.."

كما لا يمكن أن يكون أحد زوار بيت كلاتر، البيت الذي كان خالياً تماماً من منافض السجائر. أدركت سوزان، ببطء، ما تقصده نانسي، لكنه كان أمراً مضحكاً. فبصرف النظر عن أسباب قلقه الخاص، لا يمكنها أن تصدق أن السيد كلاتر وجد عزاء سرياً في الدخان. وقبل أن تتمكن من سؤال نانسي إن كانت تقصد هذا حقاً، بادرتها نانسي: "آسفة سوزي. يجب أن أذهب. وصلت السيدة كاتز."

o o

كان دِك يقود سيارة شيفرولية سيدان سوداء موديل 1949. حين صعد بيري إليها، تفقد المقعد الخلفي ليطئمن إذا كان غيتاره

سليماً؛ في الليلة الماضية، بعد أن عزف لحفل من أصدقاء دِك، نسي الغيتار في السيارة. كان غيتار جيبسون قديم، مصقول ومغطى بالشمع حتى أصبح لونه أصفر عسلياً. وإلى جانب الغيتار، كانت توجد أداة أخرى – بندقية بومب أكشن عيار 12، من الماركة الجديدة، الماسورة الزرقاء، مع مشهد رياضي محفور على جذع البندقية لطيور تدرج طائرة. مصباح يدوي، سكين صيد، زوج من كفوف جلدية، سترة صيد مليئة بالصدف التي ساهمت في إضفاء المزيد من الجو على هذه الحياة الغريبة الأطوار.

"أنت تلبس هذه؟" سأل بيري وهو يشير إلى السترة.

طرق دِك بأصابعه على زجاج المحل. تك، تك. عذراً يا سيد. كنا في رحلة صيد وأضعنا الطريق. إذا كان يمكن أن نستعمل الهاتف ..."

".Si, señor. Yo comprendo"

"شيء بسيط،" قال دِك. "أعدك يا حبيب، سنطرش الكثير من الشَّعر على تلك الجدارات!"

"تلك الجدران،" صحّح بيري. وكان بيري، المغرم بالقواميس، المحب للكلمات الغامضة، ينوي تقوية صديقه بقواعد اللغة، وإغناء مخزونه من المفردات، منذ أن أقاما معاً في إصلاحية ولاية كانساس. ولم يكن التلميذ يكره هذه الدروس، على العكس من ذلك، ومن أجل إسعاد معلمه، ألّف ذات مرة مجموعة قصائد، ورغم أن هذه القصائد كانت فاحشة، فإن بيري، الذي رآها مع ذلك مرحة، جعل للمخطوطة غلافاً من الجلد، في متجر السجن، ووضع عليه العنوان، مدموغاً بالذهب، نكات قذرة.

كان دك يرتدي بدلة زرقاء، وعلى ظهرها دعاية (بوب ساندز بودي شوب)، مكتوبة بالخياطة. قاد السيارة، هو وبيري، على طول

الطريق الرئيسي إلى أولاث، حتى بلغا مؤسسة بوب ساندز، كراج لتصليح السيارات، حيث يعمل دك منذ إطلاق سراحه من الإصلاحية في منتصف أغسطس/آب. إنه ميكانيكي جيد، يكسب ستين دولارًا في الأسبوع. لم يكن يستحق أي راتب لقاء العمل الذي خطط القيام به هذا الصباح، لكن السيد ساندز، الذي كان يترك له المسؤولية أيام السبت، لن يعرف أبداً أنه دفع لأجيره من أجل ترميم سيارته الخاصة. فبمساعدة بيري، ذهب دك للعمل. غيّرا الزيت، أصلحا الدبرياج، شحنا البطارية، استبدلا الدوّاسات، استبدلا الدولابين الخلفيين بدولابين جديدين، وكل الأشياء اللازمة، لأنه خلال اليوم وغد، من المتوقع أن تقوم سيارة الشيفرولية العتيقة بأعمال شاقة.

"لأن العجوز كان بجانبي"، قال دك، مجيباً على بيري الذي أراد معرفة سبب تأخره عن الموعد في مطعم ليتل جويل. "لم أشأ أن يراني أصطحب البندقية من البيت. وإلا فإنه سوف يتعلم أنني أكذب."

"(سوف يعلم). ولكن ماذا قلت له أخيراً؟"

"كما قلنا. قلت سنذهب حتى صباح اليوم التالي – قلت سنذهب لزيارة أختك في فورت سكوت. على أساس أنها تحمل نقوداً لك. ألف وخمسمئة دولار." كان لبيري أخت، وكان له من قبل أختان، لكن الأخت التي بقيت على قيد الحياة لم تسكن في فورت سكوت، وهي مدينة في كانساس تبعد 85 ميلاً عن أولاث؛ الحقيقة إنه لم يكن واثقاً من عنوانها الحالي.

"هل انزعج؟"

"لماذا سينزعج؟"

"لأنه يكرهني،" قال بيري، الذي كان صوته لطيفاً وصارماً في

الوقت نفسه – صوت يصنع، رغم نعومته، كل كلمة بدقة، ويلفظها كحلقة دخان تخرج من فم كاهن. "كذلك أمك لا تحبني. كنت أستطيع أن أرى الطريقة التي لا توصف التي ينظرون بها إلي."

رفع دك كتفيه. "لا يتعلق الأمر بك. ليس كما تقول. هم فقط لا يحبون أن يكون لي علاقة مع أي شخص من السجن." دك رجل متزوج مرتين ومطلق مرتين، عمره الآن 28 سنة وأب لثلاثة أولاد، وقد أفرج عنه بشرط ان يسكن مع والديه؛ العائلة التي تضمّ أخاً أصغر، تعيش في مزرعة صغيرة قرب أولاث. "أي شخص يحمل علامة الأخوية،" أضاف، ولمس بقعة زرقاء موشومة تحت عينه اليسرى – رمز، كلمة سرية مرئية، يمكن من خلالها لزميل سجن سابق أن يتعرف عليه.

"مفهوم،" قال بيري. "أنا أتعاطف مع هذا الحرص. هم أناس طيبون. أمك امرأة لطيفة حقاً."

أومأ دك برأسه موافقاً؛ هو يعتقد ذلك أيضاً.

عند الظهيرة أنهيا صيانة السيارة، وكان دك، الذي راح يسرّع دوران المحرك مصغياً إلى الهمهمة المتسقة، راضياً عن إنجاز هذا العمل الدقيق.

○ ○

كما كانت نانسي وتلميذتها، جولين كاتز، راضيتين أيضاً عن عملهما الصباحي؛ بالفعل كانت جولين، النحيلة ذات الثلاثة عشر عاماً، ممتلئة بالفخر. حدقت لأطول فترة بالشّريط الأزرق، والكرز الذي يُطبخ في الفرن الحار تحت القشرة الشبكيّة الهشّة، ثم امتلأت بالبهجة، واحتضنت نانسي وسألتها، "بصدق، هل أنا حقاً صنعتها بنفسي؟" فضحكت نانسي، واحتضنتها بالمقابل، وأكدت لها أنها هي التي صنعتها، مع قليل من المساعدة.

ألحت جولين على أن يتذوقا الفطيرة حالاً – كلا من غير المعقول أن نتركها تبرد. "رجاء، لتأخذ كل واحدة منا قطعة. وأنت أيضاً،" قالت للسيدة كلاتر، التي كانت قد جاءت إلى المطبخ. ابتسمت السيدة كلاتر، حاولت أن تأخذ قطعة؛ كان رأسها يؤلمها، قالت شكراً، ولكن لم تكن لديها الشهية. أما بالنسبة لنانسي فلم يكن لديها الوقت؛ ينتظرها روكسي لي سميث، والعزف المنفرد لروكسي لي على الترومبيت، وبعد ذلك المهمات التي وعدت بها والدتها، إحدى هذه المهمات تتعلق بحمام العرس الذي كانت بعض بنات غاردن سيتي ينظمنه من أجل عرس بفرلي، وواحدة أخرى تتعلق بحفل عيد الشكر.

"اذهبي يا عزيزتي، أنا سأبقى برفقة جولين حتى تأتي أمها،" قالت السيدة كلاتر، ثم أضافت، متوجهة إلى الطفلة يغلبها الخجل، "إذا كانت جولين لا تمانع رفقتي." في طفولتها كانت السيدة كلاتر قد حازت على جائزة الخطابة؛ يبدو أن البلوغ قد ردّ صوتها إلى طبقة واحدة، طبقة الاعتذار، كما ردّ شخصيتها إلى سلسلة من الإيماءات المشوبة بالخوف من أن تسيء أو تثير الاستياء بشكل ما. "أرجو أن تتفهمي،" قالت بعد أن غادرت ابنتها. "أرجو أن لا تظني أن نانسي فظة."

"يا إلهي، لا. أنا أحبها حتى الموت. الجميع يحبها. لا يوجد أي شخص مثل نانسي. هل تعلمين ماذا تقول السيدة ستينغر؟" قالت جولين مشيرةً بالاسم إلى معلمة الاقتصاد المنزلي. "ذات يوم قالت للطلاب: نانسي كلاتر دائماً في عجلة من أمرها، لكنها دائماً لديها الوقت.. وهذه إحدى مواصفات السيدة.)"

"نعم،" أجابت السيدة كلاتر. "كل أولادي بارعون جداً. ليسوا في حاجة لي."

هذه أوّل مرة تكون فيها جولين وحيدة مع أم نانسي، هذه الأم "الغريبة"، ولكن رغم الحديث الذي سمعته، فإنها كانت تشعر بالراحة، لأن السيدة كلاتر، رغم أنها قلقة في داخلها، فإن لديها طبعاً مريحاً، كما هو عموماً طبع الأشخاص المسالمين الذين لا يشكلون تهديداً؛ حتى في جولين، الطفلة البريئة، فإن وجه السيدة كلاتر التبشيري والشبيه بشكل القلب، ونظرتها الأثيرية الصوفية المغلوبة، أثارت فيها عاطفة الحماية. أما أن تفكر أنها أم نانسي! الأقرب إلى الذهن أن تكون عمّة؛ عمّة عانس زائرة، غريبة بعض الشيء، ولكنها لطيفة.

"كلا، إنهم ليسوا بحاجة لي،" كررت السيدة كلاتر، وهي تصب لنفسها كوباً من القهوة. رغم أن كل أفراد العائلة كانوا يعرفون مقاطعة زوجها لهذا المشروب، فقد كانت تشرب كوبين كل صباح، وغالباً لا تأكل شيئاً آخر طوال اليوم. كانت تزن 98 باوند (45 كيلوغرام)؛ وكانت الخواتم – خاتم الزفاف وطقم واحد مع ألماسة متواضعة إلى درجة الخنوع – تتحرك بحرية في إحدى يديها الهزيلتين.

قطعت جولين قطعة من الفطيرة. "واه!" قالت ثم تناولتها بنهم. "سأصنع واحدة منها كل يوم لسبعة أيام في الأسبوع!"

"صحيح، لديك كل هؤلاء الأخوة الصغار، والأطفال يمكنهم أن يأكلوا الكثير من الفطائر. السيد كلاتر وكينيون، أنا أعرف أنهم لا يملون أبداً من الفطائر. ولكن الطاهية تمل – نانسي تكتفي برفع أنفها. وسيكون الأمر كذلك معك. لا، لا – لماذا أقول هذا؟" نزعت السيدة كلاتر نظّاراتها التي بلا إطار، وضغطت على عينيها. "اغفري لي يا عزيزتي. أنا واثقة أنكِ لن تدركي أبداً ماذا يعني أن تكوني مرهقة. أنا واثقة أنك ستبقين سعيدة .."

كانت جولين صامتة. طبقة الرعب في صوت السيدة كلاتر أحدثت انزياحاً في مشاعرها؛ اضطربت وتمنت أن تأتي أمها، التي وعدت أن تتصل من أجلها في الحادية عشرة.

بعد قليل، وبهدوء أكثر، سألت السيدة كلاتر، "هل تحبين المنمنمات؟ الأشياء الناعمة؟" ودَعت جولين إلى غرفة الطعام لاستعراض رفوف الخزانة التي رتبت فيها مختلف الأشياء التافهة الصغيرة – مقصات، كشتبانات، سلال من أزهار كريستالية، تماثيل ألعاب، شوك وسكاكين. "بعض هذه الأشياء أحتفظ بها منذ طفولتي. البابا والماما - كلنا – كنا نذهب معظم السنين إلى كاليفورنيا. على المحيط. وكان هنالك محل يبيع مثل هذه الأشياء الصغيرة النفيسة. هذه الفناجين." كانت مجموعة من فناجين بيت الدمى، مثبتة على صينية صغيرة جداً، ترتجف على راحة يدها. "هذه من البابا؛ كانت طفولتي سعيدة."

كانت الابنة الوحيدة لمزارع قمح ناجح يدعى فوكس، وكانت الأخت المحبوبة لثلاثة أخوة أكبر منها سناً، لم تكن مدللة إلى حد الفساد، بل كانت محمية، وهذا جعلها تفترض أن الحياة سلسلة من الأحداث الهانئة – الخريف في كانساس، الصيف في كاليفورنيا، طقم فناجين شاي هدية. عندما بلغت الثامنة عشرة، وبتأثير من سيرة حياة فلورانس نايتنغيل[2]، سجلت كطالبة تمريض في مستشفى "سانت روز" في "غريت بيند"، كانساس. لم يكن الغرض أن تصبح ممرضة، وقد

(2) ممرضة بريطانية خلال حرب القرم فيما بين 1854 و1856. ولدت في بلدة فلورنسا بإيطاليا عام 1820 وكانت من عائلة بريطانية غنية تؤمن بتعليم المرأة. تعتبر على نطاق واسع مؤسسة التمريض الحديث. م.

اعترفت هي بذلك بعد عامين: "حياة المستشفى – المناظر والروائح – تمرضني". ومع ذلك فإنها تندم إلى اليوم لأنها لم تكمل دراستها وتستلم الشهادة. "فقط كي أثبت أنني نجحت مرة في شيء ما،" كما قالت لإحدى صديقاتها. بدلاً من الدراسة، قابلت هيرب وتزوجت منه، وهو زميل صف لأخيها البكر "غلين"؛ الحقيقة، إنها كانت تعرف هيرب شكليًّا وحسب منذ زمن، لأن مساكن العائلتين لم تكن تبعد عن بعضها أكثر من عشرين ميلاً. على أن عائلة كلاتر، أهل المزارع البسطاء، لم يكونوا من زوّار عائلة فوكس المثقفين والموسرين، ولكن كان هيرب وسيماً، وورعاً، وقوي الإرادة. لقد رغب بها، وعشقته.

"السيد كلاتر يسافر كثيراً،" قالت لجولين. "أوه، دائماً يتوجه إلى مكان ما. واشنطن وشيكاغو وأوكلاهوما وكانساس سيتي – أحياناً يبدو أنه لا يركن في البيت. ولكن أينما ذهب، يتذكر كم أنا مغرمة بالأشياء الناعمة." فرشت مروحةً ورقيّة صغيرة. "جلب لي هذه من سان فرانسيسكو. ثمنها بنس واحد. ولكن أليست جميلة؟"

في السنة الثانية من الزواج، ولدت إيفانا، وبعد ذلك بثلاث سنوات ولدت بفرلي؛ وبعد كل ولادة كانت الأم الشابة تعاني من قنوط غير مفسر – نوبات من الغمّ تجعلها تتنقل بين الغرف في ذهول محيّر.

بين ولادة بفرلي ونانسي مرت ثلاث سنوات، كانت هذه سنوات النزهات أيام الأحد، ورحلات الصيف إلى كولورادو، السنوات التي كانت هي حقاً تدير بيتها وكانت مركز السعادة فيه. ولكن مع ولادة نانسي ثم كينيون، تكرر نموذج اكتئاب ما بعد الولادة، وبعد ولادة الابن، هبط عليها مزاج بائس لم تبرأ منه بشكل كامل أبداً؛ كانت تتسكع مثل غيمة قد تمطر وقد لا تمطر. عرفت "أياماً طيبة،" وأحياناً كانت تمتد الأيام

إلى أسابيع أو شهور، ولكن حتى في أفضل الأيام الطيبة، تلك الأيام حين كانت شيئاً مختلفاً عن "ذاتها القديمة،" عن بوني الساحرة الرقيقة التي تعزّها صديقاتها، لم تستطع استجماع الحيوية الاجتماعية التي تحتاجها أنشطة زوجها المتزايدة. كان زوجها "شخصاً اجتماعياً"، "قائداً بالفطرة"، أما هي فلم تكن كذلك، وكفت عن محاولة أن تكون كذلك. وهكذا، على ممرّات مزينة بالمراعاة اللطيفة، وبالإخلاص التام، بدآ يسيران على طريقين منفصلين تقريباً – طريقه هو طريق عام، مَسيرة من الفتوحات المُرضية، وطريقها خاص ينتهي متعرجاً في أروقة المستشفيات. لكنها لم تكن بلا أمل. إيمانها بالله كان يشد من أزرها، ومن حين لآخر، تجد بعض الينابيع الدنيوية التي تغذّي إيمانها برحمته القادمة؛ كأن تقرأ عن معجزة طبيّة، أو تسمع عن علاج جديد، أو، مؤخّراً، قررت أن تصدّق أن مشكلتها تكمن في "عَصَب مضغوط".

"الأشياء الصغيرة تكون لك حقاً،" قالت وهي تضمّ مروحة اليد الورقيّة. "لا تضطرين إلى تركها خلفك. يمكنك حملها حتى في علبة حذاء!"

"تحملينها إلى أين؟"

"يعني، أينما ذهبت. قد يرحل المرء لوقت طويل."

قبل بضع سنوات، سافرت السيدة كلاتر إلى "ويتشيتا" لأسبوعين من أجل العلاج، بقيت هناك لشهرين. وبناء على نصيحة طبيب اعتقدَ أن التجربة سوف تعينها على استرجاع "الشعور بالكفاءة والمنفعة،" أخذت شقّة، ثم وجدت عملاً كموظفة ملفات في Y.W.C.A. الزوج، المتعاطف جداً، شجع هذه التجربة، وهي أحبتها كثيراً أيضاً، إلى حدّ بدا لها الأمر مخالفًا للمسيحية، وهكذا فإن شعور الذنب الذي تطوّر لديها في النهاية تفوّق على القيمة العلاجية للتجربة!

"وقد لا تعودين إلى البيت أبداً. لذلك فمن الأهميّة بمكان أن يكون معك دائماً شيء يخصّك. شيء لك حقاً."

رن جرس الباب. كانت أم جولين.

"إلى اللقاء، عزيزتي،" قالت السيدة كلاتر ووضعت المروحة الورقية في يد جولين. "إنها مجرد شيء ببنس واحد، ولكنها جميلة."

بعد ذلك بقيت السيدة كلاتر وحيدة في البيت. فقد ذهب كينيون والسيد كلاتر إلى غاردن سيتي؛ وجيرالد فان فليت كان قد غادر لهذا اليوم؛ ومدبرة المنزل، السيدة "هيلم" المباركة، التي يمكن أن تأتمنها على أي شيء، لا تأتي للعمل أيام السبت. يمكنها أن تعود إلى السرير - السرير الذي نادراً ما تغادره، فتضطر السيدة هيلم إلى خوض معركة معها لتعطيها فرصة من أجل تغيير الأغطية مرتين في الأسبوع.

توجد أربع غرف نوم في الطابق العلوي، وكانت غرفتها في نهاية الإيوان، الذي كان فارغاً سوى من سرير طفل، اشتروه من أجل زيارات حفيدها. وبحسب تقديرات السيدة كلاتر، فإن هذا الإيوان يكفي لاستيعاب 20 ضيفاً خلال عطلة عيد الشكر، إذا جلبوا أسرّة معسكرات؛ يمكن لبقيّة الضيوف أن يناموا في النُزل أو عند الجيران. عيد الشكر بالنسبة لعائلة كلاتر الكبيرة مناسبة سنويّة للاجتماع، وكان هيرب هو المُضيف هذه السنة، وهكذا لا بد من القيام بالواجب، غير أن هذا تصادَف مع الاستعدادات من أجل زفاف بفرلي، الأمر الذي جعل السيدة كلاتر يائسة من نجاح أي من المشروعين. كلاهما يحتاج إلى اتخاذ قرارات – وهو الشيء الذي تكرهه دائماً، والذي تعلمت أن تخافه، لأنه عندما يغيب زوجها في رحلة عمل، تقع على كاهلها دائماً مهمة تقديم تقييمات سريعة تتعلق بشؤون المزرعة، ولم تكن تحتمل

ذلك، كان عذاباً. ماذا لو أخطأت؟ ماذا لو أن قرارها لم يرق لهيرب؟ الأفضل أن تُغلق باب غرفة النوم وأن تتظاهر بأنها لا تسمع شيئاً، أو أن تقول، كما تفعل أحياناً، "لا أستطيع. لا أعرف. رجاء."

الغرفة التي نادراً ما تغادرها كانت متقشفة؛ بترتيب سريرها فقط [أي بإخفاء أثر الحركة/الحياة الوحيد في الغرفة] يمكن لأيّ زائر أن يعتقد بأن الغرفة مهجورة؛ سرير من خشب السنديان، ومكتب مغطّى بقشر الجوز، وطاولة جانبية – ولا شيء آخر سوى المصابيح، ونافذة تغطيها ستارة، ورسم للمسيح وهو يمشي على الماء. كما لو أنها بمحافظتها على الطابع غير الشخصيّ لهذه الغرفة، كأنها بتركها أشياءها الأنيسة وسط أشياء زوجها (لا في غرفتها)، فإنها تخفّف من إساءتها له بعدم مشاركتها غرفته. الدُّرج الوحيد المستخدم في المكتب يحوي مرهم فيكس للتدليك، ومناديل كلينكس، ووسادةً تُدفأ بالكهرباء، وعددًا من قمصان النوم البيض، وجوارب قطنية بيضاء. ترتدي زوْجاً من هذه الجوارب في السرير دومًا، لأنها تشعر بالبرد طوال الوقت. وللسبب نفسه، فإنها تترك النافذة مغلقة. في الصيف قبل الماضي، خلال يوم أحد قائظ من شهر أغسطس/آب، حين كانت منعزلة هنا، وقعت حادثة قاسية. كان لديهم ضيوف؛ حفلة أصدقاء تمت دعوتهم إلى المزرعة لقطف التوت، ومن بينهم "ويلما كيدويل"، والدة سوزان. ومثل معظم الناس الذين تستضيفهم عائلة كلاتر، قبِلَت السيدة كيدويل بغياب المضيفة دون تعليق، وافترضت، كما هي العادة، أن تكون إما "متوعكة صحياً" أو في ويتشيتا للعلاج. على كل حال، حين جاءت ساعة الذهاب إلى بستان الفواكه، رفضت السيدة كيدويل الذهاب؛ فهي تربية مدينة، وتتعب بسهولة، لذلك فضلت أن تبقى في الداخل.

فيما بعد، بينما هي تنتظر عودة قاطفي التوت، سمعت صوت بكاء من قلب مكسور يكسر القلب. "بوني؟" نادت، وصعدت راكضة إلى الطابق العلوي، وركضت عبر الإيوان إلى غرفة بوني. وحين فتحت الغرفة، كانت الحرارة المتجمعة داخل الغرفة مثل كفٍّ مفاجئة مُربعة غطّت فمها؛ فهرعت لفتح النافذة. "لا!" صرخت بوني. "أنا لا أشعر بالحر. أنا بردانة. أنا أتجمد. يا إلهي، يا إلهي!" لوحت بيديها. "أرجوكِ، يا إلهي، لا تدعي أحداً يراني على هذا الشكل." جلست السيدة كيدويل على السرير؛ أرادت أن تحضن بوني بذراعيها، وفي النهاية سمحت لها بوني أن تحضنها. "ويلما،" قالت، "كنت أصغي إليكم، ويلما. كلكم، تضحكون وتستمتعون بوقتكم. أنا في عداد المفقودين في كل شيء. أحلى السنوات، الأطفال – كل شيء. بعد فترة قصيرة، حتى كينيون سوف يكبر ويصبح رجلاً. كيف سيتذكرني؟ سيتذكرني كأنني شبح، ويلما!"

الآن، في هذا اليوم الأخير من حياتها، علّقت السيدة كلاتر في الخزانة الفستانَ البيتيّ القطنيّ الذي كانت تلبسه والمصنوع من خامة الشّيت، وارتدت أحد قمصان نومها الطويلة، وزوجًا جديدًا من الجوارب البيضاء. ثم، وقبل أن تأوي إلى سريرها، بدّلت نظارتها العادية بنظارة للقراءة. ورغم أنها كانت مشتركة في العديد من المجلات (البيت للسيدات، مختار ماكال، ومعاً: مجلة نصف شهرية للعائلات الميثودية)، فإنه لم يكن أحدها على المنضدة بجانب السرير، بل كان هناك الكتاب المقدس فقط، وبين صفحاته مؤشّر قراءة؛ قطعة صلبة من الحرير المموّج وقد طُرز عليها تذكير يقول: "انظروا واسهروا وصلّوا، لأنكم لا تعلمون متى يحين الوقت."

٥ ٥

لم يكن ثمة الكثير مما يجمع هذين الشابين، لكنهما لم يدركا ذلك، لأنهما يشتركان في عدد من الصفات السطحيّة. كلاهما، مثلاً، كان أنيقًا، شديد الاهتمام بالنظافة وشكل الأظافر. بعد صباحهما الميكانيكيّ ذاك، أمضيا حوالي الساعة يرتبان نفسيهما في تواليت الكراج. دِك مرتديًا سرواله الداخلي فقط لا يشبه دِك مرتديًا لباسه الكامل. في هذه الحالة الأخيرة، يبدو شاباً أشقر كَدِر ضعيف، متوسّط الطول، هزيلًا وربما ذا صدر غائر؛ أما إذا خلع ملابسه فإنه يبدو بصورة مغايرة تماماً، إنه يبدو بالأحرى رياضياً قوي البِنية من الوزن المتوسط. يغطّي يده اليمنى وشم على شكل وجه قطٍّ أزرق مكشّر؛ وعلى إحدى كتفيه وردة زرقاء متفتّحة. هناك المزيد من العلامات التي صمّمها ونفّذها بنفسه، تزيّن ذراعيه وجذعه: رأس تنين بين فكّية المفتوحية جمجمة إنسان؛ ونساء عاريات بصدور عامرة؛ وشبح يلوح بمذراة، وكلمة "السّلام" مع صليب مشعّ مرسوم بشكل بدائي، وأشعة من ضوء مقدّس، واختلاقين وجدانيين – باقة زهور مهداة إلى "أبي وأمي"، والآخر قلب يحتفل بحب دِك وكارول؛ الفتاة التي تزوّجها حين كان في التاسعة عشرة، وانفصل عنها بعد ست سنوات لكي "يفعل الشيء الصحيح" مع امرأة أخرى، أمّ أصغر أبنائه. ("لديّ ثلاثة أولاد سأعتني بهم بالتأكيد،" كتبّ في طلب إطلاق سراحه المشروط. "زوجتي تزوجت مجدداً. أنا تزوّجت مرتين، فقط لا أريد التعامل مع زوجتي الثانية.")

ولكن لا جسم دِك ولا معرض الوشوم الذي يزيّنه كانا يتركان في المرء انطباعاً مؤثّراً كالانطباع الذي يتركه وجهه! فهو يبدو مركّباً من أجزاء غير متناسقة. يبدو كما لو أن رأسه كان مقسوماً إلى نصفين كتفاحة، ثم جُمع النصفان دون مطابقة تامّة. حدث شيء من هذا.

فالملامح غير المتطابقة تماماً، كانت نتيجة حادث سيارة في 1950 – الحادث تسبب في ميلان فكّه الطويل ووجهه الضيق بحيث أصبح الجانب الأيسر أدنى من الأيمن، والمحصلة أن الشفتين انحرفتا قليلاً، مع اعوجاج في الأنف، أما العينان فقد باتتا مختلفتين في مستوى التوضع وفي الحجم أيضاً، والعين اليسرى تبدو ملتوية مع حَوَل حَقود أزرق سَقيم، ورغم أن هذه الحال مكتسبة رغماً عنه، إلا أنها مع ذلك تشير إلى الراسب المرّ الكائن في قاع طبيعته. ولكن بيري قال له، "العين لا تهمّ. لأن لديك ابتسامة رائعة. هي من نوع الابتسامات التي تؤثّر حقاً." الحقّ أن الابتسامة بفعلها الشادّ لعضلات الوجه، تقلّصه، فيستعيد تناسبه الصّحيح، وتجعل من الممكن رؤية شخصيّةٍ أقل إثارة للأعصاب – تجعله "ولدًا جيّدًا" من النمط الأمريكيّ، بقصّة شعر قصيرة قد تجاوزها عمره، وعاقل بما يكفي، ولكنه ليس ذكياً جداً. (الحقيقة إنه كان ذكياً. في اختبار الذكاء الذي أُجري في السجن، حقّق 130؛ المتوسط في السجن وخارجه، يقع بين 90 و110.)

بيري أيضاً كان مشوّهاً، إصاباته الناجمة عن حادث دراجة نارية كانت أشد من إصابات دِك؛ فقد قضى نصف سنة في مشفى في ولاية واشنطن، وستة أشهر أخرى على العكازات، ورغم أن الحادث وقع في 1952، فإن ساقيه القزمتين المكتنزتين، اللتين تعرضتا للكسر في خمسة أماكن وباتتا مليئتان بالندوب، لا زالتا تؤلمانه بشدة إلى حد أنه أصبح مدمناً على الأسبرين. وفي حين أنه يحمل من الوشوم أقل من صديقه، إلا أن وشومه كانت أكثر تعقيداً – ليست عملاً فرديًا يقوم به هاوٍ، بل أعمال فنيّة لفنانين من هونولولو وأوكلاهوما. يحمل على ذراعه اليمنى وشماً باسم **كوكي**، الممرضة التي كانت وَدودة معه عندما

كان في المستشفى. وعلى ذراعه اليسرى يحمل وشماً لنمر يزأر، بفرو أزرق وعين برتقالية وأنياب حمراء؛ وآخر لثعبان ينفث السّم، يلتف حول خنجر وينزلق إلى أسفل ذراعه؛ وفي مكان آخر جماجم تلمع، وشاهدة قبر منبلجة بالضوء، وأقحوانة متفتحة.

"لا بأس يا حلو، ضَع المشط جانباً،" قال دِك، الذي بات مرتدياً ملابسه وجاهزاً للانطلاق، بعد أن خلع عنه بدلة العمل، وارتدى بنطال كاكي رماديًا، وقميصاً مناسباً، وحذاءً أسود بكعب عال، مثل بيري، ولكن الأخير لم يكن بإمكانه أن يجد بنطالاً يناسب نصفه السفليّ المشوّه، فقد ارتدى بنطال جينز أزرق ملفوف من تحت، وسترة واقية من الجلد. خرجا صوب السيارة، نظيفين، مسرّحي الشعر، أنيقين كرجلين ينطلقان إلى موعد مع معشوقتين.

٥ ٥

تبلغ المسافة بين أولاث، وهي ضاحية من كانساس سيتي، وهولكومب، التي يمكن اعتبارها ضاحية من غاردن سيتي، حوالي أربعمئة ميل.

بدأت غاردن سيتي، المدينة التي تضم اثني عشر ألف نسمة، تجمع مؤسّسيها مباشرة بعد الحرب الأهلية. الصيّاد الجوّال لجواميس البوفالو، السيّد سي جي (بوفالو) جونز، كان لديه الكثير ليفعله في توسّع المدينة من مجموعة أكواخ ومرابط حيوانات إلى مركز ممتاز لتربية المواشي، وذي صالونات نشطة صاخبة، ودار أوبرا، وأفخم فندق بين كانساس سيتي ودينفر – باختصار، هي عيّنة من الفخامة الرائدة التي كانت تنافس مستعمرةً أكثر شهرة تقع على بعد 50 ميلاً إلى الشرق، دودج سيتي. وإلى جانب بوفالو جونز، الذي خسر نقوده

ثم عقله (قضى السنوات الأخيرة من عمره يحاضر في الناس في الشارع ضد الإبادة الوحشية للحيوانات، وكان قد جمع ثروةً طائلة من ذبح هذه الحيوانات)، فإن سحر وروعة الماضي باتت اليوم مدفونة. وقد بقيت بعض التذكارات: نَسَقٌ ملوّن متواضع من الأبنية التجاريّة المتجاورة عُرفت بمجمّع بوفالو، وفندق ويندسور الذي كان يومًا ما بديعًا، مع بهوه الذي كان فيما مضى فخمًا بسقفه العالي وما يضمّ من مباصق وشجيرات نخيل في أصصْ، والذي يتوسّط بعض المخازن والمحلات التجارية بوصفه علامة بارزة في الشارع الرئيسي - غرف فندق ويندسور المظلمة الواسعة، وممراته التي تردد الصدى، والتي تحرض الذكريات، لا تستطيع في هذا الحال منافسة المرافق المكيّفة التي يقدّمها فندق وارن الصّغير الأنيق، أو نُزل ويت لاندز الذي يحوي أجهزة تلفزيون فرديّة و"مسبح ماء ساخنة".

كل من عبر أميركا من السّاحل إلى الساحل، سواء بالسيارة أو بالقطار، ربما مر بغاردن سيتي، ولكن من المنطقي القول إن القليل من المسافرين يتذكر مروره بها. فهي لا تبدو أكثر من مدينة متوسطة الحجم تقع في وسط قارّة الولايات المتحدة، في الوسط تماماً تقريباً. على أن السكان هنا لن يتحملوا مثل هذا الكلام، وربما كانوا على حق. رغم أن بعضهم قد يبالغ في الأمر ("في كل العالم لن تجد شعباً أكثر وداً، أو هواء أعذب، أو ماء شرب ألذ، من هنا" و"يمكنني أن اذهب إلى دنفر وأقبض راتباً مضاعفاً، ولكن لدي خمسة أولاد، وأعتقد أنه لا يوجد مكان أفضل من هنا لتنشئة الأولاد: مدارس ممتازة فيها كل أنواع الرياضة. حتى أن لدينا كليّة للمبتدئين،" و"جئت إلى هنا لأشتغل في المحاماة. لفترة مؤقتة، فلم أخطّط قط للبقاء. ولكن

حين جاءت فرصة الانتقال، فكرت، لماذا أرحل؟ ومن أجل ماذا بحق السماء؟ صحيح أن هذه ليست نيويورك، ولكن من يريد الذهاب إلى نيويورك؟ هنا جيران طيبون، وأناس يهتمّ بعضهم بشؤون بعض، وهذا ما يهم. ويوجد هنا أيضاً ما تبقى من أجل حياة لائقة. كنائس جميلة، ملعب غولف")، بعد أن يعتاد الوافد الجديد إلى غاردن سيتي على صمت شارعها الرئيسيّ بعد الثامنة مساء، يكتشف الكثير مما يدعم العنترّيات الدفاعية للمواطنين: مكتبة عامّة حسنة الإدارة، وصحيفة يوميّة كفوءة، ومروج خضراء ومساحات ظليلة هنا وهناك، وشوارع سكنيّة هادئة حيث يمكن للحيوانات والأطفال أن يلعبوا بأمان، وحديقة كبيرة للتجوّل مع معرض صغير للحيوانات ("شاهد الدببة القطبية!" "شاهد الفيل بيني!")، ومسبح يمتد على مساحة عدة هكتارات ("أكبر مسبح مجاني في العالم!"). مثل هذه الأكسسوارات، والغبار والريح وصافرات القطارات التي لا تهدأ، وكونها أيضًا مسقط رأس كثيرين غادروها ويتذكرونها بحنين جارف.. هذا كله يعطي من لم يغادر إحساساً بالجذور والرضا.

جميع أهالي غاردن سيتي، بلا استثناء، يرفضون الكلام عن وجود طبقات اجتماعيّة بين السكّان (لا يا سيدي. لا شيء من هذا القبيل هنا. الكل متساوون، بصرف النظر عن الثروة أو اللون أو العقيدة. كل شيء على ما يجب أن يكون عليه في بلد ديموقراطي. هكذا نحن")، ولكن بالطبع، التمييزات الطبقية مَرعية بوضوح، وملحوظة تمامًا، كما في أي تجمّع بشري آخر. بعد مئة ميل يخرج المرء من "حزام الكتاب المقدس"، وهو شريط من الجغرافيا الأمريكية مسكون بأتباع الإنجيل، حيث على المرء أن يأخذ أمر التديّن على محمل الجد، ولو

فقط لأسباب تتعلّق بالوظيفة والعمل. مقاطعة فيني تقع ضمن حدود الحزام، ولذلك فإن الانتماء الكَنَسيّ للشّخص هو العامل الأهم في مكانته الطبقيّة. يشكّل المعمدانيون والميثوديون والروم الكاثوليك 80٪ من متديّني المقاطعة، أمّا بين النخبة من رجال الأعمال والمصرفيين والمحامين والأطباء وأبرز المزارعين الذين يستأجرون أفضل المناطق، فيسيطر أتباع الكنيسيّة المشيخيّة وأتباع الكنيسة الأسقفيّة. في هذه الفئة يمكن الترحيب بميثوديٍّ عارض، ومنتسب للحزب الديموقراطي من حين إلى حين، ولكن المؤسسة، بالإجمال، تتألف من الجناح اليمينيّ من الجمهوريين من أتباع المذهب المشيخي والأسقفي.

وعلى اعتبار أن السيّد كلاتر رجل متعلم وناجح في مهنته، وجمهوريّ بارز ومرشد في الكنيسة – ولو كان من الكنيسة الميثودية – فقد ترقّى إلى مصاف النبلاء المحليين، ولكن لأنه لم ينضم يوماً إلى نادي مقاطعة غاردن سيتي، فإنه لم يسع أبداً لإقامة علاقات مع الزمرة الحاكمة. على العكس، فإن ملذاتهم لم تكن من صنف ملذاته، إنه لا يأبه بلعب الورق ولا الغولف ولا شرب الكوكتيل ولا العشاوات التي كانت تقدم في العاشرة – الحقيقة إنه لا يأبه بأي تسلية لا "تنجز شيئاً". ولهذا، بدلاً من أن يكون طرفاً في رباعية الغولف في هذا الأحد المشمس، كان السيد كلاتر في مقاطعة فيني يرأس اجتماعاً في نادي فور-إتش (كناية عن أربع (فور) كلمات تبدأ بحرف إتش "H" باللغة الانكليزية: الرأس "Head"، والقلب "Heart"، واليدان "Hands" والصحة "Health") النادي الذي جعل شعاره "نحن نتعلّم العمل بالعمل!". وهو منظمة قومية لها فروع خارجية هدفها مساعدة سكان المناطق الريفية – وخاصة الأطفال – على تطوير قدرات عملية وطبيعة

فاضلة. نانسي وكينيون كانا بملء وجدانهم أعضاءً فيه منذ سنّ السادسة.) في نهاية الاجتماع، قال السيد كلاتر، "الآن سأقول شيئاً يتعلق بأحد الأعضاء البالغين." ونظر إلى امرأة يابانية بدينة يحيط بها أربعة أطفال بدينين. "كلكم تعرفون السيدة "هيديو أشيدا". تعلمون كيف انتقلت عائلة أشيدا من كولورادو – وبدأت العمل في الزراعة في هولكومب منذ عامين. عائلة ممتازة، وجودها هنا من حسن حظ هولكومب. يعلم الجميع، حين يمرض أحد فإن السيدة أشيدا تمشي أميالاً لا يستطيع أحد أن يحسبها، لكي تحضّر له بعضاً من الشوربة الرائعة التي تصنعها، أو بعضاً من الزهور التي تزرعها في أماكن لا أحد يتوقع أن تنمو فيها الزهور. وفي معرض المقاطعة، تذكرون كم ساهمت من أجل إنجاح معروضات الفور-إتش. لذلك أقترح أن نكرّم السيدة أشيدا بمكافأة في وليمة الإنجازات يوم الثلاثاء القادم."

شدّها أولادها، ونخزوها؛ صرخ الابن البكر، "هِيْ، ماما، هذه أنت!" لكن السيدة أشيدا كانت عفيفة النفس؛ فركت عينيها بيديها السمينتين كيدي طفل، وضحكت. كانت زوجة مزارع مستأجِر؛ وكانت مزرعته أرضاً منعزلة وعُرضة بشكل خاص لعصف الريح، تقع في منتصف المسافة بين غاردن سيتي وهولكومب. في العادة يوصل السيد كلاتر عائلة أشيدا إلى منزلهم بالسيارة، بعد مؤتمرات الفور-إتش، وقد قام بالأمر نفسه اليوم.

"يا إلهي، كان ذلك صدمة،" قالت السيدة أشيدا وهم على الطريق 50 في الشاحنة الصغيرة للسيد كلاتر. "صحيح أنني أشكرك دائماً يا هيرب، ولكن شكراً لك." قابلَته في اليوم الثاني لها في مقاطعة فيني؛ كان ذلك في اليوم السابق لعيد الهالوين، وكان قد جاء مع ابنه

كينيون لتأدية الطقوس، ومعهم حِمْل من اليقطين والقرع. خلال تلك السنة الأولى القاسية، كانت تصلهم الهدايا، منتوجات لم تكن عائلة أشيدا قد زرعتها بعد – سلال من السبانخ، والخس. وغالباً ما كانت نانسي تحضر الفرس بيبي معها ليستمتع الأولاد بالركوب على ظهرها.

"هل تعلم إن هذا أفضل مكان عشنا فيه، ومن معظم النواحي. هكذا يقول "هيديو" أيضاً. أكيد نحن لا نحب التفكير بالرحيل والبدء مرة ثانية من الصفر."

"الرحيل؟" اعترض السيد كلاتر وخفف من سرعة سيارته.

"يا هيرب، المزرعة هنا، الناس الذين نعمل لهم – يعتقد هيديو إننا يمكن أن نجد مكاناً أفضل. ربما في نبراسكا. لكننا لم نقرر بعد، إنه مجرد كلام حتى الآن." صوتها العذب الذي يقع دائماً على حافة الضحك، جعل هذا الخبر المحزن يبدو مرحاً بشكل ما، ولكن حين رأت أنها تسببت في انزعاج السيد كلاتر، غيّرت الموضوع. "هيرب، أريد أن أسمع رأيك كرجل،" قالت. "أنا والأولاد ادّخرنا بعض المال، نريد أن نقدم شيئاً لهيديو بمناسبة الكريسماس. هو بحاجة إلى أسنان. إذا كانت زوجتك ستقدم لك ثلاثة أسنان من الذهب، هل ستبدو لك هدية غير موفقة؟ أقصد، أن تطلب من رجل أن يقضي الكريسماس على كرسي طبيب الأسنان؟"

"أنت مدهشة. لا تفكروا أبداً بالرحيل من هنا. سنربطكم بالحبال،" قال السيد كلاتر. "نعم، نعم، أسنان ذهبية بلا شك. لو قدمت لي لكنت راضياً".

ردّه أسعد السيدة أشيدا، لأنها كانت تعلم أنه لا يؤيد فكرتها إلا إذا كان مقتنعاً بها؛ فهو رجل محترم. لم يتناهى إليها يومًا أنه تصرّف "كصاحب

سلطة"، أو استغل قوته، أو خلف وعده. وقد حاولت الحصول منه على وعد الآن. "انظر، هيرب. لا أريد خطابات في الوليمة، أوكي؟ أنا لا أريد أن أتكلم. أما أنت فالأمر مختلف. الطريقة التي تقف بها وتتكلم لمئات الناس. لآلاف الناس. من السهل عليك أن تقنع أياً كان بأي شيء. لا شيء يخيفك،" قالت معلّقة على المِيْزة التي يعترف بها الجميع للسيد كلاتر: ثقة جَسورة بالنفس جعلته متفرّدًا، وفي حين أن هذه الميزة جلبت له الاحترام، إلا أنها حدّت قليلاً من مَيل البعض إليه أيضاً. "لا أستطيع أن أتخيلك خائفاً. مهما يكن الأمر، ستجد الكلام المناسب دومًا."

○ ○

وصلت سيارة الشيفروليه السوداء بعد الظهر إلى إيمبوريا، كانساس – بلدة كبيرة، تقريباً مدينة، وهي مكان آمن، وهكذا قرر راكبا السيارة أن يتسوقا قليلاً. ركنا السيارة على جانب الطريق، ثم تجوّلا في البلدة حتى ظهرت لهم مجموعة منوّعة من المخازن التي كانت درجة الازدحام فيها مناسباً لهما.

أوّل ما اشترياه كانت قفازان من المطّاط، من أجل بيري الذي نسي، على خلاف دِك، أن يُحضر معه قفّازيه القديمين.

انتقلا بعدئذ إلى محل يعرض جوارب نسائية. بعد فترة من المجادلة التي لم تصل إلى نتيجة، قال بيري، "أنا لها."

لم يكن دك مقتنعاً. "ماذا عن عَيني؟ إن كل هذه الجوارب ذات ألوانٍ فاتحةٍ لا تُخفي [ملامحي]!"

"يا آنسة،" قال بيري، لافتاً انتباه البائعة. "هل لديك جوارب سوداء؟" حين أجابت بالنفي، اقترح البحث في محل آخر. "الأسود مضمون".

لكن دك حينها اتّخذ قراره: الجوارب ليست ضرورية، مهما كان لونها، إنها عبء، ومصروف لا داعي له ("لقد أنفقت حتى الآن الكثير من المال في هذه العملية")، ففي النهاية، إن كل شخص سيلتقونه لن يبقى على قيد الحياة ليشهد عليهم. "لا شهود،" قال دك منبّهاً بيري، وذلك للمرة المليون كما بدا لهذا الأخير. كانت الطريقة التي يقول بها دك هاتين الكلمتين، وكأنهما تحلان المشكلة بالكامل، تزعج بيري في أعماقه. من الغباء أن لا يدرك أنه قد يكون هناك شاهد غير مرئيّ [على ما سيقومان به]. "العجائب ممكنة الحدوث، الأشياء لا تسير على المسطرة،" قال بيري. لكن دك لم يوافقه، وقال بصبيانيّة وهو يبتسم متفاخرًا: "اطرد الفقاقيع من دمك. لا يمكن أن يحدث شيء خلافاً للخطة." كلا، لا يمكن. لأن الخطة من تصميم دك، ولا تشوبها شائبة من لحظة الوصول حتى الصّمت الأخير.

بعد ذلك انشغلا بتأمين الحبال. تفحّصها بيري، وجرّبها. وعلى اعتبار أنه اشتغل مرة في البحرية التجارية، فإنه كان يفهم في الحبال وماهراً في العُقد. اختار حبل نايلون أبيض، قوي كسلك معدني وليس أسمك من السلك بكثير. تناقشا حول الطول الذي يحتاجانه من الحبل. الموضوع أقلق دك، لأنه كان جزءاً من حيرة أكبر، ولم يطمئنّ إلى جواب، رغم كل الكمال المزعوم في خطته. في النهاية قال، "يا يسوع، كيف ينبغي أن أعرف؟ بحق السماء!"

"يجب أن تعرف."

حاول دك. "لدينا هو. هي. الولد والبنت. وربما الاثنتين الأخريات. ولكنه يوم سبت. قد يكون عندهم ضيوف. لنحسب حساب ثمانية، أو حتى اثني عشر. الشيء الوحيد الأكيد هو أنه يجب

أن يرحل الضيوف جميعًا."

"يبدو أن العدد كبير، يصعب التأكد منه."

"أليس هذا ما وعدتك به، يا حبيب - الكثير من الشَّعر على تلك الجدارات - الجدران؟"

رفع بيري كتفيه. "إذن الأفضل أن نشتري اللفة كاملة."

كان طول اللفة مئة ياردة – تكفي تماماً لاثني عشر شخصاً.

o o

صنع كينيون صندوق العرس بنفسه: صندوق عرس من خشب الماهوغاني، مبطّن بخشب الأرز، كان ينوي تقديمه إلى بفرلي كهدية زفاف. الآن، وهو يعمل على الصندوق في ما يُسمّى "المُختلى" في الطابق الأرضي، دهن الصندوق بالطبقة الأخيرة من طلاء الورنيش. يتألف معظم أثاث المختلى، وهو غرفة بأرضية من الإسمنت على طول البيت، من نماذج نِجارة صنعها كينيون بنفسه (رفوف، وطاولات، وكراسي، وطاولة بنغ بونغ) ومن أشغال إبر الخياطة من صنع نانسي (أغطية قطنيّة تُعيد شباب أريكة بالِيَة، وستائر، ووسائد تحمل نقوش: **"سعيد؟"** و**"ليس عليك أن تكون مجنوناً لتعيش هنا، ولكنّها [الحياة هنا] ستساعدك)**. كينيون ونانسي حاولا معاً إشباع الطابق الأرضي بالألوان لتخليصه من قسوته اللصيقة، ولم يدرك أيّ منهما فشل ذلك. الحقيقة، كان كلاهما يظن أن المختلى هو نصر ونعمة، لأنه بالنسبة لنانسي المكان الذي يمكنها فيه أن تستضيف "العصابة" دون أن تزعج أمها، وبالنسبة لكينيون هو المكان الذي يمكن أن يكون فيه وحيداً، وحراً في أن يطرق وينشر ويبث الفوضى "باختراعاته" التي كان آخرها مقلاة كهربائية عميقة. بجانب المختلى توجد غرفة الفرن، التي

تحوي طاولة تغطيها أدوات مبعثرة مكدسة مع بعض أعماله الأخرى التي لم تنته – وِحْدة تضخيم [للصوت]، وجهاز فيكترولا [فونوغراف] عتيق، كان يحاول إصلاحه.

لم يكن كينوين يشبه في مظهره أياً من والديه؛ شعره المقصوص قصة قصيرة بلون القنب، وجسده نحيل بطول ستة أقدام، لكنه قويّ بما يكفي لأن يتمكّن مرّة من إنقاذ غنمتين كبيرتين بأن حملهما لمسافة ميلين في عاصفة ثلجية شديدة. كان قوياً، ولكن كان مكتوباً عليه أن يكون بجسم صبيّ نحيل ينقصه التناسق العضلي. هذا الخلل، مضافاً إليه عجزه عن العمل بدون نظارات، هو ما منعه من رفع مستوى مشاركاته التي كانت رمزيّة فقط في الرياضات الجماعية (كرة السلة، البيسبول) التي كانت الانشغال الرئيسي لمعظم الأولاد الذين يمكن أن يكونوا أصدقاءه. لم يكن لديه سوى صديق مقرب واحد، هو "بوب جونس"، ابن "تايلر جونس"، الذي كانت مزرعته على بعد ميل إلى الغرب من منزل كلاتر. في ريف كانساس، يبدأ الأولاد بقيادة السيارات مبكراً؛ كان كينيون في الحادية عشرة من عمره حين سمح له أبوه أن يشتري، بالنقود التي جمعها من تربية الغنم، شاحنة قديمة بمحرك موديل أ – كان يسميها هو وبوب "عربة الذئاب". ليس بعيداً عن مزرعة ريفر فالي توجد منطقة ريفية غامضة تعرف باسم "تلال الرمل"؛ مثل شاطئ بلا بحر، وفي الليل تتسلل الذئاب بين الكثبان، وتتجمع في قطعان وتعوي. في الأمسيات المضاءة بالقمر، كان الولدان ينزلان إلى الذئاب فتهرب ويحاولان مطاردتها بالعربة؛ نادراً ما لحقوا بأي منها، لأن الذئب يمكن أن يركض بسرعة خمسين ميلاً في الساعة، في حين أن السرعة القصوى للعربة كانت خمسة وثلاثين ميلاً، لكنها

كانت تسلية ممتعة وجميلة، العربة تنزلق عبر الرمال، والذئاب الهاربة تبدو مؤطّرة على ضوء القمر – كما قال بوب، بشكل لا بد أن يزيد من سرعة دقات قلبك.

مطاردة الأرانب كانت لا تقل متعة، وأكثر ربحاً! كان كينيون صياداً جيداً ولكن صديقه أفضل منه. معاً كانا يسلمان أحياناً خمسين أرنباً إلى "معمل الأرانب" – معمل معالجة يدفع 10 سنتات مقابل كل أرنب، حيث تجمّد سريعًا وتشحن إلى مُربّي حيوان المنك [مَزارع الفرو]. غير أن أكثر ما كان يعني كينيون – وبوب أيضاً – هي جولات الصيد الليلية في نهاية الأسبوع على طول ضفة النهر: يتجولون متلفعين بالأغطية، مصخين السّمع، عند بزوغ الشمس، إلى ضجيج الأجنحة، فيتجهان على رؤوس الأصابع صوب مصدر الصوت، ثم يأتي الشيء الأمتع، العودة إلى البيت وهما يختالان فيما تتدلى طيور البط متأرجحة من حزاميهما. ولكن تغيرت الأمور مؤخرا بين كينيون وصديقه. لم يتشاجرا، ولا أثر لأيّ خلاف علَنيّ بينهما، كل ما في الأمر أن بوب، الذي كان في السادسة عشرة من عمره، بدأ "يخرج مع فتاة"، وهذا يعني أن كينيون، الذي كان أصغر منه بسنة ولا يزال مراهقاً طريّ العود، لم يعد بإمكانه التعويل على صُحبته. قال له بوب، "حين تصبح في عمري، ستشعر بالفرق. كنت أفكر مثلك: ما قيمة النساء؟ ولكن حين يحصل أن تتكلم مع فتاة ما، تجد أنه أمر في غاية الجاذبية. سترى ذلك!" هذا الكلام لم يقنع كينيون؛ لا يستطيع أن يتخيل نفسه وهو يهدر ساعة من وقته مع فتاة، فيما هو قادر أن يقضي هذه الساعة مع البنادق والخيول والأدوات والآلات، وحتى مع الكتب. إذا صار بوب بعيداً عن المتناول، فسوف يبقى وحيداً، لأنه، في المزاج، لم يكن ابن

السيد كلاتر، بل بالأحرى ابن بوني، ولد حساس ومتحفّظ. ظنّ أقرانه أنه "انعزالي"، بعدئذ سامحوه قائلين، "أوه، كينيون. كل ما في الأمر أنه يعيش في عالمه الخاص."

ترك كينيون [طلاء] الورنيش ليجفّ، وانطلق إلى مهمة أخرى أخذته إلى خارج المنزل. أراد أن يرتب حديقة زهور أمّه، وهي بقعة عزيزة من نباتات عشوائيّة نبتت تحت نافذة غرفتها. حين وصل هناك وجد أحد العمال المأجورين ينكش الأرض بالمجرفة – باول هيلم، زوج مدبّرة المنزل.

"هل ترى تلك السيارة؟" سأل السيد هيلم.

بالفعل، كان كينيون قد رأى سيارة على الطريق الواصل إلى المنزل – سيّارة بيوك [Buick] رمادية تقف خارج مدخل مكتب أبيه.

"ظننت أنك تعرف لمن."

كلا، إلا إذا كان السيد جونسون. قال أبي إنه يتوقع مجيئه."

كان السيد هيلم (المرحوم هيلم؛ لقد مات بسكتة قلبية في آذار التالي) رجلاً يقظاً في أواخر الخمسينات من عمره، وكان أسلوبه الانسحابيّ يخفي طبيعةً حذرة وفضوليّةً متمكنة؛ أراد أن يعرف ما الأمر. "أي جونسون؟"

"رجل التأمينات."

"لا بد أن الوالد راكم الكثير من الضرائب. تقف تلك السيارة هنا منذ حوالي ثلاث ساعات." نخر السيد هيلم.

برودة دنوّ الغسق ارتعشت في الهواء، ورغم أن السماء كانت لا تزال زرقاء داكنة، فقد انبثقت الظلال المتطاولة لسيقان الأقحوان في الحديقة؛ كانت قطّة نانسي تمرح بينها، وتمسك بمخالبها الخيوط التي

كان كينيون والرجل العجوز يربطون النباتات بها في تلك اللحظات. وفجأة، أتت نانسي نفسها على ظهر بيبي السّمينة وهي تعدو بها عبر الحقول – بيبي العائدة من متعة يوم السبت، الاستحمام في النهر. وكان تيدي، الكلب، برفقتهم، والثلاثة كانوا يلمعون مبللين بالماء.

"ستصابين بالرّشح،" قال السيد هيلم.

ضحكت نانسي؛ لم تمرض في حياتها – ولا مرة. نزلت عن ظهر بيبي، استلقت على العشب على طرف الحديقة وأمسكت قطتها، رفعتها فوقها وقبلت أنفها وشواربها.

قال كينيون بقرف. "تقبلين الحيوانات في الفم!"

"أنت كنت تقبل سكيتر،" ذكّرته.

"سكيتر كان حصاناً." حصان جميل، فحل بلون أحمر كلون ثمر الفريز، وقد ربّاه منذ أن كان مهراً. كيف يمكن أن تمنع نفسك عن سكيتر هذا! "أنت تقسو على الحصان،" نبّهه أبوه. "يوماً ما ستقضي عليه." وقد حدث فعلاً: فبينما كان سكيتر يعدو بسيّده مسرعاً على الطريق، فشل قلبه، وترنّح ومات. والآن، بعد سنة على ذلك، لا يزال الحزن يتملّك كينيون، فاخذت أباه الشفقة عليه، ووعده بأفضل مهر من أمهار الربيع القادم.

"كينيون؟" قالت نانسي. "هل تظن أن تراسي سيكون قادراً على الكلام، بحلول عيد الشكر؟" تراسي، لم يكمل السنة من عمره بعد، كان ابن اختها إيفانا، الأخت التي تشعر تجاهها بمَيْل خاص. (بفرلي كانت الأخت المفضلة عند كينيون.) "أذوب من الشوق لسماعه يقول "خالتي نانسي" أو "خالي كينيون". ألا تحب أن تسمعه يقول هذا؟ أقصد، ألا تحب أن تكون خالاً؟ كينيون؟ يا إلهي، لماذا لا تجيبني أبداً؟"

"لأنك سخيفة،" قال ورماها بزهرة، زهرة أضاليا ذاوية، وضعتها في شعرها.

أخذ السيّد هيلم مجرفته. نعقت الغربان، كان غروب الشمس قريباً، ولكن بيته كان بعيداً؛ كان ممر شجر الدردار الصيني قد غدا نفقاً أخضر راح يزداد قتامة، وهو يعيش في نهاية النفق، على بعد ميل. "تصبحون على خير،" قال وانطلق في طريق عودته. لكنه ألقى نظرة إلى الخلف مرة واحدة. "كان ذلك،" قال في شهادته في اليوم التالي، "آخر عهدي بهم. نانسي تقود بيبي العجوز باتجاه الاسطبل. وكما قلت، كل شيء كان عادياً".

° °

توقفت سيارة الشيفرولية السوداء مرة ثانية، هذه المرة أمام مستشفى كاثوليكي على أطراف إمبوريا. وبتأثير النقد المستمر ("هذه هي مشكلتك. تظن أنه لا يوجد سوى طريقة واحدة صحيحة، هي طريقة دك!")، استسلم دك. وفيما كان بيري ينتظر في السيارة، ذهب إلى المستشفى لمحاولة شراء زوج من الجوارب النسائية السوداء من إحدى الراهبات. كانت هذه هي الطريقة غير التقليدية في الحصول على الجوارب من أفكار بيري؛ فقد قال إن الراهبات لديهن هذه الجوارب بالتأكيد. بالطبع [هذا صحيح] ولكن حملت الفكرة عيبًا واحدًا: الراهبات، وكل ما يتعلق بهن، مدعاة للشؤم، وبيري كان من أكثر الناس احتراماً للخرافات. (البعض يتشاءم من الرقم 15، والشعر الأحمر، والزّهر الأبيض، والقساوسة وهم يعبرون الطريق، والأفاعي في الحلم.) ولكن لا يوجد أمامهما سبيل آخر. الشّخص الذي يؤمن بالخرافات بقوة، يؤمن أيضاً بالقدر، وهذا كان حال بيري. هو هنا

الآن، وقد شرع في مهمته الحالية، ليس لأنه رغب بها، بل لأن القدر رتّب له ذلك؛ لا يمكنه البرهان على هذا، ولا نية له أصلاً في إثباته، على الأقل ليس على مسمَع دك، لأن البرهان سوف يتضمّن اعترافه بالدافع الحقيقيّ والسريّ وراء عودته إلى كانساس، العودة التي تتضمن انتهاكاً لشروط الإفراج عنه، ولكنه أقدم عليها لسبب لا علاقة له "بضربة" دك، أو برسالة الدعوة التي وجّهها له. السبب هو أنه قد علم منذ بضعة أسابيع أنه تم الإفراج، في يوم الثلاثاء 12 نوفمبر، عن أحد زملاء زنزانته، من إصلاحية ولاية كانساس في لانسينغ، وقد رغب "أكثر من أي شيء في العالم"، أن يجتمع بهذا الرجل، وهو "صديقه الحقيقيّ الوحيد،" "المتألّق ويلي جي".

خلال السنة الأولى من سنواته الثلاث في السجن، راقب بيري عن بُعد ويلي جي، راقبه باهتمام ولكن بخشية؛ إذا أراد المرء أن يظهر بمظهر الرجل الصلب، فإن العلاقة الحميمة مع ويلي جي لا تبدو حكيمة. كان قسيساً، رجلاً إيرلندياً نحيلاً، بشعر شابَ قبل أوانه، وعينين رماديتين حزينتين. وكان صوته التينور[3] مفخرة كورال السجن. حتى بيري، الذي كان يزدري أي إظهار للتقوى، كان يشعر "بالاضطراب" حين كان يسمع ويلي جي يغني "الصلاة الربانية"؛ حرّكت دخيلتَه اللغةُ الجليلة للترنيمة وهي تُغنّى بهذه الحساسية، وجعلته يتساءل قليلاً عن عدالة ازدرائه للتقوى. في النهاية، اقترب من ويلي جي، يحفّزه فضول دينيّ حذر نوعاً ما. القسيس استجاب على الفور،

(3) تينور (Tenor) هو نوع من الأصوات الغنائية الرجالية، والذي يعتبر أعلى الأصوات الرجولية في المجال الوسطي. يصنف صوت التينور بأنه يحتل المجال بين نغمة C الأولى تحت C الوسطى حتى A فوق C الوسطى في الموسيقى الكوراليّة. م.

معتقداً أنه يرى في الرجل الأعرج ذي العضلات، بنظرته الغامضة وصوته المتعجرف الدخاني "شاعراً، شيئاً نادراً يمكن إنقاذه." غمره الطموح بأن "يجلب هذا الصبي إلى الله". وقد ازداد أمله بالنجاح حين قدّم له بيري لوحة بالباستيل كان قد رسمها – بورتريهًا كبيرًا للمسيح، وبسيطة من الناحية التقنية لا شك. القس البروتستانتي في لانسنغ، المبجل جيمس بوست، قيّم اللوحة عالياً حتى أنه علّقها في مكتبه، حيث لا تزال إلى اليوم: مخلِّص جميل وبسيط، له عينان حزينتان وشفتان ممتلئتان مثل ويلي جي. كانت الصورة هي أقصى ما وصل إليه مجال البحث الروحي عند بيري، هذا البحث الذي لم يكن قوياً في أي يوم؛ وكانت، للمفارقة، نهاية هذا البحث؛ فقد اعتبر بيري أن مسيحه هذا ليس سوى "شيء من النفاق،" ومحاولة "لخداع وخيانة" ويلي جي، فقد كان بيري لا يؤمن بالله، على سابق عهده. مع ذلك، هل عليه أن يعترف بهذا، ويغامر بخسارة الصديق الوحيد الذي "فهمه حق الفهم"؟ (هود، جو، جيس، مسافرون هائمون على وجوههم في عالم نادراً ما يتبادلون فيه الكنيات، هؤلاء كانوا أصدقاءه، ولكن لا أحد منهم على الإطلاق يشبه ويلي جي، الذي كان في نظر بيري "رفيعاً من الناحية الفكرية، ويتّسم بالتبصر مثل عالِم نَفْس متدرّب جيداً". كيف أمكن أن ينتهي المطاف برجل على هذا القدر من الموهبة في لنسينغ؟ هذا ما حيّر بيري. الجواب الذي كان يعرفه ويرفضه، باعتباره "تملصاً من السؤال الإنساني الأعمق،" كان واضحاً للعقول البسيطة: القسيس، عمره حينها 38 سنة، كان لصاً، سارق على نطاق صغير، قضى، خلال العشرين سنة المنصرمة، عقوبات بالسجن في خمس ولايات مختلفة.) قرر بيري أن يتكلم: كان آسفاً، ولكن - الجنة، النار،

القديسون، الرحمة الإلهية – هذه أشياء ليست له، وإذا كان ويلي جي يميل إليه لأنّه يتوقّع أن يقف معه عند مَغْرَس الصّليب، فهذا يعني أنه مخدوع وأن صداقتهم زائفة، مزورة، مثل البورترية.

كالعادة، فهم ويلي جي؛ وبعزيمة مثبطة ولكن دون انقطاع في الأمل، واصل امتداح روح بيري حتى يوم الإفراج المشروط؛ عشية ذلك اليوم كتب رسالة وداع لبيري، يقول في الفقرة الأخيرة منها: "أنت رجل متطرف العاطفة، رجل جائع ولكنه لا يعرف أين تتجه شهيته، رجل محبط في العمق ويناضل كي يبرز فرديته ضد نمطية متزمتة. أنت تعيش في عالم معلق بين تركيبين فوقيين، الأول هو التعبير عن الذات والآخر هو تدمير الذات. أنت قوي، ولكن هناك عيب في قوتك، وإذا لم تتمكن من السيطرة عليه، فإن العيب سيتغلب على قوتك ويهزمك. العيب؟ ردة الفعل العاطفية الصاعقة غير المتناسبة البتة مع السبب. لماذا؟ لماذا هذا الغضب اللامعقول لدى رؤية أناس سعداء أو راضين، هذا الازدراء للناس والرغبة في إيذائهم؟ لا بأس، تعتقد أنهم حمقى، تحتقرهم بسبب أخلاقهم، لكن سعادتهم هي مصدر إحباطك وضغينتك. وهذان عدوان مخيفان تحملهما في داخل نفسك، مع الوقت يتحولان إلى رصاصات قاتلة. من الرحمة، أن الرصاصة تقتل ضحيتها. أما هذه البكتيريا، إذا سمح لها أن تنمو، فإنها لا تقتل الإنسان بل تجعله هيكلاً لمخلوق ممزق ومعقد؛ يبقى في داخله نار تعتاش على حطب الازدراء والكراهية. هذا المخلوق قد ينجح في المراكمة، ولكنه لا يراكم النجاح، لأنه عدو نفسه ويبقى محبوسًا عن الاستمتاع الحقيقي بإنجازاته."

كان بيري مبتهجًا لكونه موضوع هذه الموعظة التي أعطاها دِك كي يقرأها، ولأن الأخير حملَ نظرة معادية لويلي جي، فقد قال إن الرسالة

"مجرّد متابعة لكلام بيلي غراهام الفارغ،" مضيفاً، "حطب الازدراء! إنه هو اللوطي.[4]" بالطبع كان يتوقع بيري رد الفعل هذا، وكان سعيداً به في دخيلة نفسه، لأن صداقته مع دك، الذي لم يكن يعرفه حتى الأشهر الأخيرة في لانسنغ، كانت نتيجةً لشدّة إعجابه بالقسيس، ووزنًا معادلًا [لصداقة القسّ في الكفّة الأخرى]. ربما كان دك "سطحياً"، أو حتى، كما قال عنه ويلي جي، "مغرورًا وشريرًا". ومع ذلك، كان دك ممتلئاً بالمرح، وداهية، وذا حس عملي، إنه "يتدبّر الأمور،" لا غيوم في رأسه أو قَشّ في شعره. إلى ذلك، وعلى خلاف ويلي جي، لم يكن ينتقد تطلّعات بيري الغريبة؛ كان يحب أن يصغي، وكان يتحمس ويشاركه تخيلاته عن "الثروة المضمونة" القابعة في البحار المكسيكيّة والغابات البرازيلية!

أربعة أشهر انقضت بعد الإفراج المشروط عن بيري؛ أشهرٌ من القعقعة بسيارة فورد عتيقة بمئة دولار، ينتقل من رينو إلى لاس فيغاس، من بيينغام في واشنطن، إلى بوهل في إداهو حيث وجد عملاً مؤقتاً كسائق شاحنة، حينها استلم رسالة دك: "صديقي ب.، أُفرج عني في أغسطس/آب. بعد مغادرتك التقيت شخصًا، أنت لا تعرفه، أعطاني شيئًا يمكننا أنا وأنت أن نعمل به شغلًا حلوًا. شيئًا بسيطًا، أحلى شيء.." حتى ذلك الوقت لم يتخيّل بيري أنه سيرى دِك ثانية. أو ويلي جي. لكن كلا الرجلين لم يفارقا رأسه، وبشكل خاص هذا الأخير، الذي تضخّم في الذاكرة فأصبح رجلاً حكيماً بشعر أشيب وبطول عشرة أقدام، يسكن دهاليز دماغه. "أنت تتبع السبيل الخاطئ،" قال له ويلي جي مرة، في واحدة من محاضراته. "لا تريد أن يهمّك أيّ أمر، لا

---

(4) لكمة faggot تعني "لوطي" وتعني "حزمة حطب". هنا لعب على المعنى. م.

تكترث بأن تكون بلا مسؤولية، بلا إيمان، بلا أصدقاء، بلا دفء."

في وحدته، وفي المجرى الصّعب لتخبطاته الأخيرة، فكّر بيري مراراً بهذا الاتهام، وتوصّل إلى أنه اتهام ظالم. لقد اكترثَ واهتمّ، ولكن من اكترث به؟ أبوه؟ نعم، إلى حدّ ما. فتاة أو فتاتين، ولكن هذه كانت "قصّة قديمة". لم يكترث به أحد سوى ويلي جي نفسه. هو فقط أدرك قيمته، وإمكانياته، وأقر أنه ليس مجرد قزم هجين ذي عضلات نامية، بل "استثنائي"، و"نادر"، و"خلّاق". كان ويلي جي يراه، كما يرى هو نفسه، بشكل يرفع المعنويات. مع ويلي جي كان غروره يجد الدعم، وحساسيته تجد الملجأ، وابتعاده لمدة أربعة أشهر عن هذا التقييم العالي زاد من فتنة هذا التقييم وجعله أثمن من أيّ حلم بذهب دفين. لذلك عندما تلقّى دعوة دك، وأدرك أن الموعد الذي يقترحه لقدومه إلى كانساس يتوافق تقريباً مع موعد الإفراج عن ويلي جي في كانساس، قرّر ما عليه فعله؛ انطلق إلى لاس فيغاس، وباع سيارته التي لم تكن أكثر من كومة خردة، ثم حزم مجموعة خرائطه، ورسائله القديمة، ومخطوطاته وكتبه، واشترى بطاقة باص إلى غريهاوند. الرحلة بعد ذلك باتت برسم القدر؛ إذا "لم تنجح الأمور مع ويلي جي،" يمكنه عندها "التفكير باقتراح دك." ولكن كما تبين، فإن بيري كان أمام الخيار بين دك أو لا شيء، ذلك أنه حين وصل باص بيري إلى كانساس سيتي، مساء 12 نوفمبر، ولم يكن بمقدوره أن يُخْطِر ويلي جي بقدومه، كان هذا الأخير قد غادر المدينة، والحقيقة أنه غادر قبل خمس ساعات فقط، ومن المحطة نفسها التي وصل إليها بيري. هذا ما علمه بيري من اتصال هاتفي مع السيد المبجل بوست، الذي زاد في إحباطه حين رفض أن يخبره إلى

أين توجه القسيس بالضبط. "لقد اتجه شرقاً،" قال له. "إلى فرص جميلة. عمل شريف، وبيت فيه أناس يريدون مساعدته." وحين وضع بيري السماعة شعر "بدوار مع غضب وخيبة".

لكنه تساءل حين تخامد كربه، ماذا كان يتوقع حقاً من الاجتماع بويلي جي؟ الحريّة فرّقتهم؛ وكرجال أحرار، لا يوجد قاسم مشترك بينهم، إنهما ضدّان، ولا يمكنهما أن يشكّلا "فريقاً"، بالتأكيد لا يمكنهما أن يشكّلا فريقاً قادراً على مباشرة مغامرات الغوص جنوب الحدود التي خطّط لها مع دك! مع ذلك لو لم يفقد ويلي جي، أو لو تمكّن من الاجتماع به ولو لساعة، فإن بيري كان على قناعة تامة من أنه ما كان ليتسكّع هنا منتظراً خروج دِك مع زوج من الجوارب السوداء.

خرج دك بيدين فارغتين. "لا يوجد،" قال باستهتار ماكر أثار ريبة بيري.

"أكيد؟ أنت واثق أنك سألت أصلاً؟"

"طبعاً سألت."

"لا أصدقك. أعتقد أنك دخلت، تجولت في الداخل لبعض الوقت، ثم خرجت."

"أوكي يا شُكَّر، كما تشاء." قال دك ثم أدار محرك السيارة. بعد أن سارا صامتين لفترة من الزمن، ربت دك على ركبة بيري. "أووو، خلاص!" قال. "كانت فكرة غبيّة. ماذا سيظنون بربك؟ أن أدخل مستشفى لأجادل أسعار الأشياء وكأنه دكّان كل شيء بدايم [فِلْس] واحد..."

قال بيري، "ربما هو كذلك أيضاً. فالراهبات كومة من النحس."

○ ○

ابتسم وكيل نيويورك للتأمين على الحياة في غاردن سيتي وهو يراقب السيد كلاتر ينزع غطاء قلم الباركر ويفتح دفتر الشيكات. فقد تذكر دعابة محليّة قائلًا: "هل تعلم ماذا يقولون عنك يا هيرب؟ يقولون، منذ أن بلغَت تسعيرة حلاقة الشَّعر الدولار والنصف، بات هيرب يكتب شيكاً للحلّاق!"

"صحيح،" أجاب السيّد كلاتر. مثل الملوك، كان معروفاً عنه أنه لا يحمل نقوداً. "هكذا أصرّف أعمالي. عندما يحوم حولك أهل الضرائب، فإن الشّيكات الملغاة تكون صديقتك الأوفى!"

راح يدور على كرسي مكتبه، وأمامه شيك مكتوب ولكن غير موقّع، وكأنه يتأمّله. وكان الوكيل، وهو رجل يُدعى بوب جونسون، ممتلئ الجسم وأصلع قليلاً وغير رسمي في الواقع، يأمل أن لا تكون شكوك اللحظة الأخيرة قد راودت زبونه. كان هيرب عنيداً، بطيئًا في عقد الصفقات؛ وكان جونسون قد عمل لمدة سنة كي يتوصّل إلى هذه الصفقة. ولكن، لا، كل ما في الأمر أن زبونه كان يجرّب ما أسماه جونسون اللحظة المهيبة – وهي لحظة يعرفها جيّداً وكلاء الضمانات. إن مزاج الرجل الذي يوقّع على عقد التأمين على حياته لا يختلف عن مزاج من يوقّع على وصيّته؛ إذ لا بد أن تخطر في البال أفكار الموت.

"نعم، نعم،" قال السيد كلاتر، كما لو أنه يحدّث نفسه. "لدي الكثير مما يشيع في النفس الامتنان – أشياء جميلة في حياتي." على جدران مكتبه المغطاة بقشر الجوز كانت تلتمع الوثائق المؤطّرة التي تشير إلى المعالم والإنجازات في مسيرته المهنيّة: شهادة جامعية، وخارطة لمزرعة ريفر فالي، وجوائز زراعية، وشهادة مزيّنة تحمل توقيعي دوايت د. أيزنهاور وجون فوستر دالاس، وتشهد على خدماته في المجلس الفيدرالي

للائتمان الزراعي. "الأولاد. نحن محظوظون بهم. لا ينبغي قول هذا، ولكني فخور حقاً بهم. خذ كينيون. منذ الآن يبدو نوعاً ما يميل باتجاه أن يكون مهندساً، أو عالِماً، ولكن لا تستطيع أن تُنكر أن ابني مزارع بالفطرة. إن شاء الله، سوف يدير هذه المزرعة يوماً ما. هل سبق لك أن قابلت زوج إيفانا؟ دون جاردشو؟ طبيب بيطريّ. لا أستطيع أن أقول لك كم أفكّر بهذا الصبي. فير، أيضاً. فير انكليزي – هو الصبيّ الذي تميل ابنتي بفرلي للاستقرار معه. إذا حصل لي أيّ شيء، فأنا واثق إنه يمكنني الاطئنان إلى أن هؤلاء الأشخاص قادرون على تحمّل المسؤولية؛ بوني بنفسها لن تتمكن من تحمل مسؤولية كهذه ..."

عرف جونسون، المخضرم في السماع إلى مثل هذه التأملات، أنه الوقت المناسب كي يتدخل. "لماذا، هيرب،" قال. "أنت رجل شاب. 48 سنة. من منظرك، ومما تقوله التقارير الطبية، من الراجح أنك ستبقى بيننا بضعة أسابيع أخرى!"

أصلح السيد كلاتر جلسته، وأمسك ثانية القلم. "أقول لك الحقيقة، أشعر أنني بصحة جيدة. ومتفائل. ولدي فكرة، هي أن الإنسان يمكنه أن يكسب الكثير من المال هنا في السنوات القريبة القادمة." وبينما كان يعرض تصوّره العام عن التحسن المالي المستقبلي، وقّع الشيك ودفعه عبر المكتب.

كانت الساعة السادسة وعشر دقائق، الوكيل متشوّق للذهاب؛ زوجته بانتظاره للعشاء. "سُعدت بلقائك، يا هيرب."

"وأنا أيضاً، يا صاحبي."

تصافحا. ثم التقط جونسون، بشعور مستحَقّ بالفوز، الشيك الذي وقّعه السيد كلاتر، ووضعه في محفظته. لقد كانت الدفعة

الأولى من بوليصة تأمين قيمتها أربعون ألف دولار، بأن يتم تعويضها مضاعفة في حال الوفاة بحادث.

"يمشي معي، يحكي معي
يخبرني أني له..
والفرح الذي نتقاسمه هناك معاً
لم يعرف أحد مثله..."

بمساعدة الغيتار، غنى بيري لنفسه لتحسين مزاجه. كان يعرف كلمات حوالي مئتي ترنيمة وأغنية – ذخيرة تتدرّج من "الصّليب الخشن القديم" (The Old Rugged Cross) إلى كول بورتر[5] – وفضلاً عن الغيتار، يجيد بيري العزف على الهرمونيكا والأوكورديون والبانجو والكسيلوفون. في إحدى أفضل خيالاته المسرحية، كان اسمه على الخشبة بيري أوبارسونس، النجم الذي كان يصف نفسه بأنه "سيمفونيّة برجل واحد".

"ما رأيك بكأس من الكوكتيل؟" قال دك.

لم يكن بيري يهتم بما يشرب، فهو لم يكن من محبّي الشراب. أما دك فكان نيّقاً، خياره المعتاد في البارات كان زهر البرتقال[6]. انتشلَ بيري من مقصورة السيّارة قنّينةَ مزيجٍ جاهز من الفودكا بنكهة البرتقال. تبادلا الزجاجة فيما بينهما. ورغم حلول الغسق، كان دك يقود السيارة بسرعة 60 ميل في الساعة دون أن يشعل الأضواء الأماميّة، لكن كان الطريق مستقيماً، والريف مستوياً كسطح بحيرة، ونادراً ما تصادف سيارة أخرى على الطريق. كانت هذه "هناك"، أو قريباً منها [هولكومب].

---

(5) كول ألبرت بورتر (1891-1964) (Cole Albert Porter) ملحّن وكاتب أغاني أمريكي. م.

(6) كوكتيل من الجن والسكر وعصير البرتقال. م.

"يا يسوع!" قال بيري، وهو يحدق في المشهد أمامه، امتداد منبسط بلا حدود تحت سماء باردة بلون أخضر ينسحب ببطء - امتداد فارغ ومهجور إلا من أضواء مزارع تخفق متباعدة بعضه عن بعض. كره هذا المشهد، كما كره سهول تكساس وصحراء نيفادا؛ كانت المساحات الأفقيّة الخفيفة السكّان تثير في نفسه دائماً كآبة ممزوجة بأحاسيس من رِهاب الخلاء. بهجة قلبه كانت الموانئ - مدن مزدحمة وصاخبة مليئة بالسفن ورائحة مياه البواليع، مثل يوكوهاما، حيث قضى صيفاً هناك خلال الحرب الكوريّة كمجنّد في الجيش الأميركي. "يا يسوع - ويطلبون مني أن أبقى بعيداً عن كانساس! أن لا أضع قدمي فيها ثانية. كأنهم يحرمونني من الجنة. أنظر إليها فقط. متّع ناظريك."

أعطاه دِك الزجاجة التي كانت قد فقدت نصف محتواها. "احفظ الباقي،" قال دك. "قد نحتاجه."

"هل تذكر، دك؟ كلامنا عن الحصول على قارب؟ كنت أفكر أنه يمكننا شراء قارب في المكسيك. قارب رخيص ولكنه قوي. يمكن أن نذهب إلى اليابان. أن نبحر به عبر المحيط الهادي. حدث هذا من قبل، إن آلاف الناس قاموا بذلك. أنا لا أخدعك، دك - ستذهب إلى اليابان. شعب لطيف مدهش، أخلاقهم مثل الزهور. يحترمون حقاً مشاعر الآخرين - ليسوا من طينتك. والنساء! كأنّك لم تقابل قط امرأة حقيقيّة.."

"بل قابلت! أجل،" قال دك، وزعم أنه لا يزال يحب زوجته الأولى الشقراء كالعسل رغم أنها تزوّجت ثانية.

"هناك تلك الحمّامات. أحدها يسمّى **بركة الحلم**. تتمدّد لتأتي فتيات جميلات فاتنات يفركنك من الرّأس حتى أصابع القدمين."

"أخبرتني هذا من قبل." كانت نبرة دك جافة.

"ولو؟ ألا أستطيع أن أكرّر؟"

"فيما بعد. نتكلم فيما بعد. اللعنة، رأسي مزدحم، يا رجل."

أشعل دك الراديو؛ أطفأه بيري، وراح يداعب أوتار غيتاره، متجاهلاً احتجاج دك:

جئت وحيداً إلى الحديقة،
وكان الندى عالقاً لا يزال على الورود،
وسمعت صوتًا يتساقط في أذني،
إنّه ابنُ الله يتفتّح ...
وعلى حافة السماء كان يرتسم القمر مكتملاً.

o o

يوم الإثنين التالي، قال الشاب "بوبي روب" في معرض وصفه وهو يقدّم الإفادة قبل اختبار كشف الكذب، عن زيارته الأخيرة لبيت كلاتر: "كان القمر بدراً، وقلت في نفسي ربما يمكننا، إذا رغبت نانسي، أن نخرج معاً في مشوار بالسيارة – مشوار إلى بحيرة ماكيني. أو نذهب إلى السينما في غاردن سيتي. ولكن حين اتصلت بها – يجب أن يكون ذلك حوالي السابعة إلا عشر دقائق – قالت إن عليها أن تسأل أباها. ثم عادت وقالت إن الجواب هو الرفض، لأننا في الليلة السابقة لم نعد إلى البيت حتى ساعة متأخرة من الليل. ولكنها اقترحت أن أجيء إليهم لنشاهد التلفزيون. نانسي هي الفتاة الوحيدة التي خرجتُ معها في حياتي. أعرفها منذ الصغر، كنا نذهب إلى المدرسة معاً منذ الصف الأول. دائماً، وعلى مدى ذاكرتي، كانت لطيفة ومحبوبة. كانت لها شخصيّة حتى عندما كانت طفلة صغيرة. أقصد إنها كانت تجعل كل

شخص يشعر بقيمته الذاتية. خرجت معها في أوّل موعد في الصف الثامن. معظم الصبيان في صفنا كانوا يريدون اصطحابها إلى حفلة الرقص بمناسبة تخرّج الصّف، وقد دهشتني – وكنت فخوراً للغاية – حين قالت إنها ستذهب معي. كنا في الثانية عشرة من عمرنا. أعطاني أبي السيارة وذهبنا معاً إلى حفلة الرقص. كلما رأيتها أكثر، كنت أزداد حباً لها: كل العائلة، أيضاً – لا توجد عائلة أخرى مثلهم، في كل هذه المنطقة، ولم أسمع بمثل هذه العائلة. ربما كان السيد كلاتر صارماً بشأن بعض الأشياء – الدين وما شابه – ولكنه لم يحاول أبداً أن يجعلك تشعر أنه على حق وأنك على خطأ."

"نحن نسكن على بعد ثلاثة أميال عن بيت كلاتر. اعتدت أن أقطع هذه المسافة على الأقدام جيئة وذهاباً، ولكني كنت أعمل في الصيف، وفي السنة الأخيرة وفّرت ما يكفي من النقود لشراء سيارتي الخاصة، فورد 55. وهكذا ذهبت بالسيارة إلى هناك، وصلت بعد السابعة بقليل. لم أر أحداً على الطريق أو على الممر الذي يقود إلى بيتهم، ولم أر أحداً خارج البيت. فقط الكلب العجوز تيدي. نبح عليّ. كانت الأضواء مشتعلة في الطابق الأرضي – في غرفة المعيشة وفي مكتب السيد كلاتر. الطابق العلوي كان معتماً، وخمنت أنه لا بد أن تكون السيّدة كلاتر نائمة – إذا كانت في البيت. لا يمكنك أن تعرف هل هي في البيت أم لا، وأنا لم أكن أسأل أبداً. لكني اكتشفت أن تخميني صحيح، لأن كينيون أراد في المساء أن يتدرّب على الهورن، كان يعزف هورن باريتون في فرقة المدرسة، ولكن نانسي طلبت منه أن لا يفعل لكي لا يوقظ السيدة كلاتر. على كل حال، حين وصلت إلى هناك، كانوا قد انتهو للتو من العشاء، وكانت نانسي قد نظفت الطاولة ووضعت

الصحون في آلة الجلي، وكان الثلاثة - السيد كلاتر مع ولديه - في غرفة المعيشة. جلسنا جميعاً كأيّ ليلة أخرى - نانسي وأنا جلسنا على الأريكة، فيما جلس السيد كلاتر على كرسيه، الكرسي الهزاز المحشو. كان يقرأ في كتاب أكثر مما يشاهد التلفزيون، كتاب "روفر بوي،" أحد كتب كينيون. ذهب لمرة واحدة إلى المطبخ وعاد بتفاحتين؛ قدم واحدة لي، لكني لم أرغب بها، فأكل التفاحتين. كانت أسنانة ناصعة البياض، وقال إن التفاح هو السبب. أما نانسي فقد كانت ترتدي جوربين وخفّين ناعمين، وبنطال جينز أزرق، وقميصًا أخضر كما أعتقد؛ وفي يدها ساعة ذهبيّة وإسوارة شخصيّة، أعطيتها إياها في يناير/كانون الثاني الماضي بمناسبة عيد ميلادها السادس عشر- تحمل اسمها على جانب واسمي على الجانب الآخر - وكانت تضع خاتماً، خاتم فضيّ صغير اشترته خلال الصّيف الماضي حين ذهبَت إلى كولورادو مع عائلة كيدويل. لم يكن خاتمي، بل خاتمنا. قبل بضعة أسابيع غضبت مني كثيراً وقالت إنها سوف تخلع خاتمنا لبعض الوقت. حين تفعل فتاتك ذلك، هذا يعني أنك محل اختبار. أقصد، إننا لا شك كنا نختلف، كل الناس يختلفون، كل الفتيان الملتزمين. القصة هي أنني ذهبت إلى حفل زفاف هذا الصديق، إلى الاستقبال، وشربت زجاجة بيرة، وعرفت نانسي بذلك. أحد النمامين أخبرها أنني كنت أصرخ وأنا سكران. فصُعقَت، وبقيت لأسبوع لا تقول مرحبا. ولكن فيما بعد عدنا إلى سابق عهدنا، وأعتقد أنها كانت على وشك أن تلبس خاتمنا ثانية."

"المهم. العرض الأوّل كان **الإنسان والتحدي** على القناة 11. عن بعض الأشخاص في القطب الشمالي. ثم شاهدنا فيلم رعاة بقر، بعد ذلك شاهدنا مغامرة جاسوس - **خمس أصابع**. في التاسعة والنصف

جاء موعد مسلسل **مايك هامر**. بعده الأخبار. ولكن كينيون لم يرغب بمشاهدة أيّ شيء من هذا، غالباً لأننا لا نسمح له باختيار البرامج. كان ينتقد كل شيء، ونانسي تطلب منه أن يسكت. كانا يتجادلان دائماً، ولكن في الحقيقة كانا قريبين من بعضهما- أقرب من معظم الأخوة والأخوات. وأعتقد أن ذلك، جزئياً، يوعد إلى أنهما كانا يبقيان وحدهما معاً فترة طويلة، فيما السيدة كلاتر بعيدة والسيد كلاتر ذاهب إلى واشنطن أو إلى مكان ما. أعرف أن نانسي كانت تحب كينيون مَحبة خاصة جداً، ولكن لا أظن حتى هي، أو أي شخص آخر، فهمت كينيون على نحو صحيح. كان يبدو شارداً في أمر ما. لا تعرف أبداً بماذا يفكر، ولا تعرف أبداً حتى إذا كان ينظر إليك – على اعتبار أن لديه بعض الحَوَل. البعض قال إنه عبقريّ، وقد يكون هذا صحيحاً. من المؤكد أنه قرأ الكثير. ولكن، كما قلت، كان دائم الاضطراب؛ لم يكن يرغب بمشاهدة التلفزيون، كان يريد أن يتمرّن على الهورن، وحين منعته نانسي، أذكر أن السيد كلاتر قال له لماذا لا يذهب إلى إلى الطابق السفلي، إلى غرفة التسلية، هناك لا يمكن أن يسمعه أحد. ولكنه لم يرغب بذلك أيضاً."

"رن الهاتف مرة. مرتين؟ الحقيقة، لا أذكر. أذكر أنه حين رن الهاتف رد السيد كلاتر من مكتبه. كان الباب مفتوحاً – الباب السحّاب الكائن بين المكتب وغرفة المعيشة – وسمعته يقول "فان"، لذلك عرفت إنه يتكلم مع شريكه، السيد فان فليت، وسمعته يقول إن لديه صداع وإنه يتحسّن. وقال إنه رأى السيد فان فليت يوم الاثنين. عندما عاد، نعم، كانت حلقة **مايك هامر** على وشك أن تنتهي. خمس دقائق من الأخبار، ثم النشرة الجوية. دائماً ينتبه السيد كلاتر حين

تأتي النشرة الجوية. إنها، حقاً، كل ما ينتظره من التلفزيون. كما أن الشيء الوحيد الذي يهمّني كان النشرة الرياضية – التي تأتي بعد النشرة الجوية. بعد انتهاء أخبار الرياضة، كانت الساعة قد بلغت العاشرة والنصف، فنهضتُ كي أذهب. مشت معي نانسي إلى الخارج. تكلمنا قليلاً، واتفقنا على موعدٍ لحضور فيلم سينما ليلة الأحد – الفيلم الذي تتطلع كل الفتيات لرؤيته **الرداء الأزرق**. بعدئذ عادت راكضة إلى البيت، وأنا انطلقت بالسيارة. كان الليل كأنه النهار – القمر شديد السطوع – وكان برد وريح تعبث بالكثير من شجيرات الشوك. ولكن هذا كل ما رأيت. فقط الآن حين أسترجع تلك الليلة، أعتقد أن أحداً ما كان، بلا شك، يختبئ هناك. ربما هناك بين الأشجار. شخص ما كان ينتظرني حتى أغادر."

o o

توقف المسافران في مطعم غريت بيند من أجل العشاء. كل ما تبقى مع بيري كان 15 دولارًا، وكان مستعداً للاكتفاء بزجاجة بيرة الجذور مع سندويشة، ولكن دك رفض، فهما بحاجة إلى "حشوة" صلبة ولا يهم السعر، هو من سيدفع. طلبا اثنتين من شرائح اللحم المتوسّطة الشّواء، وبطاطا مشويّة، وبطاطا مقلية، وبصلًا مقليًّا، وسوكوتاش[7]، وأطباقًا جانبية من المعكرونة وعصيدة الذرة، وسلطة مع صلصة الألف جزيرة [Thousand Island dressing]، ولفائف القرفة، وفطيرة التفاح، والآيس كريم، والقهوة. ولتتويج كل هذا، ذهبا إلى متجر بضائع، وابتاعا أحد أنواع السّيجار، وأيضاً لفافتين سميكتين من الشّريط اللاصق.

(7) طبق من المطبخ الأمريكي مكوناته الرئيسية هي الفاصولياء والذرة. م.

وفيما عادت الشيفرولية السوداء تجري على الطريق الرئيسي منطلقة بسرعة عبر ريف يزداد ارتفاعه بالتدريج باتجاه المناخ البارد والجاف لسهول القمح العالية، أغلق بيري عينيه واستسلم لغفوة ما بعد الطعام، ليستيقظ منها على صوت يقرأ أخبار الساعة الحادية عشرة. أنزل زجاج النافذة، وغسل وجهه بفيض من الهواء الصقيعي. أخبره دك أنهما في مقاطعة فيني. "تجاوزنا الخطّ بعشرة أميال،" قال. كانت السيارة تنطلق بسرعة فائقة. لوحات الطريق تلتمع من الأضواء الأمامية للسيارة، تتوهج ثم تختفي: "شاهد الدبَبة القطبية،" و"سيارات بورتيس،" و"أكبر بحيرة سباحة مجانية،" و"فندق ويت لاندز،" وأخيراً، قبل بداية مصابيح الشّارع، "مرحباً أيّها الوافد الجديد! أهلا بك في غاردن سيتي. المكان الحميم."

طافا حول الحافة الشمالية للمدينة. لم يكن أحد في الخارج في هذه الساعة التي تقترب من منتصف الليل، كانت كل المحلات مغلقة سوى سلسلة محطات وقود لامعة في وَسَط مُقفر. أدار دك العجلات باتجاه إحداها – هوردس فيليبس 66. ظهر فتى وسأل، "تعبئة؟" فأومأ دك برأسه موافقاً، فيما نزل بيري من السيارة واتجه إلى تواليت الرجال في المحطة وأقفل الباب. كانت ساقاه تؤلمانه، كما يحصل غالباً، تؤلمانه كأن الحادث القديم وقع منذ خمس دقائق. أخرج ثلاث حبات أسبيرين من الزجاجة ومضغها ببطئ (كان يحبّ طعمها)، ثم شرب ماءً من صنبور حوض الغسيل. جلس على التواليت، مدّد ساقيه وراح يفركهما، ويمسّد الركبتين المتيبّستين إلى درجة ما. قال دك إنهما باتا قريبين، "سبعة أميال فقط." فكّ سحّاب أحد جيوب سترته الواقية وأخرج منها كيسًا ورقيًّا يحوي القفازات المطاطيّة التي اشتراها مؤخراً.

كانت مغطّاة بالغراء ودبقة ورقيقة، وحين جرب لبس أحدها، تمزّق. المزق غير خطير، مجرّد شقّ بين الأصابع، ولكن بدا له الأمر علامةَ شؤم.

دارت قبضة الباب، وطقطقت. قال دك، "ترغب ببعض السكاكر؟ يوجد آلة سكاكر هنا."

"لا."

"أنت بخير؟"

"أنا بخير."

"لا تبق في الداخل طوال الليل."

وضع دك قطعة نقدية في آلة البيع، ثم سحب العتلة، والتقط كيسًا من حلوى الحبيبات الرجراجة (jelly-beans)؛ وراح يمضغها وهو عائد على مهل إلى السيارة، استرخى فيها وراح يراقب الشاب وهو يبذل الجهد لتخليص زجاج السيارة الأمامي من غبار كانساس ومن وحل الحشرات المهروسة عليه. شعرَ الشّاب، وكان اسمه جيمس سبور، بعدم الرّاحة إزاء هذين الزبونين. أثارت ريبته عينا دك ووجهه النكد، والمكوث الطويل والغريب لبيري في التواليت. (في اليوم التالي قال لرب العمل، "جاءنا بعض الزبائن القُساة الليلة الماضية،" ولكن لم يخطر في باله عندها، أو بعدها بوقت طويل، أن يربط بين هؤلاء الزوّار ومأساة هولكومب.)

قال دك "يبدو أن الحركة بطيئة هنا."

"صحيح،" قال جيمس سبور. "أنت الشخص الوحيد الذي توقف هنا منذ ساعتين. من أين أنتما قادمان؟"

"كانساس سيتي."

"جئتم للصيد؟"

"مجرّد مرور في طريقنا إلى أريزونا. لدينا أشغال تنتظر هناك. أعمال بناء. هل لديك فكرة عن المسافة إلى توكومكاري، نيو مكسيكو؟"

"لا أستطيع أن أقول إنني أعرف. ثلاثة دولارات وستة سنتات."

أخذ النقود من دك، أعطاه الباقي، وقال، "هلّا عذرتني أيّها سيّد؟ عندي عمل لا بدّ من مباشرته. إني أركّب ماصّ صدمات على شاحنة."

فانتظر دك، أكل بعض حلوى الحبيبات، داسَ معجّل السّرعة بنفاد صبر، وأطلق بوق السيارة. هل من الممكن أنه أخطأ في تقدير شخصية بيري؟ وأن بيري، من بين الناس، يعاني من حالة مفاجئة من "فقاعات الدم؟" منذ سنة، حين التقيا لأول مرة، ظن أن بيري "رجل طيب،" وإن كان "مغروراً" إلى حد ما، و"حساس" و"حالم" كثيراً. أحبه ولكن لم يجد فيه شيئاً خاصاً يمكن تشجيعه والاستفادة منه، إلا حين وصف بيري، في أحد الأيام، جريمة قتل، وقال بكل بساطة كيف قتل رجلاً ملوناً في لاس فيغاس، بالضرب حتى الموت بجنزير الدراجة الهوائية، "بدون سبب معين". هذه القصة زادت من رصيد بيري الصغير في عيني دك؛ بدأ يلتقيه أكثر. ومثل ويلي جي، وإن كان لدوافع مختلفة، أدرك أكثر فأكثر أن بيري يمتلك مواصفات قيمة وغير عادية. صحيح أنّه، في لانسينغ، يجول العديد من القتلة، أو الرجال الذين يتفاخرون بجريمة قتل، أو برغبتهم في ارتكاب جريمة قتل؛ لكن دك بات مقتنعاً أن بيري كان ذاك "القاتل بالفطرة" النادر الذي يبحث عنه – عاقل تماماً، ولكن بلا ضمير، ويمكنه أن يقتل بأقصى درجة من برودة الدم، بدافع أو بلا دافع. وكانت نظرية دك، إنه يمكن، تحت إشرافه، الاستفادة من هذه الموهبة. بعد أن توصل إلى هذه النتيجة، بدأ يتودد إلى بيري ويجامله – يتظاهر مثلاً بأنه يصدق كل قصة الكنوز

المطمورة، ويشاركه أشواق متسكّع الشواطئ والحنين إلى الميناء، ولم يكن لديه أي شوق من هذا، ما كان يريده دك هو "حياة عادية"، عملًا خاصًا به، وبيتًا، وحصانًا يمتطيه، وسيارةً جديدة، و"الكثير من الدجاجات [الفتيات] الشّقر." لكن كان من المهم أن لا يشك بيري بهذا – ليس قبل أن يقوم، بموهبته، بمساعدة دك في تحقيق طموحاته البعيدة. ولكن ربما أخطأ دك في الحساب، ربما خُدع. إذا كان كذلك، إذا تبين أن بيري ليس سوى "صبي عادي"، فإن "الحفلة" ستلغى، وأن شهور التخطيط قد ذهبت هباء منثوراً، ولم يكن أمامه سوى العودة. يجب أن لا يحدث هذا؛ عاد دك إلى المحطة.

لا يزال باب تواليت الرِّجال مغلقاً. خبط على الباب:

"من أجل المسيح يا بيري!"

"دقيقة."

"ما الأمر؟ هل أنت مريض؟"

أمسك بيري بحافة المغسلة ونهض واقفاً. ارتجفت رجلاه، تعرّق من الألم الذي شمل ركبتيه. مسح وجهه بمنديل ورقيّ. فتح الباب وقال، "أوكي. لنمض."

ο ο

كانت غرفة نوم نانسي هي الغرفة الأصغر، والأكثر خصوصية في البيت – بنّاتيّة ومشغولة مثل تنورة راقصة البالية. الجدران والسقف وكل شيء، ما عدا المكتب وطاولة الكتابة، كان وردياً أو أزرق أو أبيض. السرير الأبيض والوردي، المليء بالوسائد الزرق، يحتله الدب تيدي الأبيض والوردي - وهو جائزة رماية فاز بها بوبي في معرض المقاطعة. ولوحة إعلانات من الفلّين، مدهونة بالوردي، معلقة فوق طاولة

زينة، ومعلّقة عليها غاردينيا مجففة وبقايا ورود قديمة وبطاقات معايدة قديمة بالفالانتين، ووصفات طبخ من الصّحف، وصور لابن اختها الصغير ولسوزان كيدويل وبوبي روب؛ بوبي في أوضاع كثيرة – يلوح بمضرب، يلعب بكرة سلة، يقود جرّارًا، يخوض في الماء بحقائب السباحة على حافة بحيرة ماكيني (وكان هذا أبعد مكان يجرؤ على بلوغه، لأنه لم يتعلّم السباحة أبداً). وتوجد صور لكليهما معاً، نانسي وبوبي. ومن بين هذه الصور كانت تفضّل الصورة التي يظهران فيها جالسين في ضوء مرقّط بسبب مروره بين أوراق الشّجر، وسط نثار من بقايا طعام نزهتهما، وينظر كل منهما إلى الآخر بتعابير فرحة ومليئة بالبهجة رغم أنهما غير مبتسمين. تتكدس على مكتبها صور أخرى لأحصنة وقطط ماتت ولكن لا تُنسى – مثل "بوبس المسكين" الذي مات منذ فترة قريبة وبشكل غامض تماماً (شكّت أنّه مسموم).

كانت نانسي دائماً آخر فرد في العائلة يخلد إلى النوم؛ فقد قالت مرة لصديقتها ولمعلمة الاقتصاد المنزلي، السيدة بولي سترينغر، أن ساعات منتصف الليل هي "وقت الأنانية والإعجاب بالنفس" بالنسبة لها. في هذه الساعات تمارس روتين الجمال الخاص بها، تنظيف، وطقوس الدهن، وهذا يتضمن في ليالي السبت غسيل الشعر. الليلة، بعد أن جفّفت شعرها وسرّحته وربطته بمنديل رقيق، أخرجت الملابس التي تنوي لبسها إلى الكنيسة في الصباح: جوارب النايلون، وخفّ أسود، وثوب مخمل أحمر – وهو ثوبها الأحلى الذي صنعته بنفسها. إنه الثوب الذي سوف تُدفن فيه.

قبل أن تتلو صلواتها، كانت تسجل دائماً بعض الأحداث في مذكراتها اليومية ("إنّه الصّيف، آمل أن يستمرّ إلى الأبد. جاءت

سو، وركبنا على ظهر بيبي نزولاً إلى النهر. عزفت سو على الفلوت. اليراعات") ثم هَيَجان عارض ("أحبه، أحبه بالفعل"). كانت مذكرات لخمس سنوات؛ في السنوات الأربع الأولى منه لم تكن تنسى أن تكتب مدخلاً، رغم أن روعة بعض الأحداث (زواج إيفانا، ولادة ابن اختها) ودراما بعضها الآخر ("خلافها الجدّيّ مع بوبي" – صفحة ملطّخة فعلاً بالدموع) جعلها تأخذ المساحة المخصصة للمستقبل. كل سنة كانت تكتب بلون حبر مختلف: كتبت 1956 بالأخضر و1957 بلون الشرائط الحمراء، وفي السنة التالية استبدلته بلون الخزامى الأرجواني، والآن، في 1959، قررت أن تكتب باللون الأزرق الجليل. ولكن كما في كل تعبير، واصلت العبث بخط يدها، مرة تميله إلى اليمين ومرة إلى الشمال، بأشكال مدورة أو بزوايا حادة – كما لو كانت تسأل، "هل هذه نانسي؟ أم هذه؟ أم تلك؟ أيهن أنا؟" (ذات مرة كتبت لها السيدة ريغز، معلمة الانكليزي، على أحد المواضيع ملاحظة سريعة: "جيد. ولكن لماذا تكتبين بثلاثة أنماط من الكتابة؟" ردت عليها نانسي: "لأنني لم أنضج بما يكفي لأكون شخصاً له توقيع واحد.") مع ذلك، تطورت في الشهور الأخيرة، وكتبت بخط يد يحمل ملامح النضج، "جاءت جولين ك. وعلمتها كيف تصنع فطيرة الكرز. تدربت مع روكسي. جاء بوبي وشاهدنا التلفزيون معاً وغادر في الحادية عشرة."

○ ○

"هذه هي، هذه هي، لا بد أنها هي، هناك المدرسة، وهناك الكراج، الآن نستدير إلى الجنوب." بدا لبيري كما لو أن دك يتمتم بطلاسم تبهجه. ترَكا الطريق الرئيسي، وانطلقا مسرعين عبر هولكومب المهجورة، وعبرا سكّك سانتا في. "المصرف، لا بد أنه المصرف، الآن

نستدير إلى الغرب – هل ترى الشجرات؟ هذه هي، لا بد أنها هي." ظهر على الأضواء الأمامية للسيارة صفّ من شجر الدردار الصيني؛ وحزم من شجيرات الشوك تدفعها الريح. أطفأ دك أضواء السيارة، وخفف من سرعته، وتوقف إلى أن تعتاد عيناه على ضوء القمر. الآن، كانت السيّارة تزحف إلى الأمام.

○ ○

تقع هولكومب على بعد 12 ميلاً شرق حدود المنطقة الزمنيّة الجبليّة، وهذا مدعاة لبعض التبرّم، لأنه يعني أن السماء تستمرّ مُعتمة حتى السابعة صباحاً، وحتى الثامنة أو بعد الثامنة في الشتاء، وتبقى النجوم مشعّة، إذا كان ثمة نجوم، كما كان الحال حين وصل ابنا "فيك إرسك" ليقوما بمهامّهما صباح الأحد. ولكن في التاسعة، حين أنهى الولدان العمل – ولم يلاحظا خلاله أي تغيير – كانت الشمس قد أشرقت، مانحة العالم يوماً آخر من كمال موسم طيور التدرج. وبينما هما يركضان على طول الممر مغادرين المزرعة، لوّحا لسيارة قادمة، فردّت لهما التلويحة شابّة هي زميلة نانسي كلاتر في الصف، واسمها أيضاً نانسي – نانسي إيوالت. هي الابنة الوحيدة للرجل الذي يقود السيارة، السيد "كلارينس إيوالت"، مُزارع شمندر سُكّريّ في أواسط العمر. لم يكن السيد إيوالت ممن يواظبون على الذهاب إلى الكنيسة، مثله مثل زوجته، ولكنه في صباح كل يوم أحد، يوصل ابنته إلى مزرعة ريفر فالي لكي تذهب مع عائلة كلاتر إلى الكنيسة الميثودية في غاردن سيتي، الشيء الذي يعفيه من رحلتَي ذهاب وإياب إلى المدينة. كان من عادته أن ينتظر حتى يرى ابنته تدخل بيتهم بأمان. عبرت نانسي، وهي شابة أنيقة لها هيئة نجمات السينما، تضع نظارة طبية، وخجولة، المرجَ

على رؤوس أصابعها، ورنت جرس الباب الخارجي. هناك أربع مداخل للبيت، وحين لم تتلق رداً بعد الطرق المتكرر على الباب الأوّل، انتقلت إلى الثاني – باب مكتب السيد كلاتر، الذي كان مفتوحاً بشكل جزئي؛ فتحته أكثر قليلاً – بما يكفي فقط للتأكد من أن المكتب مُعتم – لكنها لم تعتقد أن عائلة كلاتر سيسرّها أن "تدخل دون إذن." دقت الباب، رنّت الجرس، ثم مشت إلى خلف البيت، حيث الكراج، ولاحظت أن كلا السيارتين ما زالتا في الكراج: سيارتا شيفرولية سيدان. ممّا يعني أنهم في البيت. ولكن بعد أن دقت جرس الباب الثالث دون جدوى، الباب الذي يُفضي إلى مخزن العدّة، وعلى الباب الرابع الذي يفتح على المطبخ، عادت إلى أبيها، الذي قال: "ربما ما زالوا نائمين."

"ولكن هذا غير ممكن. هل تتخيل ذلك! هل تتخيل أن يتخلف السيد كلاتر عن الكنيسة؟ فقط كي ينام!"

"تعالي، سنذهب إلى مبنى المعلمين. لا بد أن سوزان تعرف ما الأمر."

سكن المعلمين، الذي يقع قبالة المدرسة الحديثة، صرحٌ باهت اللون، انتهى أوانه ولكنه ما زال يُثير الهيبة. قُسِّمَت غرفه العشرون لتتحول إلى شقق للسّكن المجاني للمعلمين غير القادرين على إيجاد سكان آخر أو تحمّل مصاريفه. مع ذلك، نجحت سوزان كيدويل وأمها في تجميل الحال وخلق جوّ دافئ في شقتهم التي تتألف من ثلاث غرف في الطابق الأرضي: غرفة معيشة صغيرة جداً تحوي، بشكل لا يصدّق، إلى جانب الأثاث اللازم للجلوس، أرغن، وبيانو، وأصائص ورد مزهرة، وعادة ما يكون هناك كلب مندفع وقطّة كبيرة نعسانة. اعتادت سوزان، في صباح هذا الأحد، على الوقوف إلى نافذة الغرفة لتراقب الشارع. هي شابة طويلة فاترة الهمّة وشاحبة، ذات وجه بيضوي وعينين شهلاوتين؛

يداها مرنتان ورشيقتان مع شيء من التوتر، وأصابعها طويلة أكثر من المعتاد. كانت ترتدي لباس الكنيسة وتنتظر في كل لحظة سيارة الشيفرولية الخاصة بعائلة كلاتر، لأنها كانت هي أيضاً، تحضر الطقوس الكنسية برفقتهم. وبدلاً من ذلك، وصل إيوالت ليخبرها بما جرى.

لم يكن لدى سوزان أو أمها أيّ تفسير. قالت الأم، "لو أن هناك تغيير في الخطة، فأنا واثقة من أنهم كانوا أبلغونا بالهاتف. سوزان، لماذا لا تتصلي بهم؟ قد يكونوا نائمين، فرَضاً."

"لقد اتصلت،" قالت سوزان في وقت لاحق. "اتصلت بهم وتركت الهاتف يرن لدقيقة أو أكثر – أو على الأقل ساورني انطباع أنه يرنّ [على الطرف الآخر] لكن لم يرد أحد، لذلك اقترح السيد إيوالت أن نذهب إلى بيتهم ونحاول "إيقاظهم". ولكن حين وصلنا هناك – لم أرغب في دخول البيت. كنت خائفة، دون أن أدرك السبب، ربما لأن هذا لم يحدث لي من قبل – عادة، لا يحدث لي مثل ذلك. الشمس كانت ساطعة، وبدا كل شيء شديد اللمعان والهدوء. ثم رأيت أن كل السيارات في مكانها، حتى سيارة كينيون القديمة "عربة الذئاب". كان السيد إيوالت يرتدي ملابس العمل، والطين على جزمته؛ شعر أنه بملابس غير لائقة كي يدخل وينادي السيد كلاتر. ولا سيّما أنه لم يدخل بيتهم من قبل. أخيراً، قالت نانسي إنها ستدخل معي. اتجهنا إلى باب المطبخ، وبالطبع لم يكن مقفلاً؛ الشخص الوحيد الذي يقفل الأبواب هنا هي السيدة هيلم – العائلة لا تقفل الأبواب أبداً. دخلنا، ولاحظت على الفور أن العائلة لم تتناول طعام الفطور؛ لم يكن ثمة صحون، ولا شيء على الموقد. ثم لاحظت شيئاً غريباً: محفظة نانسي؛ كانت مرمية على الأرض، وبدا أنها مفتوحة. ثم عبرنا غرفة الطعام،

ووقفنا عند مطلع الدرج. غرفة نانسي كانت فوقنا تماماً. ناديتها وبدأت صعودَ الدرج، ونانسي إيوالت تتبعني. أخافني صوت وقع أقدامي أكثر من أي شيء آخر، كان الصوت عالياً فيما كل شيء آخر يغرق في الصمت. وجدت باب غرفة نانسي مفتوحاً. ولم تكن الستائر مسدلة، بينما ضوء الشمس يملأ الغرفة. لا أذكر أني صرخت. نانسي إيوالت تقول إنني صرخت وصرخت. أذكر فقط أن تيدي، دُبّ نانسي، كان يحدّق بي. ونانسي. فركضنا ..."

أثناء ذلك، رأى السيد إيوالت أنه ربما ما كان يجب أن يترك الفتاتين تدخلان البيت وحدهما. ترجّل من السيارة كي يتبعهما حين سمع صوت الصراخ، ولكن قبل أن يتمكن من الوصول إلى البيت، رأى الفتاتين تركضان نحوه. صرخت ابنته، "إنها ميتة!" ورمت نفسها بين ذراعيه. "حقاً يا أبي! نانسي ميتة!"

التفتت سوزان إليها. "لا، إنها ليست ميتة. لا تقولي هذا. إياك أن تقوليه. إنه مجرد رعاف. أنفها يرعف من حين إلى حين، يحدث لها رعاف أنف فظيع، هذا كل ما في الأمر."

"هناك الكثير من الدم. هناك دم على الجدران. أنت لم تنظري جيداً."

"لم أفهم شيئاً،" قال السيد إيوالت في شهادته.. "ظننت أن أذىً ما ربما لحق بالبنت. وأول ما خطر لي أن أتصل بالإسعاف. قالت لي الآنسة كيدويل – سوزان – أن في المطبخ هاتف. وجدت الهاتف بالفعل في المكان الذي حددته لي. ولكن السماعة كانت مرفوعة، وحين أمسكتها وجدت أن الخط مقطوع."

o o

يعيش لاري هيندريكس، وهو معلّم لغة انكليزية في السابعة والعشرين من عمره، في الطابق العلوي من سكن المعلمين. كان يحبّ أن يكتب، ولكن شقته لم تكن مكاناً مناسباً لمن يرغب في أن يصبح كاتباً. فهي أصغر من شقّة عائلة كيدويل! وفوق هذا، فإنه يعيش مع زوجة وثلاثة أولاد أشقياء، وجهاز تلفزيون لا يُطفأ. ("إنها الطريقة الوحيدة التي يمكننا بها أن نهدّئ الأطفال.") ورغم أنه لم ينشر بعد [كتابًا]، فإن الشاب هيندريكس، وهو بحّار سابق من أوكلاهوما، ذو مظهر رجولي، كان يدخّن الغليون وله شاربان وشعر أسود غزير جامح. إنه، على الأقل، يبدو حرْفياً، وإلى حد لافت للنظر في الواقع، شبيهاً بصور الكاتب الذي يهيم إعجاباً به، إرنست همنغواي في شبابه! ولكي يزيد دخله كمعلم، فإنه يتولّى قيادة باص المدرسة.

"أحياناً أسوق ستين ميلاً في اليوم،" قال لأحد معارفه. "هذا لا يترك لي وقتاً للكتابة، إلا في أيام الأحد. أمّا في ما يتعلّق بذاك الأحد، الخامس عشر من نوفمبر/تشرين الثاني، كنت جالساً هنا في الشقة غارقاً في أوراقي. معظم أفكار القصص التي أكتبها، أقتبسها من الجرائد – أنت تعرف؟ التلفزيون مشتعل والأولاد في شغبهم، ولكن مع ذلك سمعت أصواتاً قادمة من الطابق السفلي. من عند عائلة كيدويل. قرّرت أنها لا تعنيني، فقد كنت حديث العهد هنا؛ جئت إلى هولكومب مع افتتاح المدارس. لكن شيرلي، زوجتي، كانت في الخارج تنشر بعض الملابس، دخلت مسرعة وقالت: "حبيبي من الأفضل أن تنزل إلى الطابق السفلي. الجميع في حالة هيستيرية!" رأيت الفتاتين فعلاً في حالة هيستيرية. سوزان لم تستطع أبداً الخروج من هذه الحالة. ولن تستطيع، أنا أعرف. السيدة كيدويل المسكينة، لم تكن صحتها على ما

يرام، ولطالما كانت في حالة توتر دائم في الأصل، راحت تردّد – ولكني لم أفهم إلا مؤخراً ماذا كانت تعني – وظلّت تقول، "أوه يا بوني، بوني، ماذا حدث؟ كنتِ سعيدة، قلتِ لي انتهى كل شيء، وإنك لن تمرضي ثانية!" وكلامًا من هذا القبيل. حتى السيد إيوالت، وجدته مستثاراً إلى حدوده القصوى. فقد طلب مكتب العُمْدة على الهاتف – عُمْدة غاردن سيتي – وراح يخبره "إن هناك أمرًا ما غير طبيعي وخطير في بيت عائلة كلاتر." فوعده العمدة بالقدوم حالاً، وقال السيد إيوالت حسناً، وإنه سيلتقيه على الطريق الرئيسي. نزلت شيرلي إلى الطابق السفلي كي تجلس مع النساء وتحاول تهدئتهن – كما لو أن أحداً يستطيع. أمّا أنا فذهبت مع السيد إيوالت بالسيارة إلى الطريق الرئيسي لننتظر العمدة روبنسون. في الطريق أخبرني الرجل بما حصل. وحين وصل في روايته إلى القول إنه وجد الأسلاك مقطوعة، عندئذ قلت في نفسي، أوه - أوه، ورأيت أنّه من المستحسن أن أبقى يقظاً، وأن أسجّل كل تفصيل، تحسّباً لاستدعائي إلى الشهادة في المحكمة."

"وصل العمدة في الساعة التاسعة وخمس وثلاثون دقيقة – عرفت ذلك من النظر إلى ساعتي. أشار له السيد إيوالت كي يتبعنا، وقُدنا عرباتنا حتى وصلنا منزل عائلة كلاتر. إنها المرة الأولى التي أذهب فيها إلى هناك، كنت أرى البيت من بعيد فقط. بالطبع أعرف العائلة. درّست كينيون اللغة الانكليزية في الصفّ الثاني في الثانوية، ووجّهت نانسي في مسرحية "توم سوير". كانا ولدان استثنائيان ومتواضعان، لا يمكن أن تتوقع أنهما من عائلة غنية أو يعيشان في بيت كبير كهذا؛ أشجار ومرج وكل شيء مُراعى ومُعتنىً به. بعد أن بلغنا المكان، وسمع العمدة قصّة السيد إيوالت، اتصل بمكتبه طالبًا إرسال تعزيزات

وسيّارة إسعاف، قائلاً، "يوجد حادث من نوع ما." عندئذ دخلنا إلى البيت نحن الثلاثة. ذهبنا إلى المطبخ ورأينا محفظة نسائية مرمية على الأرض، والهاتف الذي كانت أسلاكه مقطوعة. كان العمدة يحمل مسدساً على خصره، وحين صعدنا باتجاه غرفة نانسي، لاحظت أنه وضع يده على المسدس، جاهزاً لسحبه."

"رأيت منظراً في غاية السوء. تلك الفتاة الرائعة، لم يعد بإمكانك حتى التعرّف على ملامحها. لقد تلقّت رصاصة في رأسها من الخلف من مسافة لا تزيد عن مجرّد إنشين ربما، وهي مستلقية على جنبها ووجهها إلى الحائط المغطّى بالدّم، بينما أغطية السرير تغطيها حتى كتفيها. سحب العمدة روبنسون الأغطية عنها؛ كانت ترتدي روب الحمّام، وبيجاما، وجوارب ونعلًا خفيفة – كأنها لم تكن قد خلدت للنوم بعد حين حدث هذا. يداها مقيدتان إلى الخلف، وكاحلاها مربوطان إلى بعضهما بنوع من الحبال التي تراها على الستائر المعدنيّة. سأل العمدة، "هل هذه نانسي كلاتر؟" لم يكن قد رأى الشابّة من قبل. فأجبته، "نعم. نعم، إنها نانسي."

"عدنا إلى الإيوان، تلفّتنا حولنا. الأبواب كلها مغلقة. فتحنا أحدها فتبيّن أنه باب حمام. ثمّة خلل ما فيه. قلت في نفسي إن السبب هو الكرسي – إن هناك كرسيًّا من كراسي غرف الطعام موجود على نحو غريب في الحمام. أما الباب التالي، فقد قلنا جميعاً إنه يجب أن يكون باب غرفة كينيون. الكثير من أشياء الصبيان مبعثرة هناك. وتعرفت على نظاراته على رف كتب بجانب السرير. لكن السرير فارغ، رغم أنه يبدو أن أحداً كان نائماً فيه. ثم مشينا إلى نهاية الإيوان، الباب الأخير، وهناك وجدنا السيدة كلاتر على سريرها، مربوطة أيضاً ولكن

بطريقة مختلفة – يداها إلى الأمام، لذلك بدت كما لو أنها تصلّي – وفي إحدى يديها كانت تمسك، تتمسّك، بمنديل. أم أنه كلينكس؟ الحبل الملفوف حول معصميها ينزل إلى كاحليها المربوطين معاً، ثم ينزل إلى أسفل السرير حيث يُربط إلى المسند – بطريقة معقدة جداً وحرفيّة. تخيّل كم استغرق هذا العمل من الوقت! فيما هي مستلقية هناك، خائفة إلى حد الرعب. كانت تلبس بعض المجوهرات، خاتمين - وهذا ما جعلني أستبعد فرضيّة السرقة كدافع لهذه الجريمة - وترتدي ثوباً وقميص نوم أبيض وجوارب بيضاء. أغلق فمها بشريط لاصق، وأُطلقت عليها النار من مسافة قريبة على جانب الرأس، والانفجار – التأثير – مزّق الشريط اللاصق وجعله يتدلّى. عيناها مفتوحتان، مفتوحتان على اتساعهما. كأنها لا تزال تنظر إلى القاتل. لا بد أنها كانت تراه وهو يفعلها – وهو يوجّه المسدس. لم يتلفّظ أحد منّا بكلمة. كنا مذهولين. أذكر أن العمدة بحث حوله ليرى إن كان بمقدوره أن يجد طلقات فارغة. ولكن من قام بهذا، كان من المهارة وبرودة الدم بمكان يجعله لا يترك خلفه أيّة أدلّة كهذه."

"طبعاً كنا نتسائل أين السيد كلاتر؟ وأين كينيون؟ "لنبحث في الطابق السفلي،" قال العمدة. أول مكان بحثنا فيه كان غرفة النوم الرئيسية حيث ينام السيد كلاتر. وجدنا أغطية السرير مسحوبة، وعند قدم السرير محفظة فيها بطاقات مبعثرة، وكأن أحداً ما بحثَ فيها عن شيء محدّد، عن ورقة ملاحظات [تُخبر عن مكان الأموال] أو عن وثيق تصرّح بدَيْنٍ ما مثلاً، مَن يدري؟ إن عدم وجود نقود في المحفظة لا يعني شيئاً، فهذه محفظة السيد كلاتر، وهو لم يكن يحمل نقوداً في محفظته البتّة. حتى أنا كنت أعرف ذلك، مع أن وجودي في

هولكومب لا يزيد عن الشهرين إلا بقليل. وكنت أعرف شيئاً آخر، هو أن السيد كلاتر وكينيون لا يمكنهما رؤية شيء بدون ارتداء النظارات. وقد وجدت نظارة السيد كلاتر على المكتب، لذلك علمت أنه لم يذهب إلى حيث هو، أينما كان، بإرادته. دقّقنا في أرجاء المكان، كل شيء بدا طبيعياً - لا توجد علامات لعراك، فكل شيء في مكانه، سوى أننا وجدنا سماعة هاتف المكتب مرفوعة والأسلاك مقطوعة، تماماً كما في المطبخ. وجد العمدة روبنسون بعض الطلقات في إحدى الخزانات، فتشمّمها ليعلم ما إذا كانت حديثة الاستخدام أم لا. قال إنها قديمة، وأضاف - لم أرَ قط رجلاً مرتبكاً أكثر منه - "أين يمكن أن يكون هيرب بحق الشيطان؟" عندئذ سمعنا صوت وقع أقدام صاعدة من القبو. "مَن هناك؟" صاح العمدة، وكان مستعداً لإطلاق النار. "أنا ويندل"، جاء الجواب. كان "ويندل ماير"، نائب العمدة. يبدو أنّه جاء إلى البيت ولم يجدنا، فراح يبحث عنّا في القبو. قال له العمدة - بصوت يثير الشفقة: "ويندل، لا أدري ماذا أفعل، هناك جثتان في الأعلى." "وهناك جثة أخرى في الأسفل،" قال ويندل. فتبعناه إلى القبو، أظن أنكم تسمّونها غرفة اللعب. لم تكن مظلمة، فالنوافذ تسمح بدخول الكثير من الضوء. كان كينيون في إحدى الزوايا مستلق على أريكة. فمه مكمّم بشريط لاصق، ويداه وقدماه مقيّدتان كحال والدته - نفس العمليّة المعقدة، الحبل يقيّد اليدين ثم ينزل إلى القدمين وينتهي مربوطاً إلى ذراع الأريكة. أكثر ما لازمني فيما بعد هو منظر كينيون هذا. والسبب، في ظني، هو أنه يمكن التعرّف عليه أكثر، لأنه الأكثر شبهاً بنفسه [قبل القتل] - رغم أنه تلقى الرصاصة في الوجه مباشرة، وجهاً لوجه. كان يرتدي تي شيرتًا وبنطال جينز أزرق، حافياً، وكأنه قد ارتدى ملابسه على

عجل، فارتدى أوّل ما وصلت إليه يداه. وُضعت تحت رأسه وسادتين، كأنهما وضعتا كذلك لتسهيل التصويب [إلى الرّأس عبر رفعه قليلًا]. "

"ثم قال العمدة، "إلى أين يفضي هذا؟" مشيراً إلى باب آخر في القبو. مشى العمدة في المقدمة، وكانت العتمة شديدة فلا تستطيع رؤية يدك، حتى وجد السيد إيوالت مفتاح الضوء. إنها غرفة الفُرن[8]، وكانت دافئة جداً. يكفي هنا [في هولكومب] أن تضع فرنَ غازٍ لتضخّ الغاز من الأرض مباشرة. هذا لا يكلّف الناس هنا شيئاً يُذكر – لذلك تجد البيوت كلها دافئة فوق اللازم. ألقيت نظرة إلى السيد كلاتر، فصعُبَ عليّ النظر إليه ثانية. بتقديري أن إطلاق النار لا يمكن أن يتسّبب بكل هذا الكمّ من الدماء. ولم أكن مخطئاً في هذا التقدير. صحيح أنه تلقّى رصاصة، مثل كينيون، من مسدّس محمول قبالة وجهه. ولكنه ربما كان ميتاً قبل أن تطلق عليه النار، أو يحتضر، لأننا وجدناه مذبوحاً [محزوز العُنُق]! كان يرتدي بيجاما مخطّطة، ولا شيء آخر. وفمه مكمّم بشريط لاصق يلتفّ حول رأسه بشكل عمودي. قدماه مقيّدتان، أمّا يداه فلا – أو ربما تمكّن، والله أعلم، من تحريرهما من الحبل بفعل الغضب أو الألم. يتمدّد أمام الفرن على صندوق كرتونيّ كبير بدا كما لو أنه وُضع هناك لهذا الغرض؛ كان صندوقًا كرتونيًا لمرتبة نوم. " ويندل، أنظر هنا،" قال العمدة، مشيرًا إلى آثار قدمين ملوّثتين بالدم على صندوق مرتبة النوم. طبعةُ نصف قدمٍ فيها دائرتان – ثُقبان في الوسط كَزَوْج من العيون. ثم أشار أحدنا

(8) قديمًا، كانت تخصّص في البيوت غرفة أرضيّة لضمّ الفرن أو الآلة التي تعمل على الغاز لتبثّ الدفء في أنحاء البيت عبر أنابيب تتفرّع منها إلى كل الأرجاء. ولذلك فهي دافئة جدًّا، وتُثبّت إلى جدرانها وسقفها توصيلات وأنابيب كثيرة. م.

- السيد إيوالت ربما؟ لا أذكر – إلى شيء آخر. شيء لا يمكن أن أنساه. هناك في أعلى السّقف أنبوب بخار، تتدلّى منه عُقدة حبل، من نوع الحبل نفسه الذي استخدمه القاتل [لتقييد القتلى]. من الواضح أنّه في مرحلة معيّنة كان السيد كلاتر مربوطاً هناك، معلقاً من يديه [إلى أنبوب البخار]، ثم قُطع الحبل. ولكن لماذا؟ لتعذيبه؟ لا أظن أننا سنعرف يوماً مَن فعل هذا، أو لماذا فعله، أو ما الذي جرى في ذلك البيت تلك الليلة."

"بعد بعض الوقت، ابتدأ المنزل يغصّ بالناس. وصلت سيارات الإسعاف، والطبيب الشرعي، وكاهن الكنيسة الميثودية، ومصوّر الشّرطة، وأفراد من شرطة الولاية، وجماعة الراديو والصحف. أوه، حشد. معظمهم تم استدعاؤهم من الكنيسة [فاليوم هو الأحد]، وكانوا يتصرّفون كأنهم لا يزالون في الكنيسة. هادئون. يتكلمون همساً. بدا كأن أحداً لا يستطيع أن يصدق ما جرى. سألني أحد شرطة الولاية ما إذا كانت لي مهمّة رسميّة هناك، وإذا لم يكن، فمن الأفضل أن أغادر المكان. في الخارج، على المرج، رأيت نائب العمدة يتكلم مع رجل – ألفريد ستوكلين، العامل الأجير. يبدو أن ستوكلين كان يعيش على مسافة لا تزيد عن مئة ياردة من بيت كلاتر، ولا يفصل بين البيتين سوى مخزن حبوب. قال إنه لم يسمع أيّ صوت، قال، "لم أعلم بشيء إلا منذ خمس دقائق، حين جاء أحد أولادي راكضاً ليخبرني أن العمدة هنا. زوجتي وأنا لم ننم حتى ساعتين طوال الليل، كنّا قياماً وقعوداً طوال الوقت، فلدينا طفلة مريضة. الشيء الوحيد الذي سمعناه، حوالي السّاعة العاشرة والنصف، الحادية عشرة إلا ربعاً، هو صوت سيّارة تبتعد، وقلت لزوجتي، "إنّه بوب روب يغادر." انطلقتُ عائداً

إلى البيت، في منتصف الممر المفضي إلى بيت عائلة كلاتر، رأيت كلب كينيون العجوز خائفاً، يقف هناك وذيله بين ساقيه، لم ينبح أو يتحرّك. مرأى الكلب جعلني، بشكل ما أعاد لي حواسّي مجدداً. فقد كنت مبهوراً ومصدوماً إلى حد أنني لم أشعر تماماً ببشاعة ما رأيت. المعاناة. الرعب. كانوا ميتين. العائلة بكاملها. هؤلاء الناس اللطفاء الودودون، أناس أنا أعرفهم – مقتولون. عليك أن تصدّق ذلك، لأنّه هو الواقع بالفعل.

○ ○

تمُرّ يوميًّا ثمانية قطارات ركّاب - مُسرعة دون توقّف - عبر هولكومب. قطاران منها يأخذان البريد ويضعانه – وهي عمليّة لها جانبها المعقّد. "أي نعم! عليك أن تقف على رؤوس أصابعك حين تمرّ القطارات من هنا، أحياناً بسرعة 100 ميل في الساعة - ريحها فقط كافية لترميك أرضاً! – تُرمى إليك أكياس البريد طائرةً – ليحمنا الله! - كأنك تلعب مدافعاً يصدّ الهجوم في مباراة كرة قدم. وام! وام! واام! [صوت احتكاك الأكياس بالهواء.] لا تعتقد أني أشتكي لك، انتبه! فهذا عملٌ شريف، عملٌ حكوميّ، عملٌ يجعلني أحافظ على شبابي." وبالفعل تبدو مُراسِلةُ البريد في هولكومب، السيّدة "سادي ترويت،" أو الأم ترويت، كما يناديها أهل البلدة هنا، أصغر من عمرها البالغ 75 عاماً. أرملة ممتلئة الجسم لوّحت بشرتها الشمس وتضع عصابات الجدات على رأسها وتلبس بوطَ كاوبوي ("أَرْيح ما يمكن أن تضع فيه قدميك، ناعم مثل ريش العصفور")، الأم ترويت هي أكبر قاطني هولكومب الأصليين. "لم يكن هنا أحد لا تجمعني به صلة قرابة. في تلك الأيام كنّا نسمي هذا المكان "شيرلوك". ثم جاء شخص غريب،

اسمه هولكومب. مُربّي خنازير. جمع نقوداً وقرّر أن تُسمّى البلدة على اسمه. وبعدما صارت على اسمه، ماذا فعل؟ باع كل شيء، وانتقل إلى كاليفورنيا. إنّه ليس منّا. أنا وُلدت هنا، وأولادي ولدوا هنا. وها! نحن! هنا!" مِن أولادها السيدة "ميرتل كلير"، التي صادف أنها مديرة مكتب البريد المحلي. "فقط، لا تظنّوا أنها السبب في حصولي على هذه الوظيفة الحكومية. ميرتل لم تكن تريدني أصلاً أن أحصل على هذه الوظيفة [فهي لا تجلب مردودًا يوازي تعبها]. لكنها [بالنسبة لي] وظيفة يمكن أن تدْخُل المزاد من أجلها! لكن عليك أن تذهب إلى المزاد واضعًا أقلّ الشّروط الممكنة لتفوز بها. وهذا ما فعلتُه دومًا – أضع شروطًا وظيفيّة، لشدّة دنوّها، يمكن حتى للدّودة [أو أتفه مسؤول] أن تُلقي نظرة عليه [وتقبله]! ها ها ها! وهذا بالتأكيد ما يثير غيض الصّبيان عليّ! يودّ الكثير منهم العمل كسُعاة بريد، أي نعم. ولكن لا أدري كم سيحبون هذه الوظيفة حين يكون الثّلج بارتفاع السيّد بريمو كارنيرا العجوز[9]، والريح تعصف بقوّة، وتلك الأكياس تأتيك مُبحرة في الجو – أوه! واام!"

يوم الأحد، حسب وظيفة الأم ترويت، هو يوم عمل كأيّ يوم. وفي 15 نوفمبر/تشرين الثاني، بينما كانت تنتظر قطار العاشرة والنصف صباحاً المتّجه إلى الغرب، صعقها مرأى سيارتَي إسعاف تعبران سكك القطار وتدوران متجهتين صوب مزرعة كلاتر. ممّا دفعها إلى القيام بما لم تقم به من قبل قط – التخلّي عن واجبها، ليسقط البريد أينما سقط، لا بدّ أن ميرت سمعت حالاً بالخبر!

(9) بريمو كارنيرا (1906-1967) ملاكم إيطالي ضخم (طوله 197 سم) وصُنّف ضمن فئة الوزن الثقيل.

يُشير أهل هولكومب إلى مكتب البريد الخاص بهم بإسم "المبنى الفيدرالي،" وهو اسم أكبر بكثير من أنْ يُمنح لسقيفة مغبرة تصفر فيها الريح. السقف يسرّب المياه، وألواح الأرضيّة تهتزّ، وأبواب صناديق البريد لا يمكن غلقها، والأضواء مكسورة، والسّاعة متوقفة. "نعم، إن المكتب فضيحة،" وافقت السيدة المتهكمة، والأصلية بعض الشيء، وذات الهيبة، والتي ترأس هذا الركام. "لكن الطوابع تعمل، أليس كذلك؟ على أي حال، ماذا يهمني؟ القسم الخاص بي هنا دافئ. لدي كرسي هزاز، وموقد حطب، وركوة قهوة، ومواد كثيرة للقراءة."

السيدة كلير شخصية معروفة في مقاطعة فيني. وهي لا تستمد شهرتها من وظيفتها الحالية بل من وظيفة سابقة – مضيفة قاعة الرقص، التجسيد الذي لا يدل عليه مظهرها. فهي امرأة نحيلة ترتدي بنطلونًا وقميص صوف وحذاء كاوبوي، لونها أصفر مُسْمَر ولها مزاج حاد، وذات عمر غير ظاهر ("أنا أعرف، وأنت تخمّن") ولكنها تطلق آراءً سريعة، تُعلن معظمها بصوت عال كصوت صياح الديك، ومخترِق مثله. أدارت هي وزوجها المرحوم، حتى عام 1955، جناح رقص هولكومب. وهو مشروع، بفضل فرادته في المنطقة، يجذب زبائنه من محيط مئة ميل؛ وهو سريعو الشّرب، وخُطاهم راقصة. سلوكهم هذا يجذب بدوره اهتمام العمدة من حين لآخر. "مرت بنا بعض الأوقات الصّعبة، صحيح،" تقول السيدة كلير، وتستغرق في سرد الذكريات. "بعض الصبيان الريفيين ذوي الأرجل المقوّسة، تعطيهم القليل من الخمر فتراهم – مثل الهنود الحمر - يريدون تدمير كل شيء يقع تحت نظرهم. طبعاً نحن لا نبيع سوى مواد مقلّدة! ولا نبيع أبداً الخمرة الثقيلة الأصلية. لا نبيعها حتى لو كانت مشروعة. فزوجي، هومير كلير،

لم يتمسّك بها، ولا أنا أيضاً. ذات يوم قال لي هومير كلير – توفي منذ سبعة أشهر واثني عشر يوماً، بعد عمليّة استمرت خمس ساعات في ولاية أوريغون – "ميرت، عشنا كل حياتنا في الجحيم، الآن سنموت في الجنة." في اليوم التالي أغلقنا صالة الرقص. لم أندم يوماً على ذلك. أوه، لكنني اشتقت، لفترةٍ أن أعود بومةَ ليل – وسط الإيقاعات والابتهاج. أمّا الآن وقد توفي هومير، فأنا سعيدة بالعمل في المبنى الفيدرالي. أجلس لبعض الوقت. أشرب فنجاناً من القهوة."

الحقيقة أن السيدة كلير، في يوم الأحد ذاك، سكبت لنفسها فنجان قهوة من ركوة معدّة للتو، حين جاءت الأم ترويت.

"ميرت!" قالت، ولم تستطع أن تقول أكثر إلى أن التقطت أنفاسها. "ميرت، اتجهت سيارتا إسعاف إلى بيت عائلة كلاتر."

قالت ابنتها، "أين وارد العشرة اثنان وثلاثين؟"

"سيارتا إسعاف. إلى بيت عائلة كلاتر –"

"أوكي، ما الغريب؟ الأمر يتعلق ببوني فقط. نوبة من نوباتها. أين وارد العشرة اثنان وثلاثين؟"

هدأت الأم ترويت؛ كالعادة، عرفت ميرت الجواب، وكانت تستمتع بالكلمة الأخيرة. عندئذ خطرت للأم فكرة. "ولكن يا ميرت، إذا كان الأمر يتعلق ببوني فقط، لماذا سيارتا الإسعاف؟"

اضطرت السيدة كلير، وهي من المعجبات بالمنطق، رغم أن لها تفسيرها الغريب له، أن تعترف أنه سؤال منطقي. قالت إنها سوف تتصل بالسيدة هيلم. "مابل ستعرف ما الأمر،" قالت.

استمرت المكالمة مغ السيدة هيلم بضع دقائق، كانت دقائق من القلق الشديد للأم ترويت التي لم تتمكن من سماع شيء سوى الردود

المهمة الوحيدة المقطع من ابنتها. الأسوأ من هذا، أن الابنة لم ترو فضول العجوز بعد أن وضعت السماعة؛ وبدلاً من ذلك راحت تشرب قهوتها بهدوء، ومضت إلى مكتبها وبدأت تختم الرسائل المتراكمة.

"ميرت،" قالت الأم ترويت. "من أجل الله. ماذا قالت مابل؟"

"ليس مفاجئاً لي،" قالت السيدة كلير. "حين تفكرين كيف قضى السيد كلاتر كل حياته في عجلة، يسرع إلى هنا كي يأخذ بريده دون أن يضيع ولو دقيقة واحدة كي يقول صباح الخير أو حتى شكراً يا كلبة، ثم يندفع هنا وهناك كدجاجة مقطوعة الرأس – يشارك في النوادي، يدير كل شيء، يحصل على وظائف ربما يريدها أناس آخرون. والآن انظري – قُضي الأمر معه. إنه لن يسرع بعد اليوم."

"لماذا، ميرت؟ لماذا لن يسرع؟"

رفعت السيدة كلير صوتها. "**لأنه مات**. وبوني ماتت. ونانسي والصبي. أحد ما قتلهم بالرصاص."

"ميرت – لا تقولي الأشياء بهذه الطريقة. من قتلهم؟"

أجابت السيدة كلير، دون أن تتوقف عن ختم البريد، "الرجل الذي كان في الطائرة. الرجل الذي قاضاه هيرب لأن طائرته تحطمت بين أشجار الفواكه. إن لم يكن هو، فقد تكونين أنت. أو أي شخص من الشارع. كل الجيران ثعابين. أوغاد ينتظرون الفرصة ليصفقون الباب في وجهك. الأمر نفسه في كل مكان من العالم. تعلمين ذلك."

"كلا، لا أعلم،" قالت الأم ترويت ووضعت يديها على أذنيها. "لا أعرف أي شيء كهذا."

"أوغاد."

"أنا خائفة يا ميرت."

"من ماذا؟ حين تجيء ساعتك ستجيء، ولن تنجيك الدموع."
لاحظتُ أن أمها بدأت تذرف الدمع. "حين توفي هومير، استهلكت كل الخوف الذي في داخلي، وكل الحزن أيضاً. إذا كان شخص ما منفلت هنا ويريد أن يذبحني، فإني أتمنى له التوفيق. ما هو الفرق؟ لا فرق في الأبديّة! تذكري فقط: لو أن عصفوراً واحداً حمل كل حبّة رمل، حبة بعد حبة، وعبر بها المحيط، ونقل الرّمال كلها إلى الجانب الآخر منه، عندها فقط تبدأ الأبديّة. لذلك امسحي دموعك!"

○ ○

انتشرت المعلومات المروعة على منابر الكنائس ومنها إلى الناس فتناقلوها عبر الهواتف، وبثّتها إذاعة غاردن سيتي، محطة إذاعة **كيول** ("مأساة لا تصدّق! وصادمة بما يتخطّى حدود الكلام، أصابت أفراد عائلة هيرب كلاتر الأربعة ليل الأحد الماضي أو صباح اليوم. قتلٌ وحشيّ دون دافع واضح.. ")، ما ولّد لدى عامة الناس ردّ فعل أقرب إلى رد فعل الأم ترويت وليس السيدة كلير: ذهول أقرب إلى الخوف؛ إحساس سطحيّ بالرّعب، تعمّق سريعاً بتأثير البرد النابع خوف الذّات.

في مقهى هارتمان الذي يحتوي أربع طاولات مصنوعة كيفما اتفق مع منضدة غداء، دارت بعض الثرثرة الخائفة، لزبائن أغلبهم من الرّجال، رغبوا في التجمّع. أمّا المالكة، السيدة "بيس هارتمان"، فهي سيّدة نحيلة متعقلة، ذات شعر قصير تتردّد خصلاته بين الذهبيّ والرماديّ، وعينان خضراوان لامعتان متسلّطتان، وهي قريبة للسيدة كلير مديرة مكتب البريد. السيدة هارتمان تعادل هذه الأخيرة في الصراحة، أو ربما تتفوّق عليها. "يقول البعض إنني طائر قديم جلف، ولكن موضوع عائلة كلاتر حرمني الطيران،" وفيما بعد قالت لإحدى

صديقاتها. "تخيّلي أن أحداً قام بمثل هذه الفظاعة! بداية علمي بالأمر، حين كان الجميع يتدفقون إلى هنا ويحكون عن أشياء رهيبة من كل صنف، أوّل ما خطرت في بالي هي بوني. بالطبع هذا غير معقول، ولكننا لم نكن نعرف الحقائق، كثير من الناس ظنّوا أن الأمر ربما يتعلّق بنوباتها. الآن لا نعرف بماذا نظن. لا بد أنها جريمة قتل بسبب الحقد. قام بها شخص يعرف البيت من الداخل والخارج. ولكن مَن كان يكره عائلة كلاتر؟ لم أسمع في حياتي كلمة ضدهم؛ كانوا محبوبين كأكثر ما يمكن لأسرة أن تكون تقريباً، وإذا حصل هذا الأمر لهم، فأنا أسألك، من هو الآمن إذن؟ في يوم الأحد ذاك، كان عجوز يجلس هنا، وقد وضع إصبعه على الجرح، على سبب خوف الجميع؛ قال، "كل الناس الموجودون هنا، هم أصدقاؤنا. لا يوجد أحد آخر." وهذا أسوأ ما في هذه الجريمة. هل هناك أكثر رعباً من أن لا يستطيع الجار أن ينظر في عيني جاره دون ريبة الآن! نعم، إنه أمر قاس يصعب العيش معه. ولكن إذا اكتشفوا يوماً من فعل هذا، فأنا واثقة من أن ذلك سيكون مفاجئاً أكثر من الجريمة نفسها!"

السيّدة "بوب جونسون"، زوجة وكيل **نيويورك للتأمين على الحياة**، طبّاخة ممتازة، ولكن الغداء الذي أعدّته يوم الأحد لم يؤكل – على الأقل لم يؤكل ساخناً – ففي اللحظة التي كان فيها الزوج يغمس سكّينه في طائر التدرج المشويّ، تلقّى اتصالاً من أحد أصدقائه. "مِن ذلك الاتصال علمت لأوّل مرة بما حدث في هولكومب." يتذكّر السيد جونسون بأسى. "لم أصدق ما سمعت. لم أحتمل ما سمعت. يا الله، لا يزال في جيبي الشيك الذي وقّعه السيد كلاتر. قطعة ورقة تعادل ثمانين ألف دولار. إذا كان ما سمعته صحيحاً. لكني قلت في نفسي، مستحيل،

لا بد أن هناك خطأ ما، لا تحدث اشياء كهذه. أن تبيع أحداً ما بوليصة تأمين كبيرة الآن ثم يموت في اللحظة التالية. مات مقتولاً. هذا يعني تعويضاً مضاعفاً. لم أدر ماذا أفعل. اتّصلت بمدير مكتبنا في ويتشيتا. أخبرته أن الشّيك معي ولكني لم أسجّله بعد، وطلبت منه النصيحة. لقد كانت حالة دقيقة. فقد تبيّن أننا غير ملزمين أن ندفع قانونياً. ولكن أخلاقياً- كان الأمر يختلف. طبعاً، قرّرنا أن نتصرف بما تمليه الأخلاق."

الشخصان اللذان أفادا من هذا الموقف المشرّف، هما إيفانا جارتشاو وأختها بفرلي، الوريثتان الوحيدتان لأملاك أبيهما، وقد كانا، بعد معرفتهما المروّعة، في طريقهما إلى غاردن سيتي، بفرلي قادمة من وينفيلد، كانساس، حيث كانت في زيارة خطيبها، وإيفانا من بيتها في مونت كارول، ولاية إلينوي. وتدريجياً في سياق اليوم، وصل الخبر إلى أقارب آخرين، منهم والد السيد كلاتر، وأخواه، آرثر وكلارنس، وأخته السيدة هاري نيلسون، وكلهم من لارند في كانساس؛ وأخته الثانية السيدة إيلين سيلسور، من بالاتكا، فلوريدا. وأيضاً، والدا بوني كلاتر، السيد والسيدة آرثر ب. فوكس، اللذان يعيشان في باسادينا، كاليفورنيا، وأخوتها الثلاثة – هارولد، من فيزاليا، كاليفورنيا؛ هوارد من أوريغون، إلينوي؛ وغلين، من كانساس سيتي، كانساس. الواقع أن غالبية هؤلاء الأشخاص هم على قائمة المدعوين إلى حفل عيد الشكر عند عائلة كلاتر، وكانوا قد تلقوا الدعوة هاتفياً أو برقياً، وتداعت غالبيتهم للمجيء إلى ما سيكون اجتماعاً عائلياً، ولكن حَوْل مجلس أنين إلى جوار قبر دفْن جماعي.

في سكن المعلّمين، كانت ويلما كيدويل مرغمة أن تسيطر على نفسها لكي تتمكن من السيطرة على ابنتها، لأن سوزان، وقد تورّمت

عيناها وراحت تعاني من آلام البطن والغثيان، راحت تجادل أمها، وتصرّ بشكل لا ردّ له، إنها يجب أن تذهب – أن تركض – ثلاثة أميال إلى مزرعة روب. "ألا ترين يا أمي؟" قالت. "فقط لو يسمع بوبي بالأمر! هو يحبها. وأنا أيضاً. يجب أن أخبره أنا وليس غيري."

لكن بوبي كان قد علم بالأمر. فالسيد إيوالت توقف في طريقه إلى منزله عند مزرعة روب، وتبادل الرأي مع صديقه جوني روب، وهو أب لثماني أولاد، كان بوبي ثالثهم. ذهب الرجلان إلى البانكهاوس – وهو مبنى مستقل عن بيت المزرعة الصغير غير القادر على احتضان أولاد عائلة روب جميعًا. لذلك فإن الصبية يعيشون في البانكهاوس، والبنات "في البيت". وجدا بوبي يرتّب سريره. سمع إلى السيد إيوالت، لم يطرح أيّ سؤال، وشكره على قدومه. بعدئذ وقف خارجاً تحت الشمس. تقع مزرعة روب على مرتفع، على هضبة مكشوفة، منها تمكن رؤية أرض مزرعة ريفر فالي المحصودة وهي تتوهّج – المشهد الذي أخذه ربما لساعة من الوقت. لم يستطع انتشاله من استغراقه كل الذين حاولوا ذلك. رنّ جرس الغداء، فدعتْه أمّه للدخول – نادته حتى قال زوجها أخيراً، "كلا. أفضّل أن نتركه وحيداً."

لاري، وهو أصغر من بوبي، رفض أيضاً الاستجابة لدعوة جرس الطعام. صار يدور حول بوبي، يريد أن يساعده ولكنه عاجز، ومع ذلك طلبوا منه "الابتعاد." بعد ذلك، حين تحرّك بوبي وبدأ السّير، متّجهاً عبر الحقول إلى هولكومب، تبعه لاري. "هي، بوبي. اسمع. إذا كنا سنذهب إلى مكان ما، ألا نذهب بالسيارة؟" لكن أخاه لم يرد. كان يمشي بقصد، يركض، حقاً، لكن لاري لم يجد صعوبة في مدّ خطواته. ورغم أنه في الرابعة عشرة من عمره فقط، فقد كان أطول من أخيه، وذا صدر

أعرض وساقين أطول؛ وكان بوبي، بكل مكانته الرياضية، ذا حجم أقل من الوسط -- مكتنز ولكن رشيق، صبيّ بينيّة رائعة ووجه مشروح ذو وسامة مألوفة. "هي، بوبي. اسمع. لن يسمحوا لك أن تراها. لن يفيدك ذلك." استدار بوبي نحوه، وقال، "ارجع. عد إلى البيت." الأخ الأصغر قصّر خطوه خلف أخيه، ثم تبعه عن بعد. رغم برودة موسم اليقطين، والالتماع الجاف للنهار، إلا أن الصبيّان كانا يتعرّقان حين اقتربا من الحاجز الذي نصبته شرطة الولاية على مدخل مزرعة ريفر فالي، بينما تجمّع هناك الكثير من أصدقاء عائلة كلاتر، وغرباء من كل المقاطعة أيضاً، ولكن لم يُسمح لأحد بأن يتجاوز الحاجز الذي رُفع قليلاً، مع وصول بوبي وأخيه، للسّماح بمرور أربع سيارات إسعاف، وهو عدد السيارات الذي احتاجوه أخيراً لنقل الضحايا، رفقة سيارة مليئة بالرجال من مكتب العمدة – الرجال الذين كانوا، في تلك اللحظة تحديدًا، يتذكّرون اسم بوبي روب. ذلك أن روبي، كما علم بهذا قبل حلول الليل، كان المشتبه به الرئيسيّ في نظرهم.

من نافذة بيتها، رأت سوزان كيدويل الموكب الأبيض يمضي مبتعداً، راقبته حتى استدار حول الزاوية، وحتى هدأ الغبار الذي أثاره على الطريق غير المعبّد. كانت لا تزال تتأمل المشهد حين صار بوبي، يظلّله أخوه الصغير الطويل حتى بات جزءاً منه، فهرعت تمشي دون توازن. خرجت إلى الشرفة كي تقابله. "كنت أودّ كثيراً أن أخبرك أنا!" لكن بوبي شرع في البكاء. تريّث لاري على حافة ساحة سكن المعلمين، مستنداً إلى شجرة. لا يذكر أنّه رأى بوبي يبكي، ولم يكن يودّ أن يرى، لذلك خفضَ عينيه.

o o

بعيداً، في بلدة أولاث، في غرفة فندق تحميها ستائر النوافذ من شمس منتصف النهار، كان بيري نائماً، وإلى جانبه يهمهم جهاز راديو محمول. لم يكلّف نفسه عناء خلع ملابسه، سوى أنه خلع بوطه. كان مرتمياً ووجهه إلى الأسفل على السرير، كما لو أن النوم سلاح طعنه من الخلف. أمّا البوط، الأسود ذو المشبك الفضي، فمنقوع في حوض غسيل مليء بماء دافئ ملوّن بالورديّ على نحو غامض.

على بعد بضعة أميال، في مطبخ هانئ لمزرعة متواضعة، كان دك يتناول غداء الأحد. ولم يلاحظ الآخرون الذين يشاركونه الطاولة – أمه وأبوه وأخوه الأصغر – أي شيء غير عادي في سلوكه. وصل البيت ظهراً، قبّل أمّه، وأجاب دون تردّد على أسئلة أبيه المتعلّقة برحلتهم الليلية المفترضة إلى فورت سكوت، ثم جلس يأكل، دون أن يبدو منه أيّ شيء خارج المألوف. بعد الانتهاء من الأكل، جلس الذكور الثلاثة في غرفة الجلوس لمتابعة مباراة كرة سلّة على التلفزيون. وما كادت تبدأ المباراة حتى فوجئ الأب بسماع شخير دك؛ وكما قال لابنه الأصغر، إنه لم يتصوّر في حياته أن يشهد اليوم الذي يفضّل فيه دك أن ينام على أن يتابع كرة السلة. لكنه، بالطبع، لم يكن مدركًا إلى أيّ حد كان دك مرهقاً، ولم يكن يعلم أن ابنه الدائخ، إلى جانب قيامه بأمور أخرى، قد قاد السيّارة لأكثر من 800 ميل خلال الأربع وعشرين ساعة الماضية.

الفصل الثاني

مجهولون

يوم الاثنين ذاك، السّادس عشر من نوفمبر/تشرين الثاني، 1959، كان لا يزال طقس طيور التدْرُج سائداً على سهول القمح العالية في كانساس الغربية – فالسماء لامعة بشكل رائع، ومضيئة كالألماس. في مثل هذه الأيام من السنوات الماضية، غالباً ما كان أندي إرهارت يقضي فترات ما بعد الظهر الطويلة في صيد طيور التدْرُج في مزرعة ريفر فالي، مزرعة صديقه الطيّب هيرب كلاتر، وغالباً ما يصحبه في هذه الرحلات الرياضية، ثلاثة من أعز أصدقاء هيرب: "الدكتور ج. ي. دالي،" طبيب بيطري؛ و"كارل ميرس،" صاحب معمل لبن؛ و"إيفيريت أوغبورن،" رجل أعمال. وجميعهم كانوا مثل إرهارت، مدير **محطة التجارب الزراعية في جامعة ولاية كانساس**، مواطنين بارزين في غاردن سيتي.

مرة أخرى اجتمع اليوم رُباعيُّ صُحبة الصّيد القديمة هؤلاء، للقيام بالرحلة المعتادة، ولكن بروح غير معتادة، ومسلحين بمعدات غريبة وغير رياضية – مماسح ودلاء، فراشٍ للحكّ، ومنظفات قوية، وسلة مليئة بالخرق. كانوا في ملابسهم القديمة. تطوّع هؤلاء الرجال، وقد شعروا أن من واجبهم، وأنه واجب مسيحي، أن ينظفوا قسماً من الغرف الأربع عشرة في البيت الرئيسي في مزرعة ريفر فالي: الغرف التي قُتل فيها أربعة من عائلة كلاتر، على يد "مجهول أو مجهولين"، كما جاء في شهادات الوفاة.

انطلق إرهارت ووالداه بالسيارة صامتين، بعد وقت علّق أحدهم، "غرابَةُ هذا الحدث تُخرس اللسان. ها نحن ذاهبون إلى المكان الذي طالما رُحّب بنا فيه." في هذه المرّة رحّب بهم أحد عناصر الطرق السريعة. فقد أشار لهم، وهو حارس على حاجز نصبته السلطات

على مدخل المزرعة، أن يدخلوا، فتقدّموا بالسيارة لمسافة نصف ميل آخر في الممر الذي تظلّله أشجار الدردار والمُفضي إلى بيت عائلة كلاتر. أمّا ألفريد ستوكلين، المستخدم الوحيد الذي يعيش فعلاً في المزرعة، فوقف ينتظر لاستقبالهم.

ذهبوا أولاً إلى غرفة الفرن في القبو، المكان الذي وُجد فيه السيد كلاتر ممدّداً على صندوق من الكرتون وهو بلباس النوم. بعد ذلك، انتقلوا إلى غرفة اللعب حيث قُتل كينيون بالرصاص. كانت الأريكة، وهي قطعة قديمة أنقذها كينيون من الإتلاف وأصلحها ثم غطّتها نانسي بأغطية متحرّكة وملأتها بالوسائد المزركشة، خراباً ملطخاً بالدم؛ فتعيّن إحراقها، مثل صندوق الكرتون. ومع تقدّم فريق التنظيف، تدريجياً، من القبو إلى غرف النوم في الطابق الثاني حيث قُتلت نانسي وأمها في سريريهما، طلبوا وقوداً إضافياً من أجل عملية الحرق الوشيكة – أغطية أسرة ملطخة بالدم، وفرشات، والبسط التي تكون بجانب الأسرّة، والدبّ اللعبة: تيدي.

حملَ ألفريد ستوكلين، الذي ليس من عادته أن يكون ثرثاراً، الكثير من الكلام وهو يحضّر الماء الحار ويساعد أيضاً في حملة التنظيف. لقد أراد أن "يكفّ الناس عن الجعجعة وأن يحاولوا أن يفهموا" لماذا لم يسمع هو وزوجته، رغم أنهما يعيشان بالكاد على بعد 100 ياردة من بيت كلاتر، "أي شيء" – ولا أبسط صدى لصوت مسدس – من العنف الذي وقع. "العمدة والشباب كلّهم مشغولون بأخذ البصمات والكشط هنا وهناك، إحساسهم قوي، ويفهمون كيف حدث.. كيف حدث أنّه لم يتناهى إلى سمعنا شيء. لسبب واحد: الرّيح. الرّيح الغربيّة؛ حملت الصوت إلى الجهة الأخرى. شيء آخر،

هناك مخزن حبوب الميلو الكبير بين هذا البيت وبيتنا. المخزن القديم يمكن أن يمتصّ صوت صاروخ قبل أن يصلنا. وهل خطر لكم لمرّة هذا الشيء؟ إن من أطلق النار، لا بد أنه يعرف أننا لن نسمع شيئًا. وإلا ما كان سيخاطر بإطلاق الرّصاص أربع مرات في منتصف الليل! إلا إذا كان مخبولًا. طبعاً، قد تقولون إنه مجنون على أي حال، لفعلته تلك [القتل]. ولكن رأيي هو أنّ من أقدم على ذلك قد حسبها من الألف إلى الياء. كان يعرف. وهناك شيء أعرفه أيضاً، أنا والمدام: لقد نمنا ليلتنا الأخيرة هنا.. سوف ننتقل إلى بيت بجانب الطريق السريع!"

اشتغل الرجال من الظهر حتى المساء. وحين جاء وقت الحرق، كوّمو ما جمعوه في شاحنة صغيرة وساق بهم ستوكلين إلى عمق الحقل الشمالي من المزرعة؛ مكان منبسط مفعم اللون، رغم أنه لون واحد، لون قشّ القمح الأصفر المسمَرّ يتلألأ في نوفمبر/تشرين الثاني. هناك أنزلوا الحِمل عن الشاحنة، وصنعوا أهراماً من وسائد نانسي وأغطية الأسرّة والسجادات وأريكة غرفة اللعب؛ ثم رشّ عليها ستوكلين سائل الكيروسين، وأضرم النار بعود ثقاب.

من بين الحاضرين، لم يكن هناك أقرب إلى عائلة كلاتر من أندي إرهارت؛ عالمٌ لطيف، جليل ودود، ذو يدين صلّبهما العمل، ورقبة حرقتها الشمس. كان زميل هيرب [منذ أيّام الدراسة] في جامعة ولاية كانساس. "كنا أصدقاء لمدة ثلاثين سنة،" قال بعد وهلة، وخلال هذه السنوات شاهد إرهارت صديقه ينتقل من وكيل زراعيّ في المقاطعة براتب هزيل، إلى واحد من أشهر مزارعي المنطقة وأكثرهم احتراماً: "كل ما حققه هيرب، كان بمعونة من الله. لانّه متواضعٌ وأبِيٌّ، كما يحقّ له أن يكون. أنشأ عائلة رائعة. حقّق شيئاً في حياته." ولكن بعد هذه الحياة،

وما أنجز في حياته – كيف أمكن أن يحدث هذا، تساءل إرهارت وهو يراقب النار تشتعل. كيف يمكن لمثل هذا الجهد، لمثل هذه الاستقامة الصريحة، أن ترتدّ بين عشية وضحاها إلى هذا – دخان، يتلاشى وهو يرتفع وتستقبله السماء الواسعة حيث يتلاشى كل شيء.

ه ه

مكتب تحقيقات كانساس، هو منظّمة على مستوى الولاية، يقع مقرّها في العاصمة، توبيكا، ولديها طاقم من تسعة عشر خبيرًا من رجال التحرّي، موزّعين في أرجاء الولاية، وخدمات هؤلاء الرجال متاحة في أي وقت تبدو فيه القضية فوق مستوى كفاءة السلطات المحليّة. مندوب هذا المكتب في غاردن سيتي، والوكيل المسؤول عن قسم كبير من كانساس الغربية، هو رجل نحيل ووسيم من الجيل الرابع في كانساس، يُدعى آلفن آدامس ديوي، وله من العمر 47 عاماً. وكان من بين الأمور المتعذّر اجتنابها هو أن يطلب السيد إيرل روبنسون، عميد مقاطعة فيني، من آل ديوي أن يتولّى قضية عائلة كلاتر. لقد بات امرًا محتّماً وملائماً. لأن ديوي، وقد كان هو نفسه عميدًا سابقًا لمقاطعة فيني (من 1947 إلى 1955)، وقبل ذلك مندوباً خاصاً لل F.B.I (بين 1940 و1945، وقد خدم في نيو أورليانز، وسان أنتونيو، ودينفر، وميامي، وسان فرانسيسكو)، بدا أنّه مؤهّل من الناحية المهنيّة للتعامل مع قضية بهذا التعقيد، حيث لا دوافع واضحة، وليس أمامنا سوى قتلى عائلة كلاتر دون أدلّة. أكثر من هذا، فموقفه من الجريمة جعلها، كما قال لاحقاً، "مسألة شخصية." وتابع قائلاً إنه كان، وزوجته "يحبّان من أعماقهما هيرب وزوجته،" و"كانا يلتقيان بهما كل يوم أحد في الكنيسة، وكثيراً ما تبادلا الزيارات،"

مضيفاً، "ولكن حتى لو كنت لا أعرف العائلة، ولا أحبهم بهذا القدر، فلن يشكّل ذلك أيّ فرقٍ عندي. لقد رأيت في حياتي أشياء قذرة، بالتأكيد رأيت أشياء في غاية القذارة. ولكن لم أر هذا القدر الهائل من الشرّ. ومهما استغرق الأمر، حتى لو استغرق حياتي الباقية، فإنني سأعرف ماذا حدث في ذلك البيت: لماذا وكيف."

لهذه الغاية، تم تعيين ثمانية عشر رجلاً للعمل على القضية بدوام كامل، بينهم ثلاثة من أفضل المحققين في مكتب تحقيقات كانساس - العملاء الخاصين "هارولد ناي"، و"روي تشيرش"، و"كلارينس دونتز". ومع وصول هؤلاء الثلاثة إلى غاردن سيتي، كان ديوي سعيداً لأنه تم تشكيل "فريق قوي." وقال، "هناك شخص ما عليه أن يكون حذراً!"

يقع مكتب العمدة في الطابق الثالث من محكمة مقاطعة فيني، وهي مبنى عادي من الحجر والاسمنت، ينهض في وسط ساحة مليئة بالأشجار كانت لتكون جذّابة لولاه. في هذه الأيام، باتت غاردن سيتي، التي كانت مدينة حدودية صاخبة، هادئة تماماً. العمدة لا يقوم، على العموم، بأعمال كثيرة، ومكتبه المؤلف من ثلاث غرف مفروشة على نحو خفيف، هو مكان هادئ عادة يستهوي متبطّلي المحكمة؛ السيدة "إدنا ريتشاردسون"، سكرتيرته المضيافة، التي تكون دائماً ركوة القهوة حاضرة بين يديها، مع الكثير من الوقت "للثرثرة". أو هكذا كان، حتى "جاء موضوع عائلة كلاتر"، كما احتجّت، وجلب معه "كل هؤلاء الناس الغريبين عن المدينة، وكل هذه الجلبة في الصّحف." القضية فرضت ذاتها على عناوين الصحف وصولاً إلى شيكاغو في الشرق، وإلى دنفر في الغرب، وجذبت فعلاً إلى غاردن سيتي مجموعات كبيرة من الصحفيين.

في ظهيرة يوم الاثنين، عقد ديوي مؤتمراً صحفياً في مكتب العمدة. "سأتكلم عن الحقائق لا النظريّات،" فأكّد للصحفيين المتجمهرين. "الحقيقة الكُبرى الآن وهنا، والشيء الذي يجب أن نتذكره، هو أننا لا نتعامل مع جريمة قتل واحدة بل مع أربع جرائم قتل. ولا ندري من بين هؤلاء الأربعة من هو المستهدف الرئيسي. الضحية الرئيسية قد تكون نانسي أو كينيون، أو أحد الوالدين. البعض يقول، لا بد أن المستهدف الرئيسي هو السيد كلاتر. لأنه الوحيد المذبوح؛ ولهذا فهو أكثر من نال الإساءة. لكن هذه نظرية وليست حقيقة. يمكن أن تُفيد لو علمنا ترتيب قتل الضحايا، لكن الطبيب الشرعي لم يتمكّن من تحديد ذلك؛ ما تمكّن من معرفته هو أن الجرائم وقعت بين الساعة الحادية عشرة من مساء السبت والثانية من صباح الأحد." ثم، وفي رده على الأسئلة، قال لا، لم تتعرض أي من المرأتين "للانتهاك الجنسي،" ولا، كما هو معلوم حتى الآن، لا شيء مسروق من البيت، ونعم، إنه يعتبر أن بوليصة التأمين على الحياة بمبلغ أربعين ألف دولارًا والتي تعوِّض مضاعفة، وقد وقّعها السيد كلاتر قبل ثماني ساعات من موته، هي "صدفة غريبة". ولكن ديوي كان "متأكداً تماماً" من عدم وجود رابط بين هذه البوليصة والجريمة؛ كيف يمكن أن يكون هناك رابط، إذا كان المستفيد الوحيد منها مالياً هما ابنتا السيد كلاتر الناجيتان، البنتان الكبيرتان، زوجة السيد دونالد جارشو، والآنسة بفرلي كلاتر؟ وقال للمراسلين الصحفيين إن لديه رأياً فيما إذا كانت الجرائم صنيعة رجل واحد أو أكثر، لكنه فضّل أن لا يفصح عن رأيه.

الحقيقة، في هذا الوقت، وبشأن هذا الموضوع، لم يكن ديوي قد توصل إلى قرار. كان لا يزال يفكر في رأيين – أو في "تصوّرين"،

إذا استخدمنا كلماته - وفي إعادة تركيب الجريمة، رأى وجاهةً في الرأيين "تصوّر القاتل المفرد" و"تصوّر القاتلين الاثنين." في التصور الأول، يُعتقد أن القاتل هو أحد أصدقاء العائلة، أو، في كل حال، رجل لديه معرفة جيدة بالبيت وساكنيه - شخص يعلم أن الأبواب نادراً ما تقفل، وأن السيد كلاتر ينام وحيداً في غرفة النوم الرئيسية في الطابق السفلي، وأن السيدة كلاتر والأولاد يشغلون غرف نوم منفصلة في الطابق الثاني. وهذا الشخص اقترب من البيت سيراً على الأقدام، في حوالي منتصف الليل، كما تخيّل ديوي. النوافذ معتمة، والعائلة نائمة، وفيما يخصّ تيدي، كلب المزرعة، فقد كان معروفاً عنه أنه جبان. ولا شك أنه انكمش على ذاته حين رأى المقتحم وبيده السلاح، فأطلق أنينًا [خافتًا] ثم تسلّل مبتعداً. ولدى دخول القاتل البيت، تخلّص أوّلاً من أجهزة الهاتف - واحد في مكتب السيّد كلاتر والآخر في المطبخ - ثم بعد أن قطع الأسلاك، ذهب إلى غرفة نوم السيد كلاتر وأيقظه، وأجبره على طاعة الأوامر، وقد أصبح تحت رحمة الزائر المسلّح - أُجبر على مرافقته إلى الطابق الثاني، حيث أيقظا بقية العائلة. ثم، بحبل وشريط لاصق قدّمهما القاتل، قام السيد كلاتر بربط زوجته وتكميم فمها، وربط ابنته (التي لم تكن مكمّمة الفم، وهذا يحتاج إلى تفسير)، وربطهما كلّ واحدة إلى سريرها. ثم اقتيد الأب وابنه إلى القبو، هناك كمّم الأب فم كينيون وربطه إلى الأريكة في غرفة اللعب. ثم اقتيد الأب إلى غرفة الفرن، ضُرب على الرأس ورُبط. الآن بات القاتل حراً ويمكنه القيام بما يشاء، وقد قتلهم واحداً واحداً، وفي كل مرة يلتقط الرصاصة الفارغة بعناية. حين انتهى، أطفأ كل الأضواء وغادر.

يمكن أن يكون قد حدث الأمر على هذا النحو؛ مجرّد إمكانية. ولكن لدى ديوي شكوك: "لو ظن هيرب أن عائلته في خطر، في خطر مميت، لقاتل كالنمر. ولم يكن هيرب ضعيفاً – إنه رجل قوي وفي أفضل صحة. وكينيون أيضاً – كان كبيراً كأبيه، بل أطول، صبي بكتفين عريضين. من الصعب أن نفهم كيف يمكن لرجل واحد، مسلح أو غير مسلح، أن يسيطر على هذين الرجلين." وفوق هذا، كان ثمة ما يدل على أن شخصاً واحداً قام بعملية ربط الأربعة: في الحالات الأربع نجد العقدة نفسها، عقدة النّصف.

كان ديوي – وغالبية زملائه أيضاً – ميّالًا إلى الفرضية الثانية، التي تشبه الأولى في كثير من المفاصل الرئيسية، لكن الفارق المهم أن القاتل لم يكن وحيداً بل ثمة شريك له، ساعده في إخضاع العائلة، وتكميمها وربطها. ومع ذلك، هذه الفرضية أيضاً فيها عيوب. ديوي مثلاً وجد أنه من الصعب فهم "كيف يمكن أن يصل شخصان إلى نفس الدرجة من الغيظ، الغيظ المختلّ عقليًا الذي يدفع لارتكاب مثل هذه الجريمة." وتابع يشرح: "على فرض أن القاتل هو شخص من معارف العائلة، أحد أفراد المجتمع المحلي هنا؛ وعلى فرض أنه رجل عادي، عادي سوى شاذّ، يحمل حقدًا مجنونًا ضد عائلة كلاتر، أو ضد أحد أفراد هذه العائلة – فمن أين إذًا وجد شريكاً له، شخصاً مأفوناً بما يكفي لمساعدته؟ لا يتّسق الأمر هكذا. غير معقول. ولكن أيضاً، حين تفكّر ملياً، لا تعثر في ما حدث برمّته شيئاً معقولاً!"

بعد المؤتمر الصحفي، انسحب إلى مكتبه، وهو غرفة استأجرها له العمدة مؤقتاً. فيها مكتب وكرسيين بظهر مستقيم. وعلى المكتب تناثر ما يأمل ديوي يوماً ما أن يشكّل مستندات في قاعة المحكمة:

شريط لاصق، وأمتار من حبل رُفعت عن الضحايا وخُتم عليها الآن في أكياس بلاستيكية (كأدلّة، لا يبدو أن أياً منها سيكون مفيداً، لأنها منتجات شائعة العلامة التجارية، يمكن الحصول عليها من أي مكان في الولايات المتحدة)، وصور أخذها مصوّر الشرطة من مسرح الجريمة – عشرون صورة لامعة مكبرة لجمجمة السيد كلاتر المحطمة، ولوجه ابنه المهدم، وليَدَيْ نانسي المربوطتين، ولعَيْنَي أمّها اللتين أطفأهما الموت ولا تزالان تحدقان، وصور أخرى كهذه. في الأيام التالية، قضى ديوي ساعات كثيرة يتفحّص هذه الصور، على أمل أن يقع "فجأة على شيء ما"، أن يظهر له تفصيل ذو معنى: "مثل تلك الألغاز التي تسألك: كم حيواناً يمكنك أن ترى في الصورة؟ هذا ما أحاول عمله، بطريقة ما. أن أجد الحيوانات المختبئة. أشعر أنها يجب أن تكون موجودة – فقط لو أستطيع رؤيتها." في الحقيقة، إحدى الصور كانت صورة مقرّبة للسيد كلاتر وصندوق الكرتون الذي استلقت جثّته عليه، احتوت على مفاجأة ثمينة: آثار خُطى! آثار غُباريّة على شكل ماسات [معيّنة الزوايا] تركها حذاء ما. الآثار، التي لا تبدو بالعين المجردة، مسجلة على الفيلم؛ وبالفعل، فإن الوهج المحدِّد للمصباح الكهربائي الوامض كشف عن وجودها بدقة عالية. وقد كانت هذه الآثار، إضافة إلى طبعة قدم شوهدت على الغطاء الكرتونيّ نفسه – الانطباعَ الواضحَ والمدمى لنصف نعل حُفرت عليه رسمة قدم قطّ – هي "الأدلة الجادّة" الوحيدة التي يمكن أن يزعمها المحققون. ولم يكونوا يزعمون وجودها؛ وقد قرّر ديوي وفريقه إبقاء هذا الدليل طيّ الكتمان.

من بين المواد التي كانت على مكتب ديوي، يوميّات نانسي كلاتر. تصفّحها سابقًا بسرعة، أما الآن فإنه جلس يقرأ بجديّة تدويناتها يوماً

بيوم، التدوينات التي بدأت من عيد ميلادها الثالث عشر، وانتهت قبل حوالي شهرين من عيد ميلادها السابع عشر؛ بوحٌ بريء لطفلة ذكيّة تعشق الحيوانات، وتحبّ القراءة، والطبخ، والخياطة، والرقص، وركوب الحصان – فتاة شعبية ظريفة بريئة تعتقد أن "الغزل ممتع" ولكنها مع ذلك، "لا تحبّ حقاً وحقيقةً سوى بوبي." قرأ ديوي في البداية التدوينة الأخيرة. وهي تتألّف من ثلاثة سطور مكتوبة قبل ساعة أو ساعتين من موتها: " جاءت جولين ك. وعلّمتُها كيف تصنع فطيرة الكرز. تدرّبتُ مع روكسي. جاء بوبي وشاهدنا التلفزيون معاً ثم غادر في الحادية عشرة."

كان الشاب روب، وهو آخر شخص معروف رأى العائلة على قيد الحياة، قد أُخضع لاستجواب مكثف، ورغم أنه روى قصة واضحة عن قضائه "سهرة عادية جداً" مع عائلة كلاتر، فإنه تقرّرت مقابلته مرة أخرى، حيث سيُخضع هذه المرّة لاختبار كشف الكذب. وذلك ببساطة لأن الشرطة لم يكونوا مستعدين تماماً لرفع الشّبهة عنه. لم يكن ديوي، من ناحيته، مقتنعاً بأن للصبي "أي علاقة بالموضوع"؛ مع ذلك، كان صحيحاً أنه في هذه المرحلة من التحقيق، كان بوبي هو الشخص الوحيد الذي يمكن الاشتباه بدافع ما لديه، مهما كان ضعيفاً. فهنا وهناك، في دفتر اليوميّات، ذكرت نانسي السبب الذي يمكن أن يشكّل دافعاً: إصرار أبيها على أن "تقطع العلاقة" مع بوبي، وأن "تخفّف من لقاءاتها به،" واعتراضه يقوم على أن عائلة كلاتر ميثوديين، فيما عائلة روب كاثوليك – الحال الذي يلغي بالكامل، في نظره، أيّ أمل في زواجهما. لكن الملاحظة الموجودة في اليوميات والتي أثارت أقصى الاهتمام لدى ديوي، لم يكن لها علاقة بالطريق المسدود

بين عائلتي كلاتر وروب، الميثودي الكاثوليكي. بل تتعلق بقِطّ، بالموت الغامض لحيوان نانسي المدلّل، بوبس، الذي، وفق إحدى التدوينات المؤرّخة قبل أسبوعين من موت نانسي، وجدته "مستلقياً في المخزن،" وكان ضحيّة، أو هكذا هي شكّت (دون أن تقول لماذا)، بتسميمه: "بوبس المسكين. دفنته في مكان خاص." عندما قرأ ديوي هذا، شعر أنها ملاحظة قد تكون "في غاية الأهمية". إذا كان قد سُمِّم القط، ألا يمكن أن يكون هذا مقدمة كَيديّة صغيرة لجرائم القتل؟ قرّر أن يجد "المكان الخاص" الذي دفنت نانسي الحيوانَ فيه، ولو أن ذلك يعني تمشيط كل مزرعة ريفر فالي الواسعة.

وفي أثناء انشغال ديوي باليوميات، كان مساعدوه الرئيسيون، العملاء تشيرش ودونتز وناي، يجوبون الريف، يتحدثون، كما قال دونتز، "مع كل من يمكن أن يخبرنا عن أيّ شيء": مع هيئة المدرسين في مدرسة هولكومب، حيث كانت نانسي وكينيون في قائمة الشرف، من الطلاب المتفوقين؛ ومع المستخدمين في مزرعة ريفر فالي (طاقم يصل في الربيع والصيف أحياناً إلى 18 مستخدماً، ولكن في موسم الإراحة الحالي فإن هذا الطاقم يقتصر على جيرالد فان فليت وثلاثة مأجورين، إضافة إلى السيدة هيلم)؛ وأصدقاء الضحايا؛ وجيرانهم؛ وبشكل خاص، أقاربهم. ومن بين هؤلاء الأخيرين، وصل حوالي عشرون شخصاً، من أماكن بعيدة وقريبة، لحضور مراسم الجنازة التي ستقام صباح الأربعاء.

وقد أوكل إلى أصغر أفراد مجموعة مكتب التحقيقات في كانساس، هارولد ناي، وهو رجل نشيط صغير الحجم بعمر الرابعة والثلاثين، ذو عينين شكّاكتين لا تهدأان، وذو حدّةٍ في الأنف والذقن

والذهن، ما سمّاه "المهمة الحساسة اللعينة"، وهي مقابلة أقارب عائلة كلاتر: "إنه مؤلم لكم، ومؤلم لهم. ففي جرائم القتل لا يمكنك احترام الحزن. أو الخصوصية. أو المشاعر الشخصية. لا بد من توجيه الأسئلة. وبعض هذه الأسئلة يمكن أن يكون لها أثر بالغ." ولكن لا أحد من الأشخاص الذين استجوبهم، ولا من الأسئلة التي وجهها، أفضت إلى أي معلومات مفيدة ("كنت أستكشف الخلفيات العاطفية. ظننت أن الجواب قد يكون امرأة أخرى – مثلّث غرامي. تأمّل: السيّد كلاتر كان شاباً إلى حد ما، وبصحة جيدة جداً، ولكن زوجته كانت نصف معاقة، كانت تنام في غرفة مستقلة ...")؛ حتى الابنتان الناجيتان [أكبر بنات كلاتر] لم يكن لديهما أيّ تصوّر لسبب الجريمة. باختصار، ما علمه ناي هو هذا الشيء فقط: "من بين الناس في كل العالم، فإن عائلة كلاتر هي آخر عائلة يمكن أن تتوقع موتها بجريمة قتل. "

في نهاية اليوم، حين اجتمع العملاء الثلاثة في مكتب ديوي، تبين أن دونتز وتشيرش كانا أكثر حظاً من ناي – الأخ ناي، كما يسمونه. (أعضاء مكتب التحقيقات في كانساس يميلون إلى استعمال الألقاب: يُعرف دونتز بالعجوز – وهو لقب ظالم لأنه لم يبلغ الخمسين بعد، رجل ضخم الجثة ولكنه رشيق الحركة، بوجه عريض يشبه وجه القطط؛ أما تشيرش، الذي يبلغ من العمر حوالي الستين، ورديّ البشرة وله مظهر الأستاذ، ولكنه "قاس"، كما يقول زملاؤه، "وأسرع من يسحب مسدسه في كانساس،" فيدعى **الأجعد**، لأن رأسه بلا شعر تقريباً.) كلاهما التقط، في مجرى تحقيقاته، "مفاتيح واعدة".

تتعلّق قصة دونتز بأب وابن سوف يشار إليهما هنا باسم جون الكبير وجون الصغير. قبل بضع سنوات أجرى جون الكبير مع السيد

كلاتر صفقة تجارية صغيرة، وكان جون الكبير غير راض عنها، فقد شعر أن كلاتر "خدعه." كلاهما، الآن، جون الكبير وابنه "يسرفان في الشرب"؛ بالفعل، كثيراً ما سُجن جون الصغير بسبب الإسراف في تعاطي الكحول. ذات يوم تعيس، جاء الأب والابن، تملؤهما شجاعة الويسكي، إلى بيت كلاتر بقصد "القصاص من هيرب". وقد فاتتهم الفرصة، لأن السيد كلاتر، وهو لا يشرب الكحول ويعارض بشدة الشرب والسكارى، أخذ بندقيته وطردهما من المزرعة. لم ينس الأب والابن هذه الفظاظة؛ ومؤخراً، منذ شهر، قال جون الكبير لأحد معارفه، "كلما خطر في بالي ذاك النذل، ترتعش يداي. أريد فقط أن أخنقه."

الأثر الذي حصل عليه تشيرش كان من طبيعة ممثالة. فقد سمع هو أيضاً عن شخص يعلن عداءه للسيد كلاتر: شخص يدعى السيد سميث (رغم أن هذا ليس اسمه الحقيقي)، يعتقد أن مالك مزرعة ريفر فالي قد أطلق النار على كلب الصيد الخاص به وقتله. وحين تحرّى تشيرش منزل مزرعة سميث، رأى هناك حبلاً يتدلى من عارضة في أحد المخازن، وقد رُبط بنفس طريقة العقدة التي استخدمت في ربط أفراد عائلة كلاتر الأربعة.

"قد تكون إحدى هذه الأشياء دليلنا. شيء شخصي، ضغينة خرجت عن السيطرة،" قال ديوي.

"ما لم تكن سرقة،" قال ناي، رغم أن السرقة كحافز للجريمة استبعدت إلى هذا الحد أو ذاك، بعد نقاش مستفيض. هناك حجج قوية ضد فرضية السرقة، أقواها أن مقت السيد كلاتر للعملة الكاش كان أمراً معروفاً في المقاطعة، ولم يكن لديه خزْنة، ولم يحمل طوال حياته مبالغ كبيرة من المال الكاش. وأيضاً، إذا كان الدافع هو السرقة،

فلماذا لم يأخذ السارق المجوهرات التي كانت ترتديها السيدة كلاتر – محبس الزواج الذهبي وخاتم الماس؟ مع ذلك لم يكن ناي مقتنعاً: "رائحة السرقة تفوح من كل العملية. ماذا عن محفظة نقود كلاتر؟ هناك من تركها مفتوحة وفارغة على سريره – لا أعتقد أن صاحبها هو من فعل ذلك. ومحفظة يد نانسي المرمية على أرض المطبخ. كيف وصلت إلى هناك؟ نعم، ولا يوجد قرش واحد في البيت سوى دولارين وجدناهما في مغلّف على مكتب نانسي. صرف كلاتر شيكاً بستين دولار قبل يوم واحد. ونخمن أنه لا بد أن يكون قد بقي منها خمسون. لهذا يقول البعض، "لا يمكن لأحد أن يقتل أربعة أشخاص من أجل خمسين دولاراً." ويقول، "أكيد، ربما أخذ القاتل النقود، فقط كي يحاول تضليلنا للاعتقاد بأن السرقة هي الدافع." أنا في حيرة."

مع حلول الليل، قاطع ديوي المداولات كي يتصل بزوجته، ماري، في البيت، ليُخطرها إنه لن يأت إلى البيت للعشاء. "نعم، لا بأس آلفن،" قالت، ولكنه لاحظ في صوتها قلقًا لم يعهده من قبل. تزوّجا منذ سبعة عشر عاماً، ولهما صبيان حديثا السن؛ ماري المولودة في لويزيانا، وهي كاتبة اختزال (stenographer) سابقة لدى مكتب التحقيقات الفيدرالي، التقاها حين كان يعمل في نيو أورليانز، تعاطفت مع صعوبات مهنته – ساعات عمل غير منتظمة، اتصالات مفاجئة تستدعيه إلى مناطق نائية في الولاية.

"هل هناك مشكلة؟" قال.

"لا، لا شيء،" أكدت له. "فقط، حين تعود إلى البيت الليلة، عليك أن ترن الجرس. فقد غيّرت كل الأقفال."

الآن فهم الأمر، "لا تقلقي حبيبتي. فقط أوصدي الأبواب واتركي

ضوء الرواق مناراً."

بعد أن وضع السماعة، سأله أحد الزملاء، "ما الأمر؟ هل ماري خائفة؟"

"اللعنة، نعم،" قال. "ليست هي فقط، بل الجميع خائفون."

o o

لم يكن الجميع خائفون. وبالتأكيد لم تكن الأرملة مديرة مكتب البريد في هولكومب خائفة، السيدة الجسورة ميرتل كلير، التي كانت تزدري أبناء بلدتها لأنهم "جبناء، ترتعد فرائصهم ويخافون أن يغمضوا عيونهم،" وتقول عن نفسها، "هذه الفتاة القديمة، إنها تنام بعمق كعادتها. وليجرّب كل من يريد أن يكيد لي كيدًا!" (بعد 11 شهراً أخذها بكلامها فريق مدجّج بالسلاح من اللصوص المقنّعين، فهاجموا مكتب البريد وأراحوها من حمل 950 دولار.) وكالعادة، فإن قلّة قليلة كانت تشارك السيدة كلير أفكارها. "في هذه المنطقة،" بحسب أقوال أحد أصحاب مخازن الأدوات المعدنية في غاردن سيتي، "الأقفال والترابيس هي المادة الأكثر رواجاً. لا يهتمّ الناس من أيّ صنف هي؛ فهم يريدونها أن تصمد فقط." الخيال يمكن أن يفتح أيّ باب بالطبع – يدير المفتاح ويسمح للرعب بالدخول. الثلاثاء، عند الفجر، اندهشت مجموعة من صيادي طيور التذرُج القادمين من كولورادو – غرباء ولا علم لهم بالكارثة المحلية – لِما رأوه وهم يعبرون البراري ويمرون عبر هولكومب: نوافذ مضاءة، كلّ نافذة في كل بيت تقريباً، وفي الغرف المضاءة بشدّة رأوا الناس مستيقظين بلباسهم الكامل، عائلات بأكملها، سهرت طوال الليل، وهي في ترقّب وإنصات. مِمّ يخافون؟ "**يمكن أن تحدث ثانية.**" كان هذا هو الجواب المألوف، بتنويعاته. لكن امرأة واحدة، معلّمة

مدرسة، قالت، "ما كانت المشاعر وصلت إلى نصف هذا المستوى لو أن ما حدث حدث لأيّ شخص آخر غير عائلة كلاتر. لأي شخص أقل احتراماً، ونجاحاً، وأماناً. غير أن هذه العائلة كانت تمثّل كل ما له قيمة واحترام في نظر الناس هنا. وحين يحدث هذا الشيء لهم، فكأنك تقول للناس إن الله غير موجود. هذا يجعل الحياة تبدو بلا هدف. لا أعتقد أن الناس هنا خائفون بقدر ما هم عميقو الإحباط."

هناك سبب آخر، إنه السبب الأبسط والأفظع، وهو أن هذا التجمّع من الأصدقاء القدماء والجيران المسالمين حتى الآن، بات عليهم فجأة أن يعيشوا التجربة الفريدة المتمثّلة في انعدام الثقة فيما بينهم؛ فهم يعتقدون، لأسباب مفهومة، أن القاتل من بينهم، وكانوا يوافقون جميعاً، على الرأي الذي طرحه أرثور كلاتر، أحد أخوة المغدور، حين قال، بينما هو يتكلم إلى الصحفيين في بهو فندق غاردن سيتي في 17 نوفمبر/تشرين الثاني، "حين تتضح هذه القضية، أراهن أن من قام بهذه الجريمة هو ضمن نطاق عشرة أميال من المكان الذي نحن فيه الآن."

o o

على بعد حوالي أربع مئة ميل إلى الشرق من المكان الذي كان يقف فيه أرثور كلاتر، كان شابان يجلسان على طاولة ثنائية في **إيغل بوفيه** ، يتقاسمان العشاء في كانساس سيتي. أحدهما – ذو وجه ضيق، وعلى يده اليمنى وشم أزرق لقِطّ – كان قد التهم عدّة سندويشات لحم فروج مع سلطة، ويضع عينه الآن على وجبة شريكه: سندويشة همبرغر محضّرة للتوّ مع زجاجة من بيرة الجذور تذوب فيها ثلاث حبات أسبيرين.

"بيري، حبيبي،" قال دك، "أنت لا تريد هذه البيرغرا إنها لي!"

دفع بيري الصّحن عبر الطاولة. "يا إلهي! ألا يمكنك أن تتركني أركّز؟"

"لا داعي لأن تقرأها خمسين مرة."

كان يشير إلى مقالة على الصفحة الأولى من عدد 17 نوفمبر/ تشرين الثاني من صحيفة ستار في كانساس سيتي، بعنوان **الأدلة قليلة في جريمة قتل الأربعة**، وهي متابعة لإعلان أوّلي عن الجريمة في اليوم السابق، وتنتهي بالخلاصة التالية:

يواجه المحققون مهمّة البحث عن قاتل أو أكثر تبدو براعته (أو براعتهم) واضحة، على الضد من دافعه (أو دافعهم). فقد قام القاتل (أو القتلة) بـ: *قطع أسلاك الهاتف بعناية لجهازي الهاتف الموجودين في البيت. *ربط وتقييد الضحايا بمهارة، دون وجود لدليل عن عراك معهم. *عدم ترك أيّة فوضى تُذكر في البيت، ولا مؤشر عن النبش في أي شيء ما عدا محفظة [كلاتر]. *إطلاق النار على أربعة أشخاص في أماكن مختلفة من البيت، مع جمع الرصاص الفارغ بعناية. *دخول البيت ومغادرته، مع الأسلحة كما يبدو، دون انتباه من أحد. *العمل بدافع خفيّ، إذا استبعدنا محاولة فاشلة للسرقة، ويميل المحققون إلى استبعاد ذلك.

"لأن هذا القاتل أو القتلة،" قال بيري وهو يقرأ بصوت عال. "هذا خطأ قواعدي. الصحيح أن تقول" لأن هذا القاتل أو هؤلاء القتلة." وبينما هو يرتشف بيرة الجذور التي تفور بالأسبيرين، تابع، "على كل حال أنا لا أصدق. ولا أنت تصدق. اعترف، دك. كن صادقاً.

هل تصدق أن هذا العمل خال من الأدلة؟"

البارحة، بعد دراسة الصحف، طرح بيري السؤال نفسه، أما دك، الذي كان يعتقد أنه انتهى من الأمر ("انظر. لو استطاع رعاة البقر هؤلاء أن يتوصلوا إلى أدنى رابط، لسمعنا صوت الحوافر على بعد مئة ميل")، فقد ضجر من سماع ذلك ثانية. كان ضجراً إلى حد فقدان الرغبة في الاحتجاج حين كرّر بيري مرة أخرى الموضوع: "أنا دائماً أصغي لحسّي الباطني. ولهذا لا أزال حياً إلى اليوم. هل تعرف ويلي جي؟ قال لي إنني "وسيط" بالفطرة، وهو ضليع في مثل هذه الأشياء، وكان مهتماً بها. قال إنني أملك درجة عالية من "نفاذ البصيرة الاستثنائي." كأن في داخلي رادار طبيعي – أن ترى الأشياء قبل أن تراها. أن تعرف الخطوط العامة للأحداث المستقبلية. خذ، مثلاً، أخي وزوجته. جيمي وزوجته. كانا يحبان بعضهما إلى حد الجنون، لكنه كان غيوراً للغاية، وجعلها هذا في منتهى البؤس، كان يغار عليها دائماً ويظن أنها تقوم ببعض الأمور من وراء ظهره، إلى حد أنها قتلت نفسها بالرصاص، وفي اليوم التالي وضع جيمي رصاصة في رأسه. حين حدث هذا – في 1949، وكنت مع أبي في ألاسكا في محيط سيركل سيتي – قلت لأبي، "جيمي مات." بعد أسبوع وصلنا الخبر. قسماً بالله. مرة أخرى، كنت في اليابان، أساعد في تحميل سفينة، وجلست لكي أرتاح لدقيقة. وفجأة، صوت من داخلي قال لي، "اقفز!" قفزت حوالي عشرة أقدام كما أظن، وفي تلك اللحظة، سقط تماماً حيث كنت أجلس، طنّ من البضاعة وحطّم كل شيء تحته. يمكن أن أعطيك مئات الأمثلة. لا يهمني إن كنت تصدق أو لا. على سبيل المثال، قبل حادث الدراجة النارية تماماً، رأيت الحادث كاملاً أمام عيني: رأيته في عقلي – المطر، ممرات التزلج،

ورأيت نفسي مستلقياً أنزف ورجلاي مكسورتان. وهذا ما أشعره الآن. شعور مسبق بالخطر. شيء ما يقول لي إن هذا شرك." خبط بيده على الجريدة. "الكثير من المراوغات."

طلب دك همبرغر أخرى. خلال الأيام القليلة الماضية استمرّ في الشعور بجوع لا يهدأ – ثلاث شرائح متتالية من اللحم، ودزّينة من قضبان شوكولاتة هيرشي، ورطل من السّكاكر. أما بيري فلم يشعر بأيّة شهيّة؛ اعتاش على بيرة الجذور، والأسبيرين والسجائر. "لا عجب أن لديك قفزات،" قال له دك. "أوو، يكفي، حبيب. أخرج الفقاعات من دمك. نجحنا. كان عملاً كاملاً."

"يدهشني أن أسمع ذلك، إذا أخذنا كل شيء في الحسبان،" قال بيري. وقد زاد هدوءُ نبرته من خُبث رده. لكن دك، استوعب الأمر، حتى أنه ابتسم – وكانت ابتسامته اقتراحاً بارعاً يقول، إن ارتداء ابتسامة طفل، يدل على شخصية شديدة الأناقة، واضحة، ودمثة؛ يدل على شخص يمكن أن يثق أيّ رجل به ويتقرّب منه.

"أوكي،" قال دك. "ربما لديّ بعض المعلومات الخاطئة."

"هللويا! [سبحان الله!]."

"ولكن في المجمل كان عملاً تاماً. لقد أنجزنا عملاً رائعاً. لا أثر لنا. وسنبقى مجهولين. لا وجود لأيّ رابط [بيننا وبين ما حدث]."

"يمكنني التفكير بواحد."

تمادى بيري بقوله هذا، تجاوز الحد: "إنّه فلويد – أليس هذا هو اسمه؟" تلك ضربةٌ تحت الحزام، ولكن استحقّها دك، فثقته أشبه بطائرة ورقية في حاجة إلى شدّ حبلها للأسفل. مع ذلك، راقب بيري بريبة الغضبَ وهو يعيد ترتيب ملامح دك: فكّه، شفتاه، تراخي

ملامح وجهه، ظهور فقاعات اللعاب على زاويتي فمه. لا بأس، إذا وصل الأمر إلى حد العراك، فإن بيري قادر أن يدافع عن نفسه. كان أقصر من دك ببضع إنشات، ورغم صعوبة الاعتماد على ساقيه الضئيلتين المعطوبتين، فإنه أثقل وزناً من صديقه، وأغلظ، ويمتلك ساعدين يمكنهما أن يعتصرا الهواء من رئتي دُب. ولكن لا رغبة له في أن يثبت ذلك – أن يدخل في شجار، في عراك حقيقي. مثل دك أو خلافاً له (هو لم يكن يكرهه، رغم أنه فيما مضى، أحبّه أكثر، واحترمه أكثر)، بات من الواضح أنهما لا يستطيعان الانفصال بأمان عن بعضهما الآن. في هذه النقطة هما متفقان، فقال دك، "إذا قُبض علينا، فليُقبض علينا معاً. عندها يمكننا أن نساند بعضنا عندما يبدؤون بسحب الاعتراف الأحمق، قائلين أنت قلت وأنا قلت." وفوق ذلك، إذا قطع صلته بدك، فهذا يعني نهاية الخطط التي لا تزال جذّابة لبيري، ولا يزال يفكّر بها الصديقان، رغم الانتكاسات الأخيرة، وهي الغوص وحياة البحث عن الكنوز معاً بين الجزر وعلى طول الشواطئ جنوب الحدود.

قال دك، "السيد ويلس! [هذا هو اسمه]" ثم أمسك شوكة [ورفعها]. "سيستحق الأمر [الانتقام] العناء. كما لو أنني رتّبتُ اعتقالًا لي بتهمةٍ [بسيطة مثل] تحرير شيك وهميّ، فقط لأعود إلى السّجن ثانية [لمواجهة السيد ويلس]. يستحق الأمر العناء!" وهوت الشوكة لتنغرز في الطاولة. "هكذا، تماماً في قلبه، يا حبيب."

"لا أقول إنه سيَشي بنا،" قال بيري، وهو يريد الآن أن يقدّم تنازلاً لأن غضب دك لم يكن موجّهًا إليه، بل اجتازه ليرتطم في مكان آخر. "سيكون خوفة شديدًا [لدرجة لن يقوى معها على الوشاية]."

"بالتأكيد،" قال دك. "بالتأكيد. سيكون خائفاً للغاية." من

العجائب حقاً تلك السهولة التي يبدّل فيها دك مزاجه؛ ففي لمح البصر تبخّر كلّ أثر للخسّة، وكل أثر لاستعراض الغضب. تابع، "بشأن كلامك عن الحسّ الداخلي. أجبني فقط: إذا كنت متأكداً إلى هذا الحد بأنك سوف تنهار، فلماذا لم تُعلن الانسحاب؟ ما كان ليحدث شيء لو أنك ترجّلت عن الدرّاجة! صحيح؟"

هذه كانت معضلة سبق لبيري أن فكر فيها، وشعر أنه وجد لها حلاً، ولكن الحل، على بساطته، بدا غامضاً بعض الشيء: "لا. لأنه حين يُقدّر لشيء أن يحدث، فإن كل ما تستطيعه هو أن تأمل بأن لا يحدث. أو بأن يحدث – حسب الحالة. طالما أنت على قيد الحياة، هناك دائماً شيء ما يكمن منتظرًا، حتى لو كان سيئاً، وحتى لو كنت تعلم أنّه سيء، فماذا يمكنك أن تفعل؟ لا يمكنك أن تتوقف عن الحياة. مثل حلمي. منذ أن كنت صغيراً، أرى الحلم نفسه. أنا في أفريقيا. في غابة. أمشي بين الأشجار باتجاه شجرة تنتصب وحيدة. إلهي! لتلك الشجرة رائحة سيّئة؛ كما لو أن رائحتها لنتانتها تثير غثياني. ولكنها جميلة المنظر – بأوراقها الزرقاء والماس يتدلّى منها من كل مكان. ألماس مثل البرتقال. وأنا هناك من أجل أن أقطف لنفسي كيساً من الألماس. ولكني أعلم أنني في اللحظة التي أحاول فيها، في اللحظة التي أمد يدي، سيسقط ثعبان عليّ. الثعبان الذي يحمي الشجرة. ابن الزنى السمين هذا يعيش في الأدغال. أعرف هذا مسبقاً، أترى؟ وأنا لا أدري كيف يمكنني أن أصارع ثعباناً. لكنني قررت أن أجرب حظي. الفكرة هي أن قوة رغبتي بالألماس أشد من خوفي من الثعبان. وهكذا مددت يدي لأقطف واحدة، أمسكت الألماسة بيدي، وسحبتها نحوي، وإذ بالثعبان يهبط علي. تصارعنا، لكن ابن الزنى هذا زلق ولا أستطيع

أن أمسكه، إنه يسحقني، يمكنك أن تسمع صوت تقصف رجليّ. الآن أصل إلى الجزء الذي يجعلني أتعرق لمجرد التفكير فيه. انظر، يبدأ بابتلاعي. يبتلع قدميّ أولاً. وكأنني أغوص في رمال متحركة." تردد بيري. لم يستطع أن يتجاهل أن دك، المشغول بنكش ما تحت أظافره بسن الشوكة، لم يكن مكترثاً بحلمه.

قال دك، "ماذا بعد؟ أيبتلعك الثعبان؟ أم ماذا؟"

"لا تشغل بالك. ليس مهماً." (ولكنه كان مهماً! النهاية كانت بالغة الأهمية، مصدراً لفرحة خاصة. ذات مرة قالها لصديقه ويلي جي؛ وصف له الطائر المحلق، "يشبه الببغاء" الأصفر. بالطبع كان ويلي جي مختلفاً – إنه ذو ذهن مرهف، "قدّيس." وقد فهم. أما دك؟ دك ربما يضحك، وهو ما لا يستطيع بيري تحمله: أن يهزأ شخص بالببغاء التي بدأت تظهر في أحلامه حين كان في السابعة من عمره، طفلاً هجيناً مكروهاً كارهاً، يعيش في كاليفورنيا في مَيْتم تديره الراهبات – الصّارمات المحجّبات اللواتي كن يضربنه بالسوط لأنه يبلل سريره. وقد ظهرت الببغاء بعد واحدة من حفلات السّوط تلك، واحدة لا يمكن أن ينساها ("أيقظتني. كان في يدها مصباح يدوي ضربتني به. ضربتني وضربتني. وحين انكسر المصباح، واصلَت ضربي في الظلام")، فبينما هو نائم وصل طائر "أطول من المسيح، وأصفر مثل زهرة عباد الشمس،" ملاك محارب، أعمى الراهبات بمنقاره، أكل عيونهن، ذبحهن وهن "يتضرعن إليه من أجل الرحمة،" ثم يرفعه بلطف شديد، يحتضنه، ويطير به بعيداً إلى "الفردوس".

مع مرور السّنين، تغيّرت العذابات الخاصّة التي كان يخلّصه منها الطير؛ حلّ آخرون محلَّ الراهبات: الأولاد الأكبر منه، والده،

بنت غير مخلصة، رقيب عرفه في الجيش. لكن الببغاء استمرّت هي المنتقمة المحلّقة. وهكذا، فإن الثعبان، حارس شجرة الألماس، لم ينته أبداً من ابتلاعه ولكنه [الثعبان] بات هو نفسه يُبتلع دائماً.. وبعد ذلك يأتي الصّعود المبارك! الصعود إلى الفردوس الذي كان في إحدى النسخ [الحلميّة] مجرّد "شعور"، شعور بالقوّة، بتفوّق لا يُنازَع – أحاسيس تحولت في نسخة أخرى إلى "مكان حقيقي. كأنه مأخوذ من فيلم. قد أكون رأيته في فيلم – تذكرته من فيلم. لأنه من غير الممكن رؤية حديقة كتلك إلا في فيلم. بسلالم من الرخام الأبيض. ونوافير. وبعيداً في الأسفل، إذا مضيت إلى طرف الحديقة، يمكنك أن ترى المحيط. رائع! كما في كارمل، كاليفورنيا. مع ذلك فإن أفضل شيء كان طاولة طويلة طويلة. لا يمكن أن تتخيل طعاماً بهذه الكثرة! المحار. والديوك الرومية. والهوت دوغز. وفواكه يمكن أن تصنع منها مليون كوب من سلطة الفواكه. وانتبه – كل شيء مجاني! أقصد، لا داعي للخوف من لمسها. يمكنني أن آكل بقدر ما أريد، دون أن أدفع سنتاً واحداً. هكذا أعرف أين أنا.")

قال دك، "أنا عادي. أحلم فقط بالدجاجات الشقراوات. وبالحديث عن هذا الموضوع، هل تسمع شيئاً عن كابوس ماعز الجدّة؟" هكذا هو دك – جاهز دائماً لإلقاء نكتة قذرة عن أي موضوع. لكنه يجيد إلقاء النكت، وبيري، الذي يُعتبر محتشماً إلى حد ما، لم يستطع منع نفسه من الضحك، كما يحدث دائماً.

٥ ٥

قالت سوزان كيدويل خلال حديثها عن صداقتها مع نانسي كلاتر: "كنّا مثل أختين، على الأقل هكذا كنت أشعر أنا – أشعر أنها

أختي. لم أستطع الذهاب إلى المدرسة في الأيام الأولى، بقيت بعيدة عن المدرسة إلى ما بعد الجنازة. وهكذا كان الحال بالنسبة لبوبي روب. بقيت أنا وبوبي معاً لفترة من الوقت. إنه فتى لطيف – قلبه طيب – ولكن لم يحدث له من قبل شيء فظيع كهذا. كأنْ يفقد شخصاً يحبه. ثم، وفوق ذلك، يكون مضطراً للخضوع لاختبار كشف الكذب! لا أقصد أنه كان غاضباً بسبب ذلك؛ بل أدرك أن الشرطة تقوم بما يجب أن تقوم به. من جهتي، تعرضت لحوادث قاسية، حادثتان أو ثلاثة، أما هو فلا، لذلك فالصدمة جاءت قاسية بالنسبة له، أن يكتشف أن الحياة ليست لعبة كرة سلة طويلة الأمد. في الغالب، كنا نتجول بسيارته الفورد القديمة. ذهاباً وإياباً على الطريق السريع. نصل إلى المطار ونعود. أو نذهب إلى كري-مي، وهو محل للخدمة في السيارة، نجلس في السيارة ونطلب الكولا، ونستمع إلى الراديو. لم نطفئ الراديو أبداً، لأنه لم يكن لدينا ما نقوله. سوى أن بوبي كان يقول بين فينة وأخرى كم كان يحب نانسي، وإنه لا يستطيع البتة أن يهتم بفتاة أخرى. لكني كنت واثقة من أن نانسي لم تكن لتتمنّى ذلك، وأخبرتُه بهذا. أذكر – وأعتقد أن ذلك جرى يوم الاثنين – أننا ذهبنا بالسيارة إلى أن وصلنا النهر. ركنّا السيارة على الجسر. يمكنك أن ترى البيت من هناك – بيت عائلة كلاتر. ويمكنك أيضاً رؤية جزء من الأرض – بستان الفواكه، وحقول القمح الممتدة. بعيداً في إحدى الحقول رأينا نارًا تشتعل؛ كانوا يحرقون أشياءَ مأخوذة من البيت. ثمّة ما يذكرك بهم أينما نظرت. رجال بشباك وعصيّ طويلة يصيدون على طول ضفّتي النهر، ولكنهم لا يصيدون السمك. قال بوبي إنهم يبحثون عن الأسلحة. عن السكين والمسدس.

"أحبّت نانسي النهر. في ليالي الصيف كنا نركب معاً على ظهر فَرَس نانسي، بيبي – تلك الفرس الرمادية السمينة العجوز. نركبها حتى النهر وندخل في الماء. ثم تخوض بيبي في الجزء الضحل بينما نحن نعزف على الفلوت ونغني. ونبرد. لا أزال أتساءل، يا الله، ماذا سيحدث للفرس، بيبي؟ هناك سيّدة من غاردن سيتي أخذت كلب كينيون. أخذت تيدي. ثم هرب، وعرف طريقه ثانية إلى هولكومب! لكنها جاءت وأخذته ثانية. أما أنا فأخذت قطّة نانسي – إيفنرود. أما بيبي، أظن إنهم سيبيعونها. ألا تكره نانسي هذا؟ ألا يجعلها غاضبة؟ في يوم آخر، اليوم السابق على الجنازة، كنت أجلس مع بوبي على مقربة من سكك الحديد نراقب مرور القطارات. يا للغباء الحقيقي، كنّا مثل أغنام في عاصفة ثلجية، عندما نهض بوبي على حين غرة وقال، "يجب أن نذهب لنرى نانسي. يجب أن نكون معها." وهكذا مضينا بالسيارة إلى غاردن سيتي – ذهبنا إلى فيليبس فيونيرال هوم، على الشارع الرئيسي. أظن أن أخا بوبي كان معنا. نعم، أنا متأكدة إنه كان. لأني أذكر أننا أخذناه معنا بعد المدرسة. وأذكر أنه قال إنه لن يكون هناك مدرسة في اليوم التالي، وسيتمكن كل أولاد هولكومب من المشاركة في الجنازة. ولم يتوقف عن إخبارنا عن آراء الأولاد. قال إنهم كانوا مقتنعين أن هذا عمل "قاتل مأجور". لم أرغب بسماع شيء عن ذلك. فهي مجرّد أحاديث وثرثرة – أي كل ما كانت تعافه نفس نانسي. على كل حال، لا أكترث كثيراً بمن فعل ذلك. فهذا ليس في صلب الموضوع كما أرى. صديقتي رحلت. ومعرفة من قتلها لن يعيدها إليّ. فأي شيء آخر يهم؟ لن يسمحوا لنا بالدخول. إلى ردهة الجنازة أقصد. قالوا ما من أحد يمكنه أن "يُلقي نظرة على العائلة،" سوى الأقارب. غير أن بوبي أصرّ، وفي النهاية، قال

متعهّد الدفن – وكان يعرف بوبي، وأخمّن أنه شعرَ بالتعاطف معه "لا بأس، كونوا هادئين، هيّا ادخلوا". الآن أتمنى لو لم أدخل."

كان ينبغي أن تُغلَق التوابيت الأربعة التي تملأ تماماً الردهة الصغيرة المزدحمة بالزهور، وفق مراسم الجنازة – ولهذا أسباب وجيهة، فرغم العناية بمظهر الضحايا، فقد بقي المشهد مؤثراً. نانسي ترتدي فستانها المخمليّ بلون الكرز الأحمر، وأخوها في قميص مرقش ناصع؛ والأبوان تمّت كسوتهما بلباس أكثر رزانة، السيد كلاتر بقميص أزرق بحري، وزوجته بثوب أزرق بحري؛ ورأس كل منهم – وهذا بشكل خاص ما أعطى المشهد هالته الفظيعة – مغلّف بالقطن تمامًا، [كأنّ رأس واحدهم] شرنقة متورّمة تبلغ ضعف حجم بالون عادي منفوخ؛ ولأن القطن كان قد رُشّ بمادة لامعة، فإنه راح يتلألأ مثل ثلج شجرة الميلاد.

تراجعت سوزان حالاً. "خرجتُ وانتظرت في السيارة،" قالت مُستعيدة ما جرى. "في الشارع كان ثمّة رجل يكنس أوراق الشجر. مكثت أنظر إليه. لأنني لم أرِد أن أغلق عيني. قلت في نفسي، إذا أغمضت عيني فسوف يُغمى علي. لذلك راقبته وهو يكنس الأوراق ويحرقها. راقبته، دون أن أراه في الحقيقة. لأن كل ما كنت أستطيع رؤيته هو الفستان. أعرفه جيداً. لقد ساعدتها في اختيار قماشه. وكان من تصميمها هي، وهي التي خاطته بنفسها. أذكر مبلغ انفعالها حين ارتدته لأول مرة، في إحدى الحفلات. كل ما كنت أستطيع رؤيته هو فستان نانسي المخمليّ. ونانسي ترتديه، وترقص.

ه ه

كتبت جريدة ستار في كانساس سيتي وصفاً مطوّلاً عن جنازة كلاتر، ولكن النسخة التي تحوي المقال صدرت قبل يومين من تمكّن

بيري، المستلقي على سرير في غرفة فندق، من قراءتها. وبالرغم من ذلك، فقد مرّر نظره عليها سريعاً، قافزاً من فقرة إلى فقرة: "بحضور ألف شخص، أكبر حشد في تاريخ الكنيسة الميثودية الأولى البالغ خمس سنوات، مراسم دفن الضحايا الأربع اليوم.. العديد من زملاء نانسي في المدرسة الثانوية في هولكومب، بكوا، بينما كان الكاهن ليونارد كاوان يقول: "يمنحنا الله الشجاعة والحب والأمل رغم أننا نمشي عبر ظلال وادي الموت. أنا على يقين إنه كان معهم في ساعاتهم الأخيرة. لم يعِدنا المسيح أن لا نعاني الألم أو الحسرة، ولكنه قال دائماً إنه سيكون معنا ليساعدنا على تحمّل الحسرة والألم" ... في يوم حار، لا يتناسب مع الموسم، مشى حوالي ست مئة شخص إلى مقبرة فالي فيو على الطرف الشمالي من المدينة. وهناك تلوا الصلاة الربانية بجوار القبر. وتجمعت أصواتهم الخافتة حتى باتت مسموعة في كل أرجاء المقبرة."

ألف شخص! تعجّب بيري. تساءل كم كلفت هذه الجنازة. كانت النقود حاضرة بقوة في ذهنه، ولكن ليست بقوة حضورها في وقت سابق من اليوم الذي بدأه "لا يملك ثمن مواء قطّة!" تحسّن الحال بعد ذلك؛ بفضل دك، يملكان الآن "مبلغاً محترماً" – يكفي لإيصالهما إلى المكسيك.

دك! ناعم. داهية. نعم، عليك أن تسلمه الأمر. يا إلهي، غير معقول كيف يمكنه أن "يخدع الناس." كما فعل مع الموظف في متجر الملابس في ميسوري، كانساس سيتي، أول مكان يقرر دك أن "يضرب" فيه. بالنسبة لبيري لم يحاول ولا مرة أن "يمرّر شيكًا." كان متوتراً، لكن دك قال له، "كل ما أريده منك هو أن تقف هناك. لا تضحك، ولا تُبدي دهشتك من أي شيء أقوله. عليك أن تسمع فقط." بالنسبة

للمهمة المقترحة، بدا أن دك ماهر فيها إلى حد الكمال. دخل بقوّة، وقدّم بيري إلى الموظف بمرح على أنه "صديقي على وشك أن يتزوج"، وتابع، "أنا أفضل صديق عنده. أساعده في التسوق لشراء الملابس التي سيحتاجها. ها-ها، برأيك ما هو – ها-ها – جِهاز العريس؟" البائع "التهم الطُّعم"، وفي الحال، كان بيري، وقد خلع بنطلون الجنز، يجرب بدلة داكنة اعتبرها البائع "نموذجية لاحتفال رسمي." وبعد التعليق على انعدام التناسب الغريب في جسم الزبون – جذع ضخم فوق العادة تدعمه رجلان ضامرتان فوق العادة – أضاف، "أخشى أنه لا يوجد لدينا قياس مناسب دون تعديل." أوه، قال دك، لا مشكلة في هذا، لدينا فائض من الوقت – حفل الزواج "بعد أسبوع ويوم." تم الاتفاق، ثم اختارا مجموعة مبهرجة من السترات والسراويل التي تعتبر مناسبة لشهر عسل في فلوريدا، حسب دك. "هل تعرف إيدن روك؟" سأل دك البائع. "على شاطئ ميامي؟ لديهم حجز هناك. هدية من أهل العروس – أسبوعين بسعر أربعين دولاراً في اليوم. ما قولك في هذا؟ قزم قبيح مثله، يفعلها مع امرأة ليست فقط حلوة، بل وثرية أيضاً. بينما رجال مثلك ومثلي، رجال وسيمون ..." قدّم البائع الفاتورة. مدّ دك يده إلى جيبه، قطّب حاجبيه، عضّ أصابعه، وقال، "اللعنة! نسيت محفظتي." الأمر الذي بدا لشريكه حِيلة ضعيفة جداً ولا يمكن أن "تخدع زنجيًّا يبلغ من العمر يومًا واحدًا". لكن بدا أن البائع لم يرتئِ هذا الرأي، فقد أخرج شيكاً فارغاً، وحين ملأه دك برقم يزيد ثمانين دولاراً عن قيمة الفاتورة الإجمالية، دفع له البائع في الحال الفارق نقداً.

في الخارج، قال دك، "إذن ستتزوج الأسبوع القادم؟ حسناً، سوف تحتاج إلى خاتم." بعد لحظات، وصلا، في الشيفرولية العتيقة،

إلى مخزن يحمل اسم بيست جوليري. وبعد شراء خاتم خطبة من الماس، ومحبس زواج ماسيّ، انطلقا من هناك باتجاه مكتب رهنيّات لرهن هذه الأشياء. تأسّف بيري [في المكتب، على اضطراره] للتخلّي عنها. كان قد بدأ يصدق قليلاً كذبة العروس، رغم أن مفهومه عنها، معاكس لمفهوم دك، فهي ليست غنيّة، وليست جميلة؛ إنها بالأحرى، أنيقة، تتكلّم بلطف، تبدو مثل "خرّيجة جامعيّة،" وفي كل حال "شابّة عالية الثقافة" – شابّة طالما رغب أن يقابلها ولكنه لم يقابلها البتة في الواقع.

هذا إذا وضعنا جانباً كوكي، الممرّضة التي عرفها حين وضع في المستشفى بسبب حادث الدراجة النارية. كوكي، فتاة رائعة، أحبته، أشفقت عليه، دللته كطفل، ألهمته قراءة "الأدب الجاد" – ذهب مع الريح، هذه معشوقتي. حدثت بينهما واقعات جنسية غريبة وخفية، وقد ذكر الحب، والزواج أيضاً، ولكن في النهاية، حين تعافت جروحه، قال لها وداعاً، وأعطاها، على سبيل الشرح، قصيدة تظاهرَ أنه كتبها:

هناك سُلالة من الرّجال الذين لا يلائمهم شيء،
سُلالة لا يمكنها الاستقرار على حال؛
ولهذا يكسرون قلوب الأهل والأصحاب؛
ويجوبون العالم بمحض إرادتهم.
يجوبون البراري ويطوفون العباب،
ويتسلقون قمم الجبال؛
إنها لعنة الدم الغجري فيهم؛
فلا يعرفون سبيلاً للراحة.
سيمضون بعيداً لو كانت سبلهم مستقيمة؛
لأنهم أقوياء وشجعان وصادقون؛

لكنهم ضجرون دائماً ممّا هو متاح،
ويبتغون كلّ غريب وجديد.

لم يرها مرة ثانية، ولم يسمع منها أو عنها، ومع ذلك، فإنه وشمَ اسمها على ذراعه بعد بضع سنوات، وحين سأله دك ذات مرة من تكون "كوكي"، قال، "لا أحد. شابة كنت على وشك الزواج بها." (كان يحسد دك كونه متزوجًا – تزوج مرتين – وأبًا لثلاثة أبناء. الزوجة والأولاد – هذه تجارب "على الرجل أن يمتلكها،" حتى لو أنها، كما هو حال دك، "لم تمنحه السعادة أو تجلب له أي خير.")

رهنا الخاتمين مقابل مئة وخمسين دولارًا. زارا محل مجوهرات آخر، محل غولدمان، وخرجا متكاسلين من هناك بساعة يد رجالية من الذهب. التوقف التالي كان في محل إلكو كاميرا، حيث "اشتريا" كاميرا سينمائية متطورة. "الكاميرات هي استثمارك الأفضل،" قال دك مخاطباً بيري. "أسهل شيء للرهن أو البيع. الكاميرات وأجهزة التلفزيون." وطالما الأمر كذلك، فقد قررا الحصول على عدة أجهزة تلفزيون، وبعد أن نفّذا المهمة، ذهبا لمهاجمة بضعة مراكز تجارية أخرى للألبسة – شيبرد آند فوسترز، روثتشيلدز، شوبرز بارادايس. مع غروب الشمس، حين بدأت المحلات تغلق أبوابها، كانت جيوبهما قد امتلأت بالنقود، وغصّت السيارة بالبضائع القابلة للبيع والرهن. لدى استعراضه حصاد اليوم من القمصان وولاعات السجائر والآلات الثمينة وأزرار أكمام القمصان الرخيصة، شعر بيري أنه طويل القامة – المكسيك الآن، فرصة جديدة، حياة "تنبض حقاً بالحياة". ولكن دك بدا محبطاً. تجاهل مديح بيري ("إنني أعني ما أقوله يا دك. أنت مدهش. أمضيتُ نصف الوقت على وشك تصديق [أكاذيبك]").

واحتار بيري؛ لم يستطع أن يفهم لماذا يتحول دك، المغرور عادة، إلى وديع وخنوع. قال بيري، "سأقدم لك مشروباً."

توقفا عند حانة. شرب دك ثلاثة أكواب من كوكتيل الجن مع عصير البرتقال، وبعد أن انتهى من الثالث، سأل فجأة، "ماذا عن أبي؟ أشعر – أوه، يا الله، إنه رجل عجوز طيب للغاية. وأمي – أنت رأيتها. ماذا عنهما؟ أنا، سأكون بعيداً في المكسيك. أو أي مكان. لكنهما سيكونان هنا عندما تبدأ هذه الشيكات بالظهور. أعرف أبي. سوف يرغب بدفع الشيكات. كما حاول من قبل. ولكنه لا يستطيع – فهو عجوز ومريض، ولا يملك شيئاً."

"أقدّر هذا،" قال بيري بصدق. كان عاطفياً، دون أن يكون لطيفاً، وقد تأثر بحب دك لوالديه، وقلقه المعلن تجاههما. "ولكن اللعنة، دك. الأمر بسيط للغاية،" قال بيري. "يمكننا نحن أن نسدد الشيكات. ما أن نصل إلى المكسيك، ما أن نبدأ العمل هناك، سنجني الكثير من المال. الكثير."

"كيف؟"

"كيف؟" ماذا يقصد دك؟ السؤال حيّر بيري. بعد كل شيء، سبق أن ناقشا هذه التشكيلة الغنية من المشاريع. التنقيب عن الذهب، الغوص بحثاً عن الكنوز – هذان مشروعان فقط من المشاريع التي اقترحها بيري بحماس. وهناك مشاريع أخرى. القارب، على سبيل المثال. فقد تكلما كثيراً عن قارب للصيد في أعالي البحر، يشتريانه، ويعملان عليه، ويؤجرانه للمصطافين – هذا رغم أن أياً منهما لم يقد قارباً في حياته، أو يصطد سمكة. وهناك أيضاً الكسب السريع للمال جراء قيادة السيارات المسروقة عبر الحدود الجنوبية

لأميركا. ("يدفعون لك خمسمئة دولار عن كل رحلة،" أو شيئًا من هذا القبيل قرأه بيري في مكان ما.) ولكن من بين كل الردود التي كان يمكن أن يرد بها على سؤال دك، اختار بيري أن يذكّره بالثروة التي تنتظرهم على جزيرة كوكوس، بقعة أرض قبالة شاطئ كوستاريكا. "بدون خداع يا دك،" قال بيري. "هذا مؤكد. لدي خارطة. ولدي التاريخ بالكامل. لقد دفن هناك في 1821 – ذهب ومجوهرات بيروفية. ستون مليون دولار – هذه قيمتها كما يقولون. حتى لو لم نعثر عليها كاملة، حتى لو عثرنا على بعض منها – هل أنت معي، دك؟" حتى الآن، كان دك يشجعه دائماً، يصغي بانتباه لحديثه عن الخرائط، لقصصه عن الكنوز، أما الآن – وهذا لم يحصل من قبل – فإن بيري يتساءل ما إذا كان دك طوال الفترة الماضية يتظاهر فقط، ويخدعه.

الفكرة الشديدة الإيلام، عبرَت، لأن دك، قال بغمزة مع لكمة هزلية، "بالتأكيد، حبيب. أنا معك. أسمعك منذ البداية."

o o

في الثالثة صباحاً رن الهاتف مجدداً. ليست المشكلة في أن الوقت متأخر. آل ديوي كان مستيقظاً على كل حال، وكذلك ماري وولداهما، باول ذو السنوات التسع وألفن أدامز ديوي جونير [الإبن] الذي يبلغ الثانية عشرة من العمر. فمن ذا الذي يستطيع النوم في بيت متواضع من طابق واحد، حيث يرن هاتفه كل بضع دقائق طوال الليل؟ حين نهض ديوي من السرير، قال لزوجته، "هذه المرة سوف أفصل الهاتف." ولكنه لم يجرؤ على الوفاء بوعده! صحيح أن أكثر الاتصالات كانت تأتي من متصيّدي الأخبار، أو صحفيين، أو ساخرين طامحين، أو أصحاب الفرضيات ("آل؟ اسمع يا صاحبي، فكّرت في هذا

الموضوع. إنه انتحار وجريمة قتل. عرفت أن هيرب كان في وضع ماليّ سيء. ورّط نفسه في مشاريع كثيرة أكبر من طاقته. فماذا يستطيع أن يفعل؟ يأخذ بوليصة تأمين كبيرة، ثم يقتل بوني والأولاد بالرصاص، بعدها يقتل نفسه بقنبلة. قنبلة يدويّة محشوّة بالرصاص")، أو من أشخاص مجهولين ذوي عقول قذرة ("تعرفهم؟ أجانب؟ لا يعملون؟ يرتبون الحفلات؟ يقدمون الكوكتيلات؟ من أين لهم المال؟ لا يفاجئني أبداً أن يكونوا وراء مشكلة كلاتر هذه")، أو نساء متوترات أثارهن الكلام المتداول بين الناس، والشائعات التي لا تعرف حدوداً ("ألفن، أنا أعرفك منذ صغرك، وأريدك أن تقول لي بصراحة إذا كان الأمر كما يقال. أنا كنت أحب وأحترم السيد كلاتر، وأرفض أن أصدق أن هذا الرجل، هذا المسيحي – أرفض أن أصدق أنه كان يطارد النساء..").

لكن معظم المتصلين كانوا مواطنين يشعرون بالمسؤولية ويرغبون بالمساعدة ("أتساءل إذا كنت استجوبتَ صديقة نانسي، سو كيدويل؟ كنت أتحدث مع البنت، وقالت لي شيئاً صدمني. قالت أنّه في آخر حديث لها مع نانسي، أخبرتها بأن والدها السيد كلاتر كان في مزاج سيء حقاً خلال الأسابيع الثلاثة الأخيرة. واعتقدت إنه قلق للغاية من أمر ما، قلق إلى حد أنه اعتاد على تدخين السجائر.."). سوى ذلك، كان المتصلون أناسًا معنيين رسمياً بالأمر – ضابط قانون أو عمدة من أقسام أخرى من الولاية ("قد يكون هذا مهما أو لا، لكن هناك نادل في إحدى الحانات هنا يقول إنه سمع شخصين يناقشان الموضوع بعبارات تثير شبهةَ أنّ لهما علاقة بالأمر.."). وفي حين أن كل هذه المكالمات لم تشكل حتى الآن سوى المزيد من العمل للمحققين، فإنه يبقى من الممكن دائماً أن يحمل الاتصال التالي شيئاً مفيداً، أو أن

يكون، كما قال ديوي، "الفاصل الذي يُسقط الستارة."

أمّا ردّه على المكالمة الحاليّة، فقد سمع ديوي على الفور [ما إن رفع السماعة] "أريد أن أعترف."

"من يتكلم من فضلك؟" قال ديوي.

كرر المتصل، وهو رجل، جملته الأولى، وأضاف، "أنا فعلتها. أنا قتلتهم."

"نعم،" قال ديوي. "والآن، هل يمكنني أخذ الاسم والعنوان ..."

"أوه، لا، لا يمكنك،" قال الرجل، بصوت سميك يحمل سخط المخمورين. "لن أخبرك أي شيء. ليس قبل أن أحصل على المكافأة. أرسل المكافأة، عندها أخبرك من أنا. هذا كلام نهائي."

عاد ديوي إلى السرير. "لا، حبيبتي،" قال. "لا شيء مهم. مجرد مخمور آخر."

"ماذا يريد؟"

"يريد أن يعترف، بشرط أن نرسل له المكافأة أولاً." (كانت صحيفة في كانساس، أخبار هوتشينسون، عرضت ألف دولار للمعلومة التي تقود إلى حل لغز الجريمة.)

"ألفن، أنت تشعل سيجارة أخرى؟ بصراحة، ألفن، ألا يمكنك أن تحاول النوم؟"

لم يكن يستطيع النوم بسبب التوتر، حتى لو صمت الهاتف – كان قلقاً للغاية ومحبطاً. لم تفض أي من "مفاتيحه" إلى أي مكان، سوى، ربما، إلى طريق مغلق ينتهي بحائط بلا ملامح. بوبي روب؟ استبعده جهاز كشف الكذب. والسيد سميث، المزارع الذي عقد الحبل في مزرعته بنفس طريقة العقد المستخدمة في الجريمة – هو

أيضاً استبعد من الشبهة لأنه أثبت أنه كان "بعيداً في أوكلاهوما" ليلة وقوع الجريمة. بقي جونس، الأب والابن، ولكنهما قدما أيضاً إثباتًا عن تغيّبهم [وقت الجريمة]. "وهكذا، انتهى كل شيء إلى رقم مدوّر جميل، إلى الصفر،" حسب تعبير هارولد ناي. حتى البحث عن قبر القط الذي ذكرته نانسي لم يفض إلى شيء.

مع ذلك، كان ثمة تطور أو تطوران لهما قيمة. الأول، بينما كانت السيدة إلين سيلسور، عمة نانسي، تفرز ملابس المغدورة، وجدت ساعة يد ذهبية معلقة بإصبع أحد أحذيتها. الثاني، كانت السيدة هيلم تستكشف كل غرفة في مزرعة ريفر فالي، بصحبة مندوب مكتب التحقيقات في كانساس، كانت تجول البيت على أمل أن تلاحظ ابتعاد أو غياب شيء ما، وقد لاحظت. كان ذلك في غرفة كينيون. نظرت السيدة هيلم وأعادت النظر، مشت في أرجاء الغرفة بشفتين مزموتين، تلمس هذا الشيء وذاك – قفاز البيسبول القديم الخاص بكينيون، بوط العمل الملطخ بالوحل، نظارتاه المهملتان المثيرتان للحزن. وهي تهمس طوال الوقت، "هناك شيء غير طبيعي هنا، أشعر بذلك، أعرف ذلك، لكني لا أعرف ما هو." بعدئذ عرفت ما هو. "إنه الراديو! أين الراديو الصغير الخاص بكينيون؟"

هذه الاكتشافات مجتمعة، أرغمت ديوي على التفكير مجدداً باحتمال "السرقة العادية" كدافع. من المؤكد أن تلك الساعة لم تسقط في حذاء نانسي مصادفة. لا بد أنها سمعت، وهي مستلقية في الظلام، وقع أقدام أو ربما أصوات، فافترضت أن هناك لصوص في البيت، وهذا الافتراض جعلها تخفي الساعة بسرعة، فهي هدية من أبيها، وتقدرها كثيراً. أما بشأن الراديو، راديو رمادي محمول ماركة

زينيت، لا شك في أنه سرق. مع كل هذا، لم يستطع ديوي أن يقبل نظرية أن تكون العائلة قد قتلت من أجل مكسب تافه – "بضعة دولارات وراديو." قبول هذا من شأنه أن يزيل تصوره عن القاتل – أو ربما القتلة. كان قد قرر ديوي هو ومساعدوه، على نحو حاسم، أن يتكلموا بصيغة الجمع عن القتلة. التنفيذ المحكم للجرائم كان برهاناً كافياً على أن واحداً من الثنائي كان يمتلك دهاء بارداً، وكان – لا بد – شخصاً شديد الذكاء كي يرتكب هذا العمل دون دافع محسوب. عندئذ أيضاً، أدرك ديوي خصائص عدة عززت قناعته بأن أحد المجرمين على الأقل كانت له صلة عاطفية بالضحايا، وكان يشعر نحوهم -حتى وهو يدمّرهم- بإشفاق ملتوٍ ما. وإلا كيف يمكن تفسير وجود صندوق مرتبة النوم الكرتونيّ [تحت جثّة السيّد كلاتر]؟

موضوع الصندوق الكرتونيّ كان من الأشياء التي عذّبت ديوي كثيراً. لماذا تكبّد القتلة عناء نقل الصندوق من طرف غرفة القبو ووضعه أمام الفرن، إلا بقصد جعل السيّد كلاتر أكثر راحة. لتزويده، وهو يتأمل السكين تقترب، بمضجع أقل قساوة من الإسمنت؟ وقد ميّز ديوي أثناء دراسة صور مسرح الجريمة، تفاصيل أخرى تدعم تصوّره عن قاتل يتصرف من حين لحين بمراعاة للضحايا. "أو" – لم يتمكن من العثور على الكلمة التي يريدها بالضبط – "بشيء من الحساسية. والنعومة. أغطية الأسرة تلك. الآن، الشخص الذي يفعل هذا – يربط امرأتين، بالطريقة التي رُبطت بها بوني والفتاة، ثم يغطيهما كأنه يتمنى لهما أحلاماً سعيدة وليلة هانئة؟ أو الوسادة تحت رأس كينيون. في البداية قلت ربما وضعت الوسادة تحت رأس كينيون ليصبح رأسه هدفاً أسهل. الآن أعتقد، لا، إنها وُضعت لنفس السبب الذي وُضع

فيه صندوق الفراش على الأرض – جعْل الضحية في وضع أكثر راحة."

غير أن هذه التأملات، رغم أنها شغلت ديوي، لم تبعده أو تعطيه الشعور "بالتقدم في الأمر." القضايا لا تحل "بالنظريات المتخيلة"؛ كان يؤمن بالوقائع – "المتعوب عليها والمكفولة بالقَسَم." حجم الوقائع التي ينبغي البحث عنها وغربلتها، والأجندة الموضوعة للحصول عليها، تتطلّب الكثير من العرق، وتحتاج، كما حصل، إلى التعقّب، و"التحقّق من" مئات الناس، من بينهم كل المستخدمين السابقين في مزرعة ريفر فالي، الأصدقاء والعائلة، وأي شخص كان للسيد كلاتر علاقة عمل به، كثيرًا أو قليلًا – مثل سلحفاة تزحف نحو الماضي. لأنه، كما قال ديوي لفريقه، "علينا أن نستمر حتى نعرف عائلة كلاتر أفضل مما كانوا يعرفون هم أنفسهم. حتى نجد الرابط بين ما وجدناه صباح الأحد الماضي، وبين أمرٍ ما ربما وقع قبل خمس سنوات. الرابط. يجب إيجاده. لا بد من الحصول عليه."

غفت زوجة ديوي، ولكنها استيقظت حين أحسّت به يغادر سريرهما، وسمعته يرد على الهاتف، وسمعت من الغرفة المجاورة، حيث ينام الأولاد، تشهقات بكاء طفل. "بول؟" في العادة، باول لا يضطرب ولا يثير الإزعاج – لم يكن يوماً متذمّراً. كان دائم الانشغال في حفْر الأنفاق في الحديقة، أو التدرّب ليكون "أسرع عدّاء في مقاطعة فيني." لكنه انفجر باكياً على مائدة الإفطار ذلك الصباح. لم تحتج أمّه إلى السؤال عن السبب؛ كانت تعلم إنه بالرغم من فهمه بشكل غائم فقط أسباب الاضطراب من حوله، فإنه شعر بالخطر – إزعاجات على الهاتف، غرباء على الباب، عينا أبيه القلقتان المرهقتان. ذهبت كي تهدّئ باول. ساعدها في ذلك أخوه الذي يكبره بثلاث سنوات. "بول،"

قال الأخ، "هوّن عليك الآن، وغداً سوف أعلمك لعبة البوكر."

ديوي كان في المطبخ، بينما ماري تبحث عنه، فوجدته هناك ينتظر امتلاء فنجان القهوة من جهاز إعداد القهوة، بينما تنتشر صور مسرح الجريمة، على طاولة المطبخ أمامه – هناك بقع قاتمة تفسد جمال غطاء الطاولة المزين برسوم الفاكهة. (عرض عليها مرة أن ترى الصور، لكنها رفضت، وقالت، "أريد أن أتذكر بوني كما كانت – وكل العائلة.") قال، "ربما من الأفضل أن يبقى الأولاد عند أمي." ليس بعيداً عنهم، تعيش أمه الأرملة، في بيت تراه واسعاً أكثر مما يجب، وصامتاً؛ وكان الأحفاد يجدون الترحيب الدائم فيه. "فقط لبضعة أيام. حتى – أقصد، حتى."

"ألفن، هل تعتقد أننا سنعود ثانية إلى الحياة العادية؟" سألت السيدة ديوي.

كانت حياتهم الطبيعية كالتالي: كلاهما يعمل، السيدة ديوي كسكرتيرة في مكتب، وكانا يتقاسمان أعباء المنزل بينهما، يتناوبان على الطبخ والجلي. ("عندما كان ألفن عمدة، أعرف أن بعض الفتية أزعجوه، اعتدت أن أقول، "انظروا! جاء العمدة ديوي! رجل قاس! يحمل مسدساً! ولكنه ما أن يصل إلى البيت، حتى يغيب المسدس ويحضر المئزر!") في ذلك الوقت، كانا يوفران لبناء بيت في مزرعة كان ديوي قد اشتراها في عام 1951 – مساحتها مئتان وأربعون فداناً، وتبعد عدة أميال عن غاردن سيتي. كان يحب أن يذهب بالسيارة إلى هناك، إذا كان الطقس جيداً، ولا سيما حين يكون النهار حاراً والقمح عالياً وناضجاً، كي يمارس الرمي الغريزي على الغربان وعلب التنك – أو لكي يتجول في خياله عبر البيت الذي يأمل بنائه، وعبر الحديقة التي

يريد غرسها، وتحت الأشجار التي لم تزرع بعد. كان متيقناً جداً من أنه، في يوم ما، ستنهض واحته الخاصة من السنديان والدردار فوق هذه السهول الجرداء: "يوماً ما. إذا شاء الله."

كان الإيمان بالله، والطقوس المحيطة بهذا الإيمان – الكنيسة كل أحد، الشكر قبل الوجبات، الصلاة قبل النوم – جزءاً هاماً من وجود ديوي. "لا أفهم كيف يمكن لأي شخص أن يجلس إلى الطاولة دون أن يتمنى البركة لها،" ذات مرة قالت زوجته. "أحياناً، حين أعود من العمل إلى البيت، طبعاً أكون متعبة. ولكني أجد دائماً القهوة على الموقد، وأحياناً أجد شريحة لحم في البراد. يشعل الأولاد النار لطبخ اللحمة، ونتحادث، نخبر بعضنا عن مجريات يومنا، وحين يجهز العشاء، أعرف أن لدينا السبب الكافي لنكون سعداء وشاكرين. لذلك أقول، شكراً لله. ليس فقط لأنني يجب أن أقول ذلك، بل لأنني أريد أن أقوله."

الآن قالت السيدة ديوي، "ألفن، أجبني. هل تعتقد أننا سنعود يوماً إلى الحياة العادية؟"

همّ بالإجابة، لكن رنين الهاتف قاطعه.

○ ○

غادرت الشيفرولية العتيقة كانساس سيتي في 21 نوفمبر/ تشرين الثاني، ليل السبت. كانت البضائع مثبتة بالحبال من أسفل السيارة إلى سقفها؛ صندوق السيارة محشوّ إلى حد لم يعد ممكناً معه إغلاقه؛ في الداخل، على المقعد الخلفي، جهازا تلفزيون، أحدهما يُسند الآخر. بات المكان ضيقاً على المسافرَين: دك (السّائق) وبيري، الذي كان يجلس متشبثاً بغيتار جيبسون قديم، أحَبّ ممتلكاته

إلى قلبه. أما بقيّة ما يملك – حقيبة الكرتون، وراديو زينيت رمادي محمول، وغالون من بيرة الجذور (كان يخشى أن لا يعثر على مشروبه المفضل في المكسيك)، وصندوقان كبيران من الكتب، ومخطوطات، وتذكارات عزيزة (ألم يجنّ دك! فقد لعن، ورفس الصناديق قائلا عنها "خمسمئة رطل من وسخ الخنازير!") هذه أيضاً كانت جزءاً من العفش داخل السيارة.

في حوالي منتصف الليل عبرا الحدود إلى أوكلاهوما. سُرّ بيري لأنه بات خارج كانساس، استراح أخيراً. الآن حقاً باتا في طريقهما – في طريقهما، ولن يعودا أبداً – دون أسف، بقدر ما يتعلق الأمر به، فهو لم يترك وراءه شيئاً، ولا أحد سيتساءل أين اختفى. ولكن الأمر مختلف فيما يخص دك. هناك هؤلاء الذين زعم دك إنه يحبهم: ثلاثة ابناء، وأم، وأب، وأخ – أشخاص لم يجرؤ أن يأتمنهم على خططه، أو أن يقول لهم وداعاً، رغم أنه يتوقع أن لا يراهم على الإطلاق مرة ثانية – على الأقل في هذه الحياة!

○ ○

زواج كلاتر وإنغلش في احتفال السبت: أدهش هذا العنوان الذي ظهر في الصفحة الاجتماعية من تيليغرام الصادرة في غاردن سيتي، بتاريخ 23 نوفمبر/تشرين الثاني، الكثير من القراء. بدا أن بفرلي، الابنة الثانية الناجية من عائلة كلاتر، قد تزوجت من السيد فيري إدوارد إنغلش، طالب البيولوجيا الشاب الذي كانت مخطوبة له منذ فترة طويلة. الآنسة كلاتر لبست الأبيض، وكان الزواج، وهو حدث واسع النطاق ("كانت السيدة ليونارد كاوان مغنية منفردة، والسيدة هاوراد بلانشارد عازفة الأرغن")، قد "تم في الكنيسة الميثودية الأولى" –

الكنيسة التي كانت العروس قد رثَت فيها، قبل ثلاثة أيام، أباها وأمها وأخاها وأختها الصغرى. ولكن بحسب رواية التيليغرام، فإن "فيري وبفرلي كانا خطّطا للزواج في عيد الميلاد. الدعوات كانت مطبوعة، وأبوها كان قد حجز الكنيسة لذاك التاريخ. ونظراً للمأساة غير المتوقعة، ولأن الكثير من الأقارب كانوا هناك وقد جاؤوا من مسافات بعيدة، قرر الشابان أن يحتفلا بزواجهما السبت."

انتهى الزفاف، تفرّق أقارب كلاتر. ويوم الاثنين، اليوم الذي غادر فيه آخر الأقارب غاردن سيتي، نشرت التيلغرام على صفحتها الأولى، رسالة كتبها السيد هوارد فوكس، من أوريغون، إلينوي، أخو بوني كلاتر. وبعد التعبير عن الامتنان لأهل البلدة لأنهم فتحوا "بيوتهم وقلوبهم" للعائلة المفجوعة، تحولت الرسالة إلى مناشدة. "يوجد الكثير من الضغينة في هذا المجتمع [أي غاردن سيتي]،" كتب السيد فوكس. "حتى أني سمعت في أكثر من مناسبة إنه حين يتم العثور على الرجل، يجب تعليقه على أول شجرة. دعونا نبتعد عن الشعور بهذه الطريقة. الجريمة وقعت، وأخذ حياة أخرى لن يغير شيئاً. بدلاً من ذلك، دعونا نصفح كما يريدنا الله أن نفعل. ليس من الصواب أن نحمل الضغينة في قلوبنا. من قام بهذا الفعل سيجد أنه من العسير يعيش مع نفسه [بشكل طبيعي]. ولن يحقّق سلامه الذهني إلا حين يمضي إلى الله من أجل المغفرة. خير لنا أن لا نقف في الطريق، بل أن نصلي له لعله يجد سلامه."

○ ○

توقف بيري ودك للتنزه، ركنا السيارة على لسان برّي داخل البحر. كانت ساعة الظهيرة. مسح دك المشهد بمنظار ذي عينين.

جبال. صقور تحوم في سماء بيضاء. طريق ترابي يتعرج داخلاً وخارجاً من قرية بيضاء مغبرة. هذا يومه الثاني في المكسيك، حتى الآن أحبها، أحب حتى الطعام. (في هذه اللحظة كان يأكل تورتيلا دسمة باردة.) قطعا الحدود في لاريدو، تكساس، صباح 23 نوفمبر/تشرين الثاني، وأمضيا الليلة الأولى في ماخور سان لويس بوتوسي. كانا الآن على مسافة مئتي ميل شمال وجهتهما التالية، مكسيكو سيتي.

"هل تعلم بماذا أفكر؟" قال بيري. "ما عملناه يدل على أننا لسنا طبيعيين، أعتقد."

"ماذا عملنا؟"

"هناك."

رمى دك المنظار في محفظة جلدية، محفظة فاخرة عليها الأحرف H.W.C. غضب دك. غضب بشدة. لماذا لا يستطيع بيري إقفال فمه؟ يا يسوع المسيح، ما الفائدة اللعينة من هذا، من إعادة التذكير الدائمة بهذه اللعنة؟ فعلاً الأمر يثير الغضب. خصوصاً أننا اتفقنا أن لا نتكلم بهذا الشيء الملعون. أن ننساه فقط.

"لا بد أن هناك خللًا في الشخص الذي يقوم بشيء مثل هذا،" قال بيري.

"أخرجني من الموضوع، حبيب!" قال دك. "أنا طبيعي." وكان دك يقصد ما يقول. فقد اعتقد إنه متوازن، وصحيح العقل كأيّ إنسان – وربما كان أذكى قليلاً من المعدّل الوسط، هذا كل شيء. أما بيري الصغير، فكان فيه، برأي دك، "شيء غير طبيعي". على أقل تقدير. فحين وُضعا معاً في الزنزانة أثناء الربيع الماضي، في إصلاحية ولاية كانساس، عرف معظم خصوصياته الصغيرة: يمكن أن يكون

بيري "مجرد طفل،" يبلل دائماً فراشه ويصرخ في نومه ("بابا، بحثت في كل الأماكن، أين أنت يا بابا؟") وكثيراً ما رآه دك "يجلس لساعات يمصّ إبهامه وينكب على أدلة الكنوز اللعينة الزائفة." هذا جانب، وهناك جوانب أخرى. بيري البالغ "شديد الخوف." خذ مثلاً مزاجه. يمكن أن يصل إلى أعلى درجات الغضب "بأسرع من عشر هنود مخمورين." ودون أن يُشعرك بذلك. وقد يكون جاهزاً لقتلك، ولكنك لن تعرف، لا من النظر إليه ولا من الإصغاء له،" قال ديك ذات مرة. لأنه مهما بلغ مستوى الغضب الداخلي لديه، فإنه يبقى خارجياً مجرم شاب بارد، بعينين هادئتين وناعستين قليلاً. في وقت ما اعتقد دك إنه يمكن أن يسيطر، أو يضبط حرارة نوبات الحمّى الباردة المفاجئة هذه والتي حرقت وجمّدت صديقه. كان مخطئاً، وبعد هذا الاكتشاف، بات قليل الثقة ببيري، وغير واثق أبداً بما يفكّر فيه - سوى أنه شعر بأن عليه أن يخاف منه، وتساءل فعلاً لماذا لم يخف منه؟

"في العمق،" تابع بيري، "عميقاً في القاع الصخري، لم أعتقد أن بمقدوري القيام بذلك. شيء كذلك."

"وماذا عن الزنجي؟" قال دك. صمت. أدرك دك أن بيري كان يحدق إليه. منذ أسبوع، في كانساس سيتي، اشترى بيري نظارات سوداء - نظارات مزخرفة بحواف فضية صقيلة وعدسات عاكسة. كره دك هذه النظارات، وقال لبيري إنه يشعر بالخجل إذا سار مع "شخص يضع هذا النوع من أشياء الشاذين." في الواقع، ما أغاظه هو العدسات العاكسة: لم يكن مريحاً أن تختفي عينا بيري وراء خصوصية تلك السطوح العاكسة الملونة.

"الزنجي أمر آخر،" قال بيري.

الرد والاشمئزاز الذي بدا على بيري حين قالها، جعلا دك يسأل، "هل حقاً قتلته كما قلت؟" كان السؤال مهماً، لأن اهتمام دك الأوليّ ببيري، وتقييمه لشخصيته وقدراته، استند أصلاً على القصة التي رواها له بيري، كيف أنه ضرب رجلاً ملوناً حتى الموت.

"بالتأكيد قتلته. ولكن – الزنجي. الأمر مختلف." ثم قال بيري، "هل تعرف ما الذي يقلقني بالفعل؟ أقصد بما يخص الشيء الآخر. ما يقلقني هو أنني لا أستطيع أن أقتنع بأن من الممكن لشخص أن ينجو بفعلة كتلك. لا أستطيع أن أرى كيف يمكن أن يكون ذلك ممكناً. أن تفعل ما فعلنا، وتنجو بفعلتك هكذا مئة بالمئة. أعني، هذا هو ما يقلقني – لا أستطيع أن أتخلص من فكرة أن شيئاً ما سيحدث لنا."

رغم أن دك كان يذهب إلى الكنيسة في طفولته، إلا أنه لم "يقترب" في أي يوم من الإيمان بالله؛ ولم تشغله الخرافات. وعلى خلاف بيري، لم يكن ليؤمن بأن المرآة المكسورة تعني سبع سنوات من النحس، أو إن رؤية الهلال من خلال الزجاج تنذر بالشر. لكن بيري، بحدسة الحاد والعنيد، قد لامس قلقاً ملازماً لدك، الذي كان يعاني أيضاً من لحظات يعصف فيها هذا السؤال داخل رأسه: هل من الممكن – هل يمكنهما "بحق الله أن ينجوَا بالفعل الذي ارتكباه؟" وفجأة، قال لبيري، "الآن، فقط اخرس!" ثم ضغط بقوة على دواسة وقود السيارة وعاد بها بعيداً عن اللسان البريّ. وأمامه على الطريق الترابي، رأى كلباً يعدو تحت أشعة الشمس الدافئة.

o o

جبال. صقور تحوم في سماء بيضاء.

حين يقوم بيري بسؤال دك، "هل تعرف بماذا أفكر؟" كان دك

يعلم أنه سيبدأ في حديث لا يروق له، حديث سرعان ما سيتجنبه بيري نفسه لهذا السبب. كان بيري يوافق دك: لماذا الاستمرار في الحديث عنها [الحادثة]؟ ولكنه لطالما فشل في الإحجام عن ذلك. ينتابه الضعف، تأتيه لحظات "يتذكر فيها أشياء" – ضوء أزرق ينفجر في غرفة معتمة، العينان الزجاجيتان للعبة كبيرة على شكل دب – وتبدأ أصوات، كلمات قليلة معينة، تلحّ على دماغه: "أوه، لا! أوه، أرجوك! لا! لا! لا! لا! توقف! أوه، أرجوك توقف! أرجوك!" وتعود أصوات محددة – تدحرُج دولار فضي على الأرض، وقع خطوات البوط على السلم الخشبي، أصوات التنفس، اللهاث، الشهيق الهستيري لرجل بحنجرة ذبيحة.

حين قال بيري، "أعتقد أننا غير طبيعيين،" كان يقدّم اعترافًا "يكره أن يعترف به." بعد كل شيء، إنّه لمن "المؤلم" أن يتخيل الشخص أنه قد يكون "ليس طبيعياً" – ولا سيّما إذا كان الخلل الذي يحمله، مهما كان، ليس جريرته، بل "قد يكون شيئاً مولوداً معه." انظر إلى هذه العائلة! انظر ماذا حدث هناك! أمه، امرأة كحولية، اختنقت حتى الموت بقيئها. ومن أولادها، صبيّان وبنتان، البنت الصغيرة هي الوحيدة التي عاشت حياة عادية، تزوجت وبدأت بتربية عائلة. الابنة الثانية، فيرن، قفزت من نافذة في فندق سان فرانسيسكو. (ومنذئذ وبيري يقول "حاولت أن أعتقد بأنها انزلقت،" لأنه كان يحبها. لقد كانت "شخصاً على قدر كبير من الجمال،" و"مبدعة" إلى حد بعيد، وراقصة "مرعبة"، وكان يمكنها أن تغني أيضاً. "لو كان لها شيء من الحظ، بمظهرها ومواصفاتها، لوصلت إلى مكان ما، لكانت شخصاً ذا شأن." لطالما أحزنه أن يتخيّلها تتسلق عتبة نافذة وتسقط من علو خمسة

عشر طابقاً.) وهناك جيمي، الأخ الأكبر – جيمي الذي دفع زوجته إلى الانتحار، وقتل نفسه بعدها.

ثم سمع دك يقول، "أخرجني من الموضوع، حبيب! أنا طبيعي." ألم تكن تلك ضحكة حصان [سخرية]؟ ولكن، لا يهم، دعها تمر [قال بيري لنفسه،] ثم تابع "في داخلي، عميقاً حتى القاع الصخريّ، لم أعتقد أن بمقدوري القيام بذلك. بشيء مشابه." وفي الحال أدرك خطأه: بالطبع سوف يسأل دك، "وماذا عن الزنجي؟" عندما أخبر دك تلك القصة، كان يريد صداقة دك، كان يريد من دك أن "يحترمه"، أن يعتبره "قاسياً"، من مستوى "النمط الرجولي" الذي كان يراه في دك. وهكذا، في أحد الأيام، بعد أن قرأا وناقشا معاً مقالة في مجلة "المختار"، بعنوان "إلى أيّ حدّ لديك شخصية رجل المباحث؟" ("حاول، وأنت تنتظر في عيادة طبيب الأسنان أو في محطة قطار، أن تدرس العلامات العفوية للناس من حولك. راقب طريقة المشي، مثلاً. المشية برجلين مشدودتين يمكن أن تدل على شخصية قاسية وصارمة؛ المشية المتثاقلة يمكن أن تدل على التصميم")، قال بيري "كنت دائماً أتمتع بشخصية رجل مباحث بارزة، وإلا لكنت اليوم في عداد الموتى. مثلاً لو لم أعرف متى أثق بشخص ما. لا يمكنك أبداً أن تبزّني في هذا. ولكني وثقت بك، دك. سوف ترى، لأنني سأضع نفسي تحت أمرك. سأخبرك بشيء لم أقله لأحد. ولا حتى لويلي جي. عن انتقامي من شخص." لاحظ بيري، وهو يتابع، أن الموضوع أثار اهتمام دك؛ وراح يصغي بانتباه. "منذ حوالي صيفَين. في فيغاس. كنت أعيش في بنسيون ما– وقد كان ماخوراً فاخراً. لكن الأبّهة تلاشت كلها. كان مكاناً يتوجب هدمه منذ عشر سنوات؛ على كل حال، بات وقتها على

وشك أن يتهدّم من تلقاء نفسه. العِليّة هي أرخص غرفة، وأنا سكنت فيها. وسكن فيها أيضاً هذا الزنجي. اسمه كينغ؛ وسيمكث معي مؤقتاً. كنا وحيدين في العليّة – نحن ومليون صرصور. لم يكن كينغ شاباً، ولكنه عمل سابقاً في بناء الطرق وفي أعمال خارجية مشابهة، وتمتّع ببنية [جسديّة] جيّدة. يضع نظارات ويقرأ كثيراً. لم يكن يغلق باب غرفته أبداً. كلما مررت، كنت أراه مستلقياً هناك وعارياً. كان بلا عمل، وقال إنه وفّر بضعة دولارات من عمله الأخير، وإنه يريد أن يستريح قليلاً، يقرأ ويهوّي لنفسه ويشرب البيرة. الأشياء التي كان يقرؤها، مجرد زبالة – كتب فكاهية ونفايات كاوبوي. كان لا بأس به. أحياناً نشرب البيرة معاً، ومرة أقرضني عشر دولارات. لم يكن عندي أي سبب كي أضربه. ولكن ذات ليلة، كنا جالسين في العليّة، الجو حار ولا يمكنك النوم، فقلت، "هيا، كينغ، لنخرج في مشوار بالسيارة." كانت لدي سيارة عتيقة وقد جرّدتها من لونها وحسّنت محرّكها ثم دهنتها بالفضي – وسمّيتها الشبح الفضي. ذهبنا في مشوار طويل بالسيارة. سقنا مسافة طويلة في الصحراء. هناك كان الجو بارداً. ركنّا السيارة وشربنا المزيد من البيرة. خرج كينغ من السيارة، وتبعته. لم ير أنني كنت أحمل الجنزير. جنزير دراجة هوائية كنت أحتفظ به تحت المقعد. الحقيقة لم يكن في ذهني أيّة فكرة بأنني سأفعل ذلك حتى فعلته. ضربته على الوجه. كسرت نظارتيه، وتابعت الضرب. بعد ذلك، لم أشعر بشيء. تركته هناك، ولم أسمع شيئاً عن الأمر بعد. ربما لم يعثر عليه أحد، سوى الطيور الجارحة."

كان في القصة شيئ من الحقيقة. بالفعل كان بيري يعرف، حسب القصة التي حكاها، زنجياً يدعى كينغ. ولكن إذا كان هذا الرجل

في عداد الموتى اليوم، فإن بيري لا علاقة له بذلك على الإطلاق؛ فهو لم يرفع يده يوماً ضد هذا الرجل. وكل ما عرفه عنه، هو إنه يمكن أن يبقى مستلقياً في السرير في مكان ما، يهوّي لنفسه ويشرب البيرة.

"هل حقاً قتلته كما تقول؟" سأل دك.

لم يكن بيري كاذباً موهوباً، أو كاذباً خصباً؛ ولكنه حين يقول كذبةً فإنه يتشبّث بها. "بالتأكيد قتلته. مجرد زنجي. الأمر يختلف." أما الآن فقد قال، "هل تعرف ما الذي يقلقني بالفعل؟ أقصد بما يخص الشيء الآخر. ما يقلقني هو أنني لا أستطيع أن أقتنع بأنّه من الممكن لشخص أن ينجو بفعلة كتلك." وكان يظن أن لدى دك القناعة نفسها أيضاً. لأن دك كان، على الأقل جزئياً، مسكوناً بهواجس بيري الروحيّة الخفية. لذلك قال: "فقط اسكت، الآن!"

السيارة تسير. وعلى بعد مئة قدم إلى الأمام، يعدو كلب على جانب الطريق. انحرف دك بالسيارة باتجاه الكلب. كان كلباً هجيناً أجربًا عجوزًا بعظام هشة، وكان اصطدامه بالسيارة خفيفاً كما لو أنه عصفور. لكن دك كان راضياً. "يا سلام!" قال – هكذا يقول دائماً بعد أن يدهس كلباً، وهو أمر يقوم به في أي وقت تسنح فيه الفرصة. "يا سلام! مؤكد أننا سحقناه!"

° °

مر عيد الشكر، وانتهى موسم طيور التدْرُج، ولكن لم ينته الصيف الهندي الجميل، بأيامه الصافية النقية المتدفقة. آخر الصحفيين الذين جاؤوا من خارج البلدة، غادر غاردن سيتي، بعد أن اقتنع أن القضية سوف تبقى بلا حل. غير أن القضية لم تغلق على الإطلاق، بالنسبة لأهل مقاطعة فيني، ولا سيما أولئك الذين يشرفون

على المكان المفضل للاجتماعات في هولكومب، مقهى هارتمان.

"منذ أن بدأت المشكلة، ونحن نقوم بكل ما يمكننا القيام به،" قالت السيدة هارتمان، وهي تحدق في ركنها الدافئ، حيث في كل جزء منه جلسَ أو وقف أو استند أحد المزارعين أو أحد مساعديهم، أو أحد عمّالهم المأجورين، يشربون القهوة وتفوح منهم رائحة التبغ. "إنهم مجرد حفنة من النساء المسنّات،" أضافت مديرة مكتب البريد كلير، ابنة عمة السيدة هارتمان، والتي صادف أنها كانت في المقهى. "لو كنا في الربيع وهناك عمل ينبغي إنجازه، لما كانوا هنا. لكن القمح في المخازن، والشتاء في الطرقات، وليس لديهم ما يعملونه سوى أن يجلسوا ويخيفون بعضهم. هل تعرفون بيل براون، في جريدة تيليغرام؟ هل رأيتم الافتتاحية التي كتبها؟ تلك التي أسماها "جريمة أخرى؟" قال، "حان الوقت للكف عن الكلام الفارغ." لأنه جريمة، أيضاً – أن تقول أكاذيب فاقعة. ولكن ماذا يمكنك أن تتوقعي؟ انظري حولك. ثعابين وأوغاد ومروجو إشاعات. هل ترين غير هؤلاء؟ ها! بالطبع لا ترين."

من بين الإشاعات التي انطلقت من مقهى هارتمان واحدة كانت إشاعة تتعلق بتايلور جونس، وهو مزارع تقع مزرعته بجوار مزرعة ريفر فالي. في رأي عدد كبير من زبائن المقهى، إن المجرمين كانوا يستهدفون السيد جونس وعائلته، وليس عائلة كلاتر. "هذا منطقي أكثر،" قال أحد المدافعين عن هذا الرأي. "تايلور جونس أغنى من السيد كلاتر. يبدو أن الشخص الذي قام بذلك لم يكن من هذا المحيط. الظاهر أنه قاتل مأجور، وكل ما كان يحتاجه هو تعليمات للوصول إلى البيت. ومن السهل جداً أن يخطئ – أن يأخذ منعطفًا خاطئًا – لينتهي في بيت هيرب، بدلا من بيت تايلور." ردّد الناس مراراً نظرية "جونس تايلور" –

ولا سيما على مسامع عائلة جونس، العائلة الحساسة والمحترمة، التي تحاملت على نفسها كي لا تتأثّر [بهذه الأقاويل].

منضدة غداء، بضع طاولات، ركن يحوي مشواة ساخنة وبرّادًا وراديو – هذا كلّ ما يحتويه مقهى هارتمان. "لكن زبائننا يحبونه،" تقول المالكة. "فهم مرغمون على محبته. لا يوجد مكان آخر يذهبون إليه. إلا على بُعد سبعة أميال في هذا الاتجاه أو خمسة عشر ميلاً في الاتجاه الآخر. وفي كل الأحوال، نحن ندير محلاً وَدوداً، والمقهى جيد منذ أن جاءت مابل للعمل فيه" ومابل هي السيدة هيلم. "بعد المأساة، قلت لها: مابل، أنت الآن بلا عمل، لماذا لا تأتين وتمدين يدك معي في المقهى؟ اطبخي قليلاً. انتظري [الزبائن] عند المنضدة. هكذا سارت الأمور – الجانب السيء الوحيد هو أن كل شخص يدخل إلى المقهى، يزعجها بالأسئلة عن المأساة. ولكن مابل ليست كابنة عمتي ميرت، أو مثلي. هي خجولة. ثم إنها لا تعرف شيئاً آخر غير ما يعرفه الجميع." ولكن المجتمعون دومًا في هارتمان، بشكل عام، ظلّوا يشكّون أن مابل تعرف شيئاً ما وتخفيه عنهم. وبالطبع، لديها ما تخفيه. لقد أجرى ديوي عدّة محادثات معها، وطلب منها أن تُبقي ما قِيل في المحادثات سرّاً. ولهذا لم تبُح بأيّ شيء عن الراديو المفقود، وساعة اليد التي شوهدت في حذاء نانسي. ولهذا قالت للسيدة أرشيبالد ويليام وارن براون، "من يقرأ الصحف يعرف مثلما أعرف. وأكثر. لأنني لا أقرأ الصحف."

السيدة أرشيبالد ويليام وارن براون، هي امرأة مملة قصيرة في أوائل الأربعينات من عمرها، امرأة انكليزية مزودة بلكنة الطبقة العليا غير الواضحة، وهي لا تشبه على الإطلاق الناس الذين يترددون على المقهى، وتبدو في جو المقهى، مثل طاووس عالق في قفص ديك تُركيّ! ذات

مرة كانت تشرح لأحد معارفها السبب الذي اضطرها هي وزوجها لترك "أملاك العائلة في شمال انكلترا،" ومبادلة البيت الموروث - "أحلى، أوه، أجمل دير قديم" - ببيت مزرعة قديم ودون رونق أبداً في سهول كانساس الغربية، قالت السيدة وارن براون: "الضرائب، يا عزيزتي. ضريبة الإرث. ضرائب إرث هائلة، مجرمة. هذا ما جعلنا نخرج من انكلترا. نعم، غادرنا منذ حوالي السنة. دون ندم. أبداً. نحن نحب الحياة هنا. نعشقها كُليًّا. رغم أنها، بالطبع، مختلفة جداً عن حياتنا الأخرى. الحياة التي عرفناها دائماً. باريس وروما. مونت. لندن. أحياناً أفكر بلندن. أوه، أنا حقاً لا أشتاق لها - هيجان دائم ولا تجد سيارة أجرة، ودائماً تنشغل بمظهرك. مؤكد لا. نحن نحب الحياة هنا. أعتقد أن بعض الناس الذين يعرفون ماضينا، الحياة التي كنا نعيشها - يتساءلون ألا نشعر بالوحدة قليلاً، هناك في حقول القمح. كان قصدنا الاستقرار هناك في الغرب. وايومنغ أو نيفادا - لا فري شوز[10]. كنا نأمل حين نصل إلى هناك أن بعض الزيت سوف يلصق بنا. ولكن في طريقنا توقفنا لزيارة أصدقاء في غاردن سيتي - أصدقاء لأصدقاء في الواقع. ولكن كانوا في غاية اللطف. أصروا علينا أن نتريث. قلنا، لم لا؟ لم لا نستأجر قطعة أرض ونبدأ بتربية المواشي، أو الزراعة؟ فنحن لم نكن قد توصلنا إلى قرار بعد بهذا الشأن - تربية مواشي أم زراعة. سألَنا الدكتور أوستن ألم نجد المكان هادئًا أكثر من اللازم. في الحقيقة، لا. الحقيقة، لم أعرف في حياتي هذا القدر من الهرج والمرج. إنها أكثر صخباً من غارة بالقنابل. صفير قطارات، ذئاب. وحوش تعوي طوال الليل اللعين. ضجيج فظيع. ومنذ وقوع الجرائم، صار الضجيج يزعجني أكثر. وأشياء كثيرة

(10) باللغة الفرنسية في الأصل، بمعنى (الشيء الحقيقي). م.

صارت تزعجني. بيتنا – يا له من بيت قديم مليء بأصوات الصراير! لاحظي، أنا لا أشتكي. بالتأكيد هو بيت قابل للسّكنى – كامل المؤهّلات – ولكنه، أوه، كم يسعل ويهمهم! وبعد هبوط الظلام، حين تبدأ الرياح، رياح البراري الكريهة، تسمعين أصوات الأنين الأكثر رعباً. أعني، إذا كان الشخص متوتراً، فإنه لا يستطيع إلا أن يتخيل – أشياء سخيفة. يا إلهي! يا لتلك العائلة المسكينة! كلا، لم نلتقيهم قط. رأيت السيد كلاتر مرة. في المبنى الفيدرالي. في أوائل ديسمبر/كانون الأول، وفي عصر يوم واحد، أعلن اثنان من أكثر روّاد المقهى انتظاماً خططهما بحزم الأمتعة والمغادرة، ليس فقط من مقاطعة فيني، بل ومن الولاية. الأول هو مزارع مستأجر يعمل لصالح ليستر ماكوي، وهو رجل أعمال ومالك عقارات معروف في كانساس الغربية. قال، "تكلمت مع السيد ماكوي. حاولت أن أطلعه على ما يجري هنا في هولكومب ومحيطها. وكيف أن أحداً لا يستطيع النوم. زوجتي لا تستطيع النوم، ولا تسمح لي بالنوم. قلت للسيد ماكوي إنني أحب كثيراً هذا المكان ولكن من الأفضل أن يجد رجلاً آخر غيري. لأننا سوف ننتقل. إلى شرق كولورادو. ربما أجد بعض الراحة هناك."

الإعلان الثاني جاء على لسان السيدة هيديو أشيدا، التي وقفت بجانب المقهى مع ثلاثة من أولادها الأربعة الحُمْر الوجنات. صفّتهم أمام المنضدة وطلبت من السيّدة هارتمان، "قدّمي لبروس علبة كراكر جاك [فُشار محلّى]. أمّا بوبي فيريد كوكا كولا. [وماذا عنكِ يا] بوني جين؟ نعرف ما هو شعورك يا بوني جين، ولكن هيا، خذي هديّة." هزّت بوني رأسها، وقالت السيّدة أشيدا، "بوني جين حزينة قليلاً. لا تريد أن نغادر من هنا. فمدرستها وأصدقاؤها هنا."

"أخبريني لِمَ؟" قالت السيدة هارتمان مبتسمة لبوني جين. "هذا أمر لا يسبب الحزن. أعني الانتقال من مدرسة هولكومب إلى مدرسة غاردن سيتي. فالأولاد هناك أكثر–"

ردت بوني جين، "أنت لم تفهمي. أبي سيأخذنا بعيداً. إلى نبراسكا."

فنظرت بيس هارتمان إلى الأم، كما لو أنها تنتظر منها أن تُنكر زعم ابنتها.

"صحيح يا بيس،" قالت السيدة أشيدا.

"لا أعرف ما أقول،" قالت السيدة هارتمان، كان صوتها يعبّر عن الدهشة الساخطة، وأيضاً عن اليأس. لطالما كانت عائلة أشيدا جزءاً من مجتمع هولكومب، فالجميع يقدّرها – عائلة عالية الروح ومحبوبة، وأيضاً نشيطة وطيّبة المعشر وكريمة، رغم أنها لا تملك الكثير لتجود به.

قالت السيدة أشيدا، "كنا نتكلم حول هذا الأمر منذ فترة طويلة. هيديو يعتقد أنه يمكننا أن ننجز عملًا أفضل في مكان آخر."

"متى تخططون للرحيل؟"

"حالما نبيع كل شيء. ولكن في كل حال ليس قبل الكريسماس. بسبب صفقة عقدناها مع طبيب الأسنان. بشأن هدية الكريسماس لهيديو. أنا والأولاد سوف نُهديه ثلاثة أسنان ذهبيّة بمناسبة الكريسماس."

تنهدت السيدة هارتمان. "لا أعرف ما أقول. سوى أنني أتمنى أن لا ترحلوا. هكذا فجأة تتركوننا." تنهدت مرة أخرى. "يبدو أننا سوف نخسر الجميع، بطريقة أو أخرى."

"يا الله،" قالت السيدة أشيدا. "هل تعتقدين أنني راغبة في

الرحيل إلى أقصى مكان يمكن أن يذهب إليه البشر؟ إن هذا المكان [هولكومب] هو أفضل مكان عشنا فيه حياتنا [حتى الآن]. ولكن هيديو هو الرّجل، ويقول إنه يمكننا الحصول على مزرعة أفضل في نبراسكا. وسأقول لك شيئاً يا بيس." ثم حاولت أشيدا أن تقطّب حاجبيها، ولكن وجهها السمين الدائري الصقيل لم ينجح في ذلك. "كثيراً ما تجادلنا بهذا الشأن. ثم في إحدى الليالي قلت، "لا بأس، أنت السيّد، لنذهب." وبعد أن حصل ما حصل لهيرب وعائلته، شعرت أن شيئاً ما هنا قد انتهى. أقصد شخصياً. بالنسبة لي. لذلك توقفت عن مجادلته. قلت لا بأس." مدّت يدها إلى علبة الكراكر جاك الخاصّة ببروس. "يا الله، لا أستطيع نسيان الأمر. لا أستطيع إخراجه من رأسي. أنا كنت معجبة بهيرب. هل تعلمين أنني كنت واحدة من آخر الأشخاص الذين رأوه حياً؟ أوّاه – آه. ذهبت أنا والأولاد إلى اجتماع الفور-إتش في غاردن سيتي وهو من أوصلنا بسيارته إلى البيت بعد الاجتماع. آخر ما قلته لهيرب هو أنني لا أستطيع أن أتخيله خائفاً. وأنه مهما يكن المأزق [الذي قد يواجهه]، فإنه سيجد الكلام المناسب للخروج منه." قضمَت قطعًا من كراكر جاك، وهي غارقة في التفكير، وأخذت جرعة كبيرة من كوكا بوبي، ثم قالت، "يا للمهزلة. ولكن هل تعلمين يا بيس، أراهن أنه لم يكن خائفاً. أعني، كيفما حدث ما حدث، أراهن أنه حتى اللحظة الأخيرة لم يكن يصدّق أنه سيحدث. لأنه لا يمكن أن يحدث. لا يمكن أن يحدث له هو."

○ ○

كانت الشمس متوهجة. فيما ينزلق في بحر لطيف، نحو المرسى، قاربٌ صغير [يُدعى]: إستريليتا، حاملًا أربعة أشخاص – دك، وبيري، وشاب مكسيكي، وأوتو، ثريّ ألماني متوسط العمر.

"مرة ثانية، رجاءً،" قال أوتو، فعاود بيري العزف على غيتاره والغناء بصوت حلو أجش، أغنية سموكي ماونتنز:

"في عالم اليوم ونحن على قيد الحياة
يقول عنا البعض أسوأ ما يُقال،
ولكن حين نموت ونبيت في نعوشنا،
يأتون دائماً ليضعوا بعض الزنابق في يدنا.
ألا تعطوني الزهور وأنا على قيد الحياة ..."

قضيا أسبوعاً في مكسيكو سيتي، ثم اتجها بالسيارة جنوباً – كيرنافاكا، تاكسكو، أكابولكو. وفي هذه الأخيرة، في "بار موسيقى شعبية" تعرفا على أوتو الودود ذي الساقين المشعرتين. دك "اصطاده". لكن الرجل، وهو محام من هامبورغ يقضي عطلته، "كان له صديق سلفاً" – شاب من أهل أكابولكو يسمي نفسه الكاوبوي. "أثبت أنه شخص جدير بالثقة،" قال بيري ذات مرة عن الكاوبوي. "وضيع مثل يهوذا، شيء من هذا، ولكن أوه يا رجل، إنه ولد ظريف، فارس حقيقي سريع. دك أحبه، أيضاً. انسجامنا عظيم!"

وجد الكاوبوي للجوالين الموشومين غرفة في بيت أحد أعمامه، وشرع في تحسين اللغة الإسبانية لبيري، كما انتفع من علاقاته السائحُ القادم من هامبورغ، والذي رافقوه وعلى نفقته شربوا وأكلوا وحصلوا على بغايا. ويبدو أن المضيف كان يعتبر أن أمواله تُصرف هكذا بشكل صحيح، ولو لأجل استمتاعه بنكات دك وحسب! كل يوم يستأجر أوتو القارب إستريليتا؛ مركب صيد في البحر العميق، والأصدقاء الأربعة يتنزهون على طول الشاطئ. الكاوبوي يقود القارب؛ أوتو يخطط ويصيد السمك؛ بيري يضع الطعم على السنانير، ويحلم في اليقظة،

ويغني، وأحياناً يصيد السمك؛ دك لا يفعل شيئاً – فقط يتنهد ويشتكي من الحركة، ويستلقي مخدراً من الشمس وفاتر العزم، مثل سحلية في قيلولة. غير أن بيري قال، "أخيراً هذه هي. هكذا يجب أن تكون." مع ذلك، كان يعلم أن هذا لا يمكن أن يستمر – وأنه، في الواقع، سينتهي في ذاك اليوم. ففي اليوم التالي سيعود أوتو إلى ألمانيا، وسيعود بيري ودك بالسيارة إلى مكسيكو سيتي – تحت إلحاح دك. "أكيد، يا حبيب،" قال دك عندما ناقشا الموضوع. "الأمر ممتع وكل شيء. مع الشمس على الظهر. ولكن النقود تذهب-تذهب-ذهبت. وبعد أن بعنا السيارة، ماذا بقي لنا؟"

الجواب كان أنه لم يبق لديهم الكثير، لأنهم الآن أنفقوا معظم ما كسبوه يوم حفلة الشيكات في كانساس سيتي – الكاميرا، أزرار الأكمام، أجهزة التلفزيون. كما أنهم باعوا إلى شرطي في مكسيكو سيتي كان قد تعرف إليه دك، منظارًا ثنائي العين وراديو زينيت رماديّ محمولًا. "ما سنقوم به هو العودة إلى ميكس، نبيع السيارة، وربما أستطيع الحصول على عمل في ورشة سيارات. على كل حال، الوضع في ميكسيكو سيتي أفضل. الفرص أفضل. يا إلهي، أنا متأكد أن بمقدوري الاستفادة أكثر من إينيز." وإينيز هي عاهرة بادرت بالكلام مع دك على درجات قصر الفنون الجميلة في مكسيكو سيتي (كانت الزيارة جزءاً من جولة لزيارة معالم المدينة بغرض إسعاد بيري). كانت في الثامنة عشرة من عمرها، ووعدها دك بالزواج. ولكنه كان قد وعد أيضاً ماريا، وهي امرأة خمسينية وأرملة لرجل "مصرفيّ مكسيكيّ بارز." التقيا في بار، وفي صباح اليوم التالي دفعت عنه ما يعادل سبعة دولارات. "ما رأيك بالموضوع؟" سأل دك بيري. "سنبيع السيارة. ونجد عملاً. ونوفر

النقود. ونرى ما يحدث." كما لو أن بيري لا يستطيع تقدير ما الذي سيحدث. على فرض أنهما حصلا على مئتين أو ثلاثمئة دولار مقابل الشيفرولية العتيقة. فإن دك، إذا كان يعرف دك، وهو يعرفه – الآن يعرفه – سوف ينفق النقود حالاً على الفودكا والنساء.

عندما يغني بيري، يرسمه أوتو على دفتر رسم. وكانت الرسوم تشبه بيري إلى حد مقبول، وقد لمس الفنان جانباً قليل الوضوح في وجه بيري – شقاوته، وخبثه الصبياني العابث الذي يوحي بنوع قاس من كيوبيد يوجه السهام المسمومة. كان عاري الجذع. ("يخجل" بيري من خلع السروال، و"يخجل" من لبس سروال السباحة، لأنه كان يخاف أن يثير منظر رجليه المصابتين "قرف الناس،" وهكذا، رغم أحلامه عن عوالم تحت الماء، ورغم كل كلامه عن الغوص، فإنه لم يغص يوماً.) رسم أوتو عدداً من الوشوم لتزيين صدر وذراعي بيري الضخمة العضلات، وأيضاً لتزيين يديه الصغيرتين المتصلبتي الجلد ولكنهما مع ذلك بنّاتيتان. وكان يحوي دفتر الرسم، الذي أعطاه أوتو إلى بيري، كهدية فراق، عدة رسوم لدك – "تأملات عارية."

أغلق أوتو الدفتر، وضع بيري الغيتار جانباً، رفع الكاوبوي المرساة، وأدار المحرك. حان وقت الانطلاق. كانوا على بعد عشرة أميال عن المقصد، والمياه تصبح داكنة أكثر فأكثر.

حث بيري دك على الصيد. "قد لا تتاح لنا فرصة أخرى،" قال.

"فرصة؟"

"لكي نصطاد واحدة كبيرة."

"يا إلهي، عندي ذلك النوع الوغد،" قال دك. "أنا مريض." كان يعاني دك من صداع شديد كالشقيقة – "ذلك النوع الوغد." يعتقد أن

هذا ناجم عن حادث السيارة الذي وقع له.

"أرجوك، حبيب. اتركنا رائقين جداً، جداً."

بعد لحظات نسي دك ألمه. كان على قدميه يصرخ من الهياج. أوتو والكاوبوي كانا يصرخان أيضاً. فقد اصطاد بيري "واحدة كبيرة." سمكة الزعنفة الشراعية كانت ترتفع عشرة أقدام وتغوص، تقفز وتتقوس كقوس قزح، تغوص، تغطس عميقاً، تغور، تقاتل ضد الخيط وتشده، ترتفع، تطير، تسقط، وترتفع. مرت ساعة، وجزء من الساعة التالية، قبل أن يبدأ الرياضي الغارق في العرق بلف بكرة الخيط.

ثمة رجل عجوز بكاميرا قديمة ذات صندوق خشبي يمكث دائماً قرب الميناء في أكابولكا، وحين رسى مركب إيسترليتا، طلب منه أوتو أن يأخذ ست صور لبيري وهو إلى جانب صيده. من الناحية الفنية لم يكن عمل العجوز جيداً – الصور بنية ومبقعة. مع ذلك، كانت صوراً لافتة للنظر، والسبب هو تعبير بيري، نظرته، نظرة الإنجاز التام، والغبطة، كما لو أنه أخيراً، كما في أحد أحلامه، حلق به إلى الجنة طائر أصفر كبير.

○ ○

في عصر أحد أيام ديسمبر/كانون الأول، كان باول هيلم يعتني ببقعة الأرض التي تحوي زهوراً مختلفة والتي أهّلت بوني كلاتر لعضوية نادي الحدائق في غاردن سيتي. كانت تلك مهمة حزينة، لأنها ذكرته بعصر يوم آخر حين كان يقوم بالمهمة نفسها. حينها ساعده كينيون، وكان ذلك آخر عهده به حياً، أو بنانسي، أو بأي من أفراد العائلة. كانت "صحته سيئة" ([كانت صحّته في الحقيقة] أسوأ مما يعرف، ذلك أنه صار في عداد الموتى بعد أقل من أربعة أشهر)، وكان قلقًا بشأن أشياء

كثيرة. أولها، شغله. فقد كان يشك في أنه سيبقى في شغله هذا لوقت طويل. لا أحد يعرف في الواقع، ولكنه كان يدرك أن "البنات،" بفرلي وإيفانا، كانتا تنويان بيع المزرعة – رغم أنه، كما سمع أحدهم يقول في المقهى، "لا أحد سيشتري هذه المساحات، طالما استمرّ الغموض [حول ما حدث]." فمن غير "المريح" أن تفكّر بوجود غرباء هنا يحصدون "أرضنا". الأمر يقلق السيد هيلم – يقلقه من أجل هيرب الذي قال إن هذا المكان "يجب أن يبقى في يد أحد أفراد العائلة." ذات مرة قال له هيرب، "آمل أن يكون هنا دائماً أحد أفراد عائلة كلاتر، وأحد أفراد عائلة هيلم أيضاً." قال هيرب هذا منذ سنة فقط. يا الله، ماذا سيفعل إذا بيعت المزرعة؟ شعر أنه بات "أكبر من أن يعتاد على مكان آخر."

إنه يجب أن يعمل، مع ذلك، ويريد أن يعمل. لم يكن من النوع الذي يخلع حذاءه ويجلس بجوار المدفأة. ولكن الحقيقة أن المزرعة باتت الآن تسبب له الضيق: البيت المغلق، وفرس نانسي تنتظر حزينة في إحدى الحقول، ورائحة عفن التفاح الذي أسقطته الريح تحت أشجار التفاح، وغياب الأصوات – كينيون يصرخ على نانسي لترد على الهاتف، صفير هيرب، سلامه السعيد "صباح الخير يا بول." كان هو وهيرب دائماً "أعزّ أصحاب" – لم يوجه أحدهما للآخر كلمة سيئة. لماذا إذن يواظب الرجال القادمين من مكتب العمدة على توجيه الأسئلة له؟ ما لم يعتقدوا أنه "يخبئ شيئاً ما"؟ ربما كان عليه أن لا يأتي على ذكر المكسيكيين. كان قد أخبر آل ديوي أنه في حوالي الساعة الرابعة من يوم السبت، 14 نوفمبر/تشرين الثاني، يوم الجريمة، رأى اثنين من المكسيكيين في مزرعة ريفر فالي، أحدهما بشاربين، والآخر على وجهه علامات الجدري. رآهما هيرب يطرقان باب "المكتب"، ورأى هيرب

يخرج من المكتب ويتكلم معهما في المرجة، وبعد عشر دقائق ربما، رأى الغريبين يذهبان مبتعدين، "ويبدوان متجهمين." توقع السيد هيلم إنهما جاءا يسألان عن عمل فعادا خائبين. ومن سوء الحظ، رغم أنه استُدعي عدة مرات ليقص نسخته عن أحداث ذلك اليوم، إلا أنه لم يذكر هذا الحدث إلا بعد أسبوعين من الجريمة، لأنه، كما شرح لديوي، "تذكّرت ذلك فجأة." لكن ديوي، وبعض المحققين الآخرين، لم يصدقوا تفسيره فيما يبدو، وتصرفوا بناء على اعتقاد أنها قصة مختلقة بغرض تضليل التحقيق. فضلوا أن يصدقوا بوب جونسون، مندوب مبيعات التأمين، الذي قضى عصر السبت كلّه يتداول مع السيد كلاتر في مكتب هذا الأخير، والذي كان "إيجابياً مئة بالمئة"، بأنه من الساعة الثانية إلى السادسة وعشر دقائق كان الزائر الوحيد لهيرب. ولكن [كلام] السيّد هيلم أيضًا كان على نفس القدر من الدقة: مكسيكيان، ذو شاربين ومجدور، الساعة الرابعة. كان يمكن لهيرب أن يخبرهم إنه يقول الحق، ويقنعهم أن باول هيلم هو رجل "يقول صلواته ويكسب خبزه." ولكن هيرب رحل.

رحل. ورحلت بوني أيضاً. كانت نافذة غرفة نومها تطل على الحديقة، واعتاد رؤيتها حين "تكون في نوبة سيئة" تقف، من حين لآخر، وترسل نظرها لساعات في الحديقة، كما لو أن ما تراه يسحرها. ("عندما كنت صغيرة،" قالت مرة لإحدى صديقاتها، "كنت واثقة كثيراً من أن الشجر والزهور مثل العصافير والناس. تفكر وتتكلم فيما بينها. ويمكننا سماعها إذا حاولنا بجد. يكفي أن تفرغي رأسك من كل الأصوات الأخرى. أن تكوني في هدوء تام وتصغي بانتباه شديد. لا أزال أؤمن بهذا أحياناً. ولكن كيف يمكن للمرء أن يصل إلى الهدوء الكافي ...")

حين تذكّر كيف كانت بوني تقف على النافذة، نظر السيد هيلم إلى الأعلى، كما لو أنه يتوقع أن يراها، شبحاً وراء الزجاج. لو أنه رآها، لما أدهشه ذلك أكثر مما تهيأ له في الواقع – يد تمسك الستارة، وعيون. "ولكن"، كما وصف الأمر فيما بعد، "كانت الشمس تسطع على ذلك الجانب من البيت"، - وهذا جعل زجاج النافذة يموج، ويلتوي ويتلألأ ما وراءها – وحين حمى السيد هيلم عينيه بيديه ونظر ثانية، كانت الستارة قد أسدلت، والنافذة شاغرة. "نظري ليس جيداً تماماً، وخطر لي أن نظري يخدعني"، يتذكر. "لكني كنت متيقناً أن الأمر ليس خداع بصر. وأنا متيقن إنه لم يكن شبحاً. أنا لا أؤمن بالأشباح. إذن من يمكن أن يكون هذا الذي يتسلل خلسة هناك؟ هناك حيث لا يحق لأحد بالدخول سوى لرجال القانون. وكيف تمكن من الدخول، إذا كان كل شيء محكم الإغلاق كما يفعلون حين يعلن الراديو عن اقتراب إعصار. هذا ما خطر في بالي. لكني لم أكن أتوقع أن أعرف – على الأقل ليس بمفردي. تركت كل شيء من يدي، وذهبت عبر الحقول إلى هولكومب. وحالما وصلت اتصلت بالشريف روبنسون. شرحت له أن هناك شخصاً ما يطوف داخل بيت السيد كلاتر. جاؤوا متحمسين في الحال. جنود الولاية. العمدة وجماعته. وشباب مكتب التحقيقات في كانساس. وآل ديوي. وفي الوقت الذي كانوا فيه يتوزعون حول المكان، استعداداً للتدخل، فُتح الباب الأمامي." خرج منه شخص لا أحد يعرفه من الحاضرين – رجل في أواسط الثلاثينات، بعينين بليدتين، وشعر فوضوي، يحمل على وسطه حمالة فيها مسدس من عيار 38. "أعتقد أننا جميعاً كوّنا الفكرة نفسها – إنه هو، الرجل الذي جاء وقتلهم،" أكمل السيد هيلم. "لم يتحرك. وقف هادئاً، يجيل النظر.

أخذوا المسدس منه، وبدؤوا يسألونه."

اتضح أن اسم الرجل أدريان – جوناثان دانيل أدريان. كان في طريقه إلى نيو مكسيكو، وليس له عنوان ثابت حالياً. لماذا كسر واقتحم بيت كلاتر، وكيف تمكن من ذلك، بالمناسبة؟ لقد أراهم ما فعل. (رفع غطاء بئر الماء وزحف عبر نفق الأنابيب الذي يقود إلى القبو.) والسبب أنه قرأ عن القضية، وتحرك بدافع الفضول، أراد فقط أن يرى كيف يبدو المكان. "بعد ذلك،" بحسب ذاكرة السيد هيلم عن الحادثة، "سأله أحد إذا كان مسافراً يستوقف السيارات العابرة باتجاه نيو مكسيكو؟ "كلا،" أجاب، إنه يقود سيارته الخاصة. وإنها مركونة في أسفل الممر. وهكذا ذهب الجميع لرؤية السيارة. وعندما وجدوا ما في داخل السيارة، قال أحد الرجال – قد يكون آل ديوي – لهذا الجوناثان دانيل أدريان، "حسناً يا سيد، يبدو أن لدينا شيئاً نناقشه معاً." لأنهم وجدوا داخل السيارة بندقية عيار 12. وسكين صيد."

o o

غرفة في أحد فنادق مكسيكو سيتي. في الغرفة مكتب حديث بشع مع مرآة ملونة بلون الخزامى، وعلى إحدى زوايا المرآة، يوجد تحذير مطبوع من الإدارة:

SU DIA TERMINA A LAS 2 P.M

ينتهي يومك في الساعة الثانية بعد الظهر

بكلام آخر، على الضيوف إخلاء الغرفة في الساعة المحددة وإلا فإنهم سيدفعون أجرة يوم آخر – وهذا ترف لم يكن يفكر فيه النزيلان الحاليان. فقد كانا مشغولين بتأمين المبلغ الذي باتا مدينين به للفندق. لأن كل شيء سار كما تنبأ له بيري: دك باع السيارة، وبعد

ثلاثة أيام أوشكت النقود، وهي أقل بقليل من مئتي دولار، على النفاد. في اليوم الرابع ذهب دك يبحث عن عمل شريف، وفي تلك الليلة قال لبيري، "هراء! هل تعلم كم يدفعون هنا، ما هي الأجور بالنسبة لميكانيكي خبير؟ دولاران في اليوم. المكسيك! لقد كوّنت فكرة عنها، يا حبيب. يجب أن نرحل. أن نعود إلى الولايات المتحدة. كلا، الآن، لن أصغي إليك. الماس. كنز دفين. استيقظ يا صغيري، لا وجود لصناديق الذهب. ولا للسفن الغارقة. وحتى لو كانت موجودة، فإلى الجحيم، أنت لا تستطيع حتى أن تسبح." في اليوم التالي، بعد أن اقترض دك نقودًا من الأغنى بين خطيبتيه، أرملة المصرفيّ، اشترى بطاقات باص تعود بهم عبر سان دييغو، إلى بارستاو، كاليفورنيا. "بعد ذلك،" قال، "نكمل سيراً على الأقدام."

بالطبع كان يمكن لبيري أن يأخذ مساره الخاص، أن يبقى في المكسيك، ويدع دك يذهب حيث يشاء. لم لا؟ ألم يكن دائماً "وحيداً"، دون أي "أصدقاء حقيقيين" (سوى ويلي جي "اللامع"، الرمادي الشعر والعينين)؟ لكنه كان يخشى مفارقة دك؛ مجرد التفكير بفراقه يثير فيه "نوعاً من المرض،" كما لو أنه بصدد أن يقرر "القفز من قطار يسير بسرعة 99 ميلاً في الساعة." وأساس خوفه، أو هكذا هو مقتنع فيما يبدو، كان قناعة خرافية برزت لديه حديثاً، تقول "ما كان مقرراً أن يحدث لن يحدث"، طالما بقي هو ودك "معاً". ثم أيضاً، قسوة خطاب "الإيقاظ" الذي قاله دك، العدائية التي عبر بها عن رأيه الذي ظل يخفيه حتى ذلك الوقت، فيما يخص أحلام وآمال بيري – كل هذا، رغم قسوته، فتن بيري، أذاه وصدمه ولكنه سحره، وأحيا إيمانه السابق بدك القاسي، "الكامل الرجولة"، البراغماتي، الحاسم الذي

سمح له مرة أن يكون زعيمه. وهكذا، في فجر أحد صباحات مكسيكو سيتي الباردة، في أوائل ديسمبر/كانون الأول، كان بيري يجول في غرفة الفندق غير المدفّأة يجمع ويحزم ممتلكاته خلسةً لكي لا يوقظ الشخصين النائمين على أحد الأسرة المفردة في الغرفة: دك، وصغرى خطيبتيه، إينيز.

لم يعد بيري بحاجة للاهتمام بإحدى ممتلكاته الأثيرة. ففي ليلتهم الأخيرة في أكابولكو، سرق أحد اللصوص غيتار الجيبسون - هرب به من مقهىً على الواجهة البحرية، حيث كان مع أوتو ودك والكاوبوي في حفلة وداع كحولية. شعر بيري بالمرارة جراء ذلك. شعر، كما قال لاحقاً، إنه "حقير وخسيس،" وشرح قائلاً، "لديك غيتار منذ فترة ليست قصيرة، كما كان ذلك الغيتار معي، تشمّعه وتلمعه، واعتاد صوتك عليه، وتعامله كأنه فتاة مولع بها حقاً. هذا يحيله إلى شيء ذي قداسة." لم يعد الغيتار المسروق يمثل مشكلة كالتي تطرحها الممتلكات الأخرى. فباعتبار أنه سوف يسافر مع دك على الأقدام أو مع السيارات العابرة، فلا يمكنهما بالطبع حمل أكثر من بضعة قمصان وجوارب. وكان ينبغي شحن بقية الملابس بالسفينة - وبالفعل، كان بيري قد ملأ صندوقَ كرتون (وضع فيه - إلى جانب قطع من ملابس غير مغسولة - بوطين، على نعل أحدهما طبعة قدم القط، وعلى نعل الثاني طبعة على شكل الماسات) وأرسلها إلى نفسه، برعاية جينيرال دليفري، لاس فيغاس، نيفادا.

غير أن السؤال الكبير، ومصدر الحزن، هو ماذا سيفعل بتذكاراته العزيزة جداً على قلبه - صندوقان ضخمان من الكتب والخرائط، ورسائل مصفرّة، وكلمات أغان، وقصائد، وتذكارات غريبة

(حمالات بنطلون وحزام مصنوع من جلد زواحف قتلها بنفسه في نيفادا؛ نيتسوكي إيروتيكية اشتراها في كيوتو؛ شجرة قزم متحجرة، من اليابان أيضاً؛ وقدم دب الاسكي). ربما كان الحل الأمثل – على الأقل أفضل ما توصل إليه بيري – هو أن يترك هذه الأشياء مع "يسوع." ويسوع الذي يقصده هو عامل بار في مقهى مقابل الفندق، وكان، كما ظن بيري، (muy simpatico)[11]، بالتأكيد شخص يمكن الاعتماد عليه لإعادة الكتب عند الطلب. (نوى أن يرسل في طلب الكتب حالما يصبح لديه "عنوان ثابت").

يبقى أن هناك بعض الأشياء الثمينة التي يصعب المغامرة بخسارتها، وهكذا في الوقت الذي غفا فيه العشاق وتباطأ الزمن في سيره نحو الساعة الثانية بعد الظهر، راح بيري ينظر في رسائل وصور وقصاصات قديمة، واختار منها التذكارات التي أراد أن يأخذها معه. من بينها، موضوع سيء الطباعة بعنوان "تاريخ حياة ابني." المؤلف هو والد بيري، وقد كتبه في ديسمبر الماضي في مسعى لمساعدة ابنه على الحصول على إفراج مشروط، وأرسله إلى مجلس الإفراج المشروط في ولاية كانساس. وقد قرأ بيري هذه الوثيقة مئة مرة على الأقل دون ملل:

الطفولة – يسعدني أن أبوح لكم بما حدث، الجيّد منه والسيّئ، بحسب ما أراه. نعم، ولادة بيري كانت طبيعية. سليمة – نعم. نعم كنت قادراً على العناية به بشكل مناسب إلى أن تحولت زوجتي إلى سكّيرة مشينة حين كان أولادي في سن المدرسة. مزاج سعيد - نعم ولا، رصينٌ جداً ولا ينسى إذا أسيئت معاملته. أنا كنت أفي بوعودي وأجعله يفي بوعوده هو

(11) هكذا في الأصل، بمعنى "لطيف جداً" بالاسبانية.

أيضاً. أمّا زوجتي فمختلفة. عشنا في الريف. نحن في الواقع أهل الهواء الطلق. علّمت أولادي القاعدة الذهبية. عش ودع غيرك يعش، وفي حالات كثيرة كان أولادي يخبروني إذا قام أحدهم بعمل خاطئ، ودائماً يعترف المذنب منهم ويتقدم بإرادته لتلقي الصفع على مؤخرته، ويعد بأن يكون جيداً، ودائماً يؤدون عملهم بسرعة ورغبة لكي يتاح لهم اللعب بعدها. دائماً يغتسلون كأول عمل يقومون به في الصباح، ويلبسون ملابس نظيفة، كنت صارماً حيال هذا، وحيال إيذاء الآخرين، وإذا تعرض أحدهم للأذى من أولاد آخرين، كنت أجعلهم يقلعون عن اللعب معهم. لم يشكل أولادنا مشكلة لنا طالما كنا معاً. كل شيء بدأ عندما أرادت زوجتي أن تذهب إلى المدينة [آخذةً أبناءنا معها] وتعيش حياة "فلتانة" – وهربَت لهذا السبب. تركتُها تمضي وقلت لها وداعا وهي تقود السيارة وتتركني خلفها (كان هذا خلال الكساد). أولادي بكوا جميعاً بأعلى أصواتهم. اكتفَت بأن شتمَتْهم قائلة إنهم سوف يهربون فيما بعد ليأتون إليّ. فقدَت صوابها، ثم قالت إنها ستجعل الأولاد يكرهونني، وقد نفّذت ذلك، مع الجميع إلا بيري. بسبب حبّي لأولادي ذهبت بعد بضعة أشهر لأراهم، عرفت مكانهم في سان فرانسيسكو، دون أن تعلم زوجتي. حاولت أن أراهم في المدرسة. كانت زوجتي قد طلبت من المعلمين أن يمنعوني من رؤيتهم. ولكني تمكنت من رؤيتهم وهم يلعبون في باحة المدرسة وفوجئت حين قالوا لي، "ماما طلبت منا أن لا نتحدث إليك." جميعهم سوى بيري. كان مختلفاً. ضمني بيديه وطلب أن يعود معي منذئذ. قلت له لا.

ولكن بعد انتهاء المدرسة، هرب إلى مكتب محاميّ السيد رينسو توركو. أخذت ابني وأعدته إلى أمّه وغادرت المدينة. أخبرني بيري بعد ذلك، إن أمه طلبت منه أن يجد بيتاً جديداً. عندما كان الأولاد معها كانوا يذهبون كما يحلو لهم، علمت أن بيري وقع في مشكلة. كنت أتمناها أن تطلب هي الطلاق، وهذا ما فعلتْه بعد حوالي السنة. كانت تشرب وتخرج وتعيش مع شاب. عملتُ من أجل الطلاق وحصلت على حضانة الأولاد. أخذت بيري إلى بيتي كي يعيش معي. البقية وُضعوا في بيوت [رعاية]، ذلك أني لا أستطيع أخذهم جميعاً إلى البيت، ولأن فيهم دماً هندياً، فإن الشؤون الاجتماعية اعتنت بهم بناءً على طلبي.

كان هذا في فترة الكساد. كنت أعمل لدى إدارة تطوير الأعمال (W.P.A.) بأجر قليل جداً. في ذلك الوقت كان عندي بيت صغير وبعض الممتلكات. عشت أنا وبيري معاً بسلام. كنت حزيناً لأني أحبّ بقيّة أولادي أيضاً. اعتدت على التجوال لكي أنسى كل شيء. كسبت لقمة العيش لنا نحن الاثنين. بعت ممتلكاتي وعشنا في "سيارة منزل". كان يذهب بيري إلى المدرسة بقدر ما يستطيع. لم يكن يحب المدرسة كثيراً. يتعلم بسرعة ولا يدخل في مشاكل مع الأولاد الآخرين. فقط عندما استهدفه الولد المتنمّر. كان بيري قصيراً وبديناً وجديداً على المدرسة، فحاولوا إساءة معاملته. وجدوه مستعداً للدفاع عن حقوقه. هكذا ربيت أولادي. كنت دائماً أقول لهم لا تعتدوا على أحد، وإذا فعلتم فإنني سأعاقبكم حين أعلم. ولكن إذا اعتدى عليكم الآخرون، قاتلوا بكل ما تستطيعون. ذات مرة، ضربه

ولد له من العمر ضعف عمره، وتفاجأ الولد حين أسقطه بيري أرضاً وأوسعه ضرباً. كنت أعطيته بعض النصائح في المصارعة. فأنا تدربت مرة على الملاكمة والمصارعة. المعلمة الرئيسية في المدرسة وكل الأولاد راقبوا المشاجرة. كانت المعلمة الرئيسية تحب الولد الكبير. ولم تتحمل أن ترى ابني الصغير بيري يضربه. بعد ذلك أصبح بيري مَلِك الأولاد في المدرسة. إذا حاول أي ولد كبير الإساءة لولد صغير، يحل بيري المشكلة فوراً. حتى المتنمّر الكبير صار يخشى بيري، وكان عليه أن يلزم حدوده. لكن هذا لم يرق للمعلمة الرئيسية، فجاءت إلي تشكو من مشاكل بيري في المدرسة. قلت لها إني أعرف القصة بالكامل ولا أقبل أن أترك ابني يتعرض للضرب من قبل أولاد بحجمه مرتين. وسألتها أيضاً، لماذا تسمح للولد المتنمر أن يضرب بقية الأولاد. وقلت لها إن من حق بيري أن يدافع عن نفسه. بيري لم يبدأ أي مشاجرة، وأنا سأتدخل في هذا الموضوع بنفسي. وقلت لها إن ابني محبوب من الجيران ومن أولادهم. وقلت لها إنني سوف أنقل بيري من مدرستها حالاً، وأنتقل إلى ولاية أخرى. وهذا ما فعلته. ليس بيري ملاكاً، لقد أخطأ مرات عديدة كما يفعل الكثير من الأولاد. الحق حق والباطل باطل. أنا لا أدافع عن أخطائه. ويجب أن يدفع الثمن غالياً حين يخطئ، القانون هو السيد، وهو يعرف هذا الآن.

الشباب – انضم بيري إلى التجارة البحرية في الحرب الثانية. أنا ذهبت إلى الاسكا، جاء لاحقاً وانضم إليّ هناك. كنت أصطاد حيوانات الفراء وبيري يعمل مع هيئة طرقات الاسكا

في الشتاء الأول ثم حصل على عمل في سكك الحديد لفترة من الزمن. لم يستطع الحصول على العمل الذي يحب. نعم، كان يعطيني دولارات من فترة لفترة حين يتوفر معه. وكان يرسل لي 30 دولاراً بالشهر حين كان هناك في الحرب الكورية من البداية حتى النهاية، ثم نقلوه إلى سياتل، واشنطن. هو كريم بقدر ما أعرفه. يميل إلى الميكانيك. بلدوزرات، حفارات، مجارف، شاحنات ثقيلة من كل الأنواع، هذه هي رغبته. نظراً للخبرة التي لديه فإنه بالفعل جيد. إلى حد ما طائش ومجنون بالسرعة على الدراجات النارية والسيارات الصغيرة. ولكن منذ أن تذوق جيداً ما يمكن أن تؤدي إليه السرعة، كُسرت ساقاه وتضرر حوضه، فقد هدأ جيداً، أنا واثق من هذا.

التسلية – الاهتمامات. نعم كانت لديه العديد من الصديقات، حالما يجد أن صديقته تسيء معاملته أو تقلل من احترامه، فإنه يتركها. لم يتزوج قط على حد علمي. مشاكلي مع أمه جعلته يخشى الزواج بعض الشيء. أنا رجل صاحٍ، وبحدود علمي فإن بيري أيضاً شخص لا يحب السكارى. بيري إنسان مهم مثلي. يحب رفقة الناس المحتشمين – أهل الهواء الطلق، هو مثلي، يحب أن يكون لوحده ويحب أن يعمل لنفسه. مثلي. يمكن أن تقول، أنا متعدد المِهَن، لكن خبير في بعضها، وكذا هو حال بيري. أريته كيف يمكن كسب لقمة العيش من العمل في صيد الحيوانات الفرائية. في التنقيب عن الذهب، في النجارة، في الغابات، في الخيول ..الخ. أنا أعرف أن أطبخ، وهو كذلك، ليس خبيراً في الطبخ، فقط طبخ بسيط لنفسه. يخبز الخبز

وخلافه، يصيد السمك والحيوانات، ينصب الفخاخ ويقوم بأشياء كثيرة أخرى. وكما قلت من قبل، يحب بيري أن يكون سيد نفسه، وإذا نال فرصة العمل في مجال يحبه، أخبره كيف تريد أن يكون العمل، واتركه وحده، فهو يفتخر بإنجاز عمله. إذا رأى أن المعلّم يقدّر عمله، فإنه ينسى نفسه من أجله. ولكن لا تكن قاسياً معه. قل له بطريقة لطيفة كيف تريد أن يتم العمل. لأنه حساس جداً، بسهولة فائقة تنجرح مشاعره، مثلي تماماً. أنا تركت وظائف كثيرة، وكذا فعل بيري، والسبب هم المعلّمون الفظّون. لم يدرس بيري كثيراً في المدارس، ولا أنا أيضاً، أنا فقط مستوى قارئ ثان. لكن هذا لا يعني أننا لسنا أذكياء. أنا متعلم ذاتي وكذلك بيري. لا تناسبنا وظيفة الياقات البيض، لكننا خبراء في الأعمال الخارجية. إذا كنا لا نعرف عملاً ما، اشرح له أو لي كيف يُنفّذ هذا العمل، وفي غضون يومين يمكننا أن نصبح خبراء في أي عمل أو آلة. الكتب خارج الموضوع. نحن نكتسب الخبرة بالتجربة العملية حالاً، إذا أحببنا العمل. أولاً يجب أن نحب العمل. لكنه الآن عاجز وفي منتصف العمر تقريباً. يعرف بيري إنه غير مرغوب لأرباب العمل، لا يمكن أن يعمل العاجزون على المعدات الثقيلة، ما لم تكن على علاقة طيبة برب العمل. وقد بدأ يدرك، بدأ يفكر بطريقة أسهل لإعالة نفسه وإعالتي معه. أنا واثق، وأنا على حق. أظن أيضاً أن السرعة لم تعد تجذبه. ألاحظ كل هذا من رسائله لي. يقول لي "انتبه بابا. لا تسقْ إذا كنت نعسانًا، الأفضل أن تقف وترتاح على جانب الطريق." هذه هي الكلمات نفسها التي كنت أقولها

له. والآن هو يقولها لي. لقد تعلم الدرس.

برأيي أن بيري تعلم درساً لن ينساه. الحرية تعني كل شيء بالنسبة له، وسيحرص أن لا يدخل السجن ثانية. أنا واثق تماماً، أنا على حق. ألاحظ تغيراً كبيراً في طريقته في الكلام. قال لي إنه يشعر بندم عميق على ما ارتكب. وأعرف إنه يشعر بالخجل من أن يلتقي أناساً يعرفهم ولن يخبرهم إنه كان وراء القضبان. وطلب مني أن لا أقول لأصدقائه أين هو. حين كتب لي وأخبرني كان وراء القضبان. قلت له ليكن ذلك درساً. وقلت له إنني سعيد لأن الأمر حدث على هذا النحو وليس على نحو أسوأ. كان يمكن أن يقتله أحد ما بالرصاص. كما طلبت منه أن يكمل حكمه في السجن بابتسامة تصنعها بنفسك. أنت تعلم أفضل مني. لم تنشأ على السرقة من الآخرين، لذلك لا تتذمر من قسوة الحياة في السجن. كن ولداً جيداً في السجن. وعدَني أن يكون كذلك. آمل أن يكون سجيناً جيداً. أنا واثق إنه لا يمكن أن يسرق مرة أخرى. القانون هو السيد، هو يعلم هذا. إنه يحب حريته.

أعرف جيداً أن بيري طيب القلب إلى حد كبير حين تعامله باحترام. عامله باحتقار وسيتحول إلى آلة قتل ضاجة. يمكن أن تأتمنه على أي مبلغ من الدولارات إذا كنت صديقه. "سوف يلتزم" كما تقولون؛ إنه لن يسرق سنتاً واحداً من صديق أو من أي شخص آخر. حدث هذا من قبل. وأنا أرجو بإخلاص أن يقضي بقية حياته رجلاً شريفاً. صحيح إنه سرق برفقة آخرين عندما كان صغيراً. فقط اسألوا بيري إذا كنتُ

أباً صالحاً، اسألوه إذا كانت أمه جيدة معه في فريسكو. بيري يعرف الصالح بالنسبة له. لقّنتوه درساً إلى الأبد. هو يعرف متى يفوز. إنه ليس مغفلاً. يعرف أن الحياة أقصر وأحلى من أن يدخل ثانية إلى الحبس.

الأقارب. أخت متزوجة اسمها بوبو، وأنا أبوه، هؤلاء كل أقاربه الأحياء. بوبو وزوجها يعيلان نفسيهما. لهما بيتهما الخاص. وأنا قادر ونشيط بما يكفي لأعتني بنفسي أيضاً. بعت نزلي في ألاسكا منذ سنتين. وأنوي أن أشتري بيتاً صغيراً لي السنة القادمة. حددت بعض الأماكن التي قد تحوي بعض المعادن، وآمل أن أحصل على شيء ما منها. إلى جانب أنني لم أتخل عن التنقيب عن الذهب. ومطلوب مني أيضاً أن أكتب كتاباً عن النحت الخشبي الفني، وعن "نزل عرين الصيادين" الشهير الذي بنيته في ألاسكا وكان مرة بيتي ويعرفه كل السواح الذين يسافرون بالسيارة إلى أنشوراج، وربما أكتب الكتاب. سأتقاسم كل ما أملك مع بيري. حين آكل أنا يأكل هو. طالما أنا حي. وقد أمنت على حياتي، فحين أموت، سيدفعون له وهكذا يمكنه أن يبدأ الحياة من جديد حين يفرج عنه، إذا كنت ميتاً.

هذه السيرة تضع مخزوناً من العواطف في حالة سباق – رثاء الذات في المقدمة، الحب والكره متساويان في البداية، وفي النهاية يتصدر الأخير. معظم، وليس كل، الذكريات التي تثيرها هذه السيرة غير مرغوبة. في الواقع، كان الجزء الأول من الحياة التي يتذكرها بيري ثميناً – قطعة مصنوعة من الإطراء والبهجة. كان عمره ربما ثلاث سنوات، يجلس مع

أختيه وأخيه الأكبر على المدرج لمتابعة مسابقة الروديو [رعاة البقر]؛ في الحلبة، شابة شيروكية نحيلة على حصان بري، "حصان شموص،" وشعرها الحر يضرب إلى الأمام والخلف، يطير في كل مكان مثل راقص فلامينكو. اسمها فلو بوكسكين، وكانت لاعبة روديو محترفة، "بطلة سباق خيل." وكذلك زوجها، تيكس جون سميث؛ وقد التقت الشابة الهندية الحلوة وراعي البقر الإيرلندي الوسيم في إحدى جولات الروديو الغربية، وتزوجا وخلفا أربعة أولاد يجلسون في المدرج. (يستطيع بيري أن يتذكر جولات روديو أخرى كثيرة – يرى ثانيةً أباه يقفز داخل حلقة من حبل يدور بسرعة، أو أمه، بأساور فضية وفيروزية تخشخش حول معصميها، وهي تقوم بحركات رشيقة على حصان يعدو بسرعة جنونية، الأمر الذي يرعب ابنها الأصغر ويدفع الحشود القادمين من مدن تمتد من ولاية تكساس إلى ولاية أوريغون إلى "الوقوف والتصفيق".)

استمر فريق "تيكس وفلو" العمل في جولات الروديو حتى أصبح بيري في الخامسة. كنمط حياة، لم تكن هذه الحياة بحال من الأحوال "علبةً من الآيس كريم،" ذات مرة استرجع بيري: "نحن الستة في شاحنة قديمة، ننام فيها أيضاً، وأحياناً، نعيش على الهريسة وشوكولا هيرشي والحليب المكثف ماركة الصقور الذي أضعف كليتيّ – بسبب محتواه من السكر – ولهذا كنت دائماً أبلل فراشي." مع ذلك لم تكن عيشة تعيسة، ولا سيما بالنسبة لطفل فخور بوالديه، ومعجب بقدرتهما على الاستعراض وشجاعتهما. لقد كانت بالتأكيد حياة أكثر سعادة من الحياة التي حلت محلها. فقد اضطر تيكس وفلو تحت ضغط المرض أن ينسحبا من مهنتهما، ويستقرا قرب رينو، نيفادا. ناضلا معاً، و"اعتادت فلو على الويسكي"، ثم، حين بلغ بيري السادسة، رحلت إلى سان فرانسيسكو،

وأخذت معها الأولاد. لقد كان الأمر تماماً كما وصفه العجوز: "تركتها تمضي وقلت لها وداعا وهي تقود السيارة وتتركني خلفها (كان هذا خلال الكساد). أولادي بكوا جميعاً بأعلى صوتهم. اكتفت بأن شتمتهم قائلة إنهم سوف يهربون فيما بعد ليأتون إلي." وبالفعل، في مجرى السنوات الثلاث التالية هرب بيري عدة مرات لكي يرى أباه الذي يفتقده، لأنه فقد أمه أيضاً، وتعلم أن "يحتقرها": الخمر طمس معالم الوجه، ونفخ الجسم الذي كان يوماً فتاة شيروكية رشيقة قوية نحيلة، و"حطم روحها"، وجعل لسانها سليطاً إلى أقصى حد، وتلاشى احترامها لذاتها إلى حد أنها لم تعد تكترث لأسماء عمال السفن وسائقي الشاحنات وأمثالهم من الأشخاص الذين كانوا يقبلون ما تقدمه لهم مجاناً (سوى أنها كانت تصر على أن يشربوا معها أولاً، وأن يرقصوا معها على أنغام آلة فيكتورلا).

بالنتيجة، كما يسترجع بيري، "كنت دائم التفكير في أبي، راجيًا أن يأتي ويأخذني، وأذكر عندما رأيته للمرّة الثانية، وكأن هذا حدث للتو. رأيته واقفًا في باحة المدرسة. كان ذلك شبيهاً باللحظة التي تضرب فيها الكرة بإحكام بمضرب البيسبول. دي ماجيو. لكن أبي لم يساعدني. طلب مني أن أكون جيداً ثم ضمّني إليه وذهب. وبعد فترة ليست طويلة وضعتني أمي في ميتم كاثوليكي. المكان الذي كانت فيه الأرامل السود من حولي. يضربنني. لأنني كنت أبلّل السرير. وهذا من أحد أسباب كرهي للراهبات. ولله. وللدين. ولكن فيما بعد اكتشفت أن هناك بشراً أكثر سوءاً. لأنه بعد شهرين، رموني خارج الميتم، وهي [أمّه] وضعتني في مكان أسوأ. ملجأ أطفال يديره جيش الخلاص[12].

12 جيش الخلاص (The Salvation Army) جماعة مسيحية بروتستانتية دولية مستقلة عن الكنائس تقوم بأعمال خيرية لمساعدة الفقراء. م.

كرهوني أيضاً. لأنني كنت أبلل الفراش. ولأنني نصف هندي. وكانت هناك راهبة تسميني "زنجي" وتقول لا يوجد أي فرق بين الزنوج والهنود. أوه، يا إلهي، كم كانت ابنة حرام شريرة! الشيطان مجسداً. كانت تملأ حوضاً بماء بارد كالثّلج، وتضعني فيه، وتتركني حتى أصبح أزرق، على وشك الغرق. لكنهم اكتشفوها، العاهرة. لأنني أصبت بالتهاب الرئة، وكنت غائب الوعي طوال الوقت. بقيت في المستشفى شهرين. في تلك الفترة، بينما كنت مريضاً، عاد أبي. وحين تحسنت، أخذني معه."

عاش الأب والابن معاً في البيت قرب رينو لمدة عام تقريباً، وذهب بيري إلى المدرسة. "أنهيت الصف الثالث،" يسترجع بيري. "وكانت تلك النهاية. لم أعد ثانية إلى المدرسة، لأن أبي بنى في الصيف مقطورة بدائية، كان يسميها "سيارة منزل." كانت فيها دكتان ومطبخ صغير. الموقد فيها جيّد. يمكنك أن تطبخ ما تشاء عليه. نخبز خبزنا. واعتدت أن أعد بعض المدخرات – مخلل التفاح، هلام التفاح البري. وفي كل حال، في السنوات الست التالية تنقلنا في كل أنحاء البلاد. لم نمكث طويلاً في أي مكان. حين كنا نبقى لفترة طويلة في مكان ما، يبدأ الناس بالنظر إلى أبي، ويتصرفون معه كأنه شخصية غريبة، كنت أكره ذلك، وكان يؤذيني. لأني كنت أحب أبي حينها. رغم أنه كان يقسو عليّ أحياناً. متسلط كجهنم. لكني أحببت أبي حينها. لذلك كنت أفرح دائماً حين ننتقل." انتقلنا إلى وايومنغ، إيداهو، أوريغون، وأخيراً ألاسكا. في ألاسكا، علّم تيكس ابنه أن يحلم بالذهب، أن يبحث عنه في الأسرّة الرملية لجداول الماء الثلجية، وهناك أيضاً، تعلم بيري استخدام البندقية، وسلخ جلد الدب، وتعقب الذئاب والغزلان.

"يا يسوع، كم كان الطقس بارداً،" يتذكر بيري. "أبي وأنا كنا ننام متحاضنين، نلف أنفسنا بالبطانيات وجلود الدببة. في الصباح، قبل أن يبزغ الضوء، أعد الفطور على عجل، بسكويت وشراب ولحم مقلي، ومن ثم ننطلق لنكسب عيشنا. كان سيكون الأمر جيداً فقط لولا أنني كبرت؛ كلما كبرت أكثر، كانت تقل قيمة أبي في نظري أكثر. كان يعرف كل شيء من جهة، ولكنه لم يكن يعرف شيئاً من جهة أخرى. كان أبي يجهل أجزاء كاملة مني. لم يكن يفهم ذرة واحدة منها. مثل أنني تمكنت من العزف على الهرمونيكا فور أن أمسكت بها للمرّة الأولى. وعلى الغيتار أيضاً. كانت عندي هذه القدرة الموسيقية الطبيعية العظيمة، والتي لم يدركها أبي. أو لم يهتم لها. أيضًا أحببت أن أقرأ؛ أن أطور مفرداتي. أن أؤلف أغان. وكان يمكنني أن أرسم. ولكني لم أحصل على التشجيع - لا منه ولا من أي شخص آخر. كنت أستلقي مستيقظاً لیالٍ طويلة، ليس فقط لأني كنت أحاول أن أسيطر على مثانتي فقط، بل أيضاً لأني كنت لا أتوقف عن التفكير. دائماً، حين يكون الطقس بارداً إلى حد يصعب معه التنفس، كنت أفكر بهاواي. أفكر بفيلم سبق لي أن رأيته. مع دوروثي لامور. أردت أن أذهب إلى هناك. إلى حيث الشمس. وحيث كل ما ترتديه هو العشب والزهور."

كان يرتدي أكثر من ذلك بكثير، حين وجد بيري نفسه، في مساء لطيف خلال زمن الحرب 1945، داخل صالون للوشم في هونولولو وقد وشم على ذراعه الأيسر رسم الأفعى والخنجر. وصل بيري إلى هناك عبر المسار التالي: شجار مع أبيه، رحلة بواسطة السيارات العابرة من أنشوراج إلى سياتل، زيارة إلى مكاتب تجنيد البحرية التجارية. "لكني ما كنت لأنضم لها لو كنت أعلم ما كان ينتظرني،" قال بيري ذات مرة. "لا

يهمني العمل، وأنا أحب أن أكون بحاراً – الموانئ البحرية وكل هذا. لكن المخنّثين على السفينة لم يتركنني وشأني. ولد بعمر السادسة عشرة، ولد صغير. بالتأكيد كان يمكنني أن أتدبر أمري. لكن الكثير منهن لم يكنّ ذوات أشكال أنثويّة، كما تعلم. اللعنة، عرفت شواذّ يمكنهن قذف طاولة بلياردو من النافذة، ويقذفن البيانو بعدها. هذا النوع من "البنات" يمكنه أن يسوّد حياتك، خصوصاً حين يوجد اثنتان معاً، يأتيان معاً ويتعاونان عليك، وأنت مجرد ولد. يمكن أن يدفعك هذا عملياً إلى الانتحار. بعد سنوات، حين ذهبت إلى الجيش – حين وضعوني في كوريا – ظهرت لي المشكلة نفسها. كان سجلي في الجيش جيداً كالآخرين؛ أعطوني النجمة البرونزية. ولكنهم لم يرفعوني قط. بعد أربع سنوات، وبعد القتال طوال الحرب الكورية اللعينة، كان يجب أن يرفعوني إلى رتبة عريف على الأقل. ولكنهم لم يفعلوا. هل تعلم لماذا؟ لأن الرقيب كان قاسياً. لأنني لم أقبل أن أعطيه نفسي. يا يسوع، أنا أكره هذه الأشياء. لا أتحملها. مع ذلك – أنا لا أعرف. هناك مثليّو جنس أحببتهم من قلبي. طالما أنهم لم يحاولوا معي أيّ شيء. لقد تبين لي أن أفضل صديق التقيته، وهو حقاً حسّاس وذكي، كان مثلياً."

في الفترة الفاصلة بين خروجه من البحرية التجارية ودخوله الجيش، تصالح بيري مع أبيه، الذي نزل إلى نيفادا، حين غادره ابنه، ثم عاد إلى ألاسكا. في 1952، السنة التي أكمل فيها بيري خدمته العسكرية، كان الرجل الكبير في خضم خطط تهدف إلى إنهاء ترحاله الدائم. "كان أبي في حمّى حماسية،" يسترجع بيري. "كتب إليّ إنه اشترى أرضاً على الطريق السريع خارج أنشوراج. وقال إنه سيبني استراحة للصيادين، مكاناً للسواح. "نزل عرين الصيادين"، هذا هو الاسم الذي

اختاره لها. وطلب مني أن أسرع في المجيء إليه كي أساعده في بنائها. كان واثقاً من أننا سوف نجمع ثروة. وهكذا، بينما كنت لا أزال في الجيش، أخدم في فورت لويس، واشنطن، اشتريت دراجة نارية (دراجات الموت، هكذا ينبغي أن يسموها)، وحالما أنهيت خدمتي العسكرية توجهت إلى ألاسكا. وصلت حتى بيلينغهام. هناك على الحدود كانت تمطر. وانزلقت دراجتي."

هذا الانزلاق أخّر الاجتماع مع أبيه لمدة سنة. جراحة واستشفاء وصل حتى ستة أشهر من تلك السنة؛ والفترة الباقية قضاها نقاهة في بيت في غابة، قرب بيلينغهام، لهندي شاب يعيش من قَطْع الأخشاب وصيد السمك. "جو جيمس. هو وزوجته صادقاني. فارق العمر بيننا كان اثنين أو ثلاثة سنوات فقط، لكنهما أخذاني إلى بيتهما وعاملاني كأني أحد أولادهما. كان هذا جيداً، لأنهما لم يكونا على وفاق مع أولادهما فأحبّاني. في ذلك الوقت كان لهما أربعة أولاد، العدد النهائي وصل إلى سبعة. كانا طيبين جداً معي، جو وعائلته. كنت على العكازات، وبلا فائدة. لم يكن بإمكاني سوى الجلوس هنا وهناك. وهكذا، لكي أنشغل بشيء ما، وفي محاولة لجعل نفسي مفيداً، بدأت ما سوف يصبح ضرباً من مدرسة. التلاميذ هم أولاد جو، مع بعض أصدقائهم، وكانت الدروس تتم في الصالون. علّمتهم الهرمونيكا والغيتار. والرسم. وفن الخط. دائماً كنت أسمع من الجميع أن خطّي جميل. وهذا صحيح، لأنني اشتريت ذات مرة كتاباً عن الموضوع وتدربت حتى أصبحت أكتب كما في الكتاب. كما تعودنا أن نقرأ القصص، الأولاد كانوا يقرؤون، كل بدوره، وأنا أصحح لهم حين يخطئون. كان هذا ممتعاً. أولاد صغار. كان ذلك وقتاً لطيفاً. لكن الربيع جاء بعدئذ. كان المشي مؤلماً، ولكن

كان يمكنني أن أمشي. وأبي كان لا يزال في انتظاري."

كان الأب ينتظر ولكن ليس مكتوف الأيدي. حين وصل بيري إلى المكان المقترح لنزل الصيادين، كان أبوه يعمل وحيداً وقد أنجز الجزء الأصعب من العمل – نظف الأرض، قطع الأخشاب اللازمة، قطع الحجارة ونقلها من الصخور الأم. "لكنه لم يبدأ بالبناء حتى وصلت إلى هناك. لقد بنينا كل قطعة منها بأنفسنا. ومن حين لحين كان يساعدنا أحد الهنود. كان أبي مثل المهووس. لا يهم ما يحدث – عواصف ثلجية، عواصف مطرية، رياح يمكن أن تشق الشجرة – نبقى في عملنا. يوم انتهينا من السقف، رقص أبي على كامل مساحته وهو يصرخ ويضحك، ويؤدي رقصة الجيش النظامية. صار هذا المكان استثنائياً بالفعل. يمكن لعشرين شخصاً أن يناموا فيه. في غرفة الطعام يوجد موقد كبير. وكان ثمة ركن للكوكتيل. ركن قطب الطوطم للكوكتيل، حيث كنت أستقبل الزبائن. وأغني وما إلى ذلك. افتتحنا العمل في نهاية 1953."

لكن الصيادين المتوقعين لم يأتوا، ورغم أن السواح العاديين – القلة الذين كانوا يعبرون على الطريق السريع – كانوا يتوقفون من حين لآخر ليلتقطوا الصور لبساطة وريفية نزل عرين الصيادين التي تفوق التصور، إلا أنهم نادراً ما قضوا الليل فيها. "لفترة من الزمن خدعنا أنفسنا. كنا نفكر إن الشغل سينشط مع الوقت. حاول أبي أن يزخرف المكان. صنع فيه حديقة ذكريات. مع بئر للأماني. وضع إشارات ملونة على طول الطريق السريع. ولكن كل هذا لم يجد نفعاً. وحين أدرك أبي ذلك، حين رأى أن لا فائدة منها، وأن كل ما قمنا به كان ضياعاً لجهدنا ومالنا – بدأ يعتبرني السبب. يتأمر عليّ هنا وهناك.

يحقد علي. يقول إنني لم أنجز نصيبي من العمل. لم يكن هذا ذنبه، بقدر ما كان ذنبي. في مثل هذا الوضع، حيث لا مال، وحيث الطعام بدأ ينفد، لم يكن لنا أن نفعل سوى أن نفرغ قهرنا في بعضنا البعض. جاءت لحظة كنا جائعين إلى حدود قصوى. وما تخاصمنا بشأنه هو ظاهرياً قطعة بسكويت. انتزع أبي من يدي قطعة بسكويت، وقال إنني أكلت كثيراً، وإنني شره وأناني وابن حرام، وقال لماذا لا أترك المكان فهو لم يعد يريدني هناك بعد الآن. استمر على هذا المنوال حتى فقدت القدرة على التحمل. فأمسكته بيدي من حنجرته. يديّ. ولكني لم أستطع التحكم بهما. أرادتا أن تخنقانه حتى الموت. ولكن أبي زلق، مصارع ماهر. حرر نفسه وركض ليحضر البندقية. ثم عاد موجهاً فوهتها نحوي. قال، "انظر، بيري. أنا الحي الوحيد الذي سوف تراه." لم أفعل شيئاً، فقط مكثت في مكاني. ولكنه أدرك عندها أن البندقية فارغة من الرصاص، وبدأ يبكي. جلس على الأرض وراح يجعجع مثل ولد. عندها أظن هدأ جنوني منه. وشعرت بالأسف عليه، وعلينا نحن الاثنين. ولكن ما الفائدة – لم يكن لدي ما أقوله. خرجت أمشي. كنا في شهر أبريل/نيسان، لكن الغابة كانت لا تزال عميقة في الثلج. مشيت حتى بدأ يهبط الليل. حين عدت، كان النزل معتماً، وجميع أبوابه مقفلة. وكل ما لي فيه، كان مرمياً على الثلج، حيث رماه أبي. الكتب. الملابس. كل شيء. تركتها على حالها. باستثناء الغيتار. أخذته وانطلقت باتجاه الطريق السريع. لا أملك حتى دولارًا واحدًا في جيبي. حوالي منتصف الليل، توقفت شاحنة لتنقلني في طريقها. سألني السائق إلى أين أريد أن أذهب. قلت له، "أريد أن أذهب إلى مقصدك نفسه."

بعد عدة أسابيع، بعد الالتجاء ثانية عند عائلة جيمس، قرّر

بيري المضي إلى مقصد محدّد – وورسستر، ماساشوسيتس، بلدة "زميل جيش" اعتقد بيري إنه سيرحب به ويساعده على إيجاد "عمل بأجر جيد." طالت الرحلة باتجاه الغرب بسبب العديد من الالتفافات؛ غسل صحون في مطعم في أوماها، ضخ الوقود في مرآب في أوكلاهوما، عمل شهراً في مزرعة في تكساس. بحلول يوليو/تموز 1955 وصل، في رحلته الشاقة إلى وورسستر، إلى بلدة صغيرة في كانساس تدعى فيليبسبورغ، وهناك أكد "القدر" ذاته على شكل "صحبة سيئة." "كان اسمه سميث،" قال بيري. "نفس كنيتي. لا أذكر حتى اسمه الأول. وهو ليس سوى شخص التقيته في مكان ما، كانت لديه سيارة، وقال إنه سوف يوصلني بالسيارة إلى شيكاغو. على كل حال، خلال مرورنا في كانساس رأينا هذا المكان الصغير المسمى فيليبسبروغ، توقفنا ونظرنا في الخارطة. يبدو لي أننا كنا في يوم الأحد. المحلات مغلقة. الشوارع هادئة. هناك اقترح صديقي، بارك الله قلبه، بعد أن التفت حوله." الاقتراح كان السطو على بناء مجاور، شركة مبيعات شاندلر. وافق بيري، ومعاً اقتحما المبنى الخالي من الناس وأخذا كمية من المعدات المكتبية (طابعات، حاسبات آلية). كان يمكن أن يتم الأمر بسلام لولا أن اللصين، بعد عدة أيام، تجاهلا إشارة مرور في مدينة سان جوزيف، ميسوري. "كانت الخردوات لا تزال في السيارة. والشرطي الذي أوقفنا أراد أن يعرف من أين حصلنا عليها. القليل من التدقيق، ثم، كما يقولون، "أعادونا" إلى فيليبسبورغ، كانساس. الجماعة هناك لديهم سجن ظريف حقاً. إذا كنت تحب السجون." في غضون 48 ساعة، كان بيري ورفيقه قد اكتشفا نافذة مفتوحة، تسلقا وهربا منها، سرقا سيارة، واتجها إلى الشمال الغربي، إلى ماكوك، نبراسكا. "بعد وقت

قصير افترقنا أنا والسيد سميث. لا أعلم بعدئذ ماذا حل به. كلانا بات مسجلاً على لائحة المطلوبين لمكتب التحقيقات الفيدرالي. ولكن على حد علمي، لم يلقوا القبض عليه أبداً."

في عصر رطب من أيام نوفمبر التالي، وضع باص غريهاوند بيري في وورسستر، مدينة صناعية في ماساشوسيتس ذات شوارع شديدة الانحدار نزولا وصعوداً، وهي حتى في أفضل حالات الطقس، تبدو غير مرحبة وعدوانية. "وجدت البيت الذي يفترض أن صديقي يسكنه. صديقي في الجيش أيام كوريا. لكن الناس أخبروني إنه سافر منذ ستة أشهر ولا يعلمون إلى أين. مشكلة كبيرة، إحباط كبير، نهاية العالم، وكل هذا. وهكذا وجدت مخزن خمور واشتريت نصف غالون من الووب الأحمر، وعدت إلى محطة الباصات وجلست أشرب النبيذ لأحضى على قليل من الدفء. كنت أستمتع فعلاً حتى جاء رجل واعتقلني بتهمة التشرد." سجلوه في قسم الشرطة باسم "بوب تيرنر" – وهو اسم تبناه لأن اسمه الحقيقي مسجّل لدى مكتب التحقيقات الفيدرالي. قضى أربعة عشر يوماً في السجن، وفرضت عليه غرامة 10 دولارات، ورُحّل من وورسستر في عصر يوم آخر من أيام نوفمبر. "ذهبت إلى نيويورك وأخذت غرفة في فندق في الجادة الثامنة،" قال بيري. قرب الشارع 42. وأخيراً، حصلت على عمل ليلي. القيام بأعمال مختلفة في إحدى أروقة [دكاكين] القرش الواحد. هناك في الشارع 42، بجانب آلة لبيع الطعام والشراب (أوتومات)، حيث كنت آكل – حين آكل. على مدى أكثر من ثلاثة أشهر، لم أغادر أبداً منطقة البرودوي. والسبب الوحيد أنه لم يكن لدي الملابس المناسبة. فقط الملابس الغربية – الجينز والبوط. ولكن في الشارع 42 لا أحد يكترث، كل شيء سالِك- أي شيء. خلال

حياتي كلها لم أر هذا القدر من الناس الغريبي المنظر.

قضى الشتاء في ذلك الحي البشع المضاء بالنيون، بهوائه المشبع برائحة الفُشار، والهوت دوغز وهي تغلي، وشراب البرتقال. ولكن في أحد صباحات آذار اللامعة، على حافة الربيع، كما يتذكر، "أيقظني اثنان من أوغاد مكتب التحقيقات الفيدرالي. اعتقلاني في الفندق. هوب! رحّلوني ثانية إلى كانساس. إلى فيليبسبورغ. إلى السجن الظريف نفسه. سمّروني على الصّليب [فلا أمل بالخلاص] بتُهَم الاختلاس، والهرب من السجن، وسرقة سيارة. حُكمت من خمس سنوات إلى عشر. في لانسينغ. بعد أن قضيت فترة في السجن، كتبت لأبي. ليعرف ما جرى. وكتبت لبربارا، أختي. الآن، مع مرور السنين، لم يبق لدي من الأهل سوى هؤلاء. جيمي انتحر. فيرن من النافذة. أمي ماتت. ماتت منذ ثماني سنوات. رحل الجميع سوى أبي وباربارا."

من بين الأشياء التي اختارها بيري وفضّل تركها خلفه في غرفة فندق مكسيكو سيتي، كانت رسالة من باربارا. الرسالة مكتوبة بخط يد مقروء وجذاب، وتحمل تاريخ 28 أبريل/نيسان 1958، وكان المتلقي في هذا الوقت قد قضى حوالي عامين في السجن:

أخي الأغلى بيري

استلمنا رسالتك الثانية اليوم، واغفر لي أني لم أكتب لك من قبل. الجو هنا، كما هو عندك، بدأ يدفأ، وربما كنتُ مصابة بحمى الربيع ولكني أتحسن. رسالتك الأولى كانت مقلقة للغاية، ولا شك أنك توقعت ذلك، ولكن ليس هذا هو السبب الذي منعني من الكتابة إليك – صحيح أن الأولاد يشغلونني دائماً ومن الصعب أن أجد وقتاً أجلس فيه لأركز على رسالة أكتبها

لك كما رغبت منذ مدة. فقد تعلّم ابني دوني أن يفتح الأبواب ويتسلق الكراسي والمفروشات الأخرى، وهذا يجعلني قلقة دائماً من أن يسقط.

تمكنت الآن من أجعل الأولاد يلعبون في الفناء، ثم – ولكن علي دائماً أن أخرج معهم لأنهم يمكن أن يؤذوا أنفسهم ما لم أنتبه. لكن لا شيء يستمر إلى الأبد وأعلم أنني سوف أحزن حين يبدؤون الجري في الحارة ولا أعلم أين هم. إليك بعض الإحصاءات إذا كنت مهتماً:

	الطول	الوزن	قياس الحذاء
فريدي	36,5	26,5 ليبرة	7,5 ضيق
بيبي	37,5	29,5 ليبرة	8 ضيق
دوني	34	26 ليبرة	6,5 عريض

كما ترى، دوني كبير قياساً على عمره البالغ 15 شهراً، ومع أسنانه الستة عشر وشخصيته الحيوية لا يستطيع الناس إلا أن يحبوه. إن قياس ملابسه هو نفس قياس ملابس بيبي وفريدي، ولكن السراويل لا تزال طويلة عليه.

سأحاول أن أجعل هذه الرسالة طويلة لذلك من المحتمل أن يكون فيها الكثير من الانقطاعات مثل الانقطاع الحالي لأنه حان وقت حمام دوني. بيبي وفريدي استحما هذا الصباح، لأن الطقس بارد جداً اليوم، استحما في الداخل. سأعود حالاً –

بخصوص طباعتي – أولاً – لا أستطيع أن أكذب! أنا

لست ضاربة آلة كاتبة. أستخدم من 1 إلى أصابع، ورغم أني أستطيع مساعدة فريد الكبير بشؤون عمله، ولكن ما أنجزه في ساعة يمكن أن ينجزه شخص خبير في 15 دقيقة، حقاً، أنا لا أملك الوقت ولا الرغبة في أن أحترف هذا. ولكني أرى من الرائع أنك ثابرت على الأمر وأصبحت ضارب آلة كاتبة ممتاز. أعتقد أننا جميعاً كنا سريعي التكيف (جيمي، فرين، أنت وأنا)، وكنا جميعاً مباركين بموهبة فنية أساسية – من بين أشياء أخرى. حتى أبي وأمي كانا فنانين.

أشعر بصدق، أنه لا يحق لأحد منا أن يلوم أحداً على أي شيء عملناه في حياتنا الشخصية. من المثبت أن معظمنا يصل في عمر السابعة إلى سن العقل – وهذا يعني أننا في هذا العمر نفهم ونعرف الفارق بين الصح والخطأ. بالطبع، تلعب البيئة دوراً كبيراً في حياتنا كما لعب الدّير في حالتي، أنا ممتنة كثيراً لتأثيره. في حالة جيمي – هو كان الأقوى بيننا. أذكر كم عمل وذهب إلى المدرسة في حين لم يكن هناك أحد يوجهه، كانت تلك إرادته في أن يصنع شيئاً ما من نفسه. لن نعرف أبداً ما هي أسباب ما حصل في النهاية، لماذا فعل ما فعل، ولكني لا زلت أتألم من التفكير بما جرى. كان ضياعاً كبيراً. لكننا لا نملك السيطرة على نقاط ضعفنا البشرية، وهذا ينطبق أيضاً على فيرن، وعلى مئات الآف الناس بمن فيهم نحن – لأننا جميعاً لدينا نقاط ضعف. في حالتك – لا أعرف ما هي نقطة ضعفك ولكني أشعر بها – **ليس عاراً أن يكون وجهك قذراً – العار أن تتركه قذراً.**

بكل الصدق والحب لك بيري، فأنت أخي الحي الوحيد

وخال أولادي، لا أستطيع أن أقول أو أشعر أن موقفك من أبينا أو من سجنك **عادل** أو صحيح. إذا كان يثيرك هذا الكلام، من الأفضل أن تهدأ لأني أعرف أنه لا أحد منا يحب النقد ومن الطبيعي أن نشعر بشيء من النفور تجاه من ينتقدنا، لذلك أنا جاهزة لأحد شيئين: أ) أن لا أستلم منك رداً على الإطلاق، أو ب) رسالة تخبرني بها رأيك بي.

آمل أن أكون مخطئة، وآمل بصدق أن تفكر جيداً برسالتي هذه وأن تحاول أن ترى كيف يشعر شخص آخر. أرجوك أن تفهم، فأنا أعرف أنني لست صاحبة سلطة ولا أتفاخر بذكاء عظيم أو بتعليم ولكني أعتقد أنني شخص طبيعي عندي قدرات محاكمة عقلية أولية وعندي رغبة أن أعيش حياتي بالانسجام مع قوانين الله والبشر. صحيح أنني "سقطت" مرات، وهذا عادي – لأنه كما قلت أنا بشر، لذلك أنا أيضاً عندي نقاط ضعف بشرية لكن النقطة هي، مرة ثانية، ليس عاراً – أن يكون وجهك قذراً – العار أن لا تنظفه. لا أحد يدرك عيوبي وأخطائي أكثر مني لذلك لن أزيد في ضجرك.

الآن، أولاً، وأهم شيء – أبي ليس مسؤولاً عن أخطائك أو أعمالك الصالحة. ما عملته، سواء كان خيراً أو شراً، هو عملك أنت. مما أعرفه شخصياً، أنت عشت حياتك بالضبط كما رغبت، دون اكتراث بالظروف أو بالأشخاص الذين أحبوك – والذين يمكن أن يؤلمهم ذلك. سواء كنت تدرك أو لا، فإن حبسك الحالي مخرج لي ولأبي أيضاً – ليس بسبب ما ارتكبت، بل لأنك لم تظهر لي أي علامة ندم **صادق** ولا يبدو أنك تظهر أي

احترام لأي قانون أو بشر أو أي شيء. تتضمن رسالتك تحميل مسؤولية كل مشاكلك إلى شخص آخر، ولكنك لا تحمل نفسك أي مسؤولية. أنا أعترف أنك ذكي، وغني بالمفردات، وأشعر أن بإمكانك أن تفعل أي شيء تقرر فعله، وأنك تنجزه بنجاح، ولكن ماذا تريد أن تفعل بالضبط، هل ترغب بالعمل، بأن تقوم بجهد شريف للحصول عليه مهما يكن العمل الذي تختاره؟ لن تحصل على شيء جيد بسهولة، واثقة أنك سمعت هذا الكلام مرات عديدة، ولكن سماعه مرة أخرى لن تضر.

إذا كنت تريد الحقيقة بشأن أبي – فإن قلبه مكسور بسببك. إنه مستعد لتقديم أي شيء لإخراجك من السجن، بحيث يستعيد ابنه – ولكني أخشى من أنك لن تفعل سوى إيذائه لو استطعت. إنه ليس في صحة جيدة، ويشيخ، وكما يقولون، إنه لا يستطيع "قطع الخردل" كما في الأيام الخوالي. أخطأ مرات، وأدرك ذلك، ولكن مهما فعل وأينما ذهب، فقد شاركك حياته وممتلكاته في حين إنه لن يفعل هذا مع أي شخص آخر. الآن، أنا لا أقول إنك مدين له بامتنان لا يموت أو مدين له بحياتك، ولكنك مدين له **بالاحترام، واللياقة المتعارف عليها.** أنا شخصياً فخورة بأبي. أنا أحبه وأحترمه بوصفه أبي. يؤسفني فقط أنه اختار أن يكون منعزلاً مع ابنه، كان يمكنه أن يعيش معنا ويشاركنا حبنا بدل أن يبقى وحيداً في قاطرته الصغيرة، وحيداً ينتظر ويحنّ إلى ابنه، أنت. أنا قلقة عليه، وحين أقول أنا، أقصد زوجي أيضاً لأن زوجي يحترم أبانا. لأن أبانا **رجل**. صحيح أن أبي لم يصل إلى مستوى تعليم عال،

ولكن في المدرسة نتعلم فقط التعرف على الكلمات وكتابتها غير أن تطبيق هذه الكلمات على الحياة الحقيقية شيء آخر يمكن أن تعطينا إياه **الحياة والتجارب**. أبي عاش وأنت تتجاهل هذا حين تقول عنه غير متعلم وغير قادر على فهم "المعنى العلمي.. الخ "لمشاكل الحياة. الأم هي الوحيدة القادرة على تقبيل الوا-وا [مكان الألم] عند طفلها وجعله يتعافى –هذا لا يُشرح علمياً.

آسفة على قسوتي ولكني أشعر أنه يجب أن أقول ما في قلبي. وآسفه لأن هذه الرسالة يجب أن تخضع للرقابة (من سلطات السجن)، وآمل بصدق أن لا تؤثر على القرار النهائي بالإفراج عنك، لكن أشعر أنك يجب أن تعرف وتدرك الضرر الكبير الذي أحدثته. أبوك هو الشخص المهم، على اعتبار أنني أنا مكرسة لعائلتي، أنت الشخص الوحيد الذي يحبه أبي – باختصار أنت "عائلته." هو يعرف أنني أحبه، بالطبع، لكن لا يجد تقاربًا بيننا، أنت تعرف.

حبسك لا يثير الفخر بأيّ حال، وعليك أن تعيش معه وأن تحاول إخفاءه، ويمكنك فعل ذلك ولكن ليس وأنت تشعر أن الجميع أغبياء وغير متعلمين ولا يفهمون. أنت إنسان ذو إرادة حرة. وهذا ما يضعك فوق مستوى الحيوان. ولكن إذا عشت حياتك دون مشاعر وحب تجاه أخيك الإنسان، فإنك تكون كالحيوان – "العين بالعين، والسن بالسن"، السعادة وسلام الذهن لا يمكن تحقيقهما بالعيش هكذا.

لا أحد يريد حقيقة أن يتحمّل المسؤولية، ولكننا جميعاً مسؤولون أمام المجتمع الذي نعيش فيه وأمام قوانينه. عندما

يأتي وقت تحمل فيه مسؤولية البيت والأولاد أو العمل، فهذا ما يزرعه **الرجال في** أبنائهم الذكور – لا شك أنك تدرك أي فوضى سوف يعيشها العالم لو أن كل شخص قال، "أريد أن أكون مستقلاً، دون مسؤوليات، وأن أقول ما في ذهني بحرية، وأعمل كما أريد أنا وحدي." كلنا أحرار أن نقول ونفعل كما نريد كأفراد – بشرط أن لا تؤدي "حرية" القول والفعل هذه إلى ضرر الآخرين.

فكر بما قلته لك، بيري. أنت تمتلك ذكاء فوق المعدل المتوسط، ولكن محاكمتك العقلية ضالة نوعاً ما. ربما بسبب ضغط السجن. ولكن مهما يكن، تذكّر، أنت، وأنت فقط، المسؤول، ويعود إليك، إليك فقط، أن تتغلب على هذا الجزء من حياتك. أرجو أن أتلقى الجواب دون تأخير.

بالحب والصلوات

أختك وصهرك

باربارا وفريدريك والعائلة

لا يحتفظ بيري بهذه الرسالة ويضعها ضمن مجموعة الكنوز الخاصة، بدافع الحب. على العكس من ذلك. بيري كان "يكره" باربارا، ومنذ بضعة أيام فقط، قال لدك، "الأسف الحقيقي الوحيد عندي – ليت أختي كانت في ذلك البيت." (حينها ضحك دك، واعترف له برغبة مشابهة: "دائماً أفكر أي متعة كانت ستكون لو أن زوجتي الثانية كانت هناك. هي وكل عائلتها اللعينة.") كلا، قيمة الرسالة تأتي فقط من أن صديقه في السجن، "الفائق الذكاء" ويلي جي، كتب له تحليلاً "شديد

الحساسية" عنها، جاء في صفحتين مطبوعتين بأسطر متراصة، بعنوان "انطباعات جمعتها من الرسالة":

انطباعات جمعتها من الرسالة

1- عندما بدأتُ بكتابة هذه الرسالة، نوَتْ أن تقدّم عرضاً حنوناً لمبادئ المسيحية. أي إنها في الرد على رسالتك لها، والتي أزعجتها على ما يبدو، قصدت أن تدير خدها الآخر على أمل أن تحرّض فيك، بهذه الطريقة، الندم على رسالتك السابقة وأن تضعك في موقع الدفاع في رسالتك التالية.

ولكن قلائل هم الناس الذين يمكن أن ينجحوا في عرض مبدأ أخلاقي عام حين يكون تفكيرهم مريضاً بالنزعة العاطفية. واختك تجسّد هذا القصور لأن منطقها يتراجع، في سياق الرسالة، لصالح الانفعال - أفكارها صالحة، ونيرة وتدل على الذكاء، لكنه الآن ذكاء منحاز وغير حيادي. إنه عقل مدفوع باستجابة عاطفية على الذاكرة والإحباط؛ وبالنتيجة، مهما تكن نصائحها حكيمة، فإنها تفشل في إثارة التصميم، إلا التصميم على الانتقام منها برسالتك التالية. وهكذا تبدأ حلقة لا يمكن إلا أن تراكم المزيد من الغضب والألم.

2- إنها رسالة حمقاء، ولكنها نابعة من قصور بشري.

رسالتك لها، ورسالتها هذه رداً عليك، فشلا في تحقيق غاياتهما. رسالتك كانت محاولة لشرح نظرتك إلى الحياة،

النظرة التي تحكم سلوكك بلا شك. كان قدر هذه الرسالة أن يساء فهمها، أو أن تؤخذ حرفياً لأن أفكارك مضادة للنزعة التقليدية. ماذا يمكن أن يكون أكثر تقليدية من ربة منزل عندها ثلاثة أطفال و "مكرسة" لعائلتها؟؟؟؟ وماذا يمكن أن يكون أكثر طبيعية من أن تنفر هذه المرأة من شخص غير تقليدي. هناك قدر كبير من النفاق في النزعة التقليدية. أي شخص يعمل تفكيره سوف يدرك هذه المفارقة، ولكن في التعامل مع الناس التقليديين من الملائم معاملتهم على أنهم غير منافقين.

لا يتعلق الأمر بإخلاصك لأفكارك الخاصة؛ إنه موضوع مساومة يمكّنك من أن تبقى شخصية مميزة بدون تهديد مستمر من الضغوط التقليدية. فشلت رسالتها لأنها لم تستطع فهم عمق مشكلتك – لم تستطع سبر غور الضغوط التي تعرضت لها بسبب البيئة، والإحباط الفكري، والميل المتنامي باتجاه الانعزالية.

3- هي تشعر:

أ- أنك تميل كثيراً باتجاه رثاء الذات.

ب- أنك متردد تطيل الحسابات.

ت- أنك لا تستحق في الحقيقة رسالة من 8 صفحات تكتبها أمّ في الوقت الفارغ بين واجباتها الأمومية.

4- في الصفحة الثالثة تكتب: "لا يحق لأحد منا أن يلوم أحداً". هكذا هي تبرّئ الناس الذين لهم تأثير في سنواتها التكوينية. لكن

هل هذه كل الحقيقة؟ هي زوجة وأم. محترمة وآمنة إلى هذا الحد أو ذاك. من السهل تجاهل المطر وأنت في معطف المطر. ولكن ما هو شعورها إذا كانت مضطرة أن تكافح في الشوارع من أجل عيشها؟ هل ستبقى غفورة حيال الناس في ماضيها؟ بالتأكيد لا. لا شيء أكثر عادية من أن تشعر بأن هناك آخرين ساهموا في فشلك، تماماً كما هو من المألوف أن ننسى من ساهموا في نجاحنا.

5- أختك تحترم أباك. وهي أيضاً تكره حقيقة أنك كنت المفضل لديه. تتخذ غيرتها شكلاً ماكراً في رسالتها. فهي تسجل بين السطور سؤالاً: "أنا أحب أبي وحاولت أن أعيش بطريقة تجعله فخوراً بكوني ابنته. ولكن كان عليّ أن أكتفي بفتات حبه. لأنه أحبك أنت، ولماذا ينبغي أن يكون الأمر كذلك؟"

من الواضح أن أباك استفاد مع السنين من الطبيعة العاطفية لأختك عبر الرسائل. فرسم صورة تبرر رأيها به – شخص مهضوم الحق وملعون بابن عاق غمره بالحب والرعاية، فقط كي يرد هذا الابن المعاملة بشكل مخزٍ.

في الصفحة السابعة تقول يؤسفها أن هذه الرسالة يجب أن تخضع للرقابة. ولكنها غير مأسفة في الواقع. إنها سعيدة لأن الرسالة سوف تمر عبر الرقابة. كتبت ذلك لا شعورياً والرقيب في ذهنها، على أمل أن توصل فكرة تقول إن عائلة سميث عائلة محترمة: "رجاء لا تحكموا علينا جميعاً عبر بيري."

أما بشأن الأم التي تقبّل "وا-وا" طفلها فيشفى، فهذه طريقة المرأة في التهكم.

6- أنت تكتب لها:

أ- لأنك تحبها إلى حد ما.

ب- لأنك تحتاج إلى هذه الصلة مع العالم الخارجي.

ت- لأنه يمكنك الاستفادة منها.

التخمين: التراسل بينك وبين أختك لا يمكن أن ينفع بأي شيء إلا كوظيفة اجتماعية محضة. حافظ على موضوع رسائلك إليها في نطاق فهمها. لا تكتب لها أفكارك الخاصة. لا تضعها في موضع الدفاع، ولا تسمح لها أن تضعك في هذا الموضع. احترم حدود استيعابها غاياتك، وتذكر إنها حساسة تجاه نقدك لأبيك. كن متماسكاً في موقفك منها ولا تضف أي شيء للانطباع الذي لديها بأنك ضعيف، ليس لأنك في حاجة لرضاها، بل لأنه يمكنك أن تتوقع المزيد من مثل هذه الرسالة، وهذه الرسائل لن تخدم سوى في زيادة غرائزك الخطرة المضادة للمجتمع الموجودة سلفاً.

انتهى

مع مواصلة بيري عملية الفرز والاختيار، صارت كومة المواد التي اعتبرها أغلى من أن يتركها، ولو مؤقتاً، عالية متمايلة. ولكن ماذا عليه أن يفعل؟ لا يمكنه المخاطرة بخسارة الميدالية البرونزية التي ربحها في كوريا، أو شهادة المدرسة الثانوية (الصادرة عن مجلس التعليم في مقاطعة ليفنوورث نتيجة استئنافه، وهو في السجن، دراسته التي انقطعت لفترة طويلة). ولا يجرؤ على المغامرة بخسارة ظرف مانيلا

محشو بالصور - بشكل أساسي صوره، الممتدة في الزمن من صورة صبي صغير حلو عندما كان في البحرية التجارية (وقد كتب على ظهرها، "شاب بعمر 16 سنة بريء ودون هموم") إلى الصور الأخيرة في أكابولكو. وكان هناك حوالي خمسين شيئاً آخر قرر أن يأخذها معه، من بينها كنز الخرائط، ودفتر رسم أوتو، ودفترا ملاحظات سميكان، الأسمك بينهما هو قاموسه الشخصي، وهو قاموس غير مرتب وفق الأحرف الأبجدية ويضم كلمات متنوعة يعتقد أنها "جميلة" أو "مفيدة" أو على الأقل "تستحق الحفظ." (نموذج صفحة [من الدفتر]: Thanatoid: شبيه بالموت؛ Omnilingual: ضليع في اللغات؛ Amerce: عقوبة، مقدار محدد من المحكمة؛ Nescient: الجهل؛ Facinorous: شرير على نحو مرعب؛ Hagiophobia: الخوف المرضي من الأماكن والأشياء المقدسة؛ Lapidicolous: يعيش تحت الحجارة، مثل بعض الخنافس العمياء؛ Dyspathy: نقص التعاطف أو الشعور المشترك؛ Psilopher: شخص يسره أن يعتبر فيلسوفاً؛ Omophagia: أكل اللحم النيئ، طقس ديني عند بعض القبائل المتوحّشة؛ Depredate: النهب والسرقة والافتراس؛ Aphrodisiac: دواء أو ما شابه مما يثير الرغبة الجنسية؛ Megalodactylous: امتلاك أصابع ضخمة بشكل غير طبيعي؛ Myrtophobia: الخوف من الليل والعتمة.")

وعلى غلاف الدفتر الثاني، تجد خط اليد الذي كان شديد الفخر به، خطاً مليئاً بالزخرفة النسائية المتموجة، يعلن أن المحتوى هو "**اليوميات الخاصة لبيري إدوارد سميث**" - وهو وصف غير دقيق، ذلك أن المحتوى لم يكن يوميات البته، بل هو بالأحرى مقتطفات تتألف من حقائق غامضة ("كل 15 سنة يقترب كوكب المريخ. 1958

هي سنة اقتراب")، ومن قصائد واقتباسات أدبية ("ما من إنسان هو جزيرة، كيان مستقل بنفسه")، ومقاطع من صحف وكتب مقتبسة أو مقتطفة. مثلاً:

معارفي كثر، أصدقائي قلائل؛ ومن يعرفونني المعرفة الحقة هم أقل بعدُ.

سمعت عن سم جديد للجرذان موجود في السوق. قوي جداً، وبلا طعم أو رائحة، ويُمتصّ بشكل كامل ما إن يُبتلع بحيث لا يبقى منه أثر في الجثة.

إذا دعيت لإلقاء كلمة: "لا أستطيع أن أتذكر ماذا أريد أن أقول مهما حاولت – لا أعتقد أنه كان لدي في حياتي من قبل هذا القدر من الناس المسؤولين مباشرة عن سعادتي الكبيرة جداً. إنها لحظة رائعة ونادرة وأنا مدين لكم بالتأكيد. شكراً!"

قرأت مقالة ممتعة في عدد شباط من **مان تو مان:** "طعنت بالسكين طريقي إلى حفرة الماس."

"من شبه المستحيل لشخص يتمتع بالحرية بكل امتيازاتها، أن يدرك ماذا يعني أن تحرم من الحرية." من أقوال إيرل ستانلي غاردنر.

"ما هي الحياة؟ إنها التماعة يراعة في الليل. إنها تنّفس جاموس بوفالو في الشتاء. إنها كالظل الصغير الذي يركض عبر العشب ويفقد ذاته مع غروب الشمس." من أقوال الزعيم كراوفوت، زعيم هنود البلاكفوت.

المادة الأخيرة مكتوبة بالحبر الأحمر ومزينة بحاشية من نجوم بالحبر الأخضر؛ أراد جامع المختارات أن يؤكد على "مغزاها الشخصي."

"تنفّس جاموس بوفالو في الشتاء" – ذلك بالضبط ما أثار نظرته إلى الحياة. لم القلق؟ ما الذي يستحق أن "تتعرق من أجله"؟ الإنسان لا شيء، غشاوة، ظل تمتصه الظلال.

ولكن، اللعنة، إنك تقلق، وتخطط، وتتوتر من أظافرك ومن إنذارات إدارة الفندق: "ينتهي يومك في الساعة الثانية بعد الظهر".

"دك؟ هل تسمعني؟" قال بيري. "صارت الساعة الواحدة تقريباً".

كان دك مستيقظاً. بالأحرى كان أكثر من ذلك، كان يمارس الجنس مع إينيز. وكان يهمس بلا انقطاع وكأنه يتلو بمسبحة: "ممتع صغيرتي؟ ممتع؟" لكن إينيز ظلت صامتة وهي تدخن سيجارة. منتصف الليل الماضي، حين جلبها دك إلى الغرفة وأخبر بيري إنها سوف تنام هناك، أذعن بيري رغم أنه لا يحبذ ذلك، ولكن إذا تخيلا أن سلوكهما سوف يثيره، أو سوف يبدو له أي شيء أكثر من كونه "مضايقة"، فهما مخطئان. مع ذلك شعر بيري بالأسى على إينيز. يا لها من "بنت غبية" – تصدق حقاً إن دك يريد أن يتزوجها، ولا تعلم إنه يخطط للرحيل عن المكسيك عصر هذا اليوم.

"ممتع صغيرتي؟ ممتع؟"

قال بيري: "من أجل الصليب يا دك. أسرع، بعد إذنك! يومنا ينتهي في الثانية بعد الظهر."

٥ ٥

كان يوم السبت؛ الكريسماس قريب، والسيارات تزحف على طول شارع ماين. نظر ديوي، العالق في الزحام، إلى الزينة المقدسة المعلقة فوق الشارع – خضرة احتفالية تتدلى وتنتهي -أجراس ورقية ذات لون قرمزي – تذّكر أنه لم يشتر بعد أي هدية لزوجته وأولاده.

كان عقله يرفض بصورة آلية أي مشكلة لا تتعلق بقضية كلاتر. بدأت ماري والكثير من أصدقائه راحوا يقلقون بشأن اكتمال ولعه المرضيّ بالقضيّة.

أحد أصدقائه المقربين، المحامي الشاب كليفورد ر. هوب جينيور، تكلم بصراحة: "هل تعلم ماذا يجري لك، آل؟ هل تلاحظ أنك لا تتكلم بشأن أي شيء آخر؟" "صحيح،" أجاب ديوي، "هذا كل ما أفكر فيه. وهناك فرصة أن أكتشف، بينما أنا أتحدث عن الموضوع، شيئاً لم يخطر لي من قبل. زاوية جديدة. أو ربما أنت تكتشفه. اللعنة يا كليف، ماذا تتوقع أن تكون حياتي إذا ظل هذا الشيء ملفاً مفتوحاً؟ سأبقى سنوات أتابع المعلومات السرية، وفي كل وقت تحصل فيه جريمة، أو قضية في أي مكان من البلاد، حتى لو كانت لا تشبه هذه القضية إلا من بعيد، فسوف أحشر نفسي وأتطفل وأدقق، وأرى إن كان ثمة أي صلة ممكنة. ولكن ليس هذا فقط، الشيء الحقيقي هو شعوري بأنني أعرف هيرب وعائلته أكثر مما عرفوا أنفسهم. أنا مسكون بهم. وأعتقد أنني سأبقى مسكوناً بهم، حتى أعرف ما الذي حدث."

إخلاص ديوي للّغز أدى به إلى غفلة غير معهودة. في ذلك الصباح طلبت منه ماري، من فضلك، هل تتفضل، رجاء، لا تنس أن ... لكنه لم يستطع أن يتذكر، أو لم يتذكر، حتى تحرر من زحمة يوم التسوق وساق مسرعاً على الطريق 50 باتجاه هولكومب، ليمر على المؤسسة البيطرية للدكتور آي. ي. دالي. بالطبع طلبت منه زوجته أن يحرص على جلب قط العائلة، كورتهاوس بيت. بيت هو قط مخطط كالنمر يزن 15 باوندًا، وهو شخصية معروفة في غاردن سيتي، مشهور بمشاكسته، التي كانت السبب في استشفائه الحالي: معركة خاسرة مع

كلب بوكسر خلفت له جروحاً تحتاج إلى خياطة ومضادات التهاب. بعد أن أفرج عنه الدكتور دالي، جلس بيت على المقعد الأمامي في سيارة معلمه وراح يهرّ طوال الطريق إلى هولكومب.

كان المحقق يقصد مزرعة ريفر فالي، ولكنه اشتهى شيئاً ساخناً - فنجان قهوة - فتوقف عند مقهى هارتمان.

"مرحبا يا حلو،" قالت السيدة هارتمان. "بماذا يمكنني أن أخدمك؟"

"فقط قهوة، سيّدتي."

صبت فنجان قهوة. "هل أنا مخطئة؟ أم أنك فقدت الكثير من الوزن؟"

"قليلاً." في الحقيقة، خلال الأسابيع الثلاثة الأخيرة خسر ديوي عشرين باوندًا. صارت بدلاته فضفاضة عليه وكأنه استعارها من صديق سمين، ووجهه، الذي نادراً ما يوحي بمهنته، لم يكن الآن كذلك أبداً؛ لقد بات اشبه بوجه زاهد تستغرقه مساع غامضة.

"كيف تشعر؟"

"عظيم جداً."

"تبدو مخيفاً."

لا شك في ذلك. ولكنه لم يكن أسوأ حالاً من الأعضاء الآخرين لمكتب التحقيقات في كانساس الذين يساعدونه - الوكلاء دونتز وتشيرش وناي. بالتأكيد هو في هيئة أفضل من هارولد ناي، الذي واظب على تقديم تقاريره، رغم الانفلونزا والحمى. ومن بينها، أن الرجال المتعبين الأربعة، "دققوا في" حوالي سبع مئة معلومة وشائعة. ديوي، مثلاً، قضى يومين مرهقين وضائعين وهو يحاول تقفي أثر

الشبحين المكسيكيين اللذين أقسم باول هيلم أنهما زارا السيد كلاتر عشية الجريمة.

"فنجان آخر، ألفن؟"

"لا أظن أني أريد فنجاناً آخر. شكراً سيّدتي."

ولكنها كانت قد أحضرت الركوة. "على حساب المحل، أيها العمدة. كم يبدو أنك بحاجة لفنجان آخر!"

على طاولة في الزاوية كان عاملان زراعيان بشوارب يلعبان الداما. واحد منهما نهض وجاء إلى المنضدة حيث يجلس ديوي. قال، "هل صحيح ما سمعناه؟"

"بشأن ماذا؟"

"بشأن الرجل الذي أمسكتوه؟ يطوف في بيت كلاتر؟ هو الرجل المسؤول. هذا ما سمعناه."

"أعتقد أن ما سمعته خطأ، أيها الطيب. نعم سيدي، أعتقد ذلك."

رغم أن في حياة جوناثان دانييل أدريان، الذي كان حينها في سجن المقاطعة بتهمة حمل أسلحة مخفية، تتضمن فترة حجز في مستشفى ولاية توبيكا بوصفه مريضاً عقلياً، فإن المعلومات التي جمعها المحققون تشير إلى أنه فيما يخص قضية كلاتر، فإنه مذنب فقط بفضول جالب للتعاسة.

"طيب، إذا لم يكن هو الشخص، لماذا بحق السماء لا تعثرون على الشخص الصحيح؟ عندي نساء في البيت لا تذهب الواحدة منهن إلى الحمام وحيدة."

اعتاد ديوي على هذا الصنف من التقريع؛ كان جزءاً روتينياً من

وجوده. رشف فنجان القهوة الثاني، تنهد وابتسم.

"اللعنة، هل تراني أحكي نكاتاً. أنا جاد. لماذا لا تعتقلون أحداً ما؟ أنتم تقبضون رواتبكم من أجل هذا."

"خفّف حقارتك،" قالت السيدة هارتمان. "كلنا في قارب واحد. ألفن يعمل جيداً قدر استطاعته"

غمز لها ديوي. "أخبريه، يا سيّدتي. وممتن كثيراً على القهوة."

انتظر العامل الزراعي حتى وصل طريده إلى الباب، ثم أطلق رصاص الوداع: "إذا رشحت نفسك ثانية لتصبح عمدة، فلتنسى صوتي. لأنك لن تحصل عليه."

"خفّف حقارتك،" قالت السيدة هارتمان.

تبعُد مزرعة ريفر فالي عن مقهى هارتمان مسافة ميل. قرر ديوي أن يقطعها على قدميه. يستمتع بالسير عبر حقول القمح. عادة، كان يذهب مرة أو مرتين في الأسبوع في سَير طويل في أرضه، وهي قطعة من مرج تروق له كثيراً وطالما حلم أن يبني بيته عليها، ويزرع الأشجار ويعتني في النهاية بأحفاد رائعين. كان هذا حلماً، غير أن زوجته نبهته مؤخراً بأنها لم تعد تشاركه هذا الحلم؛ قالت له إنها لا تفكر أبداً بعد الآن في أن تعيش وحيدة "بنفس الطريقة هناك في الريف." وكان يعلم ديوي إنه حتى لو أمسك بالمجرمين غداً، فإن ماري لن تغير رأيها – لأن مصيراً مرعباً حل مرة بأصدقاء كانوا يعيشون في بيت ريفي وحيد.

بالطبع لم تكن جريمة قتل عائلة كلاتر أول جريمة قتل في مقاطعة فيني أو حتى في هولكومب. يمكن لكبار السن في ذاك المجتمع الصغير أن يتذكروا "قصة وحشية" منذ أكثر من أربعين عاماً – قتل هيفنر. السيدة سادي ترويت، ساعية بريد القرية وهي في السبعينات

من عمرها، تعرف جيداً هذه القصة الشهيرة: "كان الوقت أغسطس/آب سنة 1920، جو حار مثل جهنم. كان هناك شخص يدعى تونيف يعمل في مزرعة فينوب. والتر تونيف. كان عنده سيارة، تبين أنها مسروقة. وتبين أنه جندي **فار** من فورت بليس، هناك في تكساس. كان وقحاً، مشبعاً بالوقاحة، والكثير من الناس هنا كانوا يشكّون في أمره. وهكذا ذات مساء جاء العمدة – وقتها كان أورلي هيفنر، وكان مغنياً، ليس هناك أحلى منه، ألا تعلمون إنه كان عضواً في **الفرقة السماوية**؟- ذات مساء جاء إلى مزرعة فينوب كي يسأل تونيف بضع أسئلة بسيطة. الثالث من أغسطس/آب. جو حار مثل جهنم. النتيجة كانت أن والتر تونيف أطلق النار على العمدة في القلب مباشرة. المسكين أورلي مات قبل أن يسقط على الأرض. الإبليس الذي فعل هذا، هرب من هناك على أحد أحصنة المزرعة، واتجه شرقاً على طول النهر. انتشر الخبر، والرجال شكلوا وحدات حماية على مدى أميال حول المنطقة. صباح اليوم التالي أمسكوا به: السيد والتر تونيف. لم تتح له فرصة أن يقول كيف الحال؟ على اعتبار أن الرجال كانوا مجانين من الغضب. فقط تركوا الرصاص يلعلع."

أول احتكاك لديوي بجريمة قتل في مقاطعة فيني كان في 1947. الحادث مذكور في ملفاته كما يلي: "جون كارليل بولك، هندي كريك، له من العمر 32 سنة، يقطن في موسكوجي، أوكلا: قتل ماري كاي فينلي، امرأة بيضاء، لها من العمر 40 سنة، نادلة تسكن في غاردن سيتي. بولك طعنها بعنق زجاجة بيرة مكسورة في غرفة في فندق كوبلاند، غاردن سيتي، كانساس، 47/9/5." وصف مختصر مفيد لقضية فتحت وأغلقت. من بين الجرائم الثلاث التي حقق فيها

منذئذ، هناك جريمتان واضحتان (اثنان من عمال السكك الحديدية سرقا وقتلا مزارعًا عجوزًا، 52/1/11؛ زوج سكير ضرب ورفس زوجته حتى الموت، 56/17/6)، ولكن القضية الثالثة، كما رواها ديوي مرة في محادثة غير رسمية، لم تكن خالية من عدة لمسات غير مألوفة: "بدأت القصة في حديقة ستيفنس. كانت لهم هناك منصة وتحت المنصة توجد غرفة لاستراحة الرجال. هذا الرجل، واسمه موني، كان يمشي حول الحديقة. كان من مكان ما في كارولينا الشمالية، مجرد غريب يمر في المدينة. على كل حال، دخل الرجل إلى غرفة الاستراحة، وتبعه إلى الداخل شخص آخر – صبي من الجوار، اسمه ويلمر لي ستيبنز، عمره عشرون سنة. بعد ذلك، زعم ويلمر لي أن السيد موني عرض عليه اقتراحاً غير طبيعي. وهذا هو السبب الذي جعله يسرق السيد موني ويطرحه أرضاً ويضرب رأسه على أرضية الإسمنت، وحين لم يمت جراء ذلك، حشر رأس السيد موني في سطل التواليت ومكث على هذه الحال حتى خنقه. قد يكون الأمر كذلك. لكن لا شيء يمكن أن يشرح بقية سلوك ويلمر لي. أولاً هو حرق الجثة في منطقة تبعد عن غاردن سيتي حوالي ميلين إلى الشمال الشرقي. في اليوم التالي دفنه على بعد 14 ميل في الاتجاه الآخر. وهكذا استمر الأمر على هذا الشكل، دفن وإعادة دفن. ويلمر لي صار مثل الكلب الذي حصل على عظمة – لا يدع جثة السيد موني ترتاح بسلام. أخيراً، شوهد وهو يحفر قبراً من قبور كثيرة." قبل لغز جريمة كلاتر، كانت القضايا الأربع هي مجموع خبرة ديوي في جرائم القتل، وهي، قياساً على الجريمة التي يواجهها الآن، مثل العواصف التي تسبق الإعصار.

○ ○

فتح ديوي الباب الأمامي لبيت كلاتر بالمفتاح. في الداخل، كان البيت دافئاً، لأن الحرارة لم تكن مطفأة؛ وكانت الأرضية اللامعة للغرف تفوح برائحة ملمع الليمون، ما يوحي بأن ساكني الغرف تركوها مؤقتاً فقط؛ كما لو أن اليوم هو الأحد، والعائلة يمكن أن تعود في أيّة لحظة من الكنيسة. الوَرَثة، السيدة إنغليش والسيدة جارشو، أزالتا مقدار حمل شاحنة من الملابس والأثاث، ومع ذلك فإن جو البيت لا يزال يوحي بجو بيت مسكون. في الصالون، تجد نوتة موسيقية، "Coming Through the Rye"، واقفة على حامل البيانو. وفي البهو، تجد قبعة ستيتسون رمادية ملطخة بالعرق، قبعة هيرب، معلقة على شماعة القبعات. وفي الطابق العلوي في غرفة كينيون، على رف فوق سريره، تلتمع عدسات نظارتيه بالضوء المنعكس.

انتقل المحقق من غرفة إلى أخرى. سبق أن دار في البيت مرات عديدة، فهو يذهب إلى هناك كل يوم تقريباً. وبمعنى ما، يجد هذه الزيارات ممتعة، لأن هذا المكان هادئ، على خلاف بيته، أو مكتب العمدة الضاجّ. الهواتف صامتة، ولا تزال أسلاكها مقطوعة. الهدوء العميق للبراري المحيطة به. كان يمكنه أن يجلس في صالون هيرب على الكرسي الهزاز، يهزّ ويفكر. توصل إلى بضع استنتاجات ثابتة: هو يعتقد أن موت هيرب كلاتر كان الهدف الرئيسي للمجرمين، والدافع هو كراهية مرضيّة، أو ربما مزيج من الكراهية واللصوصية؛ ويعتقد أن ارتكاب الجريمة تم على مهل وبروية، بفاصل ساعتين أو أكثر ربما بين دخول القتلة وخروجهم. (يقول تقرير الطبيب الشرعي، الدكتور روبيرت فينتون، إن هناك فارق ملموس في حرارة أجساد الضحايا، وعلى هذا الأساس، افترض أن ترتيب القتل كان: السيدة كلاتر،

نانسي، كينيون، السيد كلاتر.) وبناء على هذه الثوابت يقوم اعتقاده بأن العائلة كانت تعرف جيداً هؤلاء الأشخاص الذين صرعوهم.

خلال هذه الزيارة توقف ديوي على نافذة في الطابق العلوي، لفت انتباهه شيء على مسافة قريبة – فزاعة وسط قش القمح. كانت الفزاعة تلبس قبعة صيد رجالية وثوباً من قماش قطني مزهر بات باهتاً بتأثير الطقس. (من المؤكد أنه ثوب قديم من ملابس بوني كلاتر؟) كانت الريح تلعب بالتنورة وتجعل الفزاعة تتأرجح – فبدت الفزاعة كأنها مخلوق يرقص بحزن في الحقل في برد كانون الأول/ديسمبر. تذكر ديوي بشكل ما حلم ماري. في أحد الصباحات الأخيرة قدمت له فطوراً فاشلاً؛ البيض بالسكّر والقهوة بالملح! ثم عزت ذلك كله إلى "حلم سخيف" – لكنه حلم لم تمحه سُلطة ضوء النهار. "كان حقيقياً جداً يا ألفن،" قالت. "حقيقي مثل هذا المطبخ. كنت هنا في هذا المطبخ. كنت أطبخ العشاء، وفجأة دخلت بوني من الباب. كانت تلبس كنزة أنغورا زرقاء، وتبدو لطيفة وجميلة. قلت لها، "أوه، بوني... بوني، عزيزتي ... لم أرك منذ حدوث ذلك الشيء المرعب." لكنها لم تجب، اكتفت بأن نظرت إليّ بطريقتها الخجلى تلك، ولم أعرف كيف أكمل في هذه الظروف. لذلك قلت، "حبيبتي، تعالي لتري ماذا أعد عشاء لألفن. قدر من الباميا. مع القريدس وسرطان البحر الطازج. إنه على وشك الجهوز. هيا، حبيبتي، تذوقي." ولكنها لم تفعل. وقفت على الباب تنظر إلي. وعندها – لا أعرف كيف أصف لك بالضبط، ولكنها أغلقت عينيها، وبدأت تهز رأسها، ببطء شديد، وتفرك يديها، ببطء شديد، وتئن، أو تهمس. لم أتمكن من فهم ما كانت تقول. لكنها كسرت قلبي، لم أشعر من قبل بهذا القدر من الأسى على أحد، احتضنتها. قلت لها، "أرجوك

بوني! أوه، اهدأي عزيزتي، اهدأي! إذا كان هناك أحد جاهز للذهاب إلى الله فهو أنت يا بوني. لكني لم أستطع تعزيتها. نفضت رأسها، وفركت يديها وعندها سمعت ما كانت تقول. كانت تقول، "أن تُقتل. أن تُقتل. لا. لا. لا شيء أسوأ من أن تُقتل. لا شيء أسوأ من ذلك. لا شيء."

° °

منتصف النهار في عمق صحراء موهافي. بيري يجلس على حقيبة سفر من القش، يعزف الهرمونيكا. بينما يقف دك على جانب طريق سريع أسود، الطريق 66، وعيناه مثبتتان على الفراغ الخاوي كما لو أن قوة تحديقه يمكن أن تستجلب السيارات. مرت سيارات قليلة، ولكن لم تتوقف أي منها لهما. أحد سائقي الشاحنات، متجه إلى نيدلز في كاليفورنيا، عرض أن ينقلهما معه، لكن دك رفض. لم يكن هذا هو "الترتيب" الذي يريدانه. كانا بانتظار مسافر وحيد في سيارة لائقة ونقود في جزدانه – غريب، يسرقانه ويخنقانه ويرميانه في الصحراء.

في الصحراء، الصوت يسبق الرؤية غالباً. سمع دك الاهتزازات الخافتة لسيارة قادمة وليست مرئية بعد. بيري سمعها أيضاً؛ وضع الهرمونيكا في جيبه، وأمسك بحقيبة السفر (ليس لديهما من الأمتعة سوى هذه الحقيبة التي انتفخت وانحنت من وزن تذكارات بيري، وثلاثة قمصان، وخمس أزواج من الجوارب، وعلبة أسبرين، وزجاجة تكيلا، ومقص، ومكنة حلاقة، ومبرد أظافر؛ وكل الممتلكات الأخرى جرى رهنها أو تركت مع النادل المكسيكي أو شحنت إلى لاس فيغاس)، وانضم إلى دك على جانب الطريق. راقبا. الآن ظهرت السيارة، وكبرت حتى أصبحت سيارة دودج زرقاء بمسافر واحد، رجل نحيل أصلع. رائع. رفع دك يديه ولوح بهما. خففت الدودج من سرعتها، ودك منح

الرجل ابتسامة عريضة. السيارة على وشك التوقف، لكنها لم تتوقف، أخرج السائق رأسه من النافذة، وتمعن فيهما. الانطباع الذي أعطياه كان مثيراً للقلق. (بعد خمسين ساعة بالباص من مكسيكو سيتي إلى بارستاو، كاليفورنيا، ونصف يوم من السير عبر موهافي، صار لكليهما لحية وهيئة قاسية مغبرة.) السيارة انطلقت للأمام مسرعة. وضع دك يديه حول فمه وصرخ عالياً، "يا لك من ابن حرام محظوظ!" ثم ضحك ورفع الحقيبة إلى كتفه. لا شيء يمكن أن يغضبه حقاً، لأنه، كما ذكر فيما بعد، كان "في غاية السعادة لأنه عاد إلى أميريكا الطيبة الخيرة." على كل حال، رجل آخر في سيارة أخرى سوف يأتي.

أخرج بيري الهرمونيكا الخاصة به (خاصة به منذ البارحة، حين سرقها من مخزن منوعات في بارستاو) وعزف افتتاحيات ممّا كان قد صار "موسيقى المسير" الخاصة بهما؛ كانت الأغنية من الأغاني المفضلة عند بيري، وكان قد علّم دك كل المقاطع الخمسة. كانا يتأرجحان جنباً إلى جنب وهما يسيران على طول الطريق السريع، ويغنيان:

"لقد شاهدت عيناي مجد مجيء الرب؛

وهو يدوس عناقيد الغضب،

ليصنع منها الخمر."

عبر صمت الصحراء، كانت ترن أصواتهم الشابة القوية:

"المجد! المجد! هللويا! المجد! المجد! هللويا!"

الفصل الثالث

الجواب

اسم الشاب فلويد ويلس، كان قصيراً، وبلا ذقن تقريباً. جرّب مهناً عديدة؛ جندي، وعامل مزرعة، وميكانيكي، ولص، والمهنة الأخيرة جلبت له الحكم من ثلاث إلى خمس سنوات في إصلاحية ولاية كانساس. في مساء الثلاثاء، 17 نوفمبر/تشرين الثاني 1959، كان مستلقياً في زنزانته وسمّاعات الراديو في أذنيه. يصغي إلى نشرة الأخبار، لكن صوت المذيع، وكآبة أحداث اليوم ("يصل المستشار كونراد أديناور إلى لندن اليوم لإجراء مباحثات مع رئيس الوزراء هارولد ماكميلان .... الرئيس أيزنهاور يناقش في سبعين دقيقة مشاكل الفضاء وموازنة استكشاف الفضاء مع الدكتور ت. كيث غلينان") كانت تغريه بالنوم. فجأة تلاشى نعسه عندما سمع، "الشرطة التي تحقق في جريمة قتل مأساوية لأربعة أفراد من عائلة هيربرت دبليو كلاتر، تطالب العموم بأي معلومات يمكن أن تساعد في حل هذه الجريمة المحيرة. فقد وجد كلاتر وزوجته وولداهما اللذان في العقد الثاني من العمر، مقتولين في بيتهم في المزرعة قرب غاردن سيتي في وقت مبكر من صباح يوم الأحد الماضي. كل شخص منهم مقيد ومكموم الفم ومقتول برصاصة في الرأس من بندقية عيار 12. ويعترف المحققون إنهم لا يستطيعون اكتشاف دافع الجريمة التي وصفها لوغان سانفورد، مدير مكتب التحقيقات في كانساس، بأنها أبشع جريمة في تاريخ كانساس. وكلاتر هو مزارع قمح بارز وتم تعيينه سابقاً في المجلس الفيدرالي للائتمان الزراعي من قبل الرئيس أيزنهاور..."

صُعق ويلس. وكما وصف فيما بعد ردة فعله، إنه "كاد أن لا يصدق ذلك." رغم أنه كان لديه سبب وجيه ليصدقه، ليس فقط لأنه يعرف العائلة المقتولة، بل لأنه يعرف جيداً جداً من قتلهم.

بدأت القصة منذ زمن بعيد – منذ إحدى عشرة سنة، في خريف 1948، حين كان ويلس في التاسعة عشرة من عمره. كان "يجول في أرجاء البلاد يعمل ما تيسر له من عمل"، كما استرجع لاحقاً. "بطريقة أو أخرى، وجدت نفسي هناك في غربي كانساس. قرب حدود كولورادو. كنت أبحث عن عمل، وأسأل هنا وهناك، وسمعت إنه يمكن أن أجد عملاً في مزرعة ريفر فالي – هكذا كان يسمي السيد كلاتر مكانه. أكيد، أعطاني عملاً. بقيت هناك حوالي السنة كما أظن – كل ذلك الشتاء على أي حال – وحين غادرت كان ذلك فقط لأني كنت أشعر أني فائض عن الحاجة. وأردت أن أنتقل. وليس بسبب أي شجار مع السيد كلاتر. عاملني بكل لطف، كما يعامل كل شخص يعمل لديه؛ مثلاً، إذا كنت بحاجة لبعض النقود قبل يوم الدفع، سوف يعطيك دائماً عشرة أو خمسة. كان يدفع أجورًا جيّدة، وإذا كنت تستحق أجرك، فسرعان ما يعطيك علاوة. الحقيقة أنني أحببت السيد كلاتر أكثر من أي رجل قابلته. أحببت العائلة كلها. السيدة كلاتر والأولاد الأربعة. عندما عرفتهم، الولدان الأصغر، الاثنان اللذان قُتلا – نانسي والولد الصغير الذي كان يضع نظارات – كانا طفلين صغيرين، ربما بعمر خمس سنوات أو ست. وكانت هناك بنت تدعى بفرلي، وبنت أخرى لا أذكر اسمها، كانتا حينها في المدرسة الثانوية. عائلة لطيفة، لطيفة حقاً. لم أنسهم قط. حين غادرتهم، كان ذلك في وقت ما من عام 1949. تزوجت، وطلقت، وذهبت إلى خدمة الجيش، ووقعت أشياء أخرى، مر الزمن، يمكنك أن تقول، وفي عام 1959 - يونيو/حزيران، 1959، عشر سنوات منذ آخر مرة أرى فيها السيد كلاتر – تم تحويلي إلى لانسينغ. بسبب اقتحام محل الأجهزة. أجهزة كهربائية. كان في

ذهني أنني سأحصل على بعض ماكينات جز العشب الكهربائية. ليس لكي أبيعها. كنت سأبدأ العمل في جز العشب بأجر. بهذه الطريقة، كما ترى، يمكن أن يكون لي شغلي الصغير الدائم. بالطبع لم يتحقق لي شيء من هذا، سوى أنني أخذت ثلاث إلى خمس سنوات. لو لم يحصل هذا لما تعرفت على دك، وربما لما كان السيد كلاتر في قبره. ولكن ها أنت ترى. هذا هو الحال. صدف أن التقيت دك."

"كان أول شخص يشاركني الزنزانة. بقينا في الزنزانة معًا لحوالي الشهر، كما أعتقد. يونيو/حزيران وجزء من يوليو/تموز. كان على وشك أن ينهي حكمه من ثلاث إلى خمس سنوات في أغسطس/آب بناء على إفراج مشروط. تكلم كثيراً عن خططه حين يخرج من السجن. قال إنه يفكر بالذهاب إلى نيفادا، إلى واحدة من بلدات قواعد الصواريخ هناك، يشتري بدلة رسمية ويدخل كأنه ضابط في القوات الجوية. وهكذا يمكنه أن يحصل على كمية كبيرة من الدولارات (الأوراق الساخنة). (شخصياً لم يخطر لي شيء كهذا. هو ذكي، لا أنكر ذلك، ولكنه لا يشبه الدور. لا يشبه ضابطًا في القوّات الجوية.) في مرات أخرى، جاء على ذكر صديق له اسمه بيري. نصف هندي اعتاد أن يشاركه الزنزانة. وأنهما يمكن أن يعملا جيداً معاً إذا التقيا ثانية. لم ألتق بيري قط. لم أره البتة. كان قد غادر لانسينغ، خرج بإفراج مشروط. ولكن دك كان يقول دائماً إذا جاءت فرصة ضربة كبيرة حقيقية، يمكنه الاعتماد على بيري سميث كشريك."

"لا أذكر بالضبط كيف جاء ذكر السيد كلاتر أول مرة. يجب أن يكون حين كنا نتحدث عن الوظائف، عن مختلف أنواع الأشغال التي قمنا بها. دك ميكانيكي سيارات متدرب، وهذا معظم ما عمله من

قبل. مرة واحدة فقط اشتغل كسائق سيارة إسعاف. وكم كان يتباهى بهذا، بالممرضات وما كان يفعل معهن في خلفية السيارة. على كل حال، أخبرته كيف أني عملت سنة في مزرعة قمح كبيرة في كانساس الغربية، عند السيد كلاتر. أراد أن يعرف إذا كان السيد كلاتر رجل ثري. نعم، قلت له. ثري، نعم. الحقيقة قلت له إن السيد كلاتر أخبرني مرة أنه صرف عشرة آلاف دولار في أسبوع واحد. أقصد، قال إنه أحياناً ينفق عشرة آلاف دولار في الأسبوع في إدارة أعماله. بعد ذلك، لم يتوقف دك عن السؤال عن العائلة. كم عددهم؟ كم صارت أعمار الأولاد الآن؟ كيف يمكن الدخول إلى بيتهم بالضبط؟ كيف يتوضع البيت؟ هل كان لدى السيد كلاتر خزنة؟ لا أنكر أنني أخبرته إن لديه خزنة. لأني أتذكر أنه كان هناك صندوق أو خزنة أو شيئ ما خلف المكتب في الغرفة التي يستخدمها السيد كلاتر كمكتب. الشيء الثاني الذي أعرفه، أن دك كان يتكلم عن قتل السيد كلاتر. قال إنه سيذهب برفقة بيري إلى هناك ويسرقان المكان، وسيقتلان كل الشهود- من عائلة كلاتر أو أي شخص آخر يصادف وجوده هناك. وصف لي مرات، مرات عديدة كيف سينفذ العملية، كيف سيقوم هو وبيري بربط الأشخاص وإطلاق النار عليهم. قلت له، "إنك لن تنجو بفعلتك يا دك." ولكن بصدق أقول إنني لم أحاول أن أقنعه بأن لا يفعل. لأني لم اصدق أبداً إنه يقصد فعلاً تنفيذ ما يقول. ظننت إنه مجرد كلام. مثل الكلام الكثير الذي تسمعه في لانسينغ. هذا هو نوع الكلام الذي تسمعه هنا: ماذا سيفعل الشخص حين يخرج – السطو والسرقة وما إلى هذا. وكله تفاخر، معظمه. لا أحد يأخذ الكلام على محمل الجد. لهذا حين سمعت ما سمعت في الأخبار– كدت لا أصدق ما أسمع. مهما يكن من أمر، فقد

وقعت الواقعة. تماماً كما تكلم دك."

هذه رواية فلويد ويلس، رغم أنه حينها لم يشأ أن يرويها. كان خائفاً، فإذا سمع السجينان الآخران بأنه قال شيئاً بهذا الخصوص للسجان، فإن حياته، بحسب تعبيره هو، "ما كانت تعادل ذئباً ميتاً." مر أسبوع. تابع الراديو، وتابع روايات الصحف – وفي إحدى هذه الصحف قرأ أن صحيفة في كانساس، أخبار هوتشينسون، تعرض مكافأة ألف دولار عن أي معلومة تقود للقبض على الشخص أو الأشخاص المذنبين بجريمة عائلة كلاتر، وإدانتهم.

فقرة مهمة؛ إنها تقريباً حرضت ويلس على الكلام. لكنه كان ما يزال شديد الخوف، ولم يكن خوفه فقط من السجينين الآخرين. لقد كان هناك أيضاً احتمال أن تتهمه السلطات بالشراكة في الجريمة. فبعد كل شيء، هو من أرشد دك على باب عائلة كلاتر؛ ويمكن بالتأكيد الادعاء بأنه كان يعرف نوايا دك. كيفما نُظر إلى الأمر، يبقى وضعه مقلقاً، وأعذاره موضع تساؤل. لذلك لم يقل شيئاً، ومرت عشرة أيام. جاء ديسمبر/كانون الأول بعد نوفمبر/تشرين الثاني، وظل المنشغلون في التحقيق في هذه القضية، بحسب التقارير الصحفية التي راحت تتناقص (مذيعو الأخبار توقفوا عن ذكر الموضوع)، حائرين وبلا أدلة كما كانوا صبيحة اكتشاف المأساة.

لكنه هو كان يعرف. حالياً أصبحت حاجته إلى أن يقول ما في قلبه لأحد ما، تعذبه، فأفشى بسره إلى سجين آخر. "صديق خاص. كاثوليكي. متدين بقوة. سألني، "ماذا ستفعل، فلويد؟ قلت إنني لا أعلم بالضبط – وسألته ماذا عليّ أن أفعل؟ فكان بالكامل مع أن أذهب إلى المسؤولين وأخبرهم. قال إنه لا ينبغي أن أعيش مع شيء كهذا في ذهني.

وقال يمكنني أن أفعل ذلك دون أن يعلم أحد في الداخل إنني أنا من أخبر. وقال إنه سوف يتولى تدبير الأمر. وهكذا، في اليوم التالي طلب الحديث مع نائب آمر السجن – قال له إنني أريد أن "يستدعونني." وقال له إذا استدعاني إلى مكتبه بحجة أو أخرى، فربما أخبرته بمن قتل عائلة كلاتر. بكل تأكيد، النائب استدعاني. كنت خائفاً، ولكني تذكرت السيد كلاتر، تذكرت إنه لم يضربني يوماً، وكيف أنه أعطاني في الكريسماس محفظة صغيرة فيها خمسون دولار. تكلمت إلى النائب. ثم أخبرت آمر السجن نفسه. وبينما كنت جالساً هناك، في مكتب الآمر، رفع سماعة الهاتف –"

° °

الشخص الذي اتصل به الآمر هاند هو لوغان سانفورد. أصغى سانفورد، وضع السماعة، وأصدر عدّة أوامر، ثم اتصل بألفن ديوي. ذلك المساء، حين غادر ديوي مكتبه في المحكمة في غاردن سيتي، أخذ معه إلى البيت مغلفًا كبيرًا.

حين وصل ديوي إلى البيت، كانت ماري في المطبخ تعد العشاء. ما أن ظهر في الباب حتى بدأت في سرد الشكايات المنزلية. قط العائلة هاجم كلب الكروكر سبانيل الذي يعيش في الجهة الأخرى من الشارع، ويبدو أن أحد عيني السبانيل متضررة بشدة. وبول، ابنهم ذو التسع سنوات، سقط عن الشجرة، ومن العجائب إنه لا يزال على قيد الحياة. ثم ابنهم ذو الاثنتي عشرة سنة، سميّ ديوي، ذهب إلى باحة البيت كي يحرق بعض النفايات فاشتعلت نار هددت الجيران، وأحدهم، لا تدري اسمه، اتصل فعلاً بقسم الحرائق.

بينما كانت زوجته تسرد هذه الأحداث غير السارة، صب ديوي

فنجاني قهوة. فجأة، توقفت ماري في وسط الجملة وحدقت إليه. كان وجهه متورداً، وأدركت أنه مبتهج. قالت، "ألفن، أوه، حبيبي. هل الأخبار جيدة؟" دون تعليق، أعطاها المغلف. كانت يداها مبللتان؛ نشفتهما، وجلست إلى طاولة المطبخ، رشفت قهوتها، فتحت المغلف، وأخرجت صوراً لشاب أشقر وآخر بشعر وبشرة داكنين – صور خاصة بملفات الشرطة، مع ملفين نصف مشفرين مرافقين للصور. قرأت في ملف الرجل الأشقر:

هيكوك، ريتشارد أوجين (WM) 28 KBI 97093؛ FBI 859273

أ- العنوان: إدجيرتون، كانساس. تاريخ الميلاد 31/6/6. مكان الولادة:K.C. كانساس. الطول: 5-10. الوزن: 175. الشعر: أشقر. لون العينين: أزرق. البنية: بدين. شركة: رودي. الوظيفة: دهان سيارات. الجرم: غش واحتيال وشيكات بدون رصيد. إفراج مشروط: 59/13/8. من قبل: So. K.C.K.

وقرأت في الوصف الثاني:

ب- سميث، بيري ادوارد (WM) 27-59. مكان الولادة: نيفادا. الطول: 5-4. الوزن: 156. الشعر: بني غامق. الجرم: كسر وخلع. الاعتقال (فارغ). من قبل (فارغ). الحكم: Sent KSP 56/13/3 من شركة فيليبس، 5-10 سنوات. الاستلام في 56/14/3. الإفراج المشروط: 59/6/7.

تفحصت ماري الصور الأمامية والجانبية لسميث: وجه متغطرس، قاس، مع ذلك فيه شيء من الرقة؛ الشفتان والأنف

متقنة الصنع، ورأت أن العينان جذابتان إلى حد ما، بتعبيرهما الحالم الحزين – وفيهما، إلى حد ما، وإن بطريقة مصطنعة، حساسية. حساسية، وشيء آخر: "خسة.". رغم أنها ليست بالخسة، و"الإجرام" البغيض، الذي في عيني هيكوك، ريتشارد أوجين. تجمدت ماري أمام عيني هيكوك، تذكرت حادثة من طفولتها – رأت مرة قطة برية عالقة في شرك، ورغم أنها كانت تريد تخليصها من الشرك، إلا أن عينا القطة، وهما تشعّان ألماً وكراهية، نزحت منها كل شفقة وملأتها بالرعب. "من هؤلاء؟" سألت ماري.

أخبرها ديوي قصة ويلس، وقال في النهاية، "رائع. خلال الأسابيع الثلاثة الماضية، كان عملنا يتجه نحو تتبع كل شخص سبق له أن عمل في مزرعة كلاتر. الآن، تغيرت الزاوية، يبدو كأنها ضربة حظ. لكن بعد بضعة ايام سنصل إلى ويلس هذا. وجدت أنه في السجن. عندها سنحصل على الحقيقة. الحقيقة، نعم."

"قد لا تكون هذه هي الحقيقة،" قالت ماري. لقد تتبع ديوي و18 رجلاً من مساعديه، مئات المسارات التي تنتهي إلى لا شيء، وكانت تأمل أن تحذره من خيبة أخرى، لأنها كانت قلقة على صحته. كانت حالته الذهنية سيئة، فقد بات هزيلاً؛ ويدخن ستين سيجارة في اليوم.

"لا. قد لا تكون،" قال ديوي. "ولكن لدي حدس."

تأثرت بنبرة صوته؛ نظرت ثانية إلى الوجوه على طاولة المطبخ. "أفكر به،" قالت وهي تضع أصبعها على الصورة الأمامية للشاب الأشقر. "أفكر بهاتين العينين وهما تتقدمان نحوك." ثم دفعت الصور إلى المغلف. "ليتك لم تُرني."

° °

في وقت متأخر من أمسية ذلك اليوم نفسه، قامت امرأة أخرى، في مطبخ آخر، بوضع جوارب كانت ترتقها، جانباً، ورفعت عن عينيها نظارات بحواف بلاستيكية، نظرتْ إلى الزائر، وقالت، "أرجو أن تجدوه، سيد ناي. من أجله هو. لدينا ولدان، وهو البكر. نحن نحبه. ولكن ... أوه، عرفت. عرفت إنه ما كان ليرحل. أو يهرب. دون كلمة وداع – لأبيه أو لأخيه، ما لم يكن قد وقع في مشكلة مرة ثانية. ماذا يدفعه لفعل ذلك؟ لماذا؟" نظرت عبر الغرفة الصغيرة التي تدفئها مدفأة، إلى شخص هزيل محدودب على كرسي هزاز – والتر هيكوك، زوجها وأبو ريتشارد أوجين. رجل بعينين باهتتين مهزومتين ويدين خشنتين؛ حين تكلم، بدا صوته كأنه قليل الاستعمال.

"كان ابني على ما يرام يا سيد ناي،" قال السيد هيكوك. "رياضي بارز – دائماً في المنتخب الأول للمدرسة. كرة سلة! بيسبول! كرة قدم! كان دك دائماً اللاعب النجم. وكان طالباً ممتازاً أيضاً، علامته (A) في عدة مواد. التاريخ. الرسم الميكانيكي. بعد أن تخرج من الثانوية – يونيو/حزيران 1949 – أراد أن يلتحق بالجامعة. لكي يصبح مهندساً. لكننا لم نستطع ذلك، لأننا بصراحة لم نكن نملك المال. دائماً كنا بلا نقود. مزرعتنا هنا، لا تتجاوز أربعة وأربعين فداناً – نحن بالكاد نؤمن لقمة العيش. أظن أن دك مقت هذا، عدم الالتحاق بالجامعة. أول عمل له كان مع سكك حديد سانتا في، كانساس سيتي. كان يأخذ خمسة وسبعين دولار في الأسبوع. اعتبر أن هذا كان كافياً لأن يتزوج، وهكذا تزوج من كارول. كان عمرها ست عشرة سنة فقط؛ ولم يكن عمره أكثر من تسع عشرة. دائما كنت أعتقد أن لا شيء جيد يمكن أن ينجم عن مثل هذا الزواج. ولم ينجم، بالفعل."

السيدة هيكوك، امرأة سمينة بوجه مدور ناعم لم تعكّره حياةٌ مليئة بالعمل من الفجر حتى المساء، قالت موبخةً: "ثلاثة أطفال رائعون، أحفادنا – هذا ما نجم عنه. كما أن كارول بنت لطيفة ولا تستحق اللوم."

تابع السيد هيكوك، "استأجر مع كارول بيتاً كبيراً، اشتريا سيارة فخمة – وكانا مديونين طوال الوقت. رغم أن دك كان حينها بوظيفة جيدة كسائق سيارة إسعاف. فيما بعد، وظفته شركة ماركل بويك، مشغل ضخم في كانساس سيتي. توظف كميكانيكي ودهان سيارات. لكنه عاش مع كارول حياة أعلى من مستواهما، يشتريان أشياء لا يستطيعان تحمل كلفتها، وبدأ دك بكتابة الشيكات. لا أزال أعتقد أن بداية قيامه بأعمال غير قانونية يتصل بالحادث. ارتجّ رأسه في حادث اصطدام. بعد ذلك، لم يعد هو نفس الصبي. بدأ بالقمار وكتابة الشيكات بدون رصيد. لم يكن يقوم بمثل هذه الأشياء من قبل، على حد علمي. وفي الفترة نفسها ارتبط مع هذه البنت الأخرى. البنت التي طلق كارول من أجلها، وكانت زوجته الثانية."

قالت السيدة هيكوك، "لا يد لدك في ذلك. تذكر إلى أي حد كانت مرغريت إدنا متعلقة به."

"هل لأن امرأة تحبك، عليك أن ترتبط بها؟" قال السيد هيكوك. "المهم سيد ناي، أتوقع أنكم تعرفون بقدر ما نعرف عن الموضوع. لماذا أرسل ابني إلى السجن. وأغلق عليه الباب سبعة عشر شهراً، وكل ما فعله أنه استعار بارودة صيد. من بيت جار لنا هنا. لم يكن يفكر أبداً بسرقتها، لا يهمني ما يقول الناس. وكان في هذا دماره. حين خرج من لانسينغ، وجدته غريباً عني تماماً. لا يمكنك التحدث إليه. كل العالم

كان ضد دك هيكوك – هكذا صار يفكر. حتى زوجته الثانية تركته – تقدمت بطلب طلاق بينما هو في السجن. الشيء نفسه تماماً، في الفترة الأخيرة بدا أنه راح يستقر. يعمل مع بوب ساندز بودي شوب، هناك في أولاث. يعيش معنا في البيت، ينام باكراً، لا ينتهك شروط الإفراج بأي شكل من الأشكال. سأخبرك يا سيد ناي، أنا لن أعيش طويلاً، أنا مريض سرطان، ودك يعرف ذلك – على الأقل يعرف أني مريض – منذ أقل من شهر، تماماً قبل أن يسافر، قال لي، "بابا، كنت لي أباً جيداً للغاية. وأنا لن أفعل بعد الآن شيئاً يضرك." كان يقصد ما يقول، أيضاً. ذلك الولد لديه الكثير من الطيبة في داخله. لو رأيته مرة في ملعب كرة القدم، لو مرة رأيته وهو يلاعب أطفاله، لن تشك في ما أقول. يا الله، أرجو من المولى أن ينير قلبي، لأنني لا أعرف ماذا حدث."

قالت زوجته، "أنا أعرف،" استأنفت رتق الجوارب، وقد غصت بدموعها. "صديقه ذاك. هو وراء ما حدث."

شغل الزائر، وهو وكيل مكتب التحقيقات في كانساس هارولد ناي، نفسه بالكتابة في دفتر ملاحظات – دفتر مملوء سلفاً بنتائج يوم طويل قضاه في تقصي اتهامات فلويد ويلس. حتى الآن، أثبتت الوقائع الأكيدة أن رواية ويليس مقنعة. في 20 نوفمبر ذهب المتهم ريتشارد أوجين هيكوك في جولة تسوق إلى كانساس سيتي حيث كتب شيكات، ما لا يقل عن "سبع قطع من الورق الحار". عرج ناي على كل الضحايا المذكورين في التقرير – بائعي كاميرات وأجهزة راديو وتلفزيونات، صاحب محل مجوهرات، موظف في مخزن ألبسة – وفي كل مرة حين عرضت صور هيكوك وبيري، كان الشاهد يتعرف على الأول باعتباره كاتب الشيكات الوهمية، وعلى الثاني باعتباره شريكه "الصامت". (أحد

البائعين المخدوعين قال، "هو [هيكوك] قام بالعمل. متحدث طليق جداً، ومقنع جداً. الثاني - اعتقدت أنه أجنبي، ربما مكسيكي - لم يفتح فمه ابداً.")

بعد ذلك اتجه ناي بالسيارة إلى قرية في ضاحية أولاث، حيث قابل آخر رب عمل اشتغل لديه هيكوك، وهو مالك بوب ساندز بودي شوب. "نعم، عمل هنا،" قال السيد ساندز. "من أغسطس حتى - المهم، لم أره بعد التاسع عشر من نوفمبر، أو ربما العشرين منه. غادر دون أي إشعار من أي نوع. فقط غادر - لا أدري إلى أين، وأبوه لا يعرف أيضاً. اندهشت؟ نعم اندهشت. كنا على علاقة ودية جداً. دك له طبيعة خاصة إلى حد ما، أنت تعلم. يمكن أن يكون لطيف جداً. من فترة إلى أخرى اعتاد أن يزورنا في البيت. الحقيقة، قبل أسبوع من مغادرته، كان لدينا بعض الأشخاص في البيت، حفلة صغيرة، وجلب دك صديقه ذاك الذي كان ضيفاً عنده، شاب من نيفادا - اسمه بيري سميث. يعزف جيداً على الغيتار. عزف وغنى بعض الأغاني، هو ودك سلوا الجميع برفع الأثقال. بيري سميث، لا يزيد طوله عن خمسة اقدام، لكنه يمكن أن يرفع حصان. كلا، لم يبد عليهما التوتر، ولا على أي منهما. برأيي كانا يستمتعان بوقتهما. التاريخ بالضبط؟ أتذكره بالتأكيد. كان الثالث عشر. يوم الجمعة، الثالث عشر من نوفمبر."

من هناك اتجه ناي بسيارته شمالاً على طول طرق ريفية غير معبدة. حين اقترب من مزرعة هيكوك، توقف عند عدة مساكن مجاورة، ظاهرياً لكي يسأل عن الطريق، وفعلياً للاستعلام عن المتهم. زوجة أحد المزارعين قالت، "دك هيكوك! لا تحدثني عن دك هيكوك! هو الشيطان بذاته! يسرق؟ إنه يسرق الثقالات عن عيني الميت! ولكن

أمه، أونيس، إنها امرأة طيبة. قلب كبير كمخزن الحبوب. أبوه، أيضاً. كلاهما طيبان، صادقان. كان دك سيذهب إلى السجن مرات لا تعد ولا تحصى، لو أراد كل شخص هنا أن يرفع دعوى ضده. ولكنهم لا يفعلون احتراماً لأهله."

كان قد حل المساء حين طرق ناي باب بيت مزرعة والتر هيكوك المؤلف من أربع غرف، والذي بات لونه رمادياً بتأثير الطقس. كما لو أن هذه الزيارة كانت متوقعة. دعاه السيد هيكوك إلى المطبخ، وقدمت له السيدة هيكوك القهوة. ربما لو علما بالمغزى الحقيقي لحضور الزائر، لكان استقباله أقل كرماً وأكثر حذراً. لكنهما لم يعلما، وخلال ساعات جلس الثلاثة يتحادثون، دون أن يُذكر اسم كلاتر البتّه، أو أن تذكر كلمة جريمة. قَبِل الوالدان ما قاله ناي، من أن سبب ملاحقة ابنهم هو مخالفة شروط الإفراج والتزوير المالي.

"جلب دك صديقه [بيري] إلى البيت ذات مساء، وقال لنا إنه صديق تعرف عليه في الباص من لاس فيغاس، وأراد أن يعرف إذا كان يمكنه النوم هنا، أن يبقى هنا لبعض الوقت،" قال السيد هيكوك. "كلا يا سيدي، لن أقبله في البيت. من نظرة واحدة عرفت من هو. من رائحة عطره، وشعره الزيتي. كان واضحاً كالنهار أين تعرّف عليه. بحسب شروط الإفراج عن دك، يمنع عليه الاجتماع بأحد ممن التقاهم هناك [لانسينغ]. حذّرت دك، لكنه لم يصغ إلي. وجد لصديقه غرفة في فندق أولاث، في أولاث، وبعد ذلك ظل دك معه طوال الوقت. مرة ذهبا في رحلة نهاية الأسبوع. سيد ناي، أنا واثق كما تراني أجلس هنا، أن بيري سميث هو من شجع ابني على كتابة تلك الشيكات."

أغلق ناي الدفتر ووضع القلم في جيبه، ووضع يديه أيضاً في

جيبيه لأنهما كانتا ترتجفان من الانفعال.

"الآن، في رحلة نهاية الأسبوع هذه، أين ذهبا؟"

"إلى فورت سكوت،" قال السيد هيكوك، مسمياً البلدة ذات التاريخ العسكري في كانساس. "كما فهمت، بيري له أخت تعيش في فورت سكوت. وكان يفترض أنها تحفظ لبيري بعض النقود. المبلغ الذي ذُكر هو ألف وخمسمئة دولار. هذا هو السبب الرئيسي لمجيئه إلى كانساس، ليأخذ النقود من أخته. وهكذا أخذه دك بالسيارة إلى هناك من أجل ذلك. كانت رحلة ليلية. عاد الى البيت قبل عصر يوم الأحد. في وقت غداء الأحد."

"مفهوم،" قال ناي. رحلة ليلية. هذا يعني أنهما غادرا من هنا يوم السبت. أي يوم السبت في الرابع عشر من نوفمبر؟"

وافق العجوز.

"وعادا الأحد، الخامس عشر من نوفمبر؟"

"الأحد ظهراً."

تأمل ناي في الحسابات المتضمنة، وقد شجعته النتيجة التي توصل إليها: في غضون عشرين أو أربعة وعشرين ساعة، كان يمكن للمتهمين أن يقوما برحلة طولها أكثر من ثماني مئة ميل، وفي سياقها، قتلا أربعة أشخاص.

"الآن، سيد هيكوك،" قال ناي. "حين عاد ابنك يوم الأحد، هل كان وحيداً؟ أم أن بيري سميث كان معه؟"

"كلا، كان وحيداً. قال إنه ترك بيري في فندق أولاث،"

لِناي صوت أنفيّ حاد ومخيف بطبيعته، لكنه الآن يحاول أن يتكلّم بنبرة منخفضة وبأسلوب عفوي سِلمي. "هل تذكر – هل كان في

أسلوبه شيء غير طبيعي لفت نظرك، شيء مختلف؟"

"من؟"

"ابنك."

"متى؟"

"حين عاد من فورت سكوت."

فكّر السيد هيكوك ملياً. ثم قال، "بدا كما هو دائماً. حالما دخل، جلسنا إلى مائدة الغداء. كان جائعاً للغاية. بدأ يملأ صحنه قبل أن أنهي المباركة. أنا علقت على ذلك، قلت، "دك، أنت تغرف إلى صحنك بأسرع ما تستطيع يداك. ألا تريد أن تترك شيئاً للبقية؟ طبعاً هو أكول كبير. المخللات. يمكنه أن يأكل برميلًا من المخللات."

"وماذا فعل بعد الغداء؟"

"نام،" قال السيد هيكوك، وبدا كأنه فوجئ إلى حد ما بجوابه نفسه. "نام بسرعة. يمكنك أن تقول، باعتقادي، أن هذا لم يكن معتاداً منه. تجمعنا لنشاهد مباراة كرة سلة على التلفزيون. أنا ودك وابننا الآخر، ديفد. وسرعان ما سمعنا دك يشخر مثل صوت المنشار، وقلت لأخيه، "والله لم أعتقد أنني سأشهد اليوم الذي يفضّل فيه دك أن ينام على أن يتابع كرة السلة." ولكنه مع ذلك نام. نام طوال المباراة. ولم يستيقظ إلا بعد وقت طويل كي يتناول عشاء بارداً ويعود مباشرة إلى الفراش."

نظمت السيدة هيكوك الخيط مجدداً في الإبرة؛ فيما كان زوجها يهتز على الكرسي الهزاز وفي فمه غليون مطفأ. طافت عينا المحقق المدربتان في الغرفة الصغيرة النظيفة. ثمّة بندقية تقف في إحدى الزوايا مسنودة إلى الحائط؛ لاحظها من قبل. نهض، وسار باتجاهها،

وقال، "هل تصطاد كثيراً، سيد هيكوك؟"

"هذه بندقيته. بندقية دك. يذهب هو وديفد من وقت لآخر. لاصطياد الأرانب غالباً."

كانت بندقية سافاج عيار 12. موديل 300؛ يزيّن قبضتها حفر لمنظر طيور تدْرُج طائرة.

"منذ متى يملك دك هذه البندقية؟"

السؤال أثار السيدة هيكوك. "كلّفت هذه البندقية أكثر من مئة دولار. اشتراها دك بالدّين، والآن لا يقبل المخزن إعادتها، رغم أن عمرها لدينا لا يزيد عن الشهر، ولم يستخدمها سوى مرة واحدة – بداية نوفمبر، حين ذهب مع ديفد إلى غرينل لصيد طيور التدرُج. استخدم اسمينا لكي يشتريها – أبوه سمح له – وها نحن كما ترى، مطلوب منا أن ندفع، وحين تفكر بوالتر وهو مريض، مع كل الأشياء التي نحتاجها، كل ما نعمله بلا ..." حبست أنفاسها كأنها تحاول وقف هجمة فواق. "هل أنت واثق أنك لا تريد فنجاناً آخر من القهوة، سيد ناي؟ ليس في الأمر مشقة."

أسند المحقق البندقية إلى الحائط، تركها، رغم أنه أحس بصوت واثق في داخله يقول إنها البندقية التي قتلت عائلة كلاتر. "لكن الوقت تأخّر، عليّ أن أسوق حتى توبيكا،" قال، نظر ملياً إلى دفتره، "الآن، فقط سأسترجع معكما هذا الشيء لأتأكد من صحته. وصل بيري سميث إلى كانساس يوم الخميس، الثاني عشر من نوفمبر. ابنكم قال إن هذا الشخص جاء ليأخذ مبلغاً من المال من أخته المقيمة في فورت سكوت. يوم السبت ذهب الاثنان بالسيارة إلى فورت سكوت، حيث أمضيا الليل – أفترض أنهما أمضيا الليل في بيت الأخت؟"

قال السيد هيكوك، "لا، لم يتمكنا من العثور عليها. يبدو أنها انتقلت."

ابتسم ناي. "مع ذلك هما أمضيا الليل خارج البيت. وخلال الأسبوع التالي – أي من الخامس عشر حتى الواحد والعشرين من نوفمبر – واظب دك على رؤية صديقه بيري سميث، ولكن، سوى ذلك، أو بقدر عِلمكما، حافظ على روتينه اليومي: يعيش في البيت ويذهب إلى العمل كل يوم. وفي الواحد والعشرين اختفى، واختفى معه كذلك بيري سميث. ومنذ ذلك اليوم لم يتصل بكم؟ لم يكتب لكم؟"

"إنه يخشى أن يتصل بنا،" قالت السيدة هيكوك. "يخجل ويخاف."

"يخجل؟"

"مما فعله. كيف أنه أساء لنا ثانية. ويخاف لأنه يعتقد أننا لن نسامحه، كما كنا نفعل من قبل. لكننا سنسامحه أيضاً. هل لديك أولاد سيد ناي؟"

أشار برأسه أن نعم.

"إذن أنت تعرف شعور الأهل."

"سؤال آخر. هل لديكم أي فكرة، مهما تكن، إلى أين يمكن أن يكون ابنكم قد ذهب؟"

"افتح خارطة،" قال السيد هيكوك. "صع أصبعك على أيّة نقطة – قد يكون ذهب إلى هناك!"

o o

في وقت متأخر من بعد الظهر، كان سائق السيارة متعباً، وهو رجل في منتصف العمر، سنتعارف عليه هنا باسم السيد بيل، ويعمل

موزع بضائع تجارية. كان يتوق للتوقف من أجل استراحة قصيرة. لكنه كان على بعد مئة ميل فقط من مقصده – أوماها، نبراسكا، مقر الشركة الضخمة لتعليب اللحوم التي يعمل لها. في هذه الشركة قاعدة تمنع الموزعين من التوقف لمستوقفي السيارات، لكن السيد بيل كان يعصى هذا الأمر غالباً، ولاسيما حين يكون ضجراً ونعساناً، وهكذا حين رأى الشابين يقفان على جانب الطريق، أوقف سيارته في الحال.

رآهما "شابين مقبولين". الطويل بينهما، من النوع النحيل بشعر أشقر متسخ وقصير، لديه ابتسامة جذابة وأسلوب مهذب، وشريكه، "القزم"، يحمل هرمونيكا في يده اليمنى، وحقيبة قش منتفخة في اليسرى، وبدا "لطيفاً،" خجولاً ولكنه قريب إلى القلب. في كل حال، كان السيد بيل سعيداً بحصوله على رفاق طريق، أحد ما يتكلم معه ويبقيه يقظاً حتى يصل إلى أوماها، غافلاً بالكامل عن نوايا ضيفيه، التي تتضمن خنقه بالحزام وتركه، مسروق السيارة والنقود والحياة، مطموراً في قبر في البرية.

عرف بنفسه وطلب منهما الأسماء. الشاب اللطيف الذي شاركه المقعد الأمامي قال إن اسمه دك. "وهذا اسمه بيري،" قال غامزاً لبيري الذي جلس مباشرة خلف السائق.

"يمكنني أن أوصلكما يا شباب حتى أوماها."

قال دك، "شكراً يا سيد. إن أوماها هي مقصدنا. على أمل أن نرى عملاً ما."

ما نوع العمل الذي يبحثان عنه؟ اعتقد الموزع أنه قد يستطيع المساعدة.

قال دك، "أنا دهان سيارات من الطراز الأول. وميكانيكي أيضاً.

وقد اعتدت أن أكسب الكثير من المال. زميلي وأنا كنا في المكسيك. كانت فكرتنا أن نعيش هناك. ولكن اللعنة، لا يدفعون أجوراً بالمرة. لا شيء يمكن أن يعيش عليه رجل أبيض."

آه، المكسيك. شرح السيد بيل إنه قضى شهر العسل في كيرنافاكا. "وكنا نتمنى دائماً أن نعود إلى هناك. ولكن ليس من السهل التنقل حين يكون لديك خمسة أطفال."

فكر بيري، كما استرجع لاحقاً، خمسة أطفال – أمر فظيع. ثم دار في خلده، وهو يصغي إلى ثرثرة دك المتغطرسة، وكيف بدأ يصف "فتوحاته الغرامية" المكسيكية، كم هو أمر "شاذ" و"أنانية مرَضية". تخيل أنك تحكي لتنال إعجاب رجل سوف تقتله، رجل لن يكون حياً بعد عشر دقائق من الآن – إذا سارت الخطة التي وضعاها على ما يرام. وماذا يمنع من أن تسير على ما يرام؟ الأمور مثالية – تماماً كما كانا يأملان خلال الأيام الثلاثة التي قضياها على الطرقات يستوقفان السيارات من كاليفورنيا إلى نيفادا وعبر نيفادا وويومينغ إلى نبراسكا. حتى الآن، لم يتوفقا بالضحية المناسبة. السيد بيل، هو السائق المفرد الوحيد الذي توقف لهما والذي يبدو أنه ثري. الآخرون كانوا إما سائقي شاحنات أو عساكر – ومرة توقف لهما ملاكمان زنجيان يقودان سيارة كاديلاك أرجوانية. غير أن السيد بيل كان ضحية مثالية. تحسس بيري جيبًا داخليًا في السترة الجلدية التي كان يرتديها. كان الجيب منتفخاً بزجاجة الأسبيرين باير، وبحجر مسنن بحجم القبضة ملفوف بمنديل قطني أصفر. فك حزامه، حزام نافاجو ذو أبازيم فضية مرصعة بخرزات فيروزية؛ خلع الحزام، طواه، وضعه على ركبتيه. وانتظر. شاهد براري نبراسكا تفرّ إلى الخلف، خادع بالهرمونيكا – ركّب نغماً

وعزفه وانتظر من دك أن يعلن إشارة الموافقة: "هي، بيري، أعطني عود ثقاب." حيث من المفترض حينها أن يمسك دك المقود، في حين يستخدم بيري الحجر الملفوف بالمنديل، فيضرب الموزع على رأسه – "فيشقه." فيما بعد، في مكان هادئ على الطريق، يستخدمان الحزام ذا الخرزات السماوية اللون.

في هذه الأثناء، كان دك يتبادل مع الرجل المحكوم عليه بالموت، نكاتاً بذيئة. ضحكهما أغاظ بيري؛ وقد كره بشكل خاص طريقة ضحك السيد بيل، انفجارات – نباح حماسي يبدو شديد الشبه بضحك تيكس جون سميث، والد بيري. تذكُّره لضحك أبيه زاد في توتره؛ بدأ الصداع في رأسه والألم في رجليه. مضغ ثلاث حبات أسبرين وابتلعها دون ماء. يا يسوع! اعتقد أنه سوف يتقيأ أو يفقد الوعي؛ شعر أن هذا سيحدث بالتأكيد إذا أخّر دك "الحفلة" أكثر من ذلك. الضوء يخفت، والطريق مستقيمة، لا بيت ولا كائن بشري على مدى النظر – لا شيء سوى أرض عرّاها الشتاء وباتت داكنة اللون كصفيح حديدي. الآن جاءت اللحظة، الآن. حدّق بدك، كما لو أنه يريد أن ينقل إليه هذه الفكرة. أوحت له بعض العلامات الصغيرة – رفرفة جفن، شارب من قطرات العرق – أن دك قد توصل إلى الفكرة نفسها.

ومع ذلك حين فتح دك فمه بعدها، كان فقط كي يحكي نكتة أخرى. "إليك هذا اللغز. اللغز يقول: ما وجه الشبه بين الذهاب إلى الحمام والذهاب إلى المقبرة؟" ابتسم.

"عجزت؟"

"عجزت."

"كلاهما، عندما يطلبانك لا تستطيع الرفض!"

نبح السيد بيل.

"هيي، بيري، أعطني عود ثقاب."

ولكن تماماً حين رفع بيري يده، والحجر في يده على وشك الهبوط، حدث شيء ما استثنائي – شيء سماه بيري لاحقاً "معجزة لعينة." المعجزة هي ظهور مفاجئ لمستوقف سيارات ثالث، جندي زنجي، وقف له الموزع الرؤوف. "هذه حلوة جداً،" قال بينما كان منقذه يركض باتجاه السيارة. " عندما يطلبانك لا تستطيع الرفض"

o o

16 ديسمبر 1959، لاس فيغاس، نيفادا. بفعل الزمن والطقس اختفى الحرف الأول (R) والأخير (S) وبقيت بالتالي كلمة مشوّومة إلى حد ما: OOM[13]. الكلمة، وهي تظهر باهتة على لافتة شوهتها الشمس، بدت مناسبة للمكان الذي تشير إليه، وهو، كما وصفه هارولد ناي في تقريره الرسمي إلى مكتب تحقيقات كانساس، "غرف للإيجار أو فندق متهالك رثّ، ومن أحطّ الأصناف." ويتابع التقرير: "حتى بضع سنوات خلت (بحسب معلومات من شرطة لاس فيغاس)، كان من أكبر بيوت الدعارة في غرب أمريكا. ثم دُمّر المبنى الرئيسي بسبب حريق، وحُوّل القسم المتبقي إلى بنسيون رخيص." لا يوجد في "الردهة" أي أثاث، سوى نبتة صبار بطول ستة اقدام ومكتب استقبال مؤقت؛ وكان أيضاً خالياً من الناس. صفق المحقق بيديه. جاءه أخيراً صوت نسائي، ولكنه ليس نسائياً كثيراً: "لحظة،" ولكن مرت خمس دقائق قبل أن تظهر امرأة. كانت تلبس ثوباً متسخاً وصندلاً جلدياً ذهبياً بكعب عال.

---

(13) الكلمة (ROOMS) تعني فندق. تصبح بسقوط الحرفين الأول والأخير OOM وتعني بلا نقود أو بلا ذاكرة، وهي لذلك كلمة مشؤومة. م.

بكَرات اللف تثبت شعرها المصفر القليل الكثافة. كان وجهها العريض البارز العضلات محمراً مبوْدراً. جاءت تحمل في يدها علبة بيرة ميلر هاي لايف؛ وتفوح منها رائحة البيرة والتبغ وطلاء أظافر حديث. كانت في الرابعة والسبعين من العمر، ولكنها بدت برأي ناي "أصغر – ربما بعشر دقائق." حدقت به، بدلته البنية المزخرفة، قبعته البنية ذات الحافة المقلوبة. وحين أظهر لها بطاقته، ظهر سرورها؛ تباعدت شفتاها، حتى لمح ناي صفين من الأسنان المستعارة. "أو-أووه. هذا ما خمنته،" قالت. "أوكي، كلنا آذان صاغية."

أعطاها صورة ريتشارد هيكوك. "تعرفينه؟"

أصدرت صوت نفي.

"وهذا؟"

قالت، "أو-أووه. سكن هنا مرتين. لكنه الآن ليس هنا. حاسب وسلم الغرفة منذ شهر. هل تريد أن ترى السجل؟"

انحنى ناي على المكتب وراقب الأظافر الطويلة المطلية للسيدة وهي تبحث في ورقة تحمل تدوينات لأسماء بقلم الرصاص. كانت لاس فيغاس أول مكان من بين ثلاثة أمكنة رغب مسؤولو ناي منه أن يزورها. واختيرت كلها لأنها ذات صلة بتاريخ بيري سميث. المكانان الآخران هما، رينو، المكان الذي يعتقد أن والده يعيش فيه، وسان فرانسيسكو، حيث منزل أخته التي سنتعارف عليها هنا باسم السيدة فريدريك جونسون. ورغم أن ناي خطط لمقابلة كل هؤلاء الأقارب، وأي شخص آخر يمكن أن يكون لديه معرفة بمكان تواجد المشبوه، إلا أن هدفه الرئيسي كان الحصول على مساعدة الوكالات القانونية المحلية. لدى وصوله إلى لاس فيغاس، مثلاً، ناقش قضية كلاتر مع الملازم ب.ج. هاندلون،

رئيس شعبة التحقيق في قسم شرطة لاس فيغاس. وقد كتب الملازم حينها مذكرة تطلب من كل عناصر الشرطة اليقظة بشأن هيكوك وسميث: "مطلوبان لكانساس بسبب انتهاك شروط الإفراج، ويقال إنهما يستخدمان سيارة شيفرولية 1949 تحمل رخصة كانساس JO-58269. وقد يكونان مسلحين وينبغي اعتبارهما خطيرين." كما عيّن هاندلون محققاً لمساعدة ناي "لمراقبة المسترهنين"؛ وكما قال، هناك "دائماً مجموعة منهم في أيّة مدينة قمار." دقّق، ناي ومحقق لاس فيغاس معاً، في كل بطاقة رهن صادرة خلال الشهر الماضي. وكان يأمل ناي، بشكل خاص، في العثور على راديو زينيت محمول يُعتقد أنه سرق من بيت كلاتر ليلة الجريمة، ولكنه لم يوفق في هذا. أحد المسترهنين تذكر سميث مع ذلك، ("كان دائم المجيء إلى هنا خلال عشر سنوات")، وتمكن من إخراج بطاقة رهن لسجادة من جلد الدب رُهنت خلال الأسبوع الأوّل من نوفمبر. ومن هذه البطاقة حصل ناي على عنوان البنسيون.

"دخل في الثلاثين من أوكتوبر،" قالت مديرة البنسيون. "خرج في الحادي عشر من نوفمبر." لمح ناي توقيع سميث. أدهشته الزخرفة التي فيه، الالتواءات والالتفافات المتكلفة، ويبدو أن السيدة خمنت ذلك، لأنها قالت، "أو-أووه. وليتك تسمعه حين يتكلم. كلمات كبيرة وطويلة تأتيك بهذا النمط من الصوت الهامس الألثغ. له شخصية. ماذا لديكم ضده؟ ضد غلام صغير لطيف كهذا؟"

"انتهاك شروط الإفراج."

"أو-أووه. جئت كل هذه الطريق من كانساس من أجل قضية خرق شروط إفراج. حسناً، أنا مجرد شقراء مشوشة الذهن. أنا

أصدقك. ولكن لن أخبر هذه القصة لأيّ من السمراوات." رفعت علبة البيرة، أفرغتها في جوفها، ثم راحت تدحرج العلبة بين يديها المنمشتين المعرّقتين، وهي تفكر. "مهما يكن الأمر، فلن يكون أمرًا كبيرًا كبير. لا يمكن أن يكون. لم أرَ الرّجل قط، إذن لا يمكنني أن أخمن مقاس حذائه! أما هذا، فهو مجرد غلام. غلام صغير حاول أن يتحدث معي بلطف لكي أعفيه من دفع أجر الأسبوع الأخير الذي قضاه هنا." ضحكت بينها وبين نفسها، ربما من سخافة مثل هذا الطموح.

سأل المحقق كم كانت تكلفة غرفة سميث.

"سعر نظامي. تسعة دولارات في الأسبوع. إضافة إلى خمسين سنتًا إيداع المفتاح. الدفع كاش تحديداً ومسبقاً."

"حينما كان هنا، ماذا كان يفعل؟ هل كان لديه أصدقاء؟" سأل ناي.

"هل تظن أنني أراقب أيّ حشرة تدخل إلى هنا؟" ردّت بقوة. "مشردون. أوباش. لا يعنيني. عندي بنت متزوجة من شخص كبير– كبير." ثم قالت، "كلا لم يكن لديه أصدقاء. على الأقل، لم أره يمشي مع أي شخص بالتحديد. هذه الفترة الأخيرة له هنا، قضى كل الأيام تقريباً وهو يصلح سيارته. كان يركنها في المقدمة هناك. سيارة فورد قديمة. يبدو أنها مصنوعة قبل أن يولد. انشغل في دهانها. دهن سطحها بالأسود والباقي بالفضي. ثم كتب على الزجاج الأمامي "للبيع". مرة سمعت أن أبلهًا توقف ودفع له أربعين دولارًا – هذا يعني أن أربعين دولارًا [هو ثمن] أعلى مما تستحق. لكنه قال إنه لا يقبل أقل من تسعين دولارًا. وقال إنه يحتاج النقود من أجل تذكرة باص. وقبل أن يغادر سمعت أن رجلاً ملوناً اشتراها."

"قال إنه يحتاج النقود من أجل تذكرة باص. ولكن ألا تعلمين إلى أين كان يود السفر؟"

زمّت شفتيها، علقت سيجارة بينهما، ولكنها ثبتت عينيها على ناي. "اللعب النظيف. هل من نقود بالمقابل؟ مكافأة؟" انتظرت جواباً؛ وحين لم يصلها الجواب، بدا أنها حسبت الاحتمالات وقررت لصالح المتابعة. "لأنني أشعر أنه أينما ذهب فإنه لم ينو البقاء لفترة طويلة. وإنه ينوي العودة إلى هنا. أنا أتوقعه أن يعود في أي يوم." أشارت برأسها إلى داخل المبنى. "تعال، سأريك لماذا."

سلالم، صالات رماديّة. شم ناي الروائح وراح يفصل الواحدة عن الأخرى: مرحاض، سائل مطهر، كحول، سجائر مطفيّة. خلف أحد الأبواب، نزيلة مخمورة تصرخ وتغني تحت سيطرة قوية من جنون أو حزن. "اختصر أيها الهولندي! أطفئها أو اخرج!" كانت تصرخ المرأة. "هنا،" قالت مديرة الفندق لناي، وأدخلته إلى مخزن معتم. أشعلت الضوء. "هناك. ذاك الصندوق. طلب مني أن أحفظه حتى يعود."

صندوق كرتوني، مفتوح من قبل ولكنه مربوط بحبل. مكتوب على سطحه بقلم الرصاص، إعلان، تحذير، إلى حد ما بطريقة اللعنة المصرية: "إحذر! ملكية خاصة ببيري ي. سميث! احذر!" فك ناي الحبل؛ لم يكن سعيداً بمرأى العقدة، فهي لم تكن نفس نوع العقدة التي استخدمها القتلة حين ربطوا أفراد عائلة كلاتر. باعد ألسنة الكرتون. خرج صرصور مسرعاً، داسته مديرة الفندق وسحقته تحت كعب صندلها الجلدي الذهبي اللون. وبينما هو يخرج بعناية ويفحص ببطء مقتنيات سميث، صاحت المديرة "هي! الخسيس. إنها منشفتي." إضافة إلى المنشفة، سجل ناي الدقيق في دفتره:

"وسادة قذرة، تذكار من هونولولو؛ بطانية طفل زهرية؛ سروال خاكي؛ مقلاة المنيوم مع ملعقة تحريك." بقايا أخرى تضم سجل قصاصات سميك فيه صور مقصوصة من مجلات التربية البدنية (أوراق رطبة تحمل دراسات عن رفع الأثقال ورافعي الأثقال)، وفي داخل صندوق أحذية، يوجد مجموعة أدوية: مضامض وبودرات لمعالجة التهاب اللثة المتقرح، وأيضاً كميات محيرة من الأسبرين - على الأقل عشر علب بعضها فارغة.

"زبالة،" قالت مديرة الفندق. "لا شيء سوى النفايات."

حقاً، كانت أشياء بلا قيمة، حتى بالنسبة لمحقق متعطش للأدلة. مع ذلك كان ناي سعيداً برؤيتها؛ كل مادة منها - مهدئات تقرح اللثة، وسادة هونولولو المتسخة - أعطته انطباعاً أوضح عن المالك وحياته الحقيرة المنعزلة.

اليوم التالي في رينو، كتب ناي، وهو يعد ملاحظاته الرسمية: "في التاسعة صباحاً، اتصل كاتب التقرير بالسيد بيل دريسكول، المحقق الجنائي الرئيسي، مكتب العمدة، مقاطعة واشو، رينو، نيفادا. وبعد اطلاعه على ظروف القضية، زُوِّد السيد ديسكرول بصور، وبصمات، ومذكرات توقيف بحق هيكوك وسميث. فرضت الرقابة على الشخصين وعلى السيارة أيضاً. في العاشرة والنصف صباحاً، اتصل كاتب التقرير بالرقيب إيب فيروا، شعبة التحقيقات، قسم الشرطة، رينو، نيفادا. دقق الرقيب فيروا وكاتب التقرير في ملفات الشرطة. لا يوجد أي من الاسمين في السجل الجنائي. ولم ينجح التدقيق في ملفات بطاقات الرهن في العثور على الراديو المفقود. وضعت رقابة مستمرة على هذه الملفات تحسباً لرهن الراديو في رينو. أخذ المحقق الذي تولى

تفاصيل الرهنيات، صوراً لسميث ودك، لكل مكاتب الرهن في البلدة وقام ببحث شخصي عن الراديو في كل مكتب. تعرفت مكاتب الرهن على سميث باعتباره مألوفاً لديهم، ولكن لم يتمكنوا من تقديم أي معلومات إضافية."

هذا في الصباح. بعد الظهر انطلق ناي في البحث عن تيكس جون سميث. ولكن في توقفه الأول في مكتب البريد، أخبره موظف من نافذة التسليم العام إنه يجب البحث أبعد – ليس في نيفادا – لأن "الشخص" غادر في أغسطس الماضي ويعيش الآن في جوار سيركل سيتي، ألاسكا. هذا هو، على أي حال، المكان الذي يحوّل إليه البريد.

"يا إلهي! الآن، إنه طلب صعب،" قال الموظف حين طلب منه ناي أن يصف سميث الكبير. "هذا الرجل يشبه شخصيات الكتب. يسمي نفسه الذئب المنعزل. والكثير من البريد الذي يصله يحمل هذا الاسم – الذئب المنعزل. لا يتلقى الكثير من الرسائل، لا، فقط رزم من الكتالوغات ومنشورات الدعاية. يدهشك عدد الناس الذين يطلبون هذه الأشياء – فقط لكي يأتيهم بريد، لا بد أن هذا هو السبب. كم عمره؟ أعتقد أنه في الستين. يلبس لباس ويسترن – بوط كاوبوي وقبعة تن-غالون كبيرة. أخبرني أنه اعتاد أن يشارك في ألعاب الروديو. قلما تحدثت معه. كان يأتي هنا كل يوم تقريباً في السنوات القليلة الماضية. ومن فترة إلى أخرى يختفي شهراً أو حوالي ذلك – ويقول دائماً إنه كان ينقب عن معادن. في يوم من أغسطس الماضي، جاء شاب إلى هنا وقال إنه يبحث عن أبيه، تيس جون سميث، وسأل إن كنت أعلم أين يمكن العثور عليه. لم يكن الشاب كثير الشبه بأبيه؛ الذئب ذو شفتين رقيقتين جداً وإيرلندي الشكل، أما ابنه فيبدو هندياً خالصاً

تقريباً – شعر أسود مثل دهان الأحذية، وعينان من نفس اللون. ولكن في الصباح التالي جاء الذئب وأكد ذلك؛ أخبرني أن ابنه أنهى للتو خدمته العسكرية وأنهما ذاهبان إلى ألاسكا. هو عامل قديم في ألاسكا. أعتقد كان لديه ذات مرة فندق هناك، أو ما يشبه نزلاً للصيادين. قال إنه يتوقع أن يمكث هناك حوالي سنتين. كلا، لم أره بعد ذلك، لا هو ولا ابنه."

ο ο

كانت عائلة جونسون من الوافدين الجدد في مجتمعهم في سان فرانسيسكو – مشروع عقاري للطبقة المتوسطة، متوسطي الدخل، عالياً على التلال شمال المدينة. في عصر الثامن عشر من ديسمبر 1959، كانت السيدة جونسون الشابة تنتظر ضيوفاً؛ سيزورها ثلاث نساء من الجوار لشرب القهوة وتناول الكعك وربما للعب الورق. كانت المضيفة متوترة، لأنها المرة الأولى التي تستقبل فيها ضيوفاً في بيتها الجديد. الآن، وبينما هي تنتظر أن يرن جرس الباب، كانت تقوم بجولة أخيرة، تزيل قطعة وبر هنا أو تغير شيئاً من وضعية نبتة بوينسيتياس الكريسماس. كان البيت، مثل غيره من البيوت على الشارع المنحدر على سفح التلال، من النمط الزراعي التقليدي الذي تراه في الضواحي، بيت لطيف ومألوف. السيدة جونسون معجبة به، تحب فيه التلبيسة المصنوعة من خشب أحمر، والسجاد الممتد من الحائط إلى الحائط، والنوافذ الواسعة في واجهة وخلفية البيت التي تعطي مجالاً كبيراً للرؤية، المنظر الذي تطل عليه النوافذ الخلفية – تلال وواد ثم سماء ومحيط. تشعر بالفخر من الحديقة الخلفية الصغيرة؛ وكان زوجها – مندوب مبيعات تأمين كمهنة، ونجار كهواية – قد بنى حول البيت

سوراً خشبياً، وداخل البيت بيتاً لكلب العائلة، ومراجيح وصندوق رمل للأطفال. حالياً، كان الأربعة – كلب وصبيان صغيران وبنت – يلعبون هناك تحت سماء لطيفة؛ وكانت تأمل الأم أن يبقوا سعداء في الحديقة حتى يذهب الضيوف. حين رن الجرس واتجهت السيدة جونسون إلى الباب، كانت ترتدي ما تعتبره الثوب الأليق، نسيج أصفر يحتضن جسمها ويزيد من تألق لونها الشيروكي الشاحب كلون الشاي، ومن سواد شعرها المقصوص قصة قصيرة. فتحت الباب، مستعدة لاستقبال الجارات الثلاث؛ ولكنها اكتشفت بدلاً منهن رجلين غريبين بقبعات مائلة وحقائب صغيرة مفتوحة عليها شارة مميزة. "السيدة جونسون؟" سأل أحدهما. "اسمي ناي. معي المفتش غوثري. نحن من شرطة سان فرانسيسكو، واستلمنا للتو استفساراً من كانساس يتعلق بأخيك، بيري إدوارد سميث. يبدو أنه لا يتواصل مع ضابط الإفراج المشروط الخاص به، ونتساءل إن كان يمكنك أن تساعدي في معرفة مكان تواجده الحالي."

لم تكن السيدة جونسون قلقة – ولا مدهوشة بالتأكيد – من معرفة أن الشرطة مهتمة ثانية بنشاطات أخيها. ما أقلقها هو توقع أن يصل الضيوف ويرونها في موقع استجواب من قبل محققين. قالت، "لا. لا شيء. لم أر بيري منذ أربع سنوات."

"هذه قضية خطيرة، سيدة جونسون،" قال ناي. "ليتنا نتكلم بشأنها."

بعد أن استسلمت، ودعتهما إلى الداخل وقدمت لهما القهوة (وقَبِلاها)، قالت السيدة جونسون، "لم أر بيري منذ أربع سنوات. ولم أتواصل معه منذ الإفراج المشروط. حين خرج من السجن، الصيف

الماضي، زار أبي في رينو. وأخبرني أبي، في رسالة، إنه سوف يعود إلى ألاسكا وسيأخذ بيري معه. ثم كتب لي ثانية، أظن في سبتمبر، وكان شديد الغضب. تشاجر مع بيري وانفصلا قبل أن يبلغا الحدود. عاد بيري؛ ومضى أبي إلى ألاسكا وحيداً."

"ولم يكتب لك بعد ذلك؟"

"لا."

"إذن من الممكن أن يكون أخوك قد تبعه لاحقاً. في غضون الشهر الماضي."

"لا أعلم. لا يهمني."

"على خلاف معه؟"

"مع بيري؟ نعم. أنا أخاف منه."

"ولكن حين كان في لانسينغ كنت تراسلينه دائماً. أو هكذا أخبرتنا السلطات في كانساس،" قال ناي. كان الرجل الثاني، المفتش غوثري، يبدو راضياً في بقائه على الهامش.

"أردت أن أساعده. كنت آمل أنّه يمكن أن يغير بعض أفكاره. الآن تحسنت معرفتي به. حقوق الناس لا تعني شيئاً لبيري. ليس لديه أي احترام لأحد."

"وبشأن الأصدقاء. هل تعلمين أي شيء، مع من يمكن أن يكون؟"

"جو جيمس،" قالت، وشرحت أن جيمس كان شاباً هندياً يعمل في قطع الخشب وصيد السمك ويعيش في الغابة قرب بيلينغهام، واشنطن. كلا، هي لا تعرفه شخصياً، ولكنها تعرف أنه وعائلته كانوا كرماء وكانوا لطفاء مع بيري في الماضي. لم تقابل في حياتها سوى صديق

وحيد لبيري، هو سيدة شابة وقفت في باب عائلة جونسون في يونيو 1955، تحمل رسالة من بيري يقول فيها إنها زوجته. "قال إنه في مأزق، وطلب أن نعتني بزوجته إلى أن يرسل في طلبها. كان يبدو أن البنت في العشرين من عمرها؛ وتبين أنها في الرابعة عشرة. وبالطبع لم تكن زوجة أحد. لكن في ذلك الوقت صدّقت، وشعرت بالحزن لأجلها، وطلبت منها البقاء معنا. بقيت معنا، ولكن ليس لفترة طويلة. أقل من أسبوع. وحين غادرت، أخذت حقائبنا وكل شيء استطاعت حمله – معظم ملابسي وملابس زوجي، الفضة، وحتى ساعة المطبخ."

"حين حدث هذا، أين كنتم تسكنون؟"

"دنفر."

"هل سبق لكم أن عشتم في فورت سكوت، كانساس؟"

"على الإطلاق. لم أذهب يوماً إلى كانساس."

"هل لديك أخت تسكن في فورت سكوت؟"

"أختي متوفاة. أختي الوحيدة."

ابتسم ناي، وقال، "تفهمين سيدة جونسون، نحن نتصرف على افتراض أن أخاك سيتواصل معك. يكتب لك أو يتصل بك أو يزورك."

"أرجو أن لا يفعل. الحقيقة إنه لا يعلم أننا انتقلنا. يعتقد أننا لا زلنا في دنفر. أرجوكم، إذا عثرتم عليه، لا تعطوه عنواني، أنا أخاف."

"هل تقولين ذلك لأنك تعتقدين إنه يمكن أن يؤذيك؟ أن يؤذيك جسدياً؟"

فكرت قليلاً، ولم تتوصل إلى قرار، فقالت إنها لا تعلم. "لكني أخاف منه. كنت دائماً أخاف منه. يمكن أن يبدو ودوداً ومحباً ولطيفاً. يبكي بسهولة. أحياناً يبكي حين يسمع الموسيقى، وحين كان

صغيراً، كان يبكي لأنه كان يرى غروب الشمس جميلاً. أو القمر. أوه، يمكن أن يخدعك. يمكن أن يجعلك تشعر بالأسى من أجله –"

رن جرس الباب. فهم ناي من تردد السيدة جونسون في فتح الباب أنها محرجة (وقد كتب لاحقاً عنها، "طوال المقابلة بقيت رابطة الجأش ولطيفة. إنها ذات شخصية استثنائية")، فأمسك قبعته. "نأسف لإزعاجك سيدة جونسون. ولكن إذا سمعت شيئاً عن بيري، نأمل أن تتكرمي بالاتصال بنا. اطلبي المفتش غوثري."

بعد مغادرة المحققين، تداعت رباطة الجأش التي انطبعت في ذهن ناي؛ أوشك أن يسيطر عليها يأس مألوف لها. قاومته، أخّرت مفعوله الكامل حتى انتهت الحفلة وذهب الضيوف، حتى أطعمت الأولاد وحممتهم وسمعت صلواتهم. بعد ذلك، غمرها المزاج اليائس، مثل ضباب المحيط المسائي الذي يسربل الآن مصابيح الشارع. قالت إنها تخاف من بيري، وهذا صحيح، ولكن هل كانت تخاف من بيري فقط، أم أنها ليست سوى جزء من سياق – المصائر المرعبة التي يبدو أنها مرسومة للأولاد الأربعة لفلورانس بوكسكين وتيكس جون سميث؟ الولد البكر، الأخ الذي كانت تحبه، قتل نفسه بالرصاص؛ فيرن سقطت أو قفزت من النافذة؛ وبيري سار في طريق العنف، مجرم. وهكذا، فإنها، بمعنى ما، هي الناجية الوحيدة؛ والشيء الذي كان يعذبها هو اعتقادها أنها يوماً ما، هي أيضاً، سوف تلحق بهم: تجنّ، أو يصيبها مرض عضال، أو تخسر في حريق كل ما لديها – البيت والزوج والأولاد.

كان زوجها بعيداً في رحلة عمل، وحين تكون وحيدة، لا تفكر أبداً بتناول الخمر. لكنها اليوم اختارت نوعاً قوياً، وجلست على أريكة غرفة المعيشة وعلى ركبتيها ألبوم صور.

كانت صورة أبيها تحتل الصفحة الأولى – بورتريه استدوديو مأخوذة في 1922، سنة زواجه من الشابة الهندية فارسة الروديو الآنسة فلورنس بوكسكين. إنها الصورة التي تذهل السيدة جونسون دائماً. بسببها استطاعت أن تفهم لماذا تزوجت أمها من أبيها رغم التنافر الكبير بينهما. الشاب الذي في الصورة كان ينضح جاذبية ورجولة. كل شيء كان يفيض جاذبية – الميلة المغرورة للرأس بشعره الزنجبيلي اللون، الغمزة الخفيفة في عينه اليسرى (كما لو أنه يسدد على هدف)، وشاح رعاة البقر الصغير المعقود حول عنقه. في المجمل، موقف السيدة جونسون من أبيها كان متناقضاً، ولكنها كانت دائماً تحترم أحد ميزاته – شجاعته. تعرف جيداً كم كان يبدو غريب الأطوار للآخرين، ولها أيضاً. مع ذلك، كان "رجلاً حقيقياً". كان يُجيد القيام ببعض الأشياء بسهولة. كان يمكن أن يجعل الشجرة تسقط تماماً حيث يريد. كان يمكنه أن يسلخ دباً، أو أن يصلح ساعة يد، أو أن يبني بيتاً، أو يخبز كعكاً، أو يرفو جورباً، أو أن يصيد سمكة سلمون مرقطة بدبوس محني وقطعة خيط. ذات مرة عاش، وحيداً، كامل الشتاء في القفر الألاسكي.

وحيداً: بحسب رأي السيدة جونسون، هكذا ينبغي أن يعيش هذا الصنف من الرجال. الزوجات والأولاد والحياة الجبانة ليست لهم.

قلّبت بعض صفحات صور الطفولة – صور في ولايات يوتا ونيفادا وإيداهو وأوريغون. انتهت مهنة الروديو لـ"تيكس وفلو"، والعائلة تعيش الآن في شاحنة، تطوف في البلاد بحثاً عن عمل، وهو أمر كان يصعب العثور عليه في 1933. "عائلة تيكس جون سميث تقطف التوت في أوريغون، 1933"، تعليق تحت صورة لأربع أولاد

حفاة يلبسون أفرولات وعلى وجوههم تعابير غريبة يوحدها التعب. التوت والخبز القديم المغمس بالحليب الحلو المكثف كان كل ما لديهم للأكل. تذكرت باربارا جونسون أن العائلة عاشت لأيام ذات مرة على الموز المتعفن، وأن بيري بالنتيجة أصيب بالمغص؛ وبقي يصرخ طوال الليل، فيما راحت بوبو، كما كانوا يسمون باربارا، تبكي خوفاً عليه من الموت.

بوبو تزيد بيري ثلاث سنوات، وكانت تحبه بعمق؛ كان لعبتها الوحيدة، دمية تغسلها وتمشطها وتقبلها وأحياناً تصفعها على مؤخرتها. هنا صورة لهما معاً يستحمان عاريين في جدول في كولورادو، ماؤه كالماس، الأخ، كيوبيد بيشرة سوداء من الشمس وبطن بارز، يتمسك بيد أخته ويضحك بقوة، كما لو أن الجدول الجاري يحوي أصابع دغدغة شبحيّة. وفي صورة أخرى (السيدة جونسون غير متأكدة، ولكنها تعتقد أن الصورة أخذت ربما في مزرعة نائية في نيفادا حيث كانت العائلة تقيم عندما أدّت المعركة الأخيرة بين الوالدين، صراع رهيب استخدمت فيه سياط الخيل والماء الحارق ومصابيح الكيروسين كأسلحة، إلى نهاية الزواج)، كانت هي وبيري على ظهر مهر، رأساهما معاً، وخدودهما متلاصقة؛ وخلفهما تحترق جبال جافة.

فيما بعد، حين ذهب الأولاد للعيش مع أمهم في سان فرانسيسكو، بدأ حب بوبو لأخيها الصغير يخفت حتى تلاشى نهائياً. لم يعد طفلها، بل شيء وحشي، لص، سارق. أول اعتقال له كان في 27 أوكتوبر 1936 – عيد ميلاده العاشر. في النهاية، وبعد احتجازه عدة مرات في المؤسسات ومراكز توقيف الأطفال، عاد إلى حضانة أبيه، ومرت سنوات عديدة قبل أن تراه بوبو ثانية، سوى في الصور التي كان

يرسلها أحياناً تيكس جون إلى أولاده الآخرين – صور ملصوقه وتحت كل منها شرح بحبر أبيض، وهي جزء من محتويات الألبوم. كان هناك "بيري وأبي وكلب الهاسكي،" "بيري وأبي يبحثان عن الذهب،" "بيري يصيد الدببة في ألاسكا." في هذه الصورة الأخيرة، كان صبياً في الخامسة عشرة يلبس الفرو ويقف على حذاء تزلج وسط أشجار يثقلها الثلج، وفي كتفه بندقية؛ وجهه مرهق وعيناه حزينتان ومتعبتان جداً. لدى رؤيتها هذه الصورة، تذكرت السيدة جونسون "مشهداً" لبيري حين زارها مرة في دنفر. الواقع كانت تلك آخر مرة تراه فيها – ربيع 1955. كانوا يناقشون طفولته مع تيكس جون، وفجأة دفعها بيري، الذي كان قد شرب كثيراً، إلى الحائط وثبتها على الحائط بيديه. "لقد كنت عبده،" قال بيري. "هذا كل ما في الأمر. كنت شخصاً يمكنه أن يحرث عليه دون أن يدفع له سنتاً واحداً. لا، بوبو، أنا أتكلم. اخرسي، أو أرميك في النهر. كما فعلت مرة عندما كنت أسير على جسر في اليابان، كان رجل يقف هناك، لم يسبق لي أن رأيته، رفعته ببساطة ورميته في النهر.

"رجاء، بوبو، رجاء اسمعي. هل تظنين أني معجب بنفسي؟ أوه، يا للرجل الذي يمكنني أن أصيره! لكن ذلك الوغد لم يعطني فرصة. لم يسمح لي الذهاب إلى المدرسة. أوكي، أوكي. كنت ولداً سيئاً. لكن جاء الوقت الذي توسلت إليه كي يرسلني إلى المدرسة. صدف أن لدي ذهن لامع. إذا كنت لا تعلمين. ذهن لامع مع موهبة أيضاً. ولكن بدون تعليم، لأنه لم يردني أن أتعلم شيئاً، سوى كيف أحمل وأنقل من أجله. مغفل. جاهل. هكذا كان يريدني أن أكون. وهكذا لا يمكنني أن أنجو منه. ولكن أنت، بوبو. أنت ذهبت إلى المدرسة. أنت وجيمي وفيرن. كل لعين منكم تعلم. كلكم سواي. وأنا أكرهكم، كلكم – أبي وكل فرد منكم."

كما لو أن حياة أخيه وأختيه كانت سريراً من الورود! ربما هي كذلك، إذا كان ذلك يعني تنظيف قيء الأم المخمورة، إذا كان ذلك يعني أن لا يكون لديك ملابس جميلة أو طعاماً كافياً. مع ذلك، صحيح أن الثلاثة أتمّوا الدراسة الثانوية. في الواقع، جيمي كان الأول في صفه – وهذا شرف حازه بالكامل بقوة إرادته. وهذا ما جعل انتحاره مشؤوماً إلى هذا الحد. شخصية قوية، وشجاعة عالية، ونشاط – لكن يبدو أن لا شيء من هذه المواصفات كان من ضمن العوامل المقررة في مصير أولاد تيكس جون. تقاسموا قدراً غاشماً كل الفضائل كانت عاجزة أمامه. لا يعني هذا أن بيري كان فاضلاً، أو فيرن. حين كانت فيرن في الرابعة عشرة، غيرت اسمها، وحاولت بقية حياتها إثبات أهلية الاسم الجديد: جوي (فرح). كانت فتاة مريحة، "حبيبة الجميع" – ليس تماماً الجميع، ذلك أنها كانت منحازة إلى الرجال، رغم أنها لم تكن محظوظة كثيراً معهم. بطريقة ما، خذلها الرجال الذين أحبتهم. ماتت أمها في غيبوبة كحولية، فأصبحت الابنة تخشى الكحول – ومع ذلك كانت تشرب. قبل أن تبلغ العشرين، كانت فيرن-جوي تفتتح يومها بزجاجة بيرة. ثم، في إحدى ليالي الصيف، سقطت من نافذة غرفة في فندق. سقطت على سطح مدخل مسرح وارتدت عنه، وتدحرجت تحت دواليب سيارة أجرة. فوق، في الغرفة الشاغرة، وجدت الشرطة حذاءها، ومحفظةً خاليةً من النقود، وزجاجة ويسكي فارغة.

يمكن للمرء أن يفهم فيرن ويغفر لها، غير أن جيمي كان أمراً آخر. كانت السيدة جونسون تحدق في صورة له يلبس فيها لباس البحارة، خلال الحرب التي خدم فيها مع البحرية. بحّار شاب شاحب نحيل، بوجه طولاني فيه قداسة حزينة قليلاً، يقف وذراعه حول خصر فتاة

كان قد تزوجها، وبرأي السيدة جونسون، ما كان ينبغي له ذلك، لأنهما لا يشتركان في شيء – جيمي الجاد وهذه المراهقة المرافقة لأسطول سان دييغو والتي تعكس خرزاتها الزجاجية شمسًا تلاشت منذ فترة طويلة. ومع ذلك، أحبها جيمي فوق حدود الحب العادي؛ تولّه بها – ولَهٌ مرضي إلى حد ما. أما بالنسبة للبنت، لا بد أنها أحبته، أحبته بالكامل، وإلا لما فعلت ما فعلت. ليت جيمي آمن بذلك! ليته كان قادراً على الإيمان بذلك. لكن الغيرة أسرته. كان يشعر بالذل حين يفكر بالرجال الذين ناموا معها قبل أن يتزوجها؛ أكثر من ذلك، كان على قناعة أنها لا تزال فاسقة – وأنها، في كل مرة يذهب فيها إلى البحر، أو حتى يتركها وحيدة ليوم، تخونه مع عديد من العشاق، الذين كان لا يكف عن مطالبتها بالاعتراف بوجودهم. ثم صوبت بندقية إلى نقطة بين عينيها وضغطت الزناد بإصبع قدمها. وحين عثر عليها جيمي، لم يطلب الشرطة. حملها، ووضعها على السرير واستلقى بجوارها. وفي وقت ما من فجر اليوم التالي، أعاد تعبئة البندقية بالرصاص وقتل نفسه.

مقابل صورة جيمي مع زوجته، كانت صورة بيري بالبدلة العسكرية. كانت الصورة مقصوصة من جريدة مصحوبة بفقرة تقول: "هيئة أركان الجيش الأميركي، ألاسكا، الجندي بيري ي. سميث، 23، محارب قديم في الحرب الكورية يعود إلى منطقة أنشوراج، ألاسكا، يحييه الكابتن ماسون، ضابط المعلومات العامة، لدى وصوله إلى القاعدة الجوية في إلميندورف. خدم سميث 15 شهراً مع الفرقة الرابعة والعشرين كمهندس قتال. رحلته من سياتل إلى أنشوراج هي منحة من الخطوط الجوية لشمال المحيط الهادي. الآنسة لين ماركيز، مضيفة الطيران، تبتسم مرحبة. (صورة رسمية للجيش الأميركي)". الكابتن

ماسون، بيد ممدودة، ينظر إلى الجندي سميث، ولكن الجندي سميث ينظر إلى الكاميرا. ورأت السيدة جونسون، أو تخيلت أنها رأت، في تعبيره غطرسة وليس عرفاناً، وبدلاً من الفخر، رأت غروراً هائلاً. لا يكذب عنه أنه رأى رجلاً على جسر ورماه إلى الأسفل. من المؤكد أنه فعل ذلك. لا يخامرها أدنى شك.

أغلقت الألبوم وأشعلت التلفزيون، لكن ذلك لم يرحها. لنفترض أنه جاء؟ استطاع المحققون العثور على عنوانها، لماذا لن يعثر عليه بيري؟ عليه أن لا ينتظر مساعدتها؛ إنها لن تسمح له بالدخول حتى. الباب الأمامي مقفل، ولكن باب الحديقة مفتوح. كانت الحديقة بيضاء من ضباب البحر؛ قد يكون هذا الضباب تجمّعًا لأرواح: ماما وجيمي وفيرن. حين أقفلت السيدة جونسون الباب، كانت تفكر بالموتى كما بالأحياء.

o o

عاصفة. مطر. دلاء من المطر. ركض دك. ركض بيري أيضاً، ولكنه لم يستطع مجاراته؛ رجلاه كانتا أقصر، وكان يحمل الحقيبة. وصل دك إلى ملجأ – إسطبل قرب الطريق السريع – أمامه. لدى مغادرتهما أوماها، بعد قضاء ليلة في مهجع لجيش الخلاص، نقلهم سائق شاحنة عبر حدود نبراسكا إلى آيوا. في بضع الساعات الأخيرة كانا يسيران على الأقدام. بدأ المطر وهما على بعد ستة عشر ميلاً شمال مستوطنة في آيوا تدعى تينفيل جونكسيون.

كان الإسطبل معتماً.

"دك؟" قال بيري.

"أنا هنا." قال دك. كان ممدّداً على سرير من القش.

سقط بيري بجانبه مبللأ يرتجف. "أشعر ببرد شديد،" قال، وهو يحاول طمر نفسه بالقش. "برد شديد، لا أبالي إذا اشتعل هذا القش وأحرقني حياً." وكان جائعاً أيضاً. يتضور جوعاً. الليلة الماضية تعشيا على الشوربة التي قدمها جيش الخلاص لهما، واليوم لم يأكلا سوى بعض قطع الشوكولاته والعلك التي سرقها دك من منضدة سكاكر في صيدلية. "هل بقي أي قطعة شوكولاته؟" سأل بيري.

لا، لكن لا يزال يوجد علبة من العلك. تقاسماها ومكثا يعلكان، كل منهما يعلك بصوت عال قطعتان ونصف من العلك بطعمة النعناع المضاعف، النكهة المفضلة لدك (بيري يفضل جويسي فروت). المشكلة كانت في النقود. إفلاسهما التام دفع دك للقول إن عمليتهما التالية يجب أن تكون ما اعتبره بيري "حيلة مجنون" – العودة إلى كانساس سيتي. عندما ألح دك أول مرة على العودة إلى كانساس، قال بيري، "عليك مراجعة الطبيب." الآن، متكورين معاً في العتمة الباردة، يصغيان إلى المطر البارد المظلم، استأنفا الجدال، بيري يعدد مرة أخرى مخاطر هذه الحركة، فمن المؤكد أن دك بعد هذا الوقت بات مطلوباً للشرطة بسبب انتهاك شروط الإفراج – "إذا لم يكن هناك شيء آخر." لكن كان من الصعب إقناع دك بالعدول عن الفكرة. كانساس سيتي، أكد ثانية، هي مكان يمكنه فيه بالتأكيد "قنص الكثير من الورق الحار. اللعنة، أعرف أننا يجب أن نتوخى الحذر. وأعرف أنهم أصدروا مذكرة توقيف. بسبب الورق الذي قنصناه من قبل. لكننا سوف نتحرك بسرعة. يوم واحد وينتهي الأمر. إذا حصلنا على مبلغ كاف، ربما نجرب فلوريدا. نقضي الكريسماس في ميامي – نقضي الشتاء إذا راقت لنا." لكن بيري كان يعلك ويرتجف ويزداد عبوساً. قال دك، "ما الأمر، يا

حبيب؟ تلك الضربة؟ ألا تستطيع أن تنساها بحق السماء؟ لم يعثروا نهائياً على أي رابط. ولن يعثروا أبداً."

قال بيري، "قد تكون مخطئاً. وإذا كنت مخطئاً، هذا يعني **الركن.**" لم يسبق لأحد منهما أن أشار إلى العقوبة القصوى في ولاية كانساس – المشنقة، أو الموت في **الركن،** كما يسمي نزلاء إصلاحية ولاية كانساس المستودع الذي يحتوي المعدات اللازمة لشنق رجل.

قال دك، "يا لك من مضحك. أنت تقتلني" أشعل عود ثقاب لتدخين سيجارة، ولكنه رأى شيئاً على ضوء العود ما جعله يقف على قدميه ويمشي باتجاه كشك بقرة. داخل الكشك يوجد سيارة شيفرولية 1956 ببابين وبلونين أبيض وأسود. وكان المفتاح فيها.

o o

عزم ديوي أن يخفي عن "السكان المدنيين" أي معرفة بتحقيق اختراق كبير في قضية كلاتر – وقرر أن يولي ثقته لاثنين من إعلاميي المدينة المحترفين: بيل براون، محرر تيليغرام غاردن سيتي، وروبيرت ويلس، مدير محطة الإذاعة المحلية **كيول.** وفي عرضه للوضع، شدد ديوي على الأسباب التي تجعله يعطي السرية أهمية أولى: "تذكروا، هناك احتمال في أن يكون الرجلان بريئين."

هذه إمكانية مشروعة ولا يمكن استبعادها. يمكن ببساطة أن يكون المخبر، فلويد ويلس، قد اخترع القصة؛ مثل هذه القصص لم تكن نادرة من قبل سجناء يأملون بنيل الرضا أو جذب انتباه رسمي. ولكن حتى لو كانت كل كلمة قالها الرجل انجيلاً، فإن ديوي وزملاءه لم يكتشفوا حتى الآن أبسط دليل صلب مؤكد – "دليل لقاعة المحكمة". ما الذي اكتشفوه حتى الآن ولا يمكن تفسيره على أنه توافق ظاهري،

رغم استثنائيته؟ فقط لأن سميث سافر إلى كانساس لزيارة صديقه هيكوك، وفقط لأن هيكوك يملك بندقية من نفس العيار المستخدم في الجريمة، وفقط لأن المشبوهين دبّرا ذريعة كاذبة عن مكان تواجدهم ليل 14 نوفمبر، كل هذا لا يعني أنهم وراء الجريمة الجماعية. "لكننا متأكدون تماماً أن هذه هي الحقيقة. كلنا نعتقد ذلك. لولا ذلك لما أخطرنا سبع عشرة ولاية، من أركانساس إلى أوريغون. لكن ضعوا في حسبانكم: قد يستغرق الأمر سنين قبل إلقاء القبض عليهما. ربما انفصلا. أو غادرا البلاد. هناك فرصة أن يكونا اتجها إلى ألاسكا – وليس صعباً أن يضيعا هناك. كلما طال أمد بقائهما أحراراً، كلما صارت القضية أصعب. بصراحة: في وضعنا الراهن، ليس بين يدينا قضية مكتملة. يمكننا أن نلقي القبض على هذين الوغدين غداً، ولكن لا نستطيع أن نبرهن على شيء."

لم يبالغ ديوي. لم يخلف المجرمون أي دليل، سوى طبعتي البوط، واحدة على شكل الماسات وأخرى على شكل قدم القطة. وباعتبار أنهم حذرون إلى هذا الحد، فلا شك أنهم تخلصوا من البوطين منذ زمن. وجهاز الراديو أيضاً – على افتراض أنهم هم من سرقوه، وهو أمر لا يزال ديوي متردداً فيه، فقد بدت له سرقة الراديو أمراً "غير متسق إطلاقاً" مع جسامة الجريمة ومع المكر الواضح للمجرمين، و"من غير المعقول" أن هؤلاء الناس الذين دخلوا إلى بيت معتقدين أنهم سيجدون خزنة مليئة بالمال، ثم، حين لم يجدوها، فكروا إنه من الملائم قتل العائلة من أجل ربما بضع دولارات وجهاز راديو صغير. "بدون اعتراف، لن نحصل على إدانة،" قال. "هذا رأيي. ولهذا ينبغي أن نكون حذرين. هم يعتقدون إنهم نجوا بفعلتهم. حسناً، نحن نريدهم

أن يبقوا على هذه القناعة. كلما أحسوا بالأمان أكثر، كلما قبضنا عليهم أبكر."

لكن الأسرار بضاعة غير مألوفة في مدينة بحجم غاردن سيتي. كل من يزور مكتب العمدة، والغرف الثلاثة المزدحمة والقليلة الأثاث في الطابق الثالث من محكمة المقاطعة، يمكن أن يلاحظ جواً غريباً ومشؤوماً تقريباً. اختفت الهمهمة الغاضبة والاندفاع العشوائي الذي ساد في الأسابيع الأخيرة؛ الآن يعم المبنى سكون مرتعش. وقد حازت السيدة ريتشاردسون، سكرتيرة المكتب، وهي امرأة بسيطة جداً، الليلة الماضية، على قدر من الهمس والأساليب الحذرة، ذلك أن الرجال الذين تخدمهم، العمدة وطاقمه، ديوي والفريق المستقدم من عملاء مكتب تحقيقات كانساس، كانوا ينسلّون ويتحدثون بنبرة منخفضة. وكأنهم يخشون، مثل الصيادين المختبئين في غابة، أن أي صوت أو حركة ستنبه البهائم المقتربة وتبعدها.

الناس يتكلمون. تحولت تريل روم في فندق وارن، وهي مقهى يعتبره رجال الأعمال في غاردن سيتي ناد خاص بهم، إلى كهف للهمس تدور فيه الشائعات والتخمينات. هناك مواطن بارز، على وشك الاعتقال، هكذا سمع أحدهم. أو معروف الآن أن الجريمة كانت صنيع قتلة مأجورين من قبل أعداء جمعية مزارعي القمح في كانساس، وهي منظمة متطورة لعب فيها السيد كلاتر دوراً كبيراً. ومن بين القصص المتداولة، القصة الأكثر دقة هي التي قالها تاجر سيارات معروف (رفض أن يكشف مصادره): "يبدو أن هناك رجلاً عمل عند هيرب قديماً في 47 أو 48، كعامل زراعي عادي. ويبدو أنه احتجز في سجن الولاية، وبينما هو هناك كان يفكر بثروة هيرب. وهكذا، منذ شهر، حين أفرجوا

عنه، أول ما قام به، هو القدوم إلى هنا لسرقة وقتل هؤلاء الناس."

ولكن على بعد سبعة أميال إلى الغرب، في قرية هولكومب، لم تسمع نأمة عن آخر الأنباء المثيرة، ومن أسباب ذلك أنه منذ فترة أصبحت مأساة عائلة كلاتر موضوعاً محرماً في مصنعي النميمة الرئيسيين في المجتمع هناك – مكتب البريد ومقهى هارتمان. "شخصياً، لا أريد أن أسمع كلمة أخرى،" قالت السيدة هارتمان. "قلت لهم، لا يمكننا أن نستمر على هذا الحال. نرتاب بكل شخص، نخشى بعضنا حتى الموت. ما أريد قوله، من يريد أن يتحدث بهذا الموضوع، فليبق خارج محلي." وكان موقف ميرت كلير بنفس القوة. "يأتي الناس إلى هنا لشراء طوابع بريد بقيمة نيكل ويعتقدون إنهم يستطيعون أن يقضوا بعدها ثلاث ساعات ونصف يقلّبون في قضية عائلة كلاتر. ينتفون أجنحة الآخرين. هؤلاء مجرد ثعابين. ليس لدي الوقت للإصغاء. أنا في مكان عمل – أنا أمثل حكومة الولايات المتحدة الأمريكية. في كل حال، هذا مرض. آل ديوي وهؤلاء الشرطة المقتدرين من توبيكا وكانساس سيتي – يفترض أنهم حادين كالتربنتين. ولكني لا أعرف شخصاً لا يزال يعتقد إنه ما زال أمامهم فرصة للقبض على من فعلها. لذلك أقول إن الشيء المنطقي هو أن تسكتوا. سوف تعيشون حتى تموتوا، ولا يهم كيف تموتون؛ الميت هو الميت. لماذا إذن تستمرون مثل قطط مريضة في كيس، فقط لأنهم ذبحوا هيرب كلاتر؟ على كل حال، هذا شيء مرَضي. بولي سترينغر، من هناك من المدرسة. بولي سترينغر كانت هنا هذا الصباح. قالت إنه الآن فقط، بعد أكثر من شهر، الآن فقط بدأ هؤلاء الأولاد يهدؤون. ما جعلني أفكر: ماذا لو اعتقلوا فعلاً أحداً ما؟ إذا حدث هذا، فلا بد أنه شخص يعرفه الجميع. وهذا سوف يزيد في

النار بالتأكيد، ويجعل القدر تغلي بعد أن بدأت تبرد. اسألوني، لدينا ما يكفي من الإثارة."

o o

كان الوقت باكراً، لم تبلغ الساعة التاسعة بعد، وكان بيري الزبون الأول في ووشيتريا، مغسلة للخدمة الذاتية. فتح حقيبة القش المنتفخة، أخرج رزمة من السراويل الداخلية والجوارب والقمصان (بعضها له وبعضها لدك)، دفع بها في الغسالة، وألقم الغسالة قطعة من الرصاص – واحدة من كثيرات اشتراها من المكسيك.

بيري يعرف جيداً طريقة العمل في هذه الأسواق، كثيراً ما تردد عليها، ولحسن الحظ، كان يجد من "المريح جداً" أن تجلس بهدوء وتراقب الملابس وهي تغسل. أما اليوم فهو قلق جداً. رغم كل تحذيراته، فاز دك. وها هما ثانية في كانساس سيتي – مفلسين تماماً، وفوق هذا، يسوقان سيارة مسروقة! ساقا طوال الليل سيارة شيفرولية سرقاها من آيوا، عبر المطر الكثيف، توقفا مرتين لشفط البنزين، وفي المرتين شفطا من سيارات مركونة في الشوارع الفارغة للمدن النائمة. (كانت هذه وظيفة بيري، الوظيفة التي يعتبر نفسه فيها "قمة مطلقة. كل ما يحتاجه الأمر خرطوم مطاطي، هذا بطاقة الائتمان الخاصة بي في طول البلاد وعرضها.") لدى وصولهما إلى كانساس سيتي مع بزوغ الشمس، ذهب المسافران أولاً إلى المطار، هناك، في مغاسل الرجال، اغتسلا وحلقا ونظفا الأسنان؛ بعد ساعتين، بعد استراحة في صالة المطار، عادا إلى المدينة. وهناك أنزل دك شريكه عند ووشيتريا، ووعده أن يعود إليه بعد ساعة..

حين انتهت الغسالة من الغسل والتنشيف، أعاد بيري حزم

حقيبته. كانت الساعة تجاوزت العاشرة. وقد تأخر دك، الذي من المفترض أنه في مكان ما "يقنص الورق." جلس ينتظر، واختار مقعداً يوجد عليه، على بعد ذراع، محفظة امرأة – تغري يده لتمتد مثل أفعى داخلها. لكن منظر صاحبة المحفظة، الأضخم بين بضع النساء اللواتي يستخدمن تجهيزات المنشأة، ردعه. ذات مرة، عندما كان ولداً شقياً مندفعاً في سان فرانسيسكو، شكل مع "ولد صيني" (تومي شان؟ تومي لي؟) "فريق لنشل الحقائب." يسلي بيري، ويفرحه، أن يتذكر بعض تلك المغامرات. "ذات مرة تتبعنا سيدة عجوز، عجوز فعلاً، أمسك تومي بمحفظتها، ولكنها لم تتخل عنها، كانت كالنمر الحقيقي. كلما شد هو بقوة إلى جهة، شدت هي بقوة إلى الجهة الأخرى. عندئذ لمحتني، وقالت، "ساعدني! ساعدني!" قلت لها، "اللعنة، أنا هنا لأساعده هو!" – ضربتها، سقطت على الرصيف. كل ما حصلنا عليه كان تسعون سنتاً – أذكر تماماً. ذهبنا إلى مطعم صيني وأكلنا بأنفسنا تحت الطاولة."

لم تتغير الأحوال كثيراً. بيري الآن أكبر بأكثر من عشرين سنة، وأثقل بمئة باوند، ومع ذلك فإن وضعه المادي لم يتحسن البتة. ما يزال (أليس هذا غريباً بالنسبة لشخص بذكائه ومواهبه؟) ولداً داشراً يعتمد على النقود المسروقة.

ظلت عيناه معلقتان على ساعة على الحائط. العاشرة والنصف بدأ يقلق؛ في الحادية عشرة بدأت ساقاه تنبضان بالألم، وهذا كان دائماً بالنسبة له علامة رعب قادم – "فقاعات في دمي." تناول حبة أسبرين، وحاول أن يمحو – أن يشطب على الأقل – موكب الصور الواضحة القوية التي تنزلق عبر دماغه، قافلة من الرؤى الرهيبة: دك بين يدي العدالة، ربما اعتقل بينما هو يكتب شيكاً زائفاً، أو لارتكابة مخالفة

مرورية صغيرة (وتبين أنه يقود سيارة "حارة"). الراجح جداً، أن دك يجلس في هذه اللحظة داخل حلقة من المحققين الحمر الرقاب[14]. وهم لا يناقشون معه الترهات – شيكات زائفة أو سيارات مسروقة. الموضوع هو جريمة قتل، لأن الرابط الذي كان دك واثقاً أن أحداً لن يعثر عليه، قد وُجد بشكل ما. والآن تماماً هناك سيارة مليئة بشرطة كانساس سيتي تتجه إلى ووشيتريا.

لكن، لا، هذه شطحات خيال. لا يمكن لدك أن يفعل هذا – "أن يعترف." فكّر كم مرة سمعه يقول، "يمكنهم أن يضربونني حتى العمى، لن أخبرهم بشيء." بالطبع دك "متبجح"؛ تظهر قوته، كما لاحظ بيري، فقط في الحالات التي يكون له فيها اليد العليا بلا منازع. فجأة، من حسن الطالع، راح يفكر بسبب أقل شؤماً، لطول غياب دك. ذهب لزيارة والديه. هذه مغامرة، ولكن دك "مخلص" لهما، أو يزعم ذلك، والليلة الماضية خلال الرحلة المطرية الطويلة قال لبيري، "أكيد أحب أن أرى أهلي. سيكتمون السر. أقصد إنهم لن يخبروا ضابط الإفراج المشروط – أو يفعلوا أي شيء يسبب لنا مشكلة. فقط أشعر بالخجل منهم. أخاف مما يمكن أن تقوله أمي. عن الشيكات، وعن هذا الغياب الذي ارتكبناه. لكني أتمنى أن أتصل بهم، وأسمع أخبارهم." لكن ذلك لم يكن ممكناً، لأنه لا يوجد هاتف في بيت هيكوك؛ وإلا لكان اتصل بيري ليسأل إن كان دك هناك.

بعد بضع دقائق، عاد بيري للقناعة بأن دك رهن الاعتقال. اشتعلت ساقاه بالألم، وانتشر الألم بسرعة البرق في كل جسمه، واشمأز من روائح الغسيل ونتن البخار، كل ذلك حمله.ودفعه إلى خارج

(14) تعبير يستخدم للإساءة للشخص باعتباره رجعياً ومتعصباً. م.

الباب. وقف على الرصيف يتهوع مثل "سكران بسعال جاف." "كانساس سيتي! ألم يكن يعلم أن كانساس سيتي مكان منحوس، وتوسل لدك أن يبتعد عنها؟ الآن، ربما الآن، دك يشعر بالأسف لأنه لم يصغ إليه. ثم تساءل: ولكن ماذا عني، "بقِرش أو اثنين وحفنة قطع رصاص في جيبي؟" أين يمكن أن أذهب؟ من سيساعدني؟ بوبو؟ مستبعد جداً! ولكن زوجها قد يساعد. لو تبع فريد جونسون ميله الخاص، لضمن لبيري وظيفة بعد خروجه من السجن، وهكذا يساعده في الحصول على الإفراج المشروط. لكن بوبو لن تسمح له؛ قالت إن هذا لن يجلب سوى المشاكل وربما المخاطر. ثم كتبت إلى بيري لتخبره ذلك بالضبط. يوماً ما سيرد لها الدين، قليل من التسلية – يتكلم معها، يعرض عليها قدراته، يبين لها بالتفصيل ماذا يمكنه أن يفعل للناس الذين مثلها، الناس المحترمين الآمنين الراضين عن نفسهم، تماماً مثل بوبو. نعم، دعها تعرف كم يمكن أن يكون خطيراً، ثم راقب عينيها. إن هذا يستحق بالتأكيد رحلة إلى دنفر. وهو ما سيقوم به. الذهاب إلى دنفر وزيارة عائلة جونسون. سوف يسانده فريد جونسون من أجل بداية جديدة في الحياة؛ سيتوجب عليه أن يفعل ذلك، إذا كان يريد التخلص منه.

ثم وصل دك ورأى بيري على الرصيف. "هيي، بيري،" قال. "أنت مريض؟"

كان صوت دك أشبه بحقنة من مخدر قوي، عقار تغلغل في الأوردة وأنتج دوامة من المشاعر المتضاربة: توتر وراحة، غضب ومودة. تقدم صوب دك بقبضتين مشدودتين. "يا ابن الحرام،" قال.

ابتسم دك وقال، "هيا، سوف نأكل ثانية."

لكن الشروحات كانت جاهزة – والاعتذارات أيضاً – وعلى

طبق من التشيلي في المطعم الشعبي المفضل عند دك في كانساس سيتي، إيغل بوفيه، قدمها دك. "آسف يا حبيب. أعرف أنني تسببت لك بفقاعات في الدم، لأنك اعتقدت أنني عالق عند الشرطة. ولكن رياح الحظ كانت مواتية وكان عليّ أن أغتنمها." شرح له إنه بعد أن تركه ذهب إلى شركة ماركل بويك، الشركة التي اشتغل لديها ذات مرة، على أمل أن يجد لوحات معدنية بدلاً من لوحات آيوا الخطيرة على الشيفرولية المسروقة. "لم يلحظ أحد قدومي أو خروجي. ماركل يتاجر كثيراً بالسيارات المحطمة. طبعاً وجدت هناك سيارة دي سوتو مهشمة بلوحات كانساس. وأين هم الآن؟ على سيارتنا، يا حبيب."

بعد الاستبدال، رمى دك لوحات آيوا في خزان البلدية. ثم توقف في محطة وقود يعمل فيها أحد أصدقائه، زميل صف في المدرسة الثانوية يدعى ستيف، وأقنع ستيف بأن يصرف له شيكاً بخمسين دولارًا، وهو أمر لم يعمله من قبل – "سرقة صديق." لا بأس، إنه لن يرى ستيف ثانية. إنه سوف "يقطع صلته" مع كانساس سيتي الليلة، وهذه المرة إلى الأبد بالفعل. إذن لماذا لا يجزّ بعض الأصدقاء؟ على ضوء هذه الفكرة، قام بزيارة زميل صف آخر، موظف في صيدلية. المكسب زاد، جراء ذلك، إلى خمسة وسبعين دولارًا. "الآن، سنزيد هذا المبلغ إلى بضع مئات، عصر هذا اليوم. وضعت قائمة بأسماء المحلات التي سنضربها. ستة أو سبعة محلات، تبدأ من هنا،" قال قاصداً إيغل بوفيه، حيث الجميع هنا – الساقي والنوادل – يعرفونه ويحبونه ويسمونه مخلل "بيكلز" (على اسم طعامه المفضل). "ثم فلوريدا، ها نحن قادمون! ما رأيك يا حبيب؟ ألم أعدك أننا سنقضي الكريسماس في ميامي؟"

○ ○

وقف ديوي وزميله كلارينس دونتز، المندوب لدى مكتب تحقيقات كانساس، ينتظران طاولة فارغة في تريل روم. راح ديوي ينظر حوله إلى الوجوه المألوف وجودها هنا في ساعة الغداء – رجال أعمال بأجسامهم اللينة، وأصحاب مزارع المواشي بيشراتهم الخشنة التي لفحتها الشمس – رأى معارف خاصين: الطبيب الشرعي للمقاطعة، الدكتور فينتون؛ مدير وارن، توم ماهار؛ هاريسون سميث، الذي نافس على منصب النائب العام للمقاطعة السنة الماضية وخسر الانتخابات أمام دوان ويست؛ وأيضاً هيربيرت دبليو كلاتر، صاحب مزرعة ريفر فالي وعضو في صف مدرسة الأحد خاصة ديوي. انتظر لحظة! أليس هيرب كلاتر ميتاً؟ ألم يحضر ديوي جنازته؟ مع ذلك إنه هناك، يجلس في كشك الزاوية الدائرية في تريل روم، عيناه البنيتان اللطيفتان، فكاه المربعان، نظراته الطيبة الأصيلة لم يغيرها الموت. ولكن هيرب لم يكن وحيداً. كان يشاركه الطاولة شابان، وحين عرفهما ديوي، لكز المندوب دونتز.

"انظر."

"أين؟"

"إلى الزاوية."

"يا للسماء!"

هيكوك وسميث! لحظة التعرّف كانت مشتركة. اشتم هذان الصبيان الخطر. بأقدامهما كسرا النوافذ الزجاجية في تريل روم وفرّا، قفز ديوي ودونتز وراءهما، ركضا بسرعة على طول شارع ماين، بعد مجوهرات بالمر، ومنتجات نوريس، ومقهى الغاردن، ثم حول الزاوية نزولاً إلى المستودع، يدخلون إليه ويخرجون، لعبة غميّضة، بين تجمع من الأبراج البيضاء المخصصة لخزن الحبوب. سحب ديوي مسدسه،

وكذا فعل يونتز، ولكن بينما هما يسددان، تتدخل القوة الخارقة للطبيعة. فجأة، وبشكل غامض (مثل حلم!)، كان الجميع يسبحون – المُطارِدان والمُطارَدان – يخبطون بلطف في الاتساع المهيب للماء الذي تزعم غرفة التجارة في غاردن سيتي، أنها "أكبر حوض سباحة **مجاني** في العالم."وعندما اقترب المحققان من طريدتهم، يتلاشى المشهد مرة أخرى (كيف حدث هذا؟ هل يمكن أن يكون في حلم؟) ويدخل في مشهد آخر: مقبرة فالي فيو، تلك الجزيرة الرمادية الخضراء من القبور والشجر والممرات المزهرة، واحة مريحة وارفة هامسة تستلقي مثل قطعة باردة من ظل الغيم على سهول القمح التي تنيرها الشمس شمال البلدة. لكن دونتز اختفى الآن، وبقي ديوي وحيداً مع الرجلين المطاردين. ورغم أنه لا يرى أياً منهما، إلا أنه كان واثقاً أنهما يختبئان بين الموتى، يربضان وراء شاهدة قبر، ربما شاهدة قبر أبيه: "ألفن أدامز ديوي، 6 سبتمبر 1879 – 26 يناير 1948." سحب المسدس، زحف على طول الممرات المهيبة حتى سمع صوت ضحك، فتعقب الصوت، ورأى أن هيكوك وسميث لا يختبئان بل يقفان منفرجي الساقين فوق القبر الجماعي غير المحدد بعد لهيرب وبوني ونانسي وكينيون، يقفان مباعدين بين الساقين، واليدان على الخصر، والرأس مندفعة إلى الخلف، يضحكان. أطلق ديوي النار... وأطلق ثانية... ومرة أخرى... لم يسقط أي منهما، رغم أن كل منهما تلقى رصاصة في القلب ثلاث مرات؛ إنهما أصبحا ببساطة شفافين أكثر فأكثر ثم غير مرئيين، وتبخرا، رغم أن الضحك الصاخب تزايد حتى أذعن له ديوي، وهرب منه، ممتلئاً بقنوط كثيف وفاجع إلى حد أيقظه.

وعندما استيقظ، بدا كطفل في العاشرة، محموم وخائف؛

شعره رطب، وقميصه مبلل بارد وملتصق بجسمه. كانت الغرفة – غرفة في مكتب العمدة، أغلقها على نفسه قبل أن يأخذه النوم على المكتب – باهتة وشبه معتمة. أصغى، فسمع صوت هاتف السيدة ريتشاردسون يرن في المكتب المجاور. لكنها لم تكن هناك لترد؛ كان المكتب مغلقاً. في طريقه إلى الخارج، مر بجانب الهاتف وهو يرن، فتجاهله، ثم تردد. قد تكون ماري، تريد أن تعرف إذا كان لا يزال يعمل وإذا كانت ستنتظره على العشاء.

"السيد أ. أ. ديوي، من فضلك. كانساس سيتي تتصل."

"السيد ديوي معك."

"تابع، كانساس سيتي. فريقك معك على الخط."

"آل؟ أخوك ناي."

"نعم، أخي."

"استعد لبعض الأخبار الكبيرة جداً."

"مستعد."

"أصدقاؤنا هنا. هنا تماماً في كانساس سيتي."

"كيف عرفت؟"

"كيف عرفت؟ إنهما لا يتصرفان بسرية تامة. هيكوك كتب شيكات في كل المدينة، مستخدماً اسمه الحقيقي."

"اسمه الحقيقي. يجب أن يعني هذا إنه لا يخطط للبقاء هنا طويلاً – أو إنه يشعر بثقة كبيرة من نفسه. وسميث لا يزال معه؟"

"أوه، إنهما معاً نعم. ولكنهما يسوقان سيارة مختلفة. شيفي موديل 1956 – بيضاء وسوداء ببابين."

"عليها لوحات كانساس؟"

"لوحات كانساس. اسمع آل، هل نحن سعداء الحظ! اشتريا جهاز تلفزيون، أترى؟ هيكوك أعطى البائع شيكاً. بعد خروجهما، خطر للرجل أن يدون رقم لوحة السيارة. كتبه بسرعة على خلفية الشيك. لوحة مقاطعة جونسون 16212."

"تأكدتم من التسجيل؟"

"خمّن ماذا؟"

"السيارة مسروقة."

"بالتأكيد. ولكن اللوحات مبدولة. أصدقاؤنا وضعوا عليها لوحات سيارة دي سوتو من كراج K.C."

"تعلمون متى؟"

"البارحة صباحاً. المعلم [لوغان سانفورد] أرسل إشعاراً برقم اللوحة الجديدة مع وصف للسيارة."

"وماذا عن مزرعة هيكوك؟ إذا كانا لا يزالان في المنطقة، يبدو لي إنهما سيذهبان إلى هناك عاجلاً أم آجلاً."

"لا تقلق، إننا نراقبها. آل –"

"معك."

"هذا ما تمنيته من أجل الكريسماس. كل ما تمنيته. أن نغلق هذه القضية. نغلقها وننام حتى السنة الجديدة. ألن تكون هذه هدية من السماء؟"

"آمل أن تحصل عليها."

"آمل أن نحصل عليها نحن الاثنين."

بعد ذلك، بينما هو يعبر الساحة المظلمة للمحكمة متأملاً، يجر قدميه عبر كومات مبعثرة من ورق الشجر اليابس، تساءل ديوي عن

غياب البهجة لديه. لماذا، حين علم أن المشبوهين ليسا ضائعين للأبد في ألاسكا أو المكسيك أو تمبوكتو، حين علم إنه يمكن القاء القبض عليهما في أي لحظة – لماذا لم يشعر بالإثارة التي ينبغي أن يشعر بها؟ الحلم هو السبب، لأن المزاج الثقيل الذي خلفه، جعل ديوي يشك في تأكيدات ناي – وبمعنى ما، لا يصدقها. لم يصدق أن هيكوك وسميث سيعتقلان في كانساس سيتي. إنهما منيعين.

○ ○

شاطئ ميامي، 335 أوشن درايف، هو عنوان فندق سومرست، بناء صغير مربع، مدهون بالأبيض بكثير أو قليل، مع ضربات عديدة بلون أرجواني، وبينها لافتة ارجوانية مكتوب عليها، "**غرف شاغرة – أدنى الأسعار – مستلزمات الشاطئ – نسيم البحر الدائم.**" إنه أحد فنادق الجص والإسمنت الصغيرة التي تشكل نسقاً على شارع أبيض كئيب. في ديسمبر، 1959، كانت تتألف "مستلزمات الشاطئ" من مظلتي شاطئ مغروستين في شريط رملي خلف الفندق. إحداهما وردية، مكتوب عليها، "نقدم بوظة فالانتاين." في ظهيرة الكريسماس، أربع نساء يستلقين تحتها وحولها، وراديو ترانزستور يسليهن بالموسيقى. المظلة الثانية، زرقاء وتحمل الطلب التالي "تسمير البشرة مع كوبرتون،" تظلل دك وبيري، اللذان يقيمان في فندق سومرست منذ خمسة أيام، في غرفة مزدوجة مقابل ثمانية عشر دولار في الأسبوع.

قال بيري، "لم تتمن لي كريسماس سعيداً طوال حياتك."

"كريسماس سعيد يا عسل. وعام سعيد."

كان دك يلبس سروال سباحة، فيما رفض بيري، كما في أكابولو، أن يكشف رجليه المصابتين – يخشى أن "يؤذي" منظرهما رواد الشاطئ

- لذلك جلس بكامل ثيابه، لابساً حتى الجوارب والحذاء. مع ذلك، كان راض نسبياً، وحين نهض دك وبدأ أداء التمارين – الوقوف على الرأس واليدين، بقصد لفت انتباه السيدات تحت المظلة الزهرية – شغل بيري نفسه بقراءة هيرالد ميامي. الآن وقع على خبر في صفحة داخلية أخذ كل انتباهه. الخبر يتعلق بجريمة قتل، ذبح عائلة في فلوريدا، السيد والسيدة كليفورد ووكر، وابنهم البالغ الرابعة من العمر، وابنتهم التي في الثانية من العمر. كل من الضحايا، دون ربط أو تكميم، قتل برصاصة في الرأس بسلاح عيار 22. وقعت الجريمة، التي تبدو بلا دوافع وبلا أدلة، ليل السبت، 19 ديسمبر، في بيت ووكر، في مزرعة لتربية المواشي ليس بعيداً عن تالاهاسي.

قاطع بيري تمارين دك ليقرأ له الخبر بصوت عال، وسأل، "أين كنا ليل السبت الماضي؟"

"تالاهاسي؟"

"أنا أسألك."

ركّز دك. ليل الخميس، تناوبا على القيادة، خرجا من كانساس عبر ميسوري إلى أركانساس وصولاً إلى أوزاركس، ثم إلى لويزيانا، حيث توقفا بسبب احتراق المولد في وقت مبكر من في صباح يوم الجمعة. (الاستبدال بمولد مستعمل، اشترياه من شريفبورت، كلفهم اثنان وعشرين دولار وخمسين سنتاً. في تلك الليلة ركنا السيارة في مكان ما جانب الطريق قرب الحدود بين الاباما وفلوريدا، وناما. رحلة اليوم التالي لم تكن مستعجلة، وتضمنت عدة زيارات سياحية – زيارة مزرعة تماسيح، ومزرعة ثعابين، وجولة في قارب ذي قاع زجاجي في بحيرة نقية كالفضة، وعشاء متأخر وطويل ومكلف في مطعم للمأكولات البحرية

على جانب الطريق، من السلطعون المشوي. يوم بهيج! لكنهما كانا مرهقين حين وصلا إلى تالاهاسي، وقررا قضاء الليل هناك. "نعم، تالاهاسي،" قال دك.

"شيء مدهش!" نظر بيري إلى الخبر ثانية. "هل تعلم ما الذي لن يفاجئني؟ إذا كان من قام بهذه الجريمة شخص معتوه. مختل قرأ عما حدث في كانساس."

لم يبال دك بسماع بيري "يواصل الكلام في ذلك الموضوع،" رفع كتفيه وابتسم ابتسامة عريضة وهرول باتجاه الشاطئ، حيث مشى متكاسلاً على الرمال المنقوعة بمياه الموج، وراح يتوقف هنا وهناك يجمع الصدف. مثل الصبي الذي حسده، ابن جارهم الذي ذهب إلى **غولف كوست** في العطلة وعاد بصندوق مليء بالصدف – كرهه جداً – إلى حد أنه سرق الصدف وكسرها بالمطرقة واحدة واحدة. الحسد طبع فيه؛ العدو هو أي شخص في مكانة يتمناها لنفسه، أو يملك شيئاً يريده لنفسه.

مثلاً، الرجل الذي رآه بجانب المسبح في فونتينبلو. على بعد أميال، استطاع أن يرى أبراجاً يلفها حجاب صيفي من سديم الحرارة ولمعان البحر، أبراجاً باهتة اللون وباهظة السعر – هي أبراج فونتينبلو، وإدين روك، وروني بلازا. في يومهم الثاني في ميامي، اقترح على بيري أن يغزوا قبب المتعة تلك. "قد نصطاد امرأتين ثريتين،" قال. لم يرحب بيري بالفكرة أبداً؛ شعر أن الناس سوف يحدقون بهما بسبب لباسهما، سراويل خاكي وتي شيرتات. في الواقع، لم يلحظ أحد جولتهما في أماكن فونتينبلو المبهرجة، وسط رجال يتمشون في شورتات برمودا مخططة ومصنوعة من الحرير الخام، ونساء يلبسن لباس البحر وشالات

فرو المنك في الوقت نفسه. راح المتطفلان يجوبان بهو الفندق بتوانٍ، ويمشيان في الحديقة، ويتسكعان قرب حوض السباحة. وهناك رأى دك الرجل الذي كان في مثل عمره، الثامنة والعشرين أو الثلاثين. قد يكون "مقامراً أو محامياً أو ربما أحد أفراد عصابة في شيكاغو." مهما يكن، فقد كان يبدو عليه أنه يعرف مجد المال والسلطة. وكان ثمة شقراء تشبه مارلين مونرو، تعجنه بزيت التشميس، ويده المليئة بالخواتم تمتد إلى كأس من عصير البرتقال المثلج. كل هذا له، لدِك، ولكنه لا يحصل عليه أبداً. لماذا يحوز الوغد ذاك على كل شيء، في حين هو لا يملك شيئاً؟ لماذا يكون لهذا "ابن العاهرة الكبير" كل هذا الحظ؟ دك يمتلك القوة، حين تكون السكين في يده. على الأوغاد الكبار مثل هذا أن يكونوا حذرين وإلا فإنه قد "يفتح بطونهم ليسيل شيئاً من حظهم على الأرض." يوم دك قد تحطم على كل حال. الشقراء الجميلة التي كانت تفرك زيت التشميس قد حطمته. قال لبيري، "لنخرج من هنا بحق العاهرات."

الآن كانت فتاة غضة، ربما في الثانية عشرة، ترسم وجوهاً على الرمل، تحفر وجوهًا كبيرة بسيطة بقطعة من الخشب الذي يرميه البحر. قدم لها دك الصدف التي جمعها، متظاهراً بأنه معجب بفنها. "يشكلن عيوناً جيدة،" قال. قبلت الطفلة الهدية، في حين ابتسم لها دك وغمز لها بعينه. انتابه الأسف لأنه شعر تجاهها بما شعر، لأن اهتمامه بالبنات الصغيرات كان عيباً "يخجل منه بصدق" – سراً لم يبح به لأحد، وكان يأمل أن لا يشك أحد بذلك (رغم أنه كان يعرف أن لبيري الحق في أن يشك)، لأن الناس الآخرين قد لا يعتبرون هذا "طبيعياً". في حين أنه واثق من أنه هو إنسان "طبيعي." قيامه بإغراء

بنات يافعات، كما فعل "ثمان أو تسع" مرات في بضع السنوات الأخيرة، لا ينقض ذلك، لأنه إذا كشفت الحقيقة، فإن معظم الرجال الحقيقيين لديهم نفس الرغبة التي لديه. أخذ يد البنت وقال، "أنت فتاتي الصغيرة. حبيبتي الصغيرة." لكنها اعترضت. وانتفضت يدها، الممسوكة بيده، مثل سمكة ممسوكة بسنارة، وكان يعرف التعبير المصعوق في عينيها من حوادث سابقة في سيرته. ترك يدها، وضحك ضحكة خفيفة، وقال، "مجرد لعبة. ألا تحبين الألعاب؟"

راقب بيري، وهو لا يزال مستلق تحت المظلة الزرقاء، المشهد وأدرك غرض دك في الحال، واحتقره؛ إنه "لا يحترم الناس الذين لا يستطيعون السيطرة على أنفسهم من الناحية الجنسية،" ولاسيما حين يشمل ذلك ما يسميه "الشذوذ" – "التحرش بالأطفال،" "الانحراف"، الاغتصاب. قال في نفسه إنه أوضح رأيه من قبل لدك؛ بالفعل، ألم يوشكا على العراك بالقبضات حين منع دك، من فترة قريبة، من أن يغتصب فتاة مذعورة؟ في كل حال، إنه لن يمتنع عن تكرار اختبار القوة ذاك، لقد أراحه أن يرى الطفلة تمشي مبتعدة عن دك.

تراتيل الكريسماس تملأ الجو؛ تأتي من جهاز الراديو الخاص بالنساء الأربع ويمتزج بشكل غريب مع شمس ميامي، وصرخات طيور النورس الشاكية والتي لا تصمت أبداً. "أوه، تعالوا لنعبده، أوه، تعالوا لنعبده": جوقة كاتدرائية، موسيقى جليلة أفاضت دموع بيري التي لم تتوقف حتى بعد توقف الموسيقى. ليس نادراً حين يكون متأثراً وحزيناً كما هو الآن، أن يفكر بأحد الاحتمالات التي لها "جاذبية هائلة" عنده: الانتحار. حين كان صغيراً تبادر غير مرة إلى ذهنه أن يقتل نفسه، لكن تلك كانت خيالات عاطفية منبتها الرغبة في معاقبة

أبيه وأمه وأعداء آخرين. ولكن، من سن اليفاعة وما تلاها، فقدت فكرة أن ينهي حياته أكثر فأكثر طابعها الخيالي. لا بد أنه يتذكر أن ذلك كان "حل" جيمي، وأيضاً فيرن. ومؤخراً راح يبدو له ذلك ليس مجرد بديل بل موت محدد ينتظره.

بأية حال، لم يستطع أن يرى أن لديه "على هذه الأرض ما يستحق الحياة". الجزر الحارة والذهب الدفين، الغوص عميقاً في بحار بلون زرقة النار بحثاً عن كنز مغمور – ذهبت هذه الأحلام. وذهب أيضاً "بيري أوبارسونس،" الاسم الذي ابتكره من أجل الإحساس الغنائي الذي أمل، بنصف جدية، أن يكونه على المسرح والشاشة ذات يوم. مات بيري أوبارسونس دون أن يحيا يوماً. ماذا تبقى له من أمل؟ إنه ودك "يركضان في سباق بدون خط نهاية" – هكذا بدا الأمر له. والآن، بعد أقل من أسبوع في ميامي، تُستأنف الرحلة الطويلة. دك، الذي عمل يوماً لدى شركة ABC لسيارات الخدمة مقابل 65 سنتاً بالساعة، قال له، "ميامي أسوأ من المكسيك. 65 سنتاً! ليست لي. أنا رجل أبيض." غداً إذن، سيتجهان غرباً مرة أخرى، ولم يتبق معهما سوى 27 دولارًا، إلى تكساس، إلى نيفادا – "لا يوجد مكان محدد".

عاد دك بعد أن خاض في الموج. سقط مبللاً تعباً ووجهه باتجاه الرمل اللزج.

"كيف هي المياه؟"

"رائعة؟"

o o

التقارب بين الكريسماس ويوم ميلاد نانسي كلاتر الذي يصادف مباشرة بعد رأس السنة، كان دائماً مصدر إرباك لصديقها

بوبي روب. فقد كان يثقل على مخيلته التفكير بهديتين مناسبتين بهذا التتالي السريع. ولكنه كان كل عام، يعمل جهده بالنقود التي كسبها من عمله الصيفي في مزرعة الشوندر السكري العائدة لأبيه. وصباح الكريسماس كان يسرع دائماً إلى بيت كلاتر حاملاً هدية ساعده أخواته في صرّها وكله أمل أن تفاجئ نانسي وتفرحها. السنة الماضية أعطاها قلادة ذهبية على شكل قلب. هذا العام، مستبقاً المناسبة كحاله دائماً، كان يتردد بين عطور مستوردة للبيع في نوريس دراغز وجزمة لركوب الخيل. لكن نانسي ماتت.

في صباح الكريسماس، وبدلاً من أن يسرع إلى مزرعة ريفر فالي، بقي في البيت، وفي وقت لاحق من النهار قاسم أهله الغداء الفخم الذي بقيت أمه تعده على مدى أسبوع. الجميع كانوا يعاملونه بلطف منذ المأساة – والداه والسبعة من أخوته وأخواته. مع ذلك، في مواعيد الوجبات، كانوا يقولون له مراراً إن عليه أن يستمتع بالأكل. لم يفهم أحد إنه مريض حقاً، وأن الأسى أثقل على قلبه، وأن الحزن رسم حوله دائرة لا يستطيع الخروج منها ولا يستطيع الآخرون دخولها – ما عدا سو ربما. لم تكن سو تعني له شيئاً حتى موت نانسي، ولم يشعر بأي راحة معها. كانت سو مختلفة تماماً – تأخذ بجدية أشياءَ لا ينبغي أن تأخذها حتى البنات بهذه الجدية: الرسوم، والقصائد، والموسيقى التي كانت تعزفها على البيانو. وبالطبع، كان يشعر بالغيرة منها؛ فمكانتها لدى نانسي، وإن كانت في مضمار آخر، فإنها على الأقل تعادل مكانته. ولكن هذا هو السبب الذي جعلها قادرة على فهم مدى خسارته. لولا سو، لولا حضورها المستمر تقريباً، كيف كان له أن يتحمل مثل هذا الدفق من الصدمات – الجريمة نفسها، مقابلاته مع السيد ديوي،

السخرية المحزنة في اعتباره، لفترة من الزمن، المشتبه به الرئيسي؟

ثم بعد شهر، خبت الصداقة. لم يعد بوبي كثير التردد والجلوس في صالون عائلة كيدويل الصغير الدافئ، وحين يذهب، لم تعد سو بنفس القدر من الترحيب. المشكلة أنهما كانا يجبران بعضهما على التفجع وعلى تذكر ما أرادا في الواقع نسيانه. أحياناً كان يتمكن بوبي من النسيان: حين يلعب كرة السلة أو يقود السيارة على الطرقات الريفية بسرعة 80 ميلاً في الساعة، أو عندما يهرول لمسافات طويلة عبر الحقول الصفراء المنبسطة. والآن، بعد المساعدة في تنظيف طاولة الغداء من كل أطباق العيد، هذا ما قرر أن يفعله – أن يلبس بدلة رياضة ويذهب للجري.

كان الطقس رائعاً. حتى بالنسبة لكانساس الغربية، المعروفة بتطاول صيفها الهندي، فإن الطقس الحالي يبدو غير قابل للتصديق – هواء جاف، شمس جريئة، سماء زرقاء. وقد تنبأ المزارعون المتفائلون "بشتاء مفتوح" – فصل لطيف يمكن فيه للمواشي أن ترعى فيه كل الوقت. ومثل هذه الشتاءات نادرة، ولكن بوبي يتذكر واحداً، في السنة التي بدأ فيها يتودد لنانسي. كانا كلاهما في الثانية عشرة، وبعد المدرسة اعتاد أن يحمل حقيبتها المدرسية طوال الميل الذي يفصل مدرسة هولكومب عن بيت مزرعة أبيها. وحين يكون اليوم دافئاً والشمس ساطعة، كانا يتوقفان في الطريق ويجلسان جوار النهر، ذاك الجزء من نهر أركانساس البني المتعرج البطيئ الحركة.

ذات مرة قالت له نانسي، "الصيف الذي ذهبنا فيه إلى كولورادو، رأيت من أين يبدأ نهر أركانساس. رأيت المكان بالضبط. لن تصدق، مع ذلك، إن هذا هو نهرنا. ليس بنفس اللون، إنه صاف كماء الشرب.

وسريع. ومليء بالصخور. والدوارات. أبي اصطاد هناك سمكة سلمون مرقط." وقد ظلت في ذهن بوبي ذاكرتها عن منبع النهر، ومنذ موتها ... إنه عاجز عن شرح الأمر، ولكنه حين ينظر إلى أركانساس، فإنه يتحول للحظة، فلا يراه جدولاً موحلاً يتلوى كسولاً عبر سهول كانساس، بل الوصف الذي قالته نانسي – تيار كولورادو الجارف، نهر كريستالي بارد مليء بسمك السلمون المرقط ينحدر مسرعاً إلى أسفل واد جبلي. هكذا كانت نانسي: كالمياه الفتية – حيوية ومرحة.

الشتاء في كانساس الغربية يحبس الناس في بيوتهم عادة، وعادة يتغير المناخ قبل الكريسماس بفعل الصقيع في الحقول والرياح الشديدة البرودة. قبل بضع سنوات، نزل الثلج في ليلة الكريسماس واستمر في الهطول، وحين انطلق بوبي صباح اليوم التالي باتجاه مزرعة كلاتر، على بعد ثلاثة أميال، على قدميه، كان عليه أن يكافح عبر أكوام الثلج العميقة. الأمر استحقّ هذا العناء، فرغم أنه وصل مخدراً ومحمراً، فإن الترحيب الذي تلقاه غمره بالدفء. كانت نانسي مدهوشة وفخورة، وأمها، التي غالباً ما تكون خجولة وبعيدة، حضنته وقبلته، وأصرت أن يلف نفسه بلحاف ويجلس قريباً من نار الصالون. وبينما كانت النسوة يعملن في المطبخ، جلس هو وكينيون والسيد كلاتر حول النار يكسرون الجوز والبكان، وقال السيد كلاتر إن هذا يذكّره بكريسماس آخر، عندما كان بعمر كينيون: "كنا سبعة، أمي وأبي وابنتان وثلاثة صبيان، نعيش في مزرعة بعيدة عن البلدة. لذلك كان من عادتنا أن نتسوق للكريسماس بشكل جماعي – نذهب مرة واحدة ونشتري معاً. السنة التي أحدثكم عنها، في صباح اليوم الذي يفترض أن نذهب فيه، كان الثلج عالياً كما هو اليوم، وأعلى، وكان

لا يزال يهطل – ندفة الثلج بحجم الصحن. وبدا أننا سوف نقضي الكريسماس محبوسين بسبب الثلج بدون هدايا تحت الشجرة. أمي وأختاي كنّ كسيرات القلب. فخطرت لي فكرة." سوف يسرج أقوى حصان حراثة عندهم، ويذهب به إلى البلدة، ويتسوق للجميع. وافقت العائلة. كل منهم أعطاه ما وفره من نقود للكريسماس مع قائمة بالأشياء التي يودون شراءها: أربع ياردات من الشيت، كرة قدم، وسادة دبابيس، طلقات للبندقية – تشكيلة من الطلبات التي استغرقت كتابتها حتى المساء. في طريق العودة، المشتريات كانت آمنة في كيس من المشمع، شعر بالامتنان لأن أباه أجبره على حمل فانوس، وكان سعيداً أيضاً أن لجام الفرس كان يحمل أجراساً، لأن صوتها الحيوي وضوء فانوس الكاز الواجف كانا مصدر راحة له.

"الذهاب كان سهلاً، [مثل تناول] قطعة كعك. أما في طريق العودة فقد اختفى الطريق، لا توجد أي معالم." الأرض والسماء كلها ثلج. الحصان انزلق جانباً وقد وصل الثلج حتى فخذيه. "سقط الفانوس من يدي. تهنا في الليل. كانت مسألة وقت قبل أن يغلبنا النوم ونتجمد. كنت خائفاً، نعم. ولكني صليت إلى الله، وشعرت بوجوده..." الكلاب كانت تنبح. الحصان تبع صوت الكلاب حتى رأينا نوافذ بيت زراعي مجاور. "كان ينبغي أن أتوقف هناك. لكني فكرت بالعائلة – تخيلت أمي تبكي. وأبي وأخوتي ينطلقون في جولة بحث، لذلك أكملت الطريق. وهكذا، لم أكن سعيداً بطبيعة الحال، عندما رأيت أخيراً البيت مظلماً. والأبواب مقفلة. والجميع نيام، وقد نسوا أمري ببساطة. لم يستطع أحد منهم أن يفهم لماذا أتعبت نفسي إلى هذا الحد. قال أبي، "كنا واثقين أنك سوف تقضي الليلة في البلدة. يا

إلهي، من سيعتقد أنك لا تملك عقلاً يمنعك من المجيء في عاصفة ثلجية حقيقية!"

o o

الرائحة الواخزة الصادرة عن التفاح الفاسد. أشجار التفاح والإجاص والخوخ والكرز: بستان السيد كلاتر، المجموعة العزيزة من الأشجار المثمرة التي غرسها. لم يكن في بال بوبي، وهو يركض شارد الذّهن، أن يأتي إلى هنا، أو إلى أي جزء من مزرعة ريفر فالي. لا يمكن تفسير قدومه إلى هنا، فاستدار كي يغادر، ولكنه استدار ثانية ومشى باتجاه البيت – الأبيض والمتين والواسع. لطالما أعجب بهذا البيت، وسَرّه أن تعيش حبيبته فيه. ولكن الآن، وقد حرم من الرعاية المخلصة لصاحبه المرحوم، فإن خيوط شباك العناكب الدالّة على الخراب قد بدأت بالظهور. ثمة جرافة حصى تصدأ على الطريق الخاص الموصل إلى البيت؛ والمرج كان عطشاناً ورثّاً. في ذلك الأحد المميت، حين طلب العمدة سيارات الإسعاف لنقل العائلة المقتولة، سارت السيارات عبر العشب مباشرة إلى الباب الأمامي، ولا يزال مسار عجلاتها مرئياً.

بيت الأجير كان فارغاً أيضاً؛ لقد وجد سكناً جديداً لعائلته قرب هولكومب – لم يفاجئ هذا أحداً، لأن بيت كلاتر هذه الأيام، رغم أن الطقس صحو، بدا مظلماً وخامداً بلا حركة. ولكن حين مر بوبي قرب مخزن المواد وبعده زريبة المواشي، سمع حفيف ذيل فرس. كانت بيبي، فرس نانسي. الفرس المطيعة الرقطاء ذات العرف الكتاني والعينين بلونٍ أرجواني غامق مثل أزهار البانسي الرائعة. أمسك روبي بعرفها، وفرك خده على رقبتها الطويلة – الشيء الذي اعتادت نانسي أن تفعله. صهلت بيبي. الأحد الماضي، في آخر زيارة له إلى عائلة كيدويل،

أتت والدة سو على ذكر الفرس بيبي. كانت تقف السيدة كيدويل، وهي امرأة حالمة، عند النافذة تراقب الغسق يلوّن الفضاء والبراري المترامية الأطراف. وفجأة قالت، "سوزان؟ هل تعلمين ما أرى دائماً؟ نانسي. على الفرس بيبي. تأتي من هذا الاتجاه."

ه ه

رآهما بيري أولاً – صبي وعجوز يستوقفان السيارات، كل منهما يحمل حقيبة ظهر يدوية الصنع، ورغم الطقس العاصف، رغم ريح تكساس الرملية العنيفة، كانا يرتديان فقط وزرة وقميص من الدنيم. "لنتوقف من أجلهما،" قال بيري. لم يكن دك راغباً؛ لا يعترض على مساعدة مستوقفي السيارات، شرط أن يكون لهم هيئة من يستطيع دفع أجرة المساعدة – على الأقل "مساهمة صغيرة في ثمن غالونات البنزين." لكن بيري، بيري الطيب الكبير القلب، دائماً يلح على دك لانتشال أكثر الناس بؤساً وإثارة للشفقة. أخيراً وافق دك، وأوقف السيارة.

كان الولد – وهو بدين حاد العينين أشقر الشعر وثرثار في حوالي الثانية عشرة من العمر – شديد الامتنان، أما العجوز، ذو الوجه المغضن والأصفر، زحف بوهن إلى المقعد الخلفي وجلس بصمت. قال الولد، "نقدر لكما هذا بالتأكيد. كان جوني على وشك السقوط. لم يتوقف لنا أحد منذ غالفستون."

كان بيري ودك قد غادرا ذلك الميناء منذ ساعة، بعد أن قضيا الصباح هناك يطلبان من مختلف مكاتب الشحن عملاً لبحارين قويي البنية. قدمت إحدى الشركات لهما عملاً مباشراً على سفينة تتجه إلى البرازيل، وبالفعل، كان يمكن أن يكونا في البحر حالياً لو لم يكتشف رب العمل أنهما لا يحملان أوراقًا نقابيّة أو جوازات سفر. الغريب، أن

إحباط دك تجاوز إحباط بيري: "البرازيل! هناك يبنون عاصمة جديدة بالكامل. يبنونها من الصفر. تخيل أن نضع أرجلنا في مكان كهذا! أي أحمق يمكنه أن يصنع ثروة هناك."

"إلى أين أنتم ذاهبان؟" سأل بيري الولد.

"سويتووتر."

"أين تقع سويتووتر؟"

"إنها في مكان ما في هذا الاتجاه. في مكان ما من تكساس. جوني، هو جدي. ولديه أخت تعيش في سويتووتر. الحقيقة، آمل، بمعونة المسيح، أنها هناك. اعتقدنا أنها تعيش في جاسبر، تكساس. ولكن حين وصلنا إلى جاسبر، قالوا لنا إنها انتقلت مع جماعتها إلى غالفستون. ولكنها لم تكن في غالفستون – قالت لنا سيدة هناك إنها انتقلت إلى سويتووتر. آمل، بمعونة المسيح، أن نجدها هناك. "جوني،" قال وهو يفرك يدي العجوز، كما لو أنه يريد أن يدفئهما، "هل تسمعني، جوني؟ إننا نركب في سيارة شيفرولية جميلة ودافئة موديل 56."

سعل العجوز، أدار رأسه قليلاً، فتح وأغمض عينيه، وسعل ثانية.

قال دك، "هي، اسمع. ما مشكلته؟"

"إنه التغيير" قال الولد. "والمشي. نحن نمشي منذ ما قبل الكريسماس. يبدو لي إننا مشينا القسم الأكبر من تكساس." وبصوت تقريري إلى أبعد حد، وبينما هو يواصل تمسيد يدي العجوز، أخبرهما الولد إنه حتى بداية هذه الرحلة، كان يعيش مع جده ومع عمة وحيدين في مزرعة قرب شريفبورت، لويزيانا. منذ فترة غير بعيدة توفيت العمة. "ظل جوني معلولاً لمدة سنة تقريباً، وكان على أونتي أن تقوم بكل الأعمال، دون أن يساعدها أحد سواي. كنا نقطع الخشب

للتدفئة، نقطع جذوع الشجر. وسط هذه الحالة، قالت أونتي إنها أنهكت. هل رأيت في حياتك حصاناً يستلقي ولا ينهض بعدها أبداً؟ أنا رأيت. وهذا ما حصل مع أونتي." قبل بضعة أيام من الكريسماس، جاء الرجل الذي كان الجد قد استأجر المزرعة منه "وأخرجنا من المكان،" تابع الولد. "وهذا ما جعلنا نأتي إلى تكساس، للبحث عن السيدة جاكسون. أنا لم أقابلها في حياتي، لكنها أخت جوني، من لحمه ودمه. يعني إن عليها أن تؤوينا. على الأقل أن تؤويه. إنه لا يحتمل أكثر. الليلة الماضية أمطرت علينا."

توقفت السيارة. سأل بيري دك لماذا توقف.

"هذا الرجل مريض بشدة،" قال دك.

"إذن؟ وماذا تريد أن تفعل؟ تنزله من السيارة؟"

"استخدم رأسك ولو مرة واحدة."

"أنت وغد وضيع حقاً."

"افترض أنه مات؟"

قال الولد، "لن يموت. هو كذلك منذ مدة طويلة، سينتظر الآن."

أصرّ دك. "افترض أنه مات؟ هل فكرت بما يمكن أن يحصل. التحقيقات."

"بصراحة، لا يهمني. تريد أن تنزلهم من السيارة، بكل الأحوال؟" نظر بيري إلى المريض المنبهر الأصم الذي لا يزال خاملاً، ونظر إلى الصبي، الذي رد النظرة بنظرة هادئة غير متوسلة ولا "تطلب شيئاً،" وتذكر بيري نفسه وهو في عمر هذا الصبي، وتجواله التائه مع عجوز. "هيا. أنزلهم من السيارة. ولكني سأنزل معهم أيضاً."

"أوكي، أوكي، أوكي. فقط تذكر هذا الموقف،" قال دك. "إنها غلطتك اللعينة."

هيّأ دك السيارة للانطلاق. فجأة، حين بدأت السيارة تتحرك، صرخ الولد، "أوقفها!" قفز خارج السيارة، ركض مسرعاً على جانب الطريق، توقف، انحنى، التقط واحدة، اثنتان، ثلاث، أربع زجاجات كوكا كولا فارغة، ثم عاد، وقفز داخل السيارة، وهو يضحك بسعادة. "في الزجاجات رزقة جيدة،" قال لدك. "صدق يا سيد، إذا سقت ببطء، أضمن لك أن نجمع مبلغاً من النقود. هكذا دبرنا عيشنا أنا وجوني. استرداد المال."

ابتهج دك، ولكن الأمر أثار اهتمامه أيضاً، ففي المرة التالية حين طلب منه الصبي أن يتوقف، أطاعه على الفور. تتالت الطلبات، واستغرق منهم الأمر ساعة لقطع خمسة أميال، غير أن الأمر يستحق. كانت لدى الصبي "عبقرية حقيقية" في أن يحدد، وسط الصخور المجاورة للطريق والأنقاض المعشوشبة والتوهج البني لزجاجات البيرة المرمية، اللون الزمردي الذي كان يشكل مرّة ماركة سفن-أب ومرة كندا-دراي. بسرعة قياسية طوّر بيري موهبته الشخصية في اكتشاف الزجاجات. في البداية كان يكتفي بأن يدل الصبي على الأماكن التي يجدها؛ كان يرى إنه من المخجل جداً أن يهرول بنفسه لكي يجمعها. كان هذا بالنسبة له "مضحك للغاية،" ومجرد "شغل أولاد." مع ذلك، ولّدت اللعبة إثارة البحث عن كنز، والآن، استسلم بيري للمتعة، ولحماسة السعي وراء الفوارغ المسترجعة. دك، أيضاً، ولكن دك كان يعمل بجدية تامة. صحيح يبدو هذا النشاط غريباً، لكنه قد يكون طريقة لجني بعض المال، أو، على أي حال، بعض الدولارات. لا أحد

يعلم، قد يلجأ هو وبيري إلى هذه الطريقة؛ كل ما يملكانه من النقود في هذه اللحظة اقل من خمسة دولارات.

الثلاثة الآن – دك وبيري والصبي – كانوا خارج السيارة يتنافسون بلا خجل، ولكن بود، فيما بينهم. ذات مرة وقع دك على مخبأ لزجاجات الخمر والويسكي في قاع خندق، وتكدر حين علم أن اكتشافه كان بلا قيمة. "فوارغ الخمور غير مسترجعة،" قال له الصبي. "حتى بعض زجاجات البيرة غير جيدة. أنا أميزها عادة. لنأخذ الأشياء المؤكدة فقط. دكتور بيبر. بِبْسي. كوك. وايت روك. نيهي."

"ما اسمك؟" قال دك.

"بيل،" أجاب الصبي.

"حسناً يا بيل، أنت تعلّمنا [شيئًا جديدًا] باستمرار."

هبط الليل، واضطر صيادو الزجاجات إلى التوقف – فضلاً عن أن السيارة لم تعد تتسع، لأنهم جمعوا من الزجاجات بقدر ما يمكن للسيارة أن تستوعب. صندوق السيارة امتلأ، والمقعد الخلفي للسيارة بدا مثل كومة نفايات لامعة؛ وكان الرجل العجوز المريض، الذي كان منسياً ولم يذكره حتى حفيده، قد اختفى تحت حمولة متقلقلة وتصدر أصوات ارتطامات زجاجية خطيرة.

قال دك، "سنبدو مضحكين لو تعرّضنا لحادث!"

ظهرت لهم مجموعة من الأضواء تعلن عن **الموتيل الجديد،** وتبين للمسافرين وهم يقتربون منه إنه مجمع ضخم يضم بيوت بنغالو، وكراجًا، ومطعمًا، واستراحة كوكتيل. قال الصبي لدك، متحملاً المسؤولية، "ادخل. قد نتمكن من عقد صفقة. فقط دعوني أتكلم، لدي خبرة. أحياناً يحاولون الغش." لم يستطع بيري أن يتخيل

أن هناك "شخصاً له من الذكاء ما يمكّنه من غشّ هذا الصبي،" كما قال لاحقاً. "لم يخجل ولو قليلاً أن يدخل ومعه كل هذه الزجاجات. أنا، ما كان يمكن أن أفعلها، كنت سأشعر بخجل شديد. ولكن الناس في الموتيل كانوا لطيفين تجاهه، فقط ضحكوا. تبين أن قيمة الزجاجات كانت 12 دولارًا وستين سنتاً."

قسم الصبي النقود بالعدل، أخذ النصف لنفسه، والباقي لشريكيه، وقال، "هل تعلمون ماذا سأفعل؟ سنملأ أنا وجوني بطنينا بطعام جيد. ألستم جائعين يا زملاء؟"

دك كان جائعاً، كما هو الحال على الدوام. وبعد كل هذا النشاط، بيري شعر أيضاً بجوع شديد. وكما قال فيما بعد، "حملنا العجوز إلى المطعم ووضعناه على كرسي إلى طاولة. لقد بدا تماماً كأنه ميت. لم يتفوه بكلمة. ولكن كان عليكم أن تروا كيف كان يغرف الطعام. طلب له الصبي فطائر؛ قال إن هذا ما يفضله جوني. أقسم لكم إنه أكل حوالي ثلاثين فطيرة. مع حوالي باوندين من الزبدة، وربع غالون من الشراب. تمكن الصبي أن يفعل كل ما يجب فعله. وكل ما طلبه هو رقائق البطاطا والآيس كريم، ولكنه أكل الكثير منها بالتأكيد. أتساءل كيف لا يمرض جراء ذلك."

خلال الغداء، قال دك، بعد أن نظر إلى خارطة، إن سويتووتر تبعد مسافة مئة ميل أو أكثر إلى الغرب من الطريق الذي يأخذه – الطريق الذي يوصله إلى نيفادا عبر نيو مكسيكو وأريزونا – ثم إلى لاس فيغاس. ورغم أن هذا صحيح، كان واضحاً لبيري إن دك كان يريد ببساطة التخلص من الصبي وجده. كان اقتراح دك واضحاً للصبي أيضاً، لكنه كان مهذباً وقال، "أوه، لا تقلق بشأننا. لا بد أن تتوقف

الكثير من السيارات هنا. أحد ما سيقلّنا في طريقه."

سار الولد معهما إلى السيارة، تاركاً العجوز يلتهم كومة جديدة من الفطائر. صافح دك وبيري، وتمنى لهما عاماً سعيداً، ولوح لهما بيديه حتى غابا في الظلام.

o o

كان مساء الأربعاء، 30 ديسمبر، من المساءات التي لا تنسى في بيت الوكيل أ.أ. ديوي. قالت زوجته، وهي تسترجع ذلك المساء، "كان ألفن يغني في الحمام. (وردة تكساس الصفراء). الأولاد يشاهدون التلفزيون بينما انشغلت بإعداد مائدة الطعام لعشاء "بوفيه". أنا من نيو أورليانز؛ أحب الطبخ واستضافة الأصدقاء، وكانت أمي قد أرسلت لنا صندوقًا من الأفوكادو واللوبياء، و– أوه، كومة من الأشياء الرائعة حقاً. لذلك قررت: سوف نعدّ بوفيه، وندعو بعض الأصدقاء – عائلة موريس، وكليف، ودودي هوب. لم يكن دودي راغباً بذلك، لكني كنت مصرّة. يا إلهي! القضية كان يمكنها أن تستمر إلى الأبد، وهو لم يبتعد عنها بالكاد دقيقة منذ أن بدأت. المهم، كنت أعد الطاولة، وحين سمعت رنين الهاتف طلبت أن يرد أحد من الأولاد – بول. قال باول إن الاتصال للبابا، قلت له، "قل لهم إنه في الحمام،" لكن باول تساءل إن كان يمكنه فعل ذلك، لأن المتصل هو السيد سانفورد من توبيكا. رئيس ألفن. أخذ ألفن المكالمة وهو يلفّ نفسه بمنشفه. أثار جنوني لأنه ملأ الأرض بالماء. ولكن حين ذهبت كي أحضر ممسحة، رأيت ما هو أسوأ – كان القط، البهيم الأحمق، على طاولة المطبخ يلتهم سلطة لحم السلطعون. حشوة الأفوكادو خاصتي.

"الشيء التالي، أن ألفن أمسكني فجأة، واحتضنني، فقلت له،

"ألفن ديوي، هل فقدت عقلك؟" أنا أحب المرح، ولكن ألفن كان مبللاً كبركة ماء، وبلل ملابسي التي ارتديتها للتو من أجل السهرة. بالطبع حين فهمت لماذا احتضنني، احتضنته بالمقابل على الفور. يمكنك أن تتخيل ماذا يعني لألفن أن يعلم أن هؤلاء الرجال قد اعتقلوا. في لاس فيغاس. قال إنه يجب أن ينطلق إلى لاس فيغاس على الفور، وسألته ألا يتوجب عليه أن يرتدي بعض الملابس أولاً. قال، وكان متوتراً للغاية، "يا الله، حبيبتي، أعتقد أنني أفسدت عليك سهرتك!" لم أكن أعتقد أن هناك سبباً أسعد لإفساد السهرة – فهو السبب الذي يعني أننا يمكن أن نعود قريباً إلى حياتنا العادية. ضحك ألفن – كان ممتعاً أن أسمعه يضحك. أقصد أن الأسبوعين الماضيين كانا أسوأ أسبوعين في حياتنا. ففي الأسبوع السابق على الكريسماس تبيّن أن هذين الرجلين كانا في كانساس سيتي – جاءا وذهبا دون أن يقبض عليهما – ولم أر في حياتي ألفن أكثر إحباطاً، ما خلا مرة حين كان ألفن الصغير في المستشفى يعاني من التهاب الدماغ، اعتقدنا أننا يمكن أن نخسره. لكني لا أود الحديث عن هذا.

"على كل حال، صنعت له القهوة، وأخذتها إلى غرفة النوم، حيث يفترض أنه يرتدي ملابسه. لكنه لم يكن يرتدي ملابسه، بل كان جالساً على حافة السرير، يمسك رأسه بيديه، كما لو أنه يعاني من صداع. لم يكن قد لبس حتى الجوارب. لذلك قلت، "ماذا تريد أن تفعل، أن تصاب بالتهاب الرئة؟" نظر إلي وقال، "ماري، اسمعي، لا بد أن هذين الشخصين هما المجرمين، لا بد، هذا هو الحل المنطقي الوحيد." ألفن ظريف. كما في المرة الأولى التي نافس فيها على منصب عمدة مقاطعة فيني. ليلة الانتخابات، بعد عدّ كل الأصوات عملياً،

وكان واضحاً وضوح الشمس أنه فاز، قال – كان يمكنني أن أخنقه وقتها – وكرر القول مراراً، "لا يمكننا أن نعرف حتى الإعلان الرسمي."

"قلت له، "الآن لا تشغل ذهنك بهذا، ألفن. بالطبع هم من فعل ذلك." قال، "أين الأدلة؟ لا يمكننا أن نثبت أن أياً منهما قد وضع قدماً داخل بيت كلاترا!" ولكن بدا لي إن هذا هو بالضبط ما يمكن البرهان عليه: آثار الأقدام – ألم يخلّف أحد هذين الوحشين آثار قدميه؟ قال ألفن، "نعم، وما قيمة آثار الأقدام – إلا إذا صادف أنهما يلبسان البوط الذي ترك الأثر. أما آثار الأقدام بحد ذاتها، فإنها لا تساوي فلساً" قلت، "لا بأس، حبيبي، اشرب قهوتك وسأساعدك في حزم الحقيبة." أحياناً يصعب فهم ألفن. الطريقة التي استمر يحكي فيها، جعلتني أقتنع أن هيكوك وسميث كانا بريئين، وإذا لم يكونا بريئين فإنهما لا يمكن أن يعترفا، وإذا لم يعترفا، لا يمكن إدانتهما – الأدلة كانت ظرفية جداً وغير قاطعة. ولكن أكثر ما أقلقه هو أن يكون الخبر قد تسرب، وأن هذين الشخصين قد علما بالحقيقة قبل أن يستجوبهما مكتب تحقيقات تكساس. هما يعتقدان أنه تم اعتقالهما بسبب انتهاك شروط الإفراج. وكتابة شيكات بلا رصيد. وشعر ألفن أن من المهم جداً أن يبقيا على هذه القناعة. قال، "إن اسم كلاتر لا بد أن ينزل على رأسهم كالمطرقة، ضربة لا يتوقعانها أبداً."

"عاد باول – كنت أرسلته إلى حبل الغسيل لجلب جوارب ألفن – ووقف قريباً يراقبني أحزم الحقيبة. كان يريد أن يعرف إلى أين ينوي ألفن الذهاب. رفعه ألفن بيديه. قال، "هل تحفظ السر يا باولي؟" لم يكن بحاجة إلى طلب..الصبيّان يعرفان أنه يجب عدم الحديث نهائياً عن عمل ألفن – عن الأشياء التي يمكن أن يسمعاها في البيت. ثم قال،

"باولي، هل تذكر الشخصين الذين كنا نبحث عنهما؟ المهم، عرفنا الآن أين هما، والبابا ذاهب لجلبهما إلى هنا، إلى غاردن سيتي." لكن باولي رجاه، "لا تفعل هذا بابا، لا تجلبهما إلى هنا." كان خائفاً – هذا طبيعي بالنسبة لطفل في التاسعة من العمر. قبّله ألفن، وقال، "الآن، الأمور على ما يرام يا باولي، لن ندعهما يؤذيان أحداً. إنهما لن يؤذيا أحداً بعد الآن."

٥ ٥

في الخامسة بعد الظهر، بعد حوالي عشرين دقيقة على تجاوز الشيفرولية المسروقة صحراء نيفادا إلى لاس فيغاس، وصلت الرحلة إلى نهايتها. ولكن قبل هذا كان بيري قد زار مكتب البريد في لاس فيغاس، وطالب بالطرد الذي أرسله لنفسه من المكسيك بضمانة جينيرال ديليفردي – الصندوق الكرتوني الكبير من المكسيك، المؤمّن مقابل مئة دولار، المبلغ الذي يتجاوز بكثير قيمة المحتويات، التي كانت لباسًا عسكريًّا للبحر، وسراويل قطنية، وقمصانًا بالية، ولباسًا داخليًّا، وبوطًا ذو إبزيمات فولاذية. كان دك في مزاج عال وهو ينتظر بيري خارج مبنى البريد؛ فقد توصّل حينها إلى قرار، وهو متأكد من أنه سوف ينهي الضائقة الحالية ويبدأ طريقاً جديداً، يضعه في عالم ملوّن بقوس قزح. القرار هو أن ينتحل شخصية ضابط في القوى الجوية. المشروع الذي طالما فتنه، ولاس فيغاس هي المكان المثالي للتنفيذ. اختار سلفاً اسم ورتبة الضابط، الاسم استعاره من أحد معارفه السابقين، الذي كان حينها آمر إصلاحية ولاية كانساس: تراسي هاند. كان ينوي دك، بوصفه النقيب تراسي هاند، بلباس أنيق في بدلة مصنوعة حسب الطلب، أن "يجوب كل الشريط،" شارع لاس فيغاس ذو الكازينوهات التي لا تغلق أبداً. الصغير والكبير، الوضيع والفخم – كان يقصد ضرب

الجميع، وهو يوزع في طريقه "حزمة من قصاصات الورق الملونة." وقد توقع أن يسحب، من خلال كتابة الشيكات المزورة على مدار الساعة، ثلاثة وربما أربعة آلاف دولار في غضون أربع وعشرين ساعة. هذا كان نصف الخطة؛ النصف الثاني كان: وداعاً بيري. فقد سئم منه دك، من الهرمونيكا خاصته، آلامه وأمراضه، خرافاته، عيناه الباكيتان اللتان تليقان بامرأة، النقّ، الصوت الهامس. إنه شكاك، ولديه يقين بصلاحه الذاتي، وحقود؛ إنه مثل امرأة ينبغي الخلاص منها. وليس هناك سوى طريقة واحدة للخلاص منه: فقط امض دون أن تقول شيئاً.

كان دك غارقاً في خطته، فلم يلاحظ سيارة الدورية تمرّ بجانبه، وتبطئ وتستطلع. بيري أيضاً، لم يلاحظ، وهو ينزل على درجات مكتب البريد حاملاً الصندوق المكسيكي على كتفه، السيارة التي تطوف برجال الشرطة داخلها.

في ذهن الضابطين أوسي بيغفورد وفرانسيس ماكولي كانت صفحات من البيانات المحفوظة، بما في ذلك وصف سيارة شيفرولية سوداء وبيضاء موديل 1956 تحمل لوحة كانساس رقم 16212. لم ينتبه بيري أو دك أن هناك سيارة بوليس تتبعهما عند خروجهما من مكتب البريد، كان دك يقود السيارة وبيري يوجّهه، تجاوزا خمسة أحياء سكنيّة إلى الشمال، دارا إلى اليسار، ثم إلى اليمين، ساقا ربع ميل بعد ذلك، وتوقفا أمام شجرة نخيل محتضرة، ولافتة أنهكها الطقس فلم يبق مما كتب عليها سوى كلمة "OOM."

"هذه هي؟" سأل دك.

أومأ بيري بالإيجاب، بينما كانت سيارة الدورية تتوقف بجانبهما.

ه ه

تضم شعبة التحقيق في سجن مدينة لاس فيغاس غرفتي تحقيق – غرفتان مضاءتان بالفلورسنت، مساحتهما عشرة في اثني عشر متراً، بجدران وسقف من السيلوتيكس. يوجد في كل غرفة، إضافة إلى المروحة الكهربائية، طاولة معدنية، وكراسٍ معدنية قابلة للطي، وهناك ميكروفونات مموّهة، وأشرطة تسجيل مخفيّة، وفي الباب توجد نافذة مراقبة بمرآة تسمح بالرقابة من جهة واحدة. يوم السبت، اليوم الثاني من عام 1960، كانت الغرفتان محجوزتان الساعة الثانية بعد الظهر – الساعة التي اختارها محققون من كانساس لمواجهتهم الأولى مع هيكوك وسميث.

قبيل اللحظة المحددة، عملاء مكتب تحقيقات كانساس الأربعة – هارولد ناي، روي تشيرش، ألفن ديوي، وكليرنس دونتز – تجمعوا في الرّدهة خارج غرف التحقيق. كان ناي محموماً. "بسبب الإنفلونزا جزئياً. ولكن السبب الأبرز هو الإثارة المحضة،" كما أخبر أحد الصحفيين فيما بعد. "في ذلك الوقت كنت قضيت يومين من الانتظار في لاس فيغاس – فأنا أخذت أول طائرة إلى لاس فيغاس بعد وصول خبر الاعتقال إلى مقرنا في توبيكا. بقية الفريق، آل وروي وكليرانس، جاؤوا بالسيارات – كانت رحلتهم متعبة أيضاً. طقس قذر. قضوا عشية رأس السنة يحاصرهم الثلج في موتيل في ألبوكيرك. حين وصلوا إلى لاس فيغاس كانوا في حاجة إلى ويسكي جيدة وأخبار جيدة. وكنت أعددت لهم الشيئين. شبابنا كانوا قد وقّعوا على تنازل بتسليم المجرمين. والأهم من ذلك: كنّا حصلنا على البوطين - قدم القطّ وطبعة الماسات - والنعلين طابقا تماماً الصور بالحجم الطبيعي لآثار الأقدام التي وجدت في بيت كلاتر. كان البوطان في صندوق مواد

استلمه الولدان من مكتب البريد تماماً قبل إسدال الستارة. وكما أخبرت آل ديوي، افترض أن الاعتقال كان أبكر بخمس دقائق!

"مع ذلك، قضيّتنا متقلقلة جداً – لا شيء فيها صلب بحيث لا تمكن إزاحته. ولكن أذكُر، بينما كنا ننتظر في الممر – أذكر أنني كنت محموماً ومتوتراً إلى أبعد الحدود، ولكني كنت واثقاً. كلنا كنا واثقين؛ شعرنا أننا على حدود الحقيقة. كانت مهمتي، ومهمة تشيرش، أن نحقق مع هيكوك ونجعله يعترف بالحقيقة. أما سميث فكان حصة آل والعجوز دونتز. في ذلك الوقت لم أكن قد رأيت المشبوهين – فقط تفحصت أغراضهما ورتبت موضوع استلامهما. لم تقع عيني على هيكوك حتى أحضروه إلى غرفة التحقيق. كنت أتخيله بحجم أكبر. بنية عضلية أقوى. وليس مجرد ولد نحيل. كان في الثامنة والعشرين ولكنه بدا ولداً. جائع – لم يبق فيه سوى العظم. كان يلبس قميصاً أزرق وسروالًا خاكيًا وجوارب بيضاء وحذاء أسود. تصافحنا؛ كانت يده أكثر جفافاً من يدي. نظيف، مهذّب، لطيف الصوت، لفظه سليم، شخص بهيئة لائقة تماماً، مع ابتسامة مؤثرة – في البداية ابتسم كثيراً.

"قلت، /سيد هيكوك، اسمي هارولد ناي، وهذا الرجل الآخر هو السيد روي تشيرش. نحن مندوبان خاصان من مكتب التحقيق في كانساس، وجئنا كي نناقش خرق شروط الإفراج. بالطبع أنت غير ملزم بالإجابة عن الأسئلة، وكل ما تقوله يمكن أن يستخدم ضدك في الأدلة. لك الحق بأن يكون لديك محام طوال الوقت. لن نستخدم معك أي عنف، أو تهديد، ولن نقدم لك أي وعود./ كان هادئاً إلى حد حد كبير."

○ ○

"أعرف الصيغة،" قال ديك. "سبق أن تعرضت للاستجواب."

"الآن، سيد هيكوك –"

"دك."

"دك، نريد أن نتحدث معك بشأن ما قمت به منذ الإفراج المشروط عنك. بحسب علمنا إنك قمت، مرتين على الأقل، بنشاط كبير بالشيكات في كانساس سيتي."

"أوه-هوه. وزعت منها عددًا غير قليل."

"هل يمكنك أن تعطينا قائمة؟"

ذكر السجين، الذي بدا فخوراً بموهبته الحقيقية، وهي الذاكرة القوية، أسماء وعناوين عشرين مخزناً ومقهى وكراجًا، في كانساس سيتي، وتذكر بالضبط "المشتريات" التي اشتراها من كل محل والمبلغ الذي كتبه على الشيك.

"ما يثير فضولي، دك، لماذا يقبل هؤلاء الناس شيكاتك؟ أود أن أعرف السر."

"السر هو أن الناس مغفّلون."

قال روي تشيرش، "لا بأس، دك. ظريف جداً. ولكن دعنا ننسى هذه الشيكات الآن." رغم أن صوته يوحي كأن بلعومه مبطن بشعر خنزير، ورغم أن يداه صلبتان بحيث يمكنه أن يلكم الجدران الحجرية (في الحقيقة هذه حركته المفضلة)، كثير من الناس يخطئون فيعتبرونه رجلًا بسيطًا لطيفًا، العمّ الأصلع ذو الخدود الوردية. "دك،" قال تشيرش، "أخبرنا شيئاً عن خلفيتك العائلية."

استغرق السجين في سرد الذكريات. ذات مرة، حين كان في التاسعة أو العاشرة، مرض أبوه، "بحمى الأرانب،" استمر المرض

عدة أشهر، خلال هذه الفترة اعتمدت العائلة على مساعدة الكنيسة وصدقات الجيران – "وإلا لمتنا من الجوع." إذا استبعدنا هذه الفترة، فإن طفولته كانت مقبولة. "لم يكن لدينا وفرة من المال في أي وقت، ولكن لم نصل إلى الفقر المدقع أيضاً،" قال هيكوك. "دائماً كان لدينا ملابس نظيفة ولدينا ما نأكله. على أن أبي كان قاسياً. لا يرتاح إذا لم يجبرني على العمل. ولكن سارت الأمور بسلام – دون مجادلات جدية. والداي لم يتجادلا أيضاً. لا أذكر لهما شجاراً واحداً. إن أمي امرأة رائعة. وأبي طيب أيضاً. يمكن أن أقول إنهما عملا من أجلي ما بوسعهما." المدرسة؟ الحقيقة، يشعر أنه كان يمكن أن يكون طالباً ذا مستوى فوق المتوسط، لو أنه كرّس للكتب جزءاً من الوقت الذي "هدره" على الرياضة. "بيسبول، فوت بول، لعبت في كل الفرق. بعد الثانوي كان يمكن أن ألتحق بكليّة عن طريق منحة دراسية لكرة القدم. رغبت في دراسة الهندسة، ولكن حتى مع المنحة، فإن دراسة كهذه تكلّف الكثير. لا أدري، بدا لي أنّه من الأسلم لي الحصول على عمل."

قبل عيد ميلاده الحادي والعشرين، كان دك قد اشتغل عامل سكك حديدية، سائق سيارة إسعاف، دهان سيارات، ومكيانيكي في كراج؛ كما تزوج من فتاة في السادسة عشرة من العمر. "كارول. كان أبوها كاهناً، وضدّي إلى أبعد الحدود. قال إنني نكرة بدوام كامل. عمل كل المشاكل التي يستطيع عملها. ولكني كنت مجنوناً بكارول. ولا زلت. إنها أميرة حقيقية. انظر فقط، لدينا ثلاثة أولاد، صِبيان، وكنا بعمر صغير جداً على هذا الشيء. ربما لو لم أغرق في الدين. لو كان يمكنني كسب المزيد من المال. حاولت."

حاول القمار، وبدأ بتزوير الشيكات وجرب أشكالاً أخرى من

السرقة. في 1958 أدين بالسطو في محكمة في مقاطعة جونسون وحكم عليه بالسجن خمس سنوات في إصلاحية ولاية كانساس. ولكن في هذا الوقت كانت كارول قد غادرت وتزوج من فتاة أخرى في السادسة عشرة من عمرها. "حقيرة إلى أبعد حد. هي وكل عائلتها. طلقتني بينما كنت في الداخل. أنا لا أشكو. في أغسطس الماضي، حين غادرت **الجدران**، تخيلت أن أمامي كل الفرص كي أبدأ من جديد. حصلت على عمل في أولاث، وعشت مع عائلتي، وكنت آوي إلى البيت ليلاً. كنت أعمل بشكل ممتاز–"

"حتى العشرين من نوفمبر،" قال ناي، ويبدو أن هيكوك لم يفهمه. "اليوم الذي توقفت عن العمل بشكل ممتاز وبدأت تزور الشيكات، لماذا؟"

تنهد دك وقال، "هذا حديث ذو شجون." في هذا الوقت، كان يدخن سيجارة استعارها من ناي وأشعلها له المهذب تشيرش، قال، "بيري – صديقي بيري سميث – كان قد خرج بإفراج مشروط في الربيع. فيما بعد، عندما خرجت أنا، أرسل لي رسالة، تحمل خاتم بريد إيداهو. كتب يذكرني بشيء كنا تكلمنا عنه كثيراً. بشأن المكسيك. الفكرة هي أن نذهب إلى أكابولكو، من بين أماكن أخرى، ونشتري قارب صيد، نديره بأنفسنا – ونأخذ السياح في جولات صيد في عمق البحر."

قال ناي، "وكيف سوف تؤمنون سعر هذا القارب؟"

"سأقول لك،" قال هيكوك. "انظر، كتب لي بيري إن لديه أختًا تعيش في فورت سكوت. وأنها تحفظ له مبلغاً جيداً من المال. بضعة آلاف دولار. تركها له أبوه من بيع ملكيّة لهم في ألاسكا. وقال إنه قادم إلى كانساس لأخذ النقود."

"وأنتما معاً سوف تستخدمان المال لشراء قارب."

"صحيح."

"لكن الأمور لم تسر على هذا النحو."

"ما حدث هو أن بيري جاء ربما بعد شهر. قابلته في محطة الباصات في كانساس سيتي –"

"متى؟" قال تشيرش. "أي يوم من الأسبوع؟"

"الخميس."

"ومتى ذهبتما إلى فورت سكوت؟"

"السبت."

"الرابع عشر من نوفمبر."

التمعت عينا هيكوك دهشة. يمكن أن يقرأ المرء فيهما إنه تساءل لماذا كان تشيرش واثقاً من التاريخ؛ وعلى الفور – لأنه كان من المبكر إثار شكوك الرجل – قال المحقق، "في أي وقت انطلقتما إلى فورت سكوت؟"

"بعد الظهر. قمنا ببعض التصليحات في سيارتي، وتناولنا طبق تشيلي في مقهى الويست سايد. يجب أن يكون ذلك حوالي الساعة الثالثة."

"حوالي الثالثة. وهل كانت أخت بيري سميث تنتظركما؟"

"لا. لأن بيري أضاع عنوانها. ولم يكن عندها هاتف."

"وكيف كان يمكنكم العثور على العنوان؟"

"بالسؤال عنها في مكتب البريد."

"وهل سألتما؟"

"سأل بيري. قالوا له إنها انتقلت. إلى أوريغون، حسب

اعتقادهم. ولكنها لم تترك أي عنوان آخر لتحويل الرسائل."

"لا شك أن هذا كان صدمة لكما. بعد أن كنتما تعولان على مبلغ كبير من المال كهذا."

وافق هيكوك. "لأنه – المهم، قررنا بشكل نهائي الذهاب إلى المكسيك. وإلا، ما كان يمكنني أن أدفع مقابل الشيكات. ولكني كنت آمل ... الآن، اسمعني؛ أنا أقول لك الحقيقة. اعتقدت أنه ما أن نصل إلى المكسيك ونبدأ بجني المال، سيكون بمقدوري الدفع. دفع الشيكات."

استلم ناي المبادرة. "لحظة يا دك." ناي رجل سريع الغضب يصعب عليه تعديل اندفاعه العدواني، هو موهوب باللغة الحادة والصريحة. "أريد أن أسمع أكثر عن رحلتكما إلى فورت سكوت،" قال ناي مهدئاً اندفاعه. "حين لم تجدا أخت سميث هناك، ماذا فعلتما بعد ذلك؟"

"تجولنا قليلاً. شربنا البيرة. وسقنا عائدين."

"تقصد توجهتما إلى البيت؟"

"لا. إلى كانساس سيتي. توقفنا في زيستو درايف إن. أكلنا همبرغر. وجربنا الشيري رو."

لا ناي ولا تشيرش كانا يعرفان الشيري رو.

قال هيكوك، "هل تمزحان؟ كل شرطي في كانساس يعرفه." وحين كرر المحققان جهلهما به، شرح لهما إنه محل في حديقة يقابل فيه الشخص "المحتالين في الغالب،" مضيفاً، "ولكن يوجد أيضاً الكثير من الهواة. ممرضات، سكرتيرات. أتاني الكثير من الحظ هناك."

"وفي تلك الأمسية. كنت محظوظاً؟"

"النوع السيء. انتهينا ببرميلين."

"الأسماء؟"

"ميلدريد. والأخرى، بنت بيري، أعتقد كان اسمها جوان."

"صِفهما."

"ربما كانا أختين. الشعر أشقر. سمينتان. لا أذكر جيداً. انظر، اشترينا زجاجة من كوكتيل زهر البرتقال الجاهز – وهو برتقال عادي مع فودكا – اشتدت بي الرغبة. أعطيناهما القليل من الكوكتيل وذهبنا بهما إلى فون هافين. أتخيل أنكما لم تسمعا بفون هافين أيها الفاضلان."

لم يسمعا من قبل.

ابتسم دك ورفع كتفيه. "يقع على طريق البلو ريدج. على بعد ثمانية أميال جنوب كانساس سيتي. مجمع من موتيل ونادي ليلي. تدفع عشر دولارات وتأخذ مفتاح غرفة خاصة."

وتابع، فوصف الغرفة التي زعم أن الأربعة قضوا الليل فيها: سريران مزدوجان، روزنامة كوكا كولا قديمة، جهاز راديو لا يعمل ما لم تضع فيه ربع دولار. اتزانه ووضوحه، وعرضه الواثق لتفاصيل يمكن التحقق منها أعجبت ناي – رغم أن الولد، بالطبع، كان يكذب. أم أنه لم يكن يكذب؟ سواء بتأثير الإنفلونزا والحرارة أو الانخفاض المفاجئ في حرارة ثقته الخاصة. نضح ناي بتعرق بارد.

" استيقظنا في الصباح التالي لنكتشف أنهما سرقتانا وهربتا،" قال هيكوك. "لم تأخذا مني الكثير. ولكن بيري خسر جزدانه، وفيه أربعين أو خمسين دولار."

"ماذا فعلتما إزاء هذا؟"

"لم يكن أمامنا ما نفعله."

"كان يمكنكما إخطار الشرطة."

"أوو، ماذا تقول؟ دع عنك! إخطار الشرطة؟ لعلمك، المفرج عنه بشروط لا يحق له أن يشرب الخمر. أو أن يرافق زميلًا سابقًا –"

"لا بأس، دك. إنه يوم الأحد. الخامس عشر من نوفمبر. أخبرنا ماذا فعلت في ذلك اليوم من لحظة خروجك من فون هافين."

"تناولنا الفطور في استراحة شاحنات قرب هاي هيل. ثم سقنا إلى أولاث، أنزلت بيري عند الفندق الذي كان يعيش فيه. كان هذا حوالي الساعة الحادية عشرة. بعد ذلك، ذهبت إلى البيت وتناولت الغداء مع أهلي. كما هو الحال في كل يوم أحد. شاهدنا التلفزيون – لعبة كرة سلة، أو ربما كانت كرة قدم. كنت متعباً بشدة."

"متى رأيت بيري سميث بعد ذلك؟"

الاثنين. جاء إلي حيث أعمل. بوب ساندز بودي ستوب."

"وماذا دار بينكما بشأن؟ المكسيك؟"

"الحقيقة كنا لا نزال ميالين إلى الفكرة، حتى لو لم يكن لدينا المال الكافي لنعمل ما خططنا له – أن نكوّن عملاً لنا هناك. لكننا رغبنا بالذهاب، وبدا أن الأمر يستحق المغامرة."

"يستحق العودة فترة أخرى إلى لانسينغ؟"

"لم نكن نتخيل ذلك. انظر، لم يكن في بالنا أن نعود إلى أمريكا ثانية."

قال ناي، الذي كان يسجل ملاحظات في دفتر ملاحظاته، "في اليوم التالي لحفلة الشيكات – ينبغي أن يكون هذا في الواحد والعشرين من نوفمبر – اختفيت أنت وصديقك سميث. الآن، أرجو منك يا دك

أن تذكر لنا بشكل عام تحركاتك منذئذ حتى اعتقالك هنا في لاس فيغاس. فقط بالإطار العام."

صفر هيكوك وحرك عينيه. "واو!" قال، ثم بدأ، بعد أن استجمع موهبته لتقديم ما يشبه استذكارًا إجماليًا، يصف الرحلة الطويلة – حوالي عشرة آلاف ميل قطعها مع بيري في الأسابيع الستة الماضية. تكلم لمدة ساعة وخمس وعشرين دقيقة – من الثانية وخمسين دقيقة إلى الرابعة والربع – وذكر، بينما حاول ناي أن يسجل وراءه، الطرق السريعة والفنادق والموتيلات والأنهار والبلدات والمدن ومجموعة من الأسماء المركّبة: أباتشي، إل باسو، كوربوس كريستي، سانتيللو، سان لويس بوتوسي، أكابولكو، سان دييغو، دالاس، أوماها، سويتووتر، ستيلووتر، تينفيل جونكسيون، تالاهاسي، نيدلز، ميامي، فندق نيفو والدورف، فندق سمرست، فندق سيمون، موتيل أروهيد، موتيل شيروكي، والكثير، الكثير غيرها. أعطاهما اسم رجل في المكسيك كان قد باعه سيارته الشيفرولية القديمة موديل 1949، واعترف أنه سرق شيفرولية أحدث في آيوا. ووصف الأشخاص الذين قابلهم هو وشريكه: الأرملة المكسيكية، الغنية والمثيرة؛ أوتو، "المليونير" الألماني؛ زوج من الملاكمين المحترفين الزنوج "اللامعين" بسيارة كاديلاك أروجوانية "لامعة"؛ المالك الأعمى لمزرعة أفاع في فلوريدا؛ العجوز المحتضر وحفيده؛ وغيرها. وحين انتهى جلس بيدين مكتوفتين وابتسامة راضية، كما لو أنه ينتظر الثناء على ظرافته ووضوحه وصراحة حكاية السفر التي قصّها.

لكن ناي، أسرع في الكتابة لملاحقة الرواية، فيما تشيرش، لم يقل شيئاً وهو يضرب بكسل راحته المفتوحة بقبضته – حتى قال فجأة، "أظن أنك تعرف سبب وجودنا هنا."

اعتدل فم هيكوك – وجلسته أيضاً.

"أظن أنك تدرك أننا لم نأت كل هذه المسافة إلى نيفادا فقط لندردش مع مزوري شيكات تافهين."

كان ناي قد أغلق دفتر الملاحظات. هو، أيضاً، حدق في السجين ولاحظ أن مجموعة من الأوردة قد ظهرت في صدغه الأيسر.

"هل صحيح، دك؟"

"ماذا؟"

"هل سنقطع هذه المسافة من أجل مجموعة من الشيكات؟"

"لا أعرف أي سبب آخر لمجيئكم."

رسم ناي خنجراً على غلاف دفتر ملاحظاته. وبينما هو يرسم، قال، "قل لي، دك. هل سبق لك أن سمعت بجريمة قتل عائلة كلاتر؟" عندها، كما كتب في تقريره الرسمي عن المقابلة، "بدت على المشتبه به ردة فعل شديدة مرئية. بهت لونه. وزاغ نظره."

قال هيكوك، "توقف الآن. انتظر هنا. أنا لست قاتلاً."

"أجب على السؤال،" ذكره تشيرش، "كان السؤال: هل سمعت بجريمة قتل عائلة كلاتر؟"

"ربما قرأت عنها شيئاً ما،" قال هيكوك.

"جريمة قذرة. قذرة. جبانة."

"وكاملة تقريباً،" قال ناي. "لكنكما ارتكبتما خطئين، يا دك. الأول، إنكما تركتما شاهداً. شاهداً حياً. سوف يشهد في المحكمة. سيقف في قفص الشهود ويخبر هيئة المحلفين كيف قام ريتشارد هيكوك وبيري سميث بربط وتكميم وذبح أربعة أشخاص لا حول لهم ولا قوة."

احمرّ وجه هيكوك بعد أن اصفرّ. "شاهد حي! لا يمكن أن يكون!"

"لأنكما خطّطتما للخلاص من أي شاهد؟"

"قلت توقف! لا يمكن لأحد أن يربطني بأي جريمة قتل. شيكات. سرقات صغيرة. ولكني لست قاتلاً."

"إذن لماذا كنت تكذب علينا؟" سأل ناي بغضب.

"كنت أخبركما الحقيقة."

"من وقت لآخر، وليس دائماً. مثلاً، ماذا عن بعد ظهر يوم السبت، الرابع عشر من نوفمبر؟ تقول إنكما سقتما إلى فورت سكوت."

"نعم."

"وهناك ذهبتما إلى مكتب البريد."

"نعم."

"لمعرفة عنوان أخت بيري سميث."

"هذا صحيح."

نهض ناي. ومشى ملتفاً حتى وصل خلف كرسي هيكوك، ووضع يديه على مسند الكرسي، وانحنى كأنه يريد أن يهمس في أذن السجين. "ليس لبيري أخت تسكن في فورت سكوت،" قال. "لم يكن لديه أخت هناك قط. وللمصادفة، كان مكتب البريد في فورت سكوت مغلقاً في ذلك اليوم." ثم قال، "فكر بالأمر يا دك. هذا كل شيء الآن. سوف نتكلم لاحقاً."

بعد انصراف هيكوك، عبر ناي وتشيرش الممر، ونظرا عبر نافذة المراقبة وحيدة الاتجاه الموجودة باب غرفة التحقيق، وراقبا استجواب بيري سميث – المشهد كان مرئياً ولكن ليس مسموعاً. كانت المرة الأولى التي يرى ناي فيها سميث، وقد فوجئ بقدميه الصغيرتين كقدمي طفل

لم يتعلم المشي بعد. ذكّره رأس سميث – شعره الهندي الثخين، ولون بشرته الداكن الخليط بين الهندي والإيرلندي الذي يوحي بملامح شقية – بالسيدة جونسون اللطيفة، أخت المشتبه به الجميلة. غير أن هذا الرجل-الولد المكتنز المشوه لم يكن جميلاً؛ كانت النهاية الوردية للسانه تندفع إلى الأمام وتترجرج مثل لسان السحلية. كان يدخن سيجارة، ومن انتظام زفره للدخان، استنتج ناي إنه لا يزال "بِكْر" – أي لم يعلم بعد الغرض الحقيقي من المقابلة.

○ ○

كان ناي محقاً. لأن ديوي ودونتز، المهنيان الصبوران، ضيّقا بالتدريج قصة حياة السجين إلى أحداث الأسابيع السبعة الأخيرة، ثم إلى الخلاصة المركزة عن عطلة نهاية الأسبوع الحاسمة – من ظهر السبت إلى ظهر الأحد، 14-15 نوفمبر. الآن، بعد قضاء ثلاث ساعات في تمهيد الطريق، كانا قريبين من بلوغ الهدف.

قال ديوي، "بيري، دعنا نسترجع الوضع. الآن، حين حصلت على إفراج مشروط، كان من الشروط أن لا تعود أبداً إلى كانساس."

"ولاية زهرة عباد الشمس. لقد بكيت كثيراً."

"طالما الأمر كذلك، لماذا عدت؟ لا بد أن لديك سبباً قوياً."

"قلت لك. لأرى أختي. لأستلم المال الذي كانت تحفظه لي."

"أوه، نعم. الأخت التي حاولت أنت وهيكوك أن تجداها في فورت سكوت. بيري، كم تبعد فورت سكوت عن كانساس سيتي؟"

هز سميث رأسه. لا يعرف.

"حسناً، كم من الوقت احتجتما للوصول إليها بالسيارة؟"

لا جواب.

"ساعة؟ ساعتان؟ ثلاثة؟ أربعة؟"

قال السجين إنه لا يستطيع أن يتذكر.

"بالطبع لا تستطيع. لأنك لم تذهب في حياتك إلى فورت سكوت."

حتى تلك اللحظة، لم يكن أحد من المحققين قد شكك بأي جزء من كلام سميث. عدل جلسته على الكرسي؛ وبلل شفتيه برأس لسانه.

"الحقيقة هي أن كل ما قلته كذب. لم تطأ قدماك فورت سكوت على الإطلاق. لم تتعرفا على أي ابنتين ولم تصطحباهما إلى أي موتيل–"

"لقد فعلنا. ليس مزاحاً."

"وما هي الأسماء؟"

"لم أسأل."

"قضيتما الليل مع هاتين البنتين ولم تسألا عن الأسماء؟"

"كانتا مجرد عاهرتين."

"وما اسم الموتيل."

"اسأل دك. هو يعرف. أنا لا أتذكر أشياء كهذه."

خاطب ديوي زميله. "كليرانس، أعتقد إنه حان الوقت لنضع بيري على الصراط المستقيم."

انحنى دونتز إلى الأمام. هو من الوزن الثقيل مع رشاقة عفوية من الوزن الوسط، ولكن له عينان ناعستان وكسولتان. يمط الكلام حين يتحدث، تستغرق الكلمة منه وقتاً، يشكلها على مضض ويضعها في لهجة ريفية. "حاضر سيدي،" قال. "حان الوقت."

"اسمع جيداً، بيري. لأن السيد دونتز سيخبرك اين كنت بالفعل ليلة ذاك السبت. أين كنت وماذا كنت تفعل."

قال دونتز، "كنت تقتل عائلة كلاتر."

ابتلع سميث ريقه. وبدأ يفرك ركبتيه.

"كنت في هولكومب، كانساس. في بيت السيد هيربرت دبليو كلاتر. وقبل أن تغادر ذلك المنزل قتلت كل من فيه."

"أبداً. أنا أبداً."

"أبداً ماذا؟"

"لا أعرف أي شخص باسم كلاتر."

قال له ديوي إنه كاذب، ثم، استحضر الكرت الذي سبق أن اتفق المحققون الأربعة أن يبقوه مجهولاً، وقال له، "هناك شاهد حي يا بيري. شخص غفلتما عنه."

مرت دقيقة كاملة، وديوي يبتسم في صمت سميث ابتسامة المنتصر، لأن البريء كان ليسأل من هو هذا الشاهد، ومن هم عائلة كلاتر، ولماذا تظنون أنني قتلتهم – سوف يقول، في أي حال، شيئاً. غير أن سميث جلس هادئاً، يعصر ركبتيه.

"ماذا يا بيري؟"

"هل لديك حبة أسبرين؟ أخذو الأسبرين مني."

"تشعر بالألم؟"

"نعم، رجلاي."

كانت الساعة الخامسة والنصف. ديوي أنهى المقابلة بشكل مفاجئ عن عمد. "سوف نكمل هذا غداً،" قال. "بالمناسبة هل تعلم ماذا يصادف غداً؟ إنه عيد ميلاد نانسي. كانت ستكمل سنتها السابعة عشرة."

o o

"كانت ستكمل سنتها السابعة عشرة." تساءل بيري، وهو عاجز عن النوم في ساعات الفجر، (كما استرجع لاحقاً) هل حقاً كان اليوم عيد ملاد البنت، وقال في نفسه لا، لم يكن هذا سوى طريقة لإخافته، مثل القصة الكاذبة عن شاهد – "شاهد حي." "لا يمكن أن يكون هناك شاهد حي. أم أنهم يقصدون – ليته فقط يستطيع التكلم مع دك! لكنهما كانا مفصولين؛ دك محجوز في زنزانة في طابق آخر. "اسمع جيداً، بيري. لأن السيد دونتز سيخبرك اين كنت بالفعل ..." في منتصف الاستجواب، بعد أن بدأ يلاحظ عدد التلميحات إلى نهاية أسبوع محددة في نوفمبر، هيّأ نفسه للشيء الذي عرف أنه قادم، ومع ذلك حين جاء، حين قال الكاوبوي الضخم بصوته النعسان، "كنت تقتل عائلة كلاتر" – الحقيقة شعر أنه بات قاب قوسين أو أدنى من الموت، هذا كل شيء. لا بد أنه فقد عشر باوندات من وزنه خلال ثانيتين. الحمد لله إن المحققين لم يلاحظا ذلك. أو يأمل أنهما لم يلاحظا. وماذا عن دك؟ من المفترض أنهم مارسوا عليه الحيلة نفسها. دك ذكي، ومُقنِع، ولكن يصعب الاعتماد على "أمعائه"، يخاف بسهولة فائقة. ولكن مع ذلك، ومهما ضغطوا عليه، فإن بيري واثق من أن دك سيصمد. إلا إذا كان يريد أن يُشنق. "قبل أن تغادر ذلك المنزل قتلت كل من فيه." لن يدهشه إذا علم أن كل أصحاب السوابق في كانساس قد سمعوا العبارة نفسها. لا بد أنهم استجوبوا مئات الرجال، ولا شك أنهم اتهموا العشرات؛ ولم يكن هو ودك سوى من جملة هؤلاء. من جهة أخرى، هل سترسل كانساس أربع مندوبين خاصين مسافة ألف ميل من أجل اثنين قليلي القيمة من منتهكي شروط الإفراج؟ ربما عثروا على شيء ما، أحد ما – "شاهد حي." ولكن هذا مستحيل. ولكن – إنه مستعد أن يخسر ذراعاً، ساقاً لكي

يتكلم مع دك ولو لخمس دقائق فقط.

أما دك، فكان مستيقظاً في زنزانة في الطابق السفلي، وكان (كما قال لاحقاً) تواقاً إلى الحديث مع بيري بنفس القدر – ليعرف ماذا قال لهم هذا الغبي. يا إلهي، لا يمكن أن تثق به في أن يتذكر فكرة الفون هايفن للتدليل على أننا كنا في مكان آخر غير مكان الجريمة – رغم أنهما ناقشا الأمر مراراً. وحين هدده هؤلاء الأوغاد بشاهد! ألف بالمئة أن هذا الشبح الصغير ظن إنهم يقصدون شاهد عيان. في حين أن دك عرف حالاً من يجب أن يكون هذا المدعو شاهداً: فلويد ويلس، صديقه القديم وزميله السابق في الزنزانة. خلال الأسابيع الأخيرة من حكمه، كان دك يخطط لقتل فلويد – أن يطعنه بالقلب بشيف، سكين صنع يدوي – ويا له من أحمق لأنه لم ينفذ ذلك. سوى بيري، فإن فلويد ويلس هو الإنسان الوحيد الذي يمكن أن يربط اسم هيكوك باسم كلاتر. كان يظن دك، أن فلويد، بكتفيه المائلين وذقنه المنحرفة، سيمنعه الخوف من الكلام. لكن الوغد كان يتوقع ربما مكافأة مغرية – إفراج مشروط أو مكافأة، أو كليهما. لكن جهنم سوف تتجمد قبل أن يحصل عليها. لأن وشاية مُدان ليست دليلاً. الدليل هو البصمات، آثار الأقدام، الشهود، الاعتراف. وإذا كان كل ما لدى هؤلاء الكاوبوي هو قصة حكاها فلويد ويلس، إذن لا يوجد ما يثير القلق. إذا جئت للحق، فإن فلويد لا يشكل نصف الخطر الذي يشكله بيري. إذا فقد بيري أعصابه وانطلق، فإنه يمكن أن يضعهما **في الركن**. وفجأة وجد الحقيقة. من يجب إسكاته هو بيري. على طريق جبلي في المكسيك. أو أثناء سيرهما في الموهافي. لماذا لم تخطر له هذه الفكرة حتى الآن؟ فالآن، فات الأوان.

° °

أخيراً، في الساعة الثالثة وخمس دقائق بعد الظهر، اعترف سميث أن قصة فورت سكوت كانت ملفقة. "كانت مجرد قصة قالها دك لأهله، بحيث يبقى الليل خارجاً. لكي يشرب. أبوه يراقبه مراقبة لصيقة – يخشى أن يخرق شروط الإفراج. لذلك اخترعنا عذرًا يتعلّق بأختي. كان الغرض فقط هو طمأنة السيد هيكوك." وقد كرر القصة نفسها مراراً، ولم يتمكن دونتز وديوي، رغم أنهما صحّحا له مراراً واتهماه بالكذب، مِن جعله يغيرها – سوى ليضيف تفاصيل جديدة. اليوم تذكر اسمي العاهرتين، ميلدريد وجين (أو جوان). وتذكر أنهما "سرقتانا". "ذهبتا بكل نقودنا بينما كنا نائمين." ورغم أن دونتز نفسه قد فقد هدوءه – نزعَ، إضافة إلى معطفه وربطة عنقه، وقاره النعسان المبهم – إلا أن المشتبه به بدا راضيًا ورائقًا؛ ورفض أن يزحزح أقواله. لم يسمع قط بعائلة كلاتر أو هولكومب، أو حتى غاردن سيتي.

عبر الممر، في الغرفة المختنقة بالدخان حيث كان هيكوك يخضع للاستجواب الثاني، كان تشيرش وناي يطبّقان بشكل منهجي استراتيجية أكثر التواء. خلال هذه المقابلة، التي بدأت من حوالي ثلاث ساعات، لم يأت أي منهما على ذكر جريمة القتل – الشيء الذي ترك السجين في حال من التوتر والترقب. تكلما عن كل شيء آخر: فلسفة هيكوك الدينية ("أعرف الجحيم. كنت هناك. قد يكون هناك جنة أيضاً. الكثير من الأغنياء يعتقدون ذلك")؛ تاريخه الجنسي ("سلوكي الدائم هو سلوك شخص طبيعي مئة بالمئة")؛ ومرة أخرى، عن طوافه الأخير عبر البلاد ("لماذا بقينا نتجول هكذا، السبب الوحيد أننا كنا نبحث عن عمل. ولم نتمكن من العثور على عمل لائق، مع ذلك.

عملت يوماً واحداً في حفر خندق ...."). لكن مركز الاهتمام كان الأشياء المسكوت عنها – وهو السبب الذي زاد في توتر هيكوك، بحسب قناعة المحققين. حالياً، أغلق عينيه ولمس جفنيه بأصابع مرتجفة. وقال تشيرش، "ما بك؟"

"صداع. تأتيني نوبات أخت عاهرة."

عندها قال ناي، "انظر إليّ دك." أطاعه هيكوك، بتعبير فسّره المحقق على أنه يتوسله أن يتكلم، أن يتّهم، أن يترك السجين يهرب إلى ملاذ الإنكار الثابت. "حين ناقشنا الموضوع البارحة، ربما تذكر أنني قلت إن جريمة قتل العائلة كلاتر كانت جريمة كاملة تقريباً. المجرمون ارتكبوا خطئين فقط. الأول هو أنهم تركوا شاهداً. والثاني – لحظة، سوف أريك." نهض وأحضر من الزاوية صندوقاً وحقيبة، كان قد جلبهما إلى الغرفة في بداية المقابلة. أخرج من الحقيبة صورة كبيرة. "هذه،" قال، تاركاً الصورة على الطاولة، "نسخة طبق الأصل عن آثار أقدام وجدت قرب جثة السيد كلاتر. وهنا" – فتح الصندوق – "البوط الذي ترك الأثر. إنه بوطك يا دك." نظر هيكوك، ثم أشاح نظره. أراح كوعيه على ركبتيه وحمل رأسه بيديه. "سميث،" قال ناي، "لم يكن أكثر حرصاً. لدينا بوطه أيضاً، وهو يطابق بالضبط آثار قدم أخرى. آثارًا مرسومة بالدم."

اقترب تشيرش منه وقال، "ستتم إعادتك إلى كانساس. وسوف توجه إليك أربع اتهامات بجريمة قتل من الدرجة الأولى. التهمة الأولى: إنه في أو حول اليوم الرابع عشر من نوفمبر، 1959، أقدم المدعو ريتشارد أوجين هيكوك على قتل وإزهاق روح هربيرت دبليو كلاتر، عمداً ومع سبق الإصرار والترصد وبشكل إجرامي وغير قانوني. التهمة

الثانية: إنه في أو حول اليوم الرابع عشر من نوفمبر، 1959، أقدم المدعو ريتشارد أوجين هيكوك نفسه، على قتل –"

قال هيكوك، "بيري سميث هو من قتل العائلة كلاتر." رفع رأسه، واستقام في جلسته ببطئ على الكرسي، مثل مقاتل يترنح على قدميه. "إنه بيري. لم أستطع إيقافه. قتلهم جميعاً."

○ ○

احتجّت كلير، مديرة مكتب البريد، وهي تستمتع بفنجان قهوة في مقهى هارتمان، بانخفاض صوت راديو المقهى، وطالبت "ارفعوا الصوت."

كان الراديو يبث من محطة **كيول** في غاردن سيتي. سمعت كلير الكلمات التالية "... بعد أن نطق باعترافه الدراماتيكي، خرج هيكوك من غرفة التحقيق وفقد وعيه في الممر. أمسكه مندوبو مكتب تحقيقات كانساس حين سقط على الأرض. ونقل المندوبون عن هيكوك قوله إنه وسميث دخلا بيت كلاتر متوقعين أن يجدا خزنة تحوي على الأقل عشرة آلاف دولار. لم يكن هناك أي خزنة، وهكذا، ربطا أفراد العائلة وأطلقا عليهم النار واحداً واحداً. سميث لم يؤكد ولم ينف مشاركته في الجريمة. وحين قيل له إن هيكوك وقع على اعتراف، قال، "أريد أن أرى اعتراف صديقي." ولكن طلبه رفض. كما رفض المحققون أن يكشفوا ما إذا كان هيكوك أم سميث هو من أطلق النار على أفراد العائلة. وأكدوا على أن البيان يحمل رواية هيكوك فقط. أعاد عناصر مكتب تحقيقات كانساس الرجلين إلى كانساس، وغادروا لاس فيغاس بالسيارة. ومن المتوقع أن يصل الفريق إلى غاردن سيتي في وقت متأخر من يوم الأربعاء. في هذه الأثناء، فإن نائب المقاطعة ديوان ويست ..."

"واحداً واحداً،" قالت السيدة هارتمان. "تخيلوا فقط. لا عجب أن هذا السافل فقد وعيه."

آخرون في المقهى – السيدة كلير ومابل هيلم ومزارع شاب قوي كان قد توقف لشراء مضغة تبغ ماركة براونز ميول – همهموا وتمتموا. نشّفت السيدة هيلم عينيها بمنديل ورقي. "لن أسمع،" قالت. "لا يجب أن أسمع. لن أسمع."

"... قوبلت الأنباء عن اختراق في القضية برد فعل بارد في بلدة هولكومب، على بعد نصف ميل من منزل كلاتر. في العموم، عبر أهل البلدة، البالغ عددهم مئتان وسبعون، عن الراحة ..."

صاح المزارع الشاب. "راحة! الليلة الماضية، بعد أن سمعنا الخبر على التلفزيون، هل تعلمون ماذا فعلت زوجتي؟ رفعت صوتها بالبكاء كالأطفال."

"هُسس،" صاحت السيدة كلير. "هذه أنا."

"... وقالت مديرة مكتب البريد، السيدة ميرتل كلير، إن الأهالي سعداء بحل القضية، لكن بعضهم لا يزال يشعر أن هناك آخرين يمكن أن يكونوا متورطين أيضاً. وقالت إن الكثير من الأهالي يحافظون على أبوابهم مقفلة وبنادقهم جاهزة ..."

ضحكت السيدة هارتمان. "أوه، مارت!" قالت. "لمن قلت هذا الكلام؟"

"مراسل من التيليغرام."

الكثير من الرجال الذين يعرفون السيدة كلير يعاملونها كأنها رجل آخر. المزارع ضربها بكفه على ظهرها وقال، "يا إلهي، يا يسوع. ألا تزالين تعتقدين أن أحداً منا – أي شخص من هنا – له علاقة بالموضوع؟"

ولكن ذلك، بالطبع، ما كانت تعتقده السيدة كلير، ورغم أنها تكون متفردة بآرائها عادة، إلا أنها هذه المرة لم تكن وحيدة، ذلك أن غالبية أهالي هولكومب، بعد أن عاشوا سبع أسابيع وسط شائعات سامة، وشكوك، وانعدام ثقة عام، يبدون محبطين لمعرفتهم أن القاتل ليس شخصاً من بينهم. بالفعل، قسم مهم من السكان رفض أن يقبل حقيقة أن شخصين مجهولين، سارقين غريبين، هما المسؤولان الوحيدان عن الجريمة. وكما أشارت السيدة كلير الآن، "قد يكون هذان الشخصان هما من نفذ الجريمة. ولكن في الأمر ما هو أكثر من ذلك. انتظروا. يوماً ما، سيصلون إلى القاع، وحينها سوف يجدون من هو وراء الجريمة. الشخص الذي يريد إزاحة كلاتر. العقل المدبر."

تنهدت السيدة هارتمان. كانت تأمل أن تكون ميرت على خطأ. قالت السيدة هيلم، "أنا آمل، آمل أن يحبسوهما فترة طويلة. لن يكون من السهل عليّ أن أعرف إنهم حولنا."

"أوه، لا أعتقد أن عليك أن تقلقي، يا سيّدتي،" قال المزارع الشاب. "هذان الولدان مرعوبان منا الآن أكثر بكثير مما نحن خائفون منهما."

o o

على طريق سريع في أريزونا، تومض قافلة من سيارتين عبر بلد الميرميّة – بلد الميزا والصقور والثعابين والصخور الحمراء الشاهقة. كان ديوي يقود السيارة الأمامية، يجلس بيري سميث بجانبه، ويجلس دونتز في المقعد الخلفي. سميث مقيد بالأصفاد المربوطة بجنزير قصير إلى حزام الأمان – الإجراء الذي خد كثيراً من حركته بحيث إنه لا يستطيع أن يدخن دون مساعدة. حين يطلب سيجارة، يجب أن يشعلها له

ديوي ويضعها بين شفتيه، المهمة التي يجدها المحقق "منفرة،" لأنها تبدو كفعل حميم – الفعل الذي كان يفعله حين يدلل زوجته.

في المجمل، تجاهل السجين حارسيه ومحاولاتهما المتقطعة لإثارته بتكرار مقاطع من اعتراف هيكوك المسجل على شريط كاسيت مدته ساعة: "يقول إنه حاول أن يوقفك، بيري. ولكنه لم يستطع، كما يقول. يقول إنه خاف أن تقتله أيضاً،" ثم "نعم يا سيد بيري. أنت المسؤول بالكامل. هيكوك نفسه يقول إنه لا يؤذي برغوثاً على كلب." كل هذا لم يحرض سميث – ظاهرياً على الأقل. يستمر سميث في تأمل المشهد، ويقرأ الإعلانات الركيكة التي تروّج لمعجون بروما شيف على لافتات منثورة على الطريق، ويعد جثث الذئاب المقتولة بالرصاص والمعلقة على أسوار المزارع.

يقول ديوي، دون توقع أي رد استثنائي، "يخبرنا هيكوك إنك قاتل بالفطرة. يقول إنك ببساطة يمكن أن تقتل إنساناً. ويقول إنك ذات مرة في لاس فيغاس تبعت رجلاً ملوناً وبيدك جنزير دراجة هوائية. وإنك ضربته حتى الموت. كنوع من التسلية."

ولدهشة ديوي، فإن السجين راح يلهث. يلتوي في قعدته حتى يستطيع أن يرى من خلال النافذة الخلفية للسيارة، السيارة الثانية من القافلة، وينظر داخلها: "الولد الجِلف!" عاد إلى جلسته الأولى، وراح يحدق في الامتداد الأسود للطريق الصحراوي. "كنت أعتقد أنها حيلة. لم أصدقكم. لم أصدق أن دك حكى كل شيء. الولد الجِلف! أوه، وقح حقاً. لا يؤذي برغوثاً على كلب، لكنه يدهس الكلب." يبصق. "لم أقتل في حياتي أي زنجي." وافقه دونتز الذي كان قد درس ملفات لاس فيغاس عن جرائم القتل المسجلة ضد مجهول، وهو يعلم أن سميث بريء من

هذا الفعل. "لم أقتل في حياتي أي زنجي. هو يظن ذلك. كنت أعلم دائماً إنه إذا ألقي القبض علينا، وإذا اعترف دك، ودلق كل ما في أمعائه على الأرض – كنت أعلم إنه سيحكي قصة الزنجي." يبصق ثانية. "كان دك خائفاً مني إذن؟ شيء مضحك. شيء ظريف للغاية. ما لا يعرفه هو إنني كنت على وشك أن أطلق النار عليه."

يشعل ديوي سيجارتين، واحدة لنفسه والأخرى للسجين. "أخبرنا القصة، بيري."

يدخن سميث بعينين مغمضتين ويشرح، "أستعيد الأمر. أريد أن أتذكره كما حدث بالضبط." توقف عن الكلام لبرهة من الزمن.. "بدأ كل شيء برسالة وصلتني بينما كنت في بوهل، إيداهو. كان ذلك في سبتمبر أو أكتوبر. الرسالة كانت من دك، يقول فيها إنه يفكر في عملية بالغة السهولة. عملية ممتازة. لم أرد عليه، لكنه راسلني ثانية، طالباً مني العودة إلى كانساس ومشاركته في العملية. لم يقل لي أبداً ما هو نوع العلمية. فقط إنها عملية سهلة ومضمونة. وصادف أنه كان لدي سبب آخر للرغبة في العودة إلى كانساس في ذلك الوقت. سبب شخصي أحتفظ به لنفسي ولا علاقة له بهذا الموضوع. ولكن لولا هذا السبب لما عدت إلى هناك. لكني عدت. وقابلني دك في محطة الباصات في كانساس سيتي. سقنا حتى المزرعة، بيت والديه. لكنهما لم يرغبا ببقائي عندهم في البيت. أنا شديد الحساسية؛ وأعرف عادة ما هو شعور الآخرين."

"مثلك." يقصد ديوي، لكنه لم ينظر إليه. "أنت تكره أن تعطيني سيجارة. هذا شأنك. لا ألومك. كما أني لم ألم والدة دك. الحقيقة إنها لطيفة جداً. لكنها كانت تعلم من أنا – صديق من السجن، ولم ترغب

أن أكون في بيتها. الحق أنني سُعدت بالخروج من بيتهم والذهاب إلى الفندق. أخذني دك إلى فندق في أولاث. اشترينا بعض البيرة وصعدنا بها إلى الغرفة، وحينها أعطاني دك فكرة عما يخطط له. قال إنه بعد خروجي من لانسينغ، وُضع في زنزانة مع شخص سبق له أن عمل عند مزارع قمح ثري في غرب كانساس. السيد كلاتر. رسم لي دك مخططاً لبيت كلاتر. كان يعلم تفاصيل كل شيء – الأبواب، الصالات، غرف النوم. قال إن إحدى غرف الطابق السفلي تستخدم بمثابة مكتب، وفي المكتب توجد خزنة – خزنة في الحائط. كان يحتاجها السيد كلاتر لأنه يحتفظ دائماً في متناول يده بمبالغ كبيرة من النقود. لا تقل عن عشرة آلاف دولار. الخطة كانت أن نسرق الخزنة، وإذا رآنا أحد – كائناً من يكون، يجب أن يموت. أكيد أن دك قال مليون مرة: لا شهود."

يقول ديوي، "كم عدد الشهود الذين توقّع وجودهم؟ أقصد، كم عدد الناس الذين توقع أن يجدهم في بيت كلاتر؟"

"هذا ما كنت أريد معرفته. لكنه لم يكن واثقاً. على الأقل أربعة. وربما ستة. وربما كان لدى العائلة ضيوف. كان يرى إننا يجب أن نكون مستعدين للتعامل مع دزينة من الأشخاص."

تأوه ديوي، وصفر دونتز، وأضاف سميث، وعلى وجهه ابتسامة باهتة، "أنا أيضاً. بدا لي الأمر زائداً عن الحد قليلاً. اثنا عشر شخصاً. لكن دك قال، إنه أمر بسيط. قال، /سندخل إلى هناك ونطرش تلك الجدران بالشَّعر./ في المزاج الذي كنت فيه، تركت نفسي أنساق. ولكن أيضاً – للأمانة – كنت أثق بدك؛ نجح في جعلي أراه رجلاً عملياً بارعاً، النمط الذكوري، وكنت أريد المال بالقدر الذي كان يريده هو. كنت أريد الحصول على المال والذهاب إلى المكسيك. ولكني كنت آمل

أن نقوم بذلك دون عنف. بدا لي إن ذلك ممكن إذا لبسنا أقنعة. وناقشته في ذلك. في طريقنا إلى هناك، إلى هولكومب، أردت أن نتوقف لشراء جوارب حريرية سوداء نلبسها في رؤوسنا. لكن دك كان يشعر إنه يمكن تمييزه حتى لو وضع جوارب في رأسه، بسبب عينه المضروبة. مع ذلك، حين وصلنا إلى إمبوريا –"

قال دونتز، "تمهل، بيري. أنت تقفز إلى الأمام. لنعد إلى أولاث. أي ساعة غادرتما أولاث؟"

"الواحدة، الواحدة والنصف. انطلقنا بعد الغداء وسقنا حتى إمبوريا. هناك اشترينا كفوفًا مطاطيّة وبكرة حبل كاملة. السكين والبندقية، والطلقات، أحضرها دك كلها من البيت. ولكنه لم يرغب في البحث عن جوارب سوداء. وهذا سبّب جدالاً قوياً بيننا. وهكذا، في محيط إمبوريا، مررنا في طريقنا عند مستشفى كاثوليكي، وأقنعته أن يتوقف ويدخل ويحاول شراء جوارب سوداء من الراهبات. أنا أعرف أن الراهبات يلبسن جوارب سوداء. لكنه تظاهر فقط أنه فعل. خرج من المستشفى وقال إنهن رفضن بيعه. كنت واثقاً من أنه لم يسأل حتى، وأقرّ هو بذلك؛ قال إنها كانت فكرة مقرفة – لا بد إن الراهبات كنّ سوف يعتقدن أنه مجنون. ثم لم نتوقف حتى غريت بيند. هناك اشترينا الشريط اللاصق. تناولنا العشاء هناك، عشاء ثقيل جعلني أنام. وحين استيقظت، كنا على وشك بلوغ غاردن سيتي. وقد بدت مدينة بحق. وقفنا لتعبئة البنزين في إحدى محطات الوقود –"

سأله ديوي إذا كان يتذكر أي محطة.

"أعتقد محطة فيليبس 66."

"حوالي منتصف الليل. قال دك إننا نبعد سبعة أميال عن

هولكومب. وطوال الطريق، ظل يقول لنفسه، يجب أن تكون هنا ويجب أن تكون هناك – بحسب المعلومات التي درسها من قبل. أنا بالكاد انتبهت حين مررنا وسط هولكومب، كانت تجمعاً سكنياً صغيراً. عبرنا سكة قطار. وفجأة قال دك، /هذه هي، لا بد إنها هي./ كان ذلك هو المدخل إلى الطريق الخاص المحفوف بالشجر. خففنا السرعة وأطفأنا أضواء السيارة. لم نكن في حاجة إليها، لأن الليلة كانت مقمرة. كان القمر وحيداً في السماء، لا يشاركه شيء، لا غيمة ولا أي شيء. فقط البدر التمام. كأنك في وضح النهار، وحين أخذنا الطريق، قال دك، /انظر إلى هذه المساحات! هذه المخازن! هذا البيت! لا تقل لي إن هذا الرجل ليس دسماً./ لكني لم أحب هذه الخطة، لم أحب الجو؛ كان الأمر مؤثراً للغاية. ركنّا السيارة في ظل إحدى الشجرات. بينما كنا جالسين هناك، اشتعل ضوء – ليس في البيت الرئيسي بل في بيت يبعد ربما مئة ياردة إلى اليسار. قال دك، هذا بيت العامل المأجور؛ كان يعرف بناء على المخطط. لكنه قال إن المشهد قرب بيت كلاتر أسوأ مما يفترض أن يكون. ثم انطفأ الضوء. سيد ديوي – الشاهد الذي ذكرتموه. هل هو المقصود – العامل المأجور؟"

"كلا. إنه لم يسمع يومها أي صوت. لكن زوجته كانت تعتني بطفلتهما المريضة. قال إنهما ظلا قياماً وقعوداً طوال الليل."

"طفلة مريضة. الحقيقة أنني تساءلت في نفسي. فبينما كنا جالسين هناك، حدث هذا ثانية – اشتعل الضوء وانطفأ. وهذا ولّد الفقاعات في دمي فعلاً. قلت لدك أن لا يعتمد علي. وإذا كان مصمماً على الاستمرار فعليه أن ينفذ بمفرده. أدار محرك السيارة، وكنا سنغادر، وقلت في نفسي، الحمد لله. دائماً كنت أثق بحدسي، فقد أنقذ

حياتي أكثر من مرة. ولكن في منتصف طريق الرجعة، توقف دك. كان غاضباً إلى حد الجنون. وكان يمكنني أن أقرأ أفكاره: بعد أن خططت لهذه العملية الكبيرة، وبعد أن قطعنا كل هذه المسافة، يأتي الآن هذا التافه يريد أن ينسحب بسبب الخوف. قال، /ربما تظن أنني لا أملك الجرأة على فعلها وحدي. ولكن، أقسم بالله، سأريك من منا لديه الجرأة./ كان في السيارة بعض الخمر، شرب كل منا قليلاً، وقلت له، /أوكي دك. أنا معك./ ثم عدنا. ركنا السيارة في المكان السابق نفسه. في ظل شجرة. لبس دك الكفوف؛ وكنت قد لبستهما من قبل. حمل السكين ومصباحًا يدويًا. وأنا حملت البندقية. بدا البيت هائلاً على ضوء القمر. وبدا خاوياً. أذكر أني تمنيت أن لا نجد أحداً في البيت-"

قال ديوي، "ولكن ألم تجدا كلباً؟"

"لا."

"كان لدى العائلة كلب يخاف من السلاح. ولم نفهم لماذا لم ينبح. إلا إذا كان قد رأى البندقية وهرب."

"المهم أنني لم أر أي شيء أو أي شخص. لهذا السبب لم أصدق قصة الشاهد."

"ليس شاهد عيان. شاهد. شخص ما ربطت شهادته بينك أنت وهيكوك وبين القضية."

"أوه، أوه-هوه. أوه-هوه. إنه هو. ودك كان يقول دائماً إنه لن يجرؤ على قول شيء. ها!"

ولكي لا يتشعب الحديث، ذكّره دونتز، "هيكوك حمل السكين. وأنت حملت البندقية. كيف دخلتما إلى البيت؟"

"لم يكن الباب مقفلاً. باب جانبي. قادنا إلى مكتب السيد كلاتر.

ثم انتظرنا في العتمة، نصغي. لكن لم يكن ثمة سوى صوت الريح. كانت ريح قليلة النشاط تهب في الخارج، وتحرك الشجر وكان يمكنك سماع حفيف الورق. كان للنافذة الوحيدة الموجودة في غرفة المكتب ستائر معدنية، ولكن ضوء القمر دخل من خلالها. أغلقت الستائر تماماً، وأضاء دك المصباح. رأينا المكتب. كان يفترض أن تكون الخزنة في الحائط مباشرة خلف المكتب، لكننا لم نعثر عليها. وجدنا الحائط مكسواً بالخشب، وثمة كتب وخرائط مؤطرة، ولاحظت، على أحد الأرفف، منظارًا ثنائيًّا رائعًا. قررت أن آخذه معي حين نغادر."

"هل أخذته؟" سأل ديوي، لأن المنظار لم يكن من بين المفقودات.

أومأ سميث برأسه. "بعناه في المكسيك."

"آسف، استمر."

"المهم، حين لم نستطع العثور على الخزنة، أطفأ دك المصباح اليدوي وخرجنا في العتمة من المكتب عبر ردهة إلى غرفة معيشة. همس لي دك لكي أمشي بهدوء. ولكنه كان هو ضاجاً أيضاً. في كل خطوة كنا نحدث جلبة. وصلنا إلى صالة وباب، وقال دك، وهو يستحضر المخطط، هذه غرفة نوم. أشعل المصباح وفتح الباب. فجاءنا صوت رجل، /حبيبتي؟/ كان نائماً، فتح عينيه وقال، /هذه أنت حبيبتي؟/ سأله دك، /هل أنت السيد كلاتر؟/ الآن كان قد صحا تماماً؛ جلس وقال، /من أنت؟ ماذا تريد؟/ قال له دك، بتهذيب، كما لو أننا باعة متجاورون، الباب على الباب، /نريد أن نتكلم معك يا سيد. في مكتبك، لو سمحت./ ذهب معنا السيد كلاتر إلى المكتب، بلباس النوم وحافي القدمين، وأشعلنا أضواء المكتب.

"حتى تلك اللحظة لم يكن قد رآنا جيداً. أعتقد أن ما رآه صدمه

بقوة. قال دك،/الآن يا سيد، كل ما نريده منك هو أن تدلنا على مكان الخزنة./لكن السيد كلاتر قال، /أي خزنة؟/ قال إنه لا يملك أي خزنة. عرفت حينها أنه صادق. كان هذا واضحاً في وجهه. يمكنك أن تدرك أن كل ما يخبرك به هو الحقيقة. لكن دك صرخ في وجهه، /لا تكذب، يا ابن العاهرة! أعرف جيداً أن لديك خزنة!/ شعوري أنه ما من أحد تكلم بهذا الشكل مع السيد كلاتر من قبل. لكنه نظر مباشرة في عيني دك وقال، متغاضياً عن إساءته، إنه آسف ولكنه ببساطة لا يملك أي خزنة. نقره دك بالسكين على صدره وقال، /دلنا على الخزنة وإلا فإنك ستكون أكثر أسفاً./ ولكن السيد كلاتر – أوه، يمكن أن ترى أنه كان خائفاً، ولكن صوته بقي معتدلاً وثابتاً – ظل ينكر إن لديه خزنة.

"بينما نحن في المكتب، انتبهت إلى وجود الهاتف. اقتلعت الأسلاك، وسألت السيد كلاتر إن كان هناك أجهزة هاتف أخرى في البيت. قال نعم، هناك جهاز في المطبخ. وهكذا، أخذت المصباح اليدوي وذهبت إلى المطبخ – توجد مسافة لا بأس بها بين المكتب والمطبخ. حين وجدت الهاتف، رفعت السماعة وقطعت الأسلاك بكماشة. وفي طريق عودتي إلى المكتب، سمعت ضجة. صرير خشب من الأعلى. توقفت عند أسفل السلم المؤدي إلى الطابق الثاني. كان حولي ظلام، ولم أجرؤ على استخدام المصباح اليدوي. ولكني شعرت أن هناك أحداً ما في الأعلى. أعلى السلم، رأيت ملامح عامة لشخص مقابل النافذة. ثم ابتعد."

تخيل ديوي إن هذه الشخصية يمكن أن تكون نانسي. فهو كان يتصور، بعد أن شوهدت ساعة اليد الذهبية خاصة نانسي داخل فردة حذاء في خزانتها، أن نانسي استيقظت، وسمعت أصوات

أشخاص في البيت، واعتقدت إنهم لصوص، فخبأت، بحرص، الساعة، أعز ما تملك.

"بحسب تقديري، كان شخصاً يحمل بندقية. ولكن دك لم يكترث لكلامي. كان مشغولاً في ممارسة دور الولد القاسي. كان يتأمّر على السيد كلاتر. الآن كان قد أعاده إلى غرفة النوم. وكان يعد النقود الموجودة في محفظة السيد كلاتر. كان فيها حوالي ثلاثين دولارًا. رمى المحفظة على السرير، وقال له، /لديك في هذا البيت أكثر من هذا المبلغ. رجل غني مثلك، يعيش على هذه المساحات./ قال السيد كلاتر إن هذا كل ما يملكه من أوراق مالية في البيت، وشرح إنه يعتمد دائماً على الشيكات. وعرض أن يكتب لنا شيكاً. انفجر دك في الحال - / أي نوع من المنغوليين تعتقدنا؟/ - واعتقدت أنه جاهز لقتله، لذلك قلت، /دك. اسمعني. هناك شخص ما مستيقظ في الأعلى./ أخبرنا السيد كلاتر إنه لا يوجد في الأعلى سوى زوجته وابنه وابنته. أراد دك أن يعرف إذا كانت الزوجة تملك نقوداً، فقال السيد كلاتر، إذا كانت تملك فمبلغ هزيل، بضعة دولارات، وطلب منا برجاء – حقاً بنوع من الانكسار الشديد – أن لا نزعجها، لأنها معاقة، فهي مريضة للغاية منذ زمن طويل. لكن دك أصر على الصعود إلى الطابق العلوي. وطلب من السيد كلاتر أن يقودنا.

"عند أسفل السلم، أضاء السيد كلاتر الصالة العلوية، وبينما نحن على السلم قال، /لا أدري، يا شباب، لماذا تريدان فعل هذا. لم أضر أحداً منكما في أي يوم. لم أر أياً منكما من قبل./ هناك قال له دك، /اخرس! حين نريدك أن تتكلم، نحن نطلب منك الكلام./ لم يكن أحد في الصالة العلوية، وكانت الأبواب كلها مغلقة. أشار السيد كلاتر

إلى الغرف التي يفترض أن الابن والابنة ينامان فيهما، وفتح باب غرفة زوجته. أضاء المصباح الكائن بجانب السرير وقال لها، /الأمر على ما يرام يا حبيبتي. لا تخافي. هذان الرجلان يريدان فقط بعض المال./ كانت امرأة نحيفة، من النوع الضعيف، في ثوب نوم طويل أبيض. بدأت تبكي، ما إن فتحت عينيها. قالت، وهي تحدث زوجها، /حبيبي، أنا لا أملك أي نقود." كان يمسك يدها، ويربت عليها. وقال، /لا تبكي يا حياتي. لا يوجد ما يُخيف. فقط أنا أعطيت هؤلاء الشباب كل النقود التي أملكها، ولكنهما يريدان المزيد. يعتقدان إن لدينا خزنة في مكان ما من البيت. قلت لهم إننا لا نملك./ رفع دك يده، وكأنه يريد أن يلكمه على فمه. قال، /ألم أقل لك أن تخرس؟/ قالت السيدة كلاتر، /ولكن زوجي يخبركم الحقيقة والله. لا يوجد أي خزنة./ رد عليها دك قائلاً، / أعرف حق المعرفة إن لديكم خزنة. وسأجدها قبل أن أخرج من هنا. لا تقلقي سأجدها./ ثم سألها أين تضع محفظتها. كانت المحفظة في درج مكتب. قلّبها دك حتى جعل داخلها خارجها، ولم يجد سوى بضع سنتات ودولارًا أو دولارين. أومأتُ له أن نخرج إلى الصالة. أردت أن نناقش الوضع. خرجنا، وقلت له –"

قاطعه دونتز ليسأل إذا كان صوت نقاشهما يمكن أن يصل إلى أسماع السيد والسيدة كلاتر.

"لا. كنا خارج الباب، حيث نبقيهما تحت أنظارنا، ولكنا تكلمنا همساً. قلت لدك، /هؤلاء الناس يقولون الحقيقة. الكاذب هو صديقك فلويد ويلس. لا توجد أي خزنة، لذلك دعنا نخرج من هنا من أجل الإله./ لكن دك كان خجولاً جداً من مواجهة هذه الحقيقة. قال إنه لن يصدق حتى يفتش البيت بكامله. قال إن ما علينا عمله

هو أن نقيّدهم جميعاً، ثم نأخذ وقتنا في البحث. لم يكن من الممكن مناقشته، كان في غاية الانفعال. ما كان يثيره هو شعوره بمجد أن يكون الجميع تحت رحمته. المهم، كانت هناك غرفة حمام بجانب غرفة السيدة كلاتر. كانت الفكرة هي أن نقفل الباب على الوالدين في غرفة الحمام، ثم نوقظ الولدين ونضعهما مع الوالدين، ثم نخرجهم واحداً واحداً، نقيدهم ونضع كل منهم في مكان مختلف من البيت. بعد ذلك، قال دك، بعد أن نجد الخزنة، نقطع حناجرهم. لا يمكن أن نطلق النار، قال، لأن هذا سوف يحدث ضجة كبيرة."

قطب بيري حاجبيه، فرك ركبتيه بيديه المصفدتين. "دعوني أفكر لحظة. لأن الأمور هنا بدأت تتعقد قليلاً. أتذكر. نعم. نعم، أخذت كرسيًّا من الصالة ووضعته في غرفة الحمام. لكي تتمكن السيدة كلاتر من الجلوس. نظراً إلى أنها معاقة كما قيل. حين قفلنا عليهم، كانت السيدة كلاتر تبكي وتقول لنا، /أرجوكم لا تؤذوا أحداً. أرجوكم لا تؤذوا أولادي./ وزوجها يحتضنها ويقول، /حبيبتي هؤلاء الشباب لا يريدون أن يؤذوا أحداً. كل ما يريدونه هو بعض المال./"

"اتجهنا إلى غرفة الصبي. كان مستيقظاً. مستلقياً هناك كأنه مشلول من الخوف. طلب منه دك أن ينهض، ولكنه لم يتحرك، أو لم يتحرك بالسرعة الكافية. لذلك لكمه دك، وسحبه من السرير، فقلت، /لا يجب أن تضربه، دك./ وطلبت من الصبي – كان يرتدي تي شيرت فقط – أن يرتدي بنطاله. لبس بنطال جينز أزرق، وحين قفلنا عليه غرفة الحمام، ظهرت البنت – خرجت من غرفتها. كانت مرتدية ملابسها كأنها مستيقظة منذ فترة. أقصد إنها كانت تلبس جوارب وشحّاطًا وكيمونو، وشعرها ملفوف بمنديل. كانت تحاول أن تبتسم.

وقالت، /يا إلهي، ما هذا؟ نوع من المزاح؟/ تخميني أنها كانت تعتقد إن هذا ليس مزاحاً، مع ذلك. على الأقل ليس بعد أن فتح دك باب غرفة الحمام ودفعها إلى الداخل..."

تخيلهم ديوي: العائلة المأسورة، خنوعون وخائفون لكنهم لا يعلمون مصيرهم القريب. ما كان يمكن لهيرب أن يشك، وإلا لقاوَم. كان رجلاً لطيفاً ولكنه قوي وليس جباناً. كان هيرب سيقاتل حتى الموت دفاعاً عن حياة بوني وعن حياة أولاده، هذا ما لم يكن يشك به صديقه ألفن.

"وقف دك يحرس باب الحمام من الخارج، بينما رحت أفتش. فتشت غرفة البنت، وجدت محفظة صغيرة – مثل محافظ الدمى. كان في داخلها دولار فضي. سقط من يدي بشكل ما وتدحرج على أرض الغرفة. تدحرج تحت كرسي. وتوجب عليّ أن أنزل على ركبتيّ. عندئذ شعرت كما لو أنني أخرج من نفسي، وأراقب نفسي في فيلم غريب الأطوار. شعرت بالغثيان. شعرت بالقرف. كل كلام دك عن خزنة الرجل الثري، وها أنا هنا أزحف على بطني لأسرق دولاراً فضياً لطفلة. دولار واحد. وأنا أزحف على بطني كي أحصل عليه."

راح بيري يعصر ركبتيه، ويطلب من المحققين الأسبرين، ويشكر دونتز على إعطائه حبة، يمضغها ويستأنف حديثه. "لكن هذا ما تفعله. تحصل على ما تستطيع. فتشت غرفة الصبي، أيضاً. لم أعثر على قرش واحد. لكن كان ثمة جهاز راديو محمول، قررت أن آخذه. ثم تذكرت المنظار الثنائي الذي رأيته في مكتب السيد كلاتر. نزلت إلى الطابق السفلي كي أحضره. حملت الراديو والمنظار إلى السيارة. كان الطقس بارداً، أنعشني البرد والريح. كان القمر لامعاً حتى يمكنك أن

ترى من مسافة أميال. قلت في نفسي، لماذا لا أذهب مبتعداً؟ أمشي إلى الطريق السريع، وأستوقف سيارة عابرة. بكل تأكيد وحق المسيح، لم يكن لدي رغبة في العودة إلى ذلك البيت. مع ذلك – كيف يمكنني شرح ذلك؟ كان الأمر كما لو أنني لست جزءاً منه. كان أشبه بكوني أقرأ قصة، وعليّ أن أعرف ما الذي سيحدث بعد. أن أعرف الخاتمة. لذلك عدت إلى الطابق العلوي. والآن، لنر – أوه-هوه، عندئذ ربطناهم. ربطنا السيد كلاتر في البداية. أخرجناه من غرفة الحمام، ربطت أنا يديه معاً. ثم جعلته يمشي حتى القبو"

قال ديوي، "كنت وحيداً وبلا سلاح؟

"كانت معي السكين."

قال ديوي، "لكن هيكوك بقي يحرس في الطابق العلوي."

"لكي يمنعهم من الصراخ. على أي حال، لم أكن بحاجة إلى مساعدة. طوال حياتي وأنا أشتغل بالحبال."

قال ديوي، "هل كنت تستخدم المصباح اليدوي أم أنك أنرت أضواء القبو؟"

"الأضواء. القبو كان مقسماً إلى قسمين. قسم كان يبدو كغرفة لعب. أخذته إلى القسم الآخر، غرفة الفرن. رأيت صندوقًا خشبيًا كبيرًا مسنودًا إلى الحائط. صندوق مرتبة نوم. الحقيقة، لم أشعر أنه ينبغي أن أطلب منه أن يتمدد على الأرض الباردة، وهكذا أحضرت صندوق الفرشة الكرتوني وسويته بالأرض وطلبت منه أن يستلقي عليه."

نظر السائق، من خلال المرآة العاكسة، إلى زميله، ليلفت نظره، فيما دونتز كان يهز رأسه ببطء، كما لو أنه يحييه. دائماً كان ديوي يجادل بأن صندوق الفرشة قد وضع هكذا على الأرض من أجل راحة

السيد كلاتر، ومع ملاحظة لمحات مشابهة، مؤشرات أخرى مبعثرة عن شفقة مفارقة ومثيرة للسخرية، فقد استخلص المحقق أن أحد القتلة على الأقل لم يكن قلبه خالٍ من الرحمة.

"ربطت قدميه، ثم ربطت يديه إلى قدميه. وسألته هل يؤلمك الربط، قال لا، ولكنه طلب برجاء أن نترك زوجته وشأنها. قال إنه لا حاجة لربطها – إنها لن تصرخ ولن تحاول الهرب من البيت. قال إنها كانت مريضة لسنوات طويلة، وقد بدأت للتو تتحسن، غير أن حادثاً كهذا، يمكن أن يسبب لها نكوصاً. أعرف أن الأمر ليس مضحكاً، ولكني لم أستطع منع نفسي من الضحك، وهو يتكلم عن /نكوص./

"الشيء التالي، أنزلت الصبي إلى الأسفل. في البداية وضعته في الغرفة مع أبيه. ربطت يديه إلى أنبوب بخار عالٍ. بعد ذلك تخيلت إن هذا غير آمن. يمكنه بشكل ما أن يحرر نفسه، ثم يحرر أباه، أو العكس. لذلك قطعت الحبل وأخذته إلى غرفة اللعب، حيث توجد هناك أريكة تبدو مريحة. ربطت قدميه إلى قدم الأريكة، وربطت يديه، ثم رفعت الحبل وصنعت حلقة حول عنقه، بحيث إذا قاوم فإنه يخنق نفسه. مرة وأنا أعمل، وضعت السكين على – صندوق من خشب الأرز مدهون حديثاً؛ كان القبو كلّه يفوح برائحة الطلاء – طلب مني أن لا أضع السكين هناك. الصندوق كان من صنعه، هدية زفاف لأحد ما. لأخته، قال على ما أعتقد. وحين كنت أخرج، جاءته نوبة سعال، لذلك وضعت له وسادة تحت رأسه. ثم أطفأت الإضاءة –"

قال ديوي، "ولكن لم تضع الشريط اللاصق على أفواههم؟"

"لا. الشريط اللاصق جاء فيما بعد، بعد أن ربطت كل واحدة من المرأتين في غرفة نومها. كانت السيدة كلاتر لا تزال تبكي، وفي الوقت

نفسه كانت تسألني عن دك. لم تكن تثق به، ولكنها قالت إنها تشعر أنني شاب مؤدب. أنا متأكدة من ذلك، وجعلتني أعدها بأن لا أسمح لدك أن يؤذي أحداً. أعتقد أنها كانت تقصد ابنتها. أنا نفسي كنت قلقاً، ساورني الشك بأن دك يخطط لأمر ما، لأمر لم يكن يمكنني أن أتقبله. حين أنتهيت من ربط السيدة كلاتر، وجدته قد أخذ البنت إلى غرفة نومها. كانت في سريرها وكان جالساً بجوارها يتحدث إليها. أوقفت ذلك؛ طلبت منه أن يذهب للبحث عن الخزنة بينما أقوم أنا بربطها. بعد أن غادر، ربطت قدميها معاً وربطت يديها وراء ظهرها. ثم سحبت الغطاء عليها بحيث لم يبد منها سوى رأسها. كان بجانب السرير مقعد مريح، قلت في نفسي سأرتاح قليلاً؛ كانت ساقاي تشتعلان بالنار بعد كل هذا التسلق والركوع. سألت نانسي إن كان لديها صديق. قالت نعم لديها. كانت تحاول جهدها أن تتصرف بعفوية وود. أحببتها من قلبي. كانت لطيفة حقاً. فتاة حلوة ولم يفسدها الدلال أو أي شيء. حدثتني كثيراً عن نفسها. عن المدرسة، وكيف أنها تخطط للالتحاق بالجامعة من أجل دراسة الموسيقى والفن. عن الأحصنة. قالت إنها إلى جانب الرقص فإنها تحب ركوب الخيل، وهكذا قلت لها إن أمي كانت بطلة في مسابقات الروديو."

"تحدثنا عن دك؛ كان عندي فضول لمعرفة ماذا كان يحدثها. يبدو أنها سألته لماذا يقوم بأشياء كهذه. لماذا يسرق الناس. ويا للهول، استدر دموعها على حاله – قال إنه نشأ يتيماً في ميتم، ولم يلق الحب من أحد طوال حياته، وليس له أقارب سوى أخت تعيش مع رجال دون أن تتزوجهم. طوال وقت حديثنا، كنا نسمع حركة جنونية في الأسفل، البحث عن الخزنة. بحث خلف اللوحات. الضرب على الجدران.

ضرب ضرب ضرب. مثل نقار خشب خرف. وحين عاد، سألته من باب اللؤم، إن كان قد عثر عليها. بالطبع لم يعثر، ولكنه قال إنه صادف حقيبة أخرى في المطبخ، فيها سبعة دولارات."

قال دونتز، "حتى الآن كم من الوقت بقيتم في المنزل؟"

"ربما ساعة."

قال دونتز، "ومتى وضعتم الشريط اللاصق؟"

"في ذلك الوقت بالضبط. بدأنا بالسيدة كلاتر. طلبت من دك أن يساعدني لأني لم أرغب في تركه وحيداً مع الشابة. قطعت الشريط اللاصق قطعاً طويلة، وراح دك يلف الشريط حول رأس السيدة كما تلف مومياء. سألها، /لماذا تبكين طوال الوقت؟ لا أحد يؤذيك،/ أطفأ الضوء بجانب السرير وقال، /طابت ليلتك، سيدة كلاتر. نامي./ ثم قال لي بينما كنا في الممر متجهين إلى غرفة نانسي، /سوف أمتع نفسي بهذه البنت الصغيرة./ فقلت له، /أوه-هوه. ولكن عليك أن تقتلني أولاً./ نظر إلي كما لو أنه لم يصدق ما سمعه. قال، /ماذا يهمك؟ اللعنة، يمكنك أن تفعل أنت أيضاً./ هذا هو الشيء الذي أحتقره. أحتقر أي شخص لا يسيطر على نفسه جنسياً. يا يسوع، أنا أكره هذا الشيء. قلت له مباشرة، /دعها وشأنها. وإلا فإنك تحرّك المشاكل./ هذا أغاظه حقاً، ولكنه أدرك إنه ليس الوقت المناسب لمعركة مباشرة. لذلك قال، /أوكي يا حبيب. إذا كان شعورك على هذا النحو./ انتهى الأمر أننا لم نضع حتى اللاصق على فمها. أطفأنا النور ونزلنا إلى القبو."

تردد بيري. كان لديه سؤال ولكنه صاغه على شكل تصريح: "أراهن على أنه لم يذكر لكم أي شيء عن رغبته في اغتصاب البنت."

اعترف ديوي أن دك لم يذكر ذلك، ولكنه أضاف أنه باستثناء

بعض التنقيحات التي تلائمه والمتعلقة بسلوكه، فإن رواية هيكوك تدعم رواية سميث. تختلف التفاصيل، والحوارات ليست متطابقة، لكن، في الجوهر، الروايتان تعززان بعضهما – حتى الآن على الأقل.

"ربما. لكني أعرف إنه لم يتحدث عن البنت. أراهن بقميصي."

قال دونتز، "بيري، كنت أتابع موضوع الأضواء. كما فهمت، عندما أطفأتم أضواء الطابق العلوي، أصبح البيت مظلماً بالكامل."

"صحيح. ولم نستخدم الأضواء ثانية، ما عدا المصباح اليدوي. حمل دك المصباح اليدوي حين اتجهنا لتكميم السيد كلاتر والصبي. قبل أن أكممه، سألني السيد – وكانت هذه آخر كلماته – يريد أن يعرف كيف هي زوجته، هل هي بخير، وقلت له إنها بخير، وجاهزه للنوم، وأخبرته إن الصباح قريب، وأن أحداً ما في الصباح سوف يعثر عليهم، وبعدئذ كل هذا، أنا ودك وكل شيء، سيبدو مثل حلم. لم أكن أخدعه. لم يكن بودي أن أؤذي الرجل. رأيته إنساناً محترماً في منتهى اللطف. حلو اللسان. وهذا ظني به حتى لحظة ذبحي له".

"انتظر. أنا لا أنقل لكم الحادثة كما جرت." تجهم بيري. وراح يفرك ركبتيه والأصفاد تخشخش. "بعد، انظر، بعد أن كممناهم، ابتعدت أنا ودك إلى زاوية، لنناقش الأمر. انتبه، الآن، كانت قد جرت بيننا مشاعر سيئة. عندئذ فقط قلبت معدتي من دك، وفكّرت إنه لا يستحق الإعجاب أبداً، ولن أصدق أبداً كل ذاك التفاخر الذي يحمله. قلت له، /هل تخاف من أيّ شيء يا دك؟/ فلم يجبني. قلت، /دعهم أحياء، فقتلهم جريمة كبيرة. عشر سنوات على أقل تقدير./ أيضاً لم يرد بشيء. كان يمسك السكين. وعندما طلبتها منه، أعطاني إياها، فقلت له، /لا بأس، دك. هيا بنا./ لكني لم أقصد ذلك. قصدت

أن أختبره، أن أدفعه للوقوف ضد ما أقترح، أن أدفعه [للتراجع، للاعتراف بأنه جبان ومتصنّع. كما ترى، كان شيئاً بيني وبين دك. لكنني عندما جثوت بجانب السيد كلاتر، أعاد وجعُ الجثْوِ إلى ذهني ذلك الدولار اللعين. الدولار الفضي. العار. القرف. وكانوا قد أخبروني أن لا أعود ثانية إلى كانساس. لكني لم أدرك ما كنت أفعل حتى سمعت الصوت. كصوت شخص يغرق. يصرخ تحت الماء. مددْتُ السكين إلى دك. قلت، /أجهز عليه. سوف يتحسّن حالك./ فحاول دك – أو تظاهر بذلك. لكن الرجل كان يملك قوة عشر رجال – كان على وشك أن يحرر نفسه من الحبال، حرّر يديه. أصيب دك بالذعر. أراد أن يهرب من هناك. لكني منعته. كان الرجل سيموت على أي حال، أعلم ذلك، ولكن لم أستطع تركه على حاله ذاك. فقلت لدك أن يرفع المصباح ويسلطه عليه. ثم سدّدت البندقية. وانفجرت الغرفة تماماً. صارت زرقاء. توهّجت تماماً. يا يسوع، لن أفهم أبداً لماذا لم يسمعوا الصوت على بعد عشرين ميلاً من البيت."

الصوت ضجّ في أذني ديوي – ضجيج أصمّه تقريباً عن سماع التدفق الهامس لصوت سميث الناعم. لكن الكلام يتدفق، ويقذف في اندفاعه وابلاً من الأصوات والصور: هيكوك يجمع الطلقات الفارغة؛ مسرعاً، مسرعاً، ورأس كينيون في دائرة الضوء، همهمة استغاثات مكمومة، ثم هيكوك ثانية يندفع وراء رصاصة فارغة؛ غرفة نانسي، نانسي تصغي لوقع الأقدام على السلم الخشبي الصلب، وقع الأقدام وهم يقتربون منها، عينا نانسي تراقبان الضوء وهو يبحث عن الهدف ("قالت، /أوه، لا! أوه، أرجوك. لا! لا! لا! لا! لا تفعل! أوه، أرجوك لا! أرجوك!/ أعطيت البندقية لدك. قلت له إني فعلت كل ما في وسعي

فعله حتى الآن. فسدّد دك البندقية، وأدارت الفتاة وجهها ناحية الحائط")؛ القاعة مظلمة، يسرع القتلة باتجاه الباب الأخير. ربما، بعد أن سمعَت كلّ ما سمعَت، كانت بوني ترحّب بقدومهما السريع.

"الطلقة الفارغة الأخيرة اختفت. زحف دك تحت السرير لإحضارها. بعدئذ أغلقنا باب السيدة كلاتر وهبطنا السلم إلى المكتب. انتظرنا هناك، كما انتظرنا أول وصولنا. نظرنا عبر شفرات الستائر لنرى إذا كان العامل المأجور يتجول حول البيت، أو إذا كان أحد ما قد سمع صوت إطلاق النار. لكن الحال كان على ما هو عليه – لا صوت. فقط الريح – ولهاث دك وكأن الذئاب تطارده. وهناك تماماً، في تلك الثواني المعدودة قبل أن نركض إلى السيارة ونبتعد، قررت أنّه من الأفضل أن أقتل دك. لقد قال مراراً وتكراراً، حتى ثقب أذنيّ: لا شهود. قلت في نفسي، إنه هو شاهد. لا أدري ما الذي منعني من قتله. كان عليّ أن أقتله، والله أعلم. أن أطلق عليه النار وأرديه قتيلاً، ثم أصعد إلى السيارة وأنطلق وأستمر حتى أضيّع نفسي في المكسيك."

سكوت. لمدة عشرة أميال وأكثر، الرجال الثلاثة كانوا في صمت تام.

كان الأسى والتعب العميق في قلب صمت ديوي. كان طموحه أن يعلم "ماذا حدث بالضبط في ذلك البيت في تلك الليلة." وقد سمع القصة مرتين، والنسختان متشابهتان كثيراً، التعارض المهم الوحيد هو أن هيكوك نسب قتل الأربعة إلى سميث، فيما سميث اعترف أن هيكوك هو من قتل المرأتين. الاعترافان أجابا على الأسئلة المتعلقة بكيف ولماذا، لكنهما فشلا في إرضاء إحساسه بهدف ذي معنى. الجريمة كانت حادثاً نفسياً، واقعياً كانت فعلاً غير شخصي؛ كان يمكن للضحايا أن يموتو

أيضاً بالصاعقة. ولكن هناك فارق واحد: لقد عاشوا رعباً مديداً، لقد عانوا. ولا يمكن لديوي أن ينسى معاناتهم. مع ذلك، كان ممكناً له أن ينظر إلى الرجل الذي يجلس بجانبه دون غضب – بل حتى بشيء من التعاطف – لأن حياة بيري سميث لم تكن سريراً من الورد، بل سعيًا بائسًا وشنيعًا ومنعزلًا باتجاه سراب ثم باتجاه سراب آخر. ولكن لم يكن تعاطف ديوي عميقاً بما يكفي لاستيعاب الغفران أو الرحمة. إنه يأمل في أن يرى بيري وشريكه معلقين – مشنوقين ظهراً إلى ظهر.

سأل دونتز سميث، "بالمجمل، كم من النقود حصلتما من بين كلاتر؟"

"بين أربعين وخمسين دولار."

○ ○

بين حيوانات غاردن سيتي يوجد هران رماديان متلازمان دائماً – هران ضالان قذران بعادات ماكرة وغريبة. يقومان باحتفالهما اليومي الرئيسي عند الشفق. أولاً يهرولان على طول شارع ماين، يتوقفان للتدقيق في شبك محرك كل سيارة مركونة، ولاسيما السيارات المركونة أمام فندقي ويندسور ووارن، لأن هذه السيارات، تكون عادة لمسافرين قادمين من مسافات بعيدة، وغالباً ما يحوي شبك محرك هذه السيارات ما يصطاده هذان الكائنان الهزيلان المنهجيان: طيور مقتولة، غربان، قرقف، عصافير طائشة بما يكفي لتطير في ممر السيارات المسرعة القادمة. يستخدم الهران مخالبهما كأنها أدوات جراحية، ويسحبان من الشبك كل أثر للعصافير. وبعد أن يعبرا شارع ماين، يدوران بلا تغيير حول الزاوية عند ماين وغرانت، ثم يقفزان باتجاه ساحة المحكمة، إحدى مناطق الصيد المعتمدة عندهما –

وكانت ساحة واعدة في يوم الأربعاء السادس من يناير، ذلك أن المنطقة اكتظت بسيارات مقاطعة فيني التي أتت إلى البلدة وشكّلت جزءاً من الناس المحتشدين في الساحة.

بدأ يتجمع الحشد في الساعة الرابعة، الساعة التي حددها نائب المقاطعة على أنها الوقت المحتمل لوصول هيكوك وسميث. ومنذ الإعلان عن اعتراف هيكوك مساء الأحد، تجمع صحفيون من كل نوع في غاردن سيتي: مندوبو وكالات الأنباء الكبرى، مصورو فوتوغراف، مصورو تلفزيون وأفلام إخبارية، مراسلون من ميسوري، نبراسكا، أوكلاهوما، تكساس، وبالطبع، كل الصحف الرئيسية في كانساس – عشرون أو خمسة وعشرون رجلاً في المجمل. الكثير منهم ينتظر هنا منذ ثلاثة أيام ليس لهم ما يعملونه سوى إجراء مقابلة مع عامل محطة الوقود جيمس سبور، الذي، بعد رؤية الصور المنشورة للقتلة، تعرف عليهما كزبائن مرّا بالمحطة وباعهما البنزين بمبلغ ثلاثة دولارات وستة سنتات في ليلة مأساة هولكومب.

عودة هيكوك وسميث هو سبب تواجد هؤلاء المشاهدين المهنيين من أجل التسجيل، وقد حجز لهم الكابتن جيرالد موري، من دورية الطرق السريعة، مكاناً واسعاً على الجانب المواجه لدرجات المحكمة – الدرجات التي يجب أن يصعدها السجينان في طريقهما إلى سجن المقاطعة، وهو مؤسسة تشغل الطابق العلوي من المبنى المكون من أربعة طوابق والمُشيّد من حجر الجير. وكان أحد المراسلين، ويدعى ريتشارد بار، من صحيفة ستار في كانساس سيتي، قد حصل على نسخة يوم الاثنين من صحيفة سن في لاس فيغاس. وقد أثار عنوان الصحيفة موجات من الضحك: **مخاوف من أن يقوم الغوغاء**

المنتظرين عودة المتهمين بشنقهما دون محاكمة. علق الكابتن موري، "لا يبدو لي أن الأمر يشبه حفلة شنق."

بالفعل، التجمع في الساحة كان يبدو كأنه بانتظار موكب، أو اجتماع سياسي. طلاب المدرسة الثانوية، ومن بينهم زملاء سابقين لنانسي وكينيون كلاتر، كانوا يرددون نشيد المشجعين، وينفخون فقاعات العلك، ويأكلون الهوت دوغز، ويشربون الصودا. الأمهات كن يهدئن الأولاد الباكين. والرجال يتجولون وعلى أكتافهم يجثم الأطفال الصغار. الكشافة كانوا موجودين أيضاً – فوج كامل. ووصل بشكل جماعي، الأعضاء المتوسطي العمر من نادي البريدج للسيدات. وظهر السيد جي بي (جاب) آدامز، رئيس مكتب اللجنة المحلية للمحاربين القدامى، يرتدي ثوب تويد غريب الشكل إلى حد جعل أحد الأصدقاء يصيح، "هي، جاب! ماذا تفعل وأنت ترتدي ملابس النساء؟" – فالسيد آدامز، وبسبب عجلته للانضمام إلى الحشد، ارتدى عن غير قصد معطف السكرتيرة. وكان مراسل إذاعي متجول يجري مقابلات مع مختلف الناس، يسألهم ما هو، برأيهم، القصاص العادل من "مرتكبي هذا الفعل الشنيع،" وبينما معظم الناس كانوا يقولون يا إلهي أو يا يسوع، أجاب أحد الطلاب، "أعتقد إنهما يجب أن يسجنا في زنزانة واحدة طوال حياتهما الباقية. دون أن يسمح لهم بزيارة من أحد. فقط يجلسان ويحدقان في بعضهما حتى نهاية العمر." وقال رجل ضئيل متغطرس، "أنا أؤمن بعقوبة الإعدام. كما جاء في التوراة – العين بالعين. وحتى مع ذلك يبقى لدينا قتيلان بلا مقابل!"

طالما الشمس في السماء، بقي اليوم جافاً ودافئاً – طقس أكتوبر في يناير. ولكن حين انحدرت الشمس، وحين تلاقت الظلال

العملاقة لأشجار الساحة وتجمعت، قرص البرد، إضافة إلى العتمة، الحشد. البرد قرص وقلّص الحشد؛ بحلول الساعة السادسة، بقي في الساحة أقل من مئة شخص. راح رجال الإعلام يخبطون أرجلهم بالأرض ويصفعون آذانهم بأيد متجمدة دون قفازات، وهم يلعنون هذا التأخر المفرط. وفجأة، سمعت همهمة من الطرف الجنوبي من الساحة. السيارات قادمة.

رغم أن أحداً من الصحافيين لم يتوقع حدوث أي عنف، فإن العديد منهم توقع أن يسمع صيحات شتم بحق السجينين. ولكن حين شاهد الحشد المجرمين، يرافقهما رجال دوريات الطرق السريعة بمعاطفهم الزرقاء، خيم الصمت، كما لو أن الناس ذهلت حين رأت للمجرمين شكلاً بشرياً. تلألأ الرجلان المكبلان بالأصفاد من وهج أضواء الكاميرات والأضواء الكاشفة، التمع وجهاهما ورفرفت أجفانهما تحت الضوء الباهر. مصورو التلفزيون تابعوا السجينين والشرطة إلى مبنى المحكمة وصعدوا معهم ثلاث مجمّعات من السلالم، وصوروا باب سجن المقاطعة وهو يغلق عليهما.

لم يتباطأ أحد، لا من الصحفيين ولا من أهل البلدة. الغرف الدافئة والعشاءات الساخنة كانت تغريهم. وحين أسرعوا مبتعدين، تاركين الساحة الباردة لهرّين رماديين، أسرع مبتعداً أيضاً الخريف العجيب؛ وبدأ أول ثلج في العام الجديد بالهطول.

الفصل الثالث

الرّكن

تتعايش القسوة المؤسساتية والألفة البهيجة في الطابق الرابع من محكمة مقاطعة فيني. الصفة الأولى تعود لوجود سجن المقاطعة، فيما تعود الصفة الثانية لوجود ما يسمى مقر العمدة، شقة جذابة تفصلها عن السجن أبواب فولاذية وممر قصير.

في يناير 1960، لم يكن العمدة إيرل روبينسون يشغل مقر العمدة في الحقيقة، كان يشغله نائب العمدة مع زوجته، ويندل وجوزفين ("جوزي") ماير. وقد كان الزوجان ماير، المتزوجان منذ أكثر من عشرين عاماً، متشابهين إلى حد بعيد: طويلان، بوزن وقوة زائدين، وأيد عريضة، ووجهين مربعين هادئين لطيفين – واللطف ينطبق أكثر على السيدة ماير، وهي امرأة صريحة وعملية وتبدو مع ذلك مضاءة بسكينة صوفية. بوصفها شريكة حياة نائب العمدة، فإن ساعاتها طويلة: بين الخامسة صباحاً، حين تبدأ يومها بقراءة فصل من الكتاب المقدس، والعاشرة مساء، موعد نومها، فإنها تطبخ وتخيط للسجناء، وترتق، وتغسل الملابس، وتعتني كثيراً بزوجها، وتهتم بالشقة المؤلفة من خمس غرف، بأثاثها الدافئ الذي يجمع الوسائد الوثيرة مع الكراسي اللينة وستائر النوافذ المصنوعة من الدانتيل بلون القشدة. لدى عائلة ماير ابنة وحيدة متزوجة وتسكن في كانساس سيتي، لذلك يعيشان وحيدين – أو، كما صارت تقول مؤخراً السيدة ماير: "وحيدين إلا من النساء اللواتي يصادف وجودهن في زنزانة النساء."

يضم السجن ست زنازين: السادسة، وهي مخصصة للسجينات، هي غرفة معزولة وتقع عملياً داخل شقّة العمدة – بالفعل، هي في جوار مطبخ عائلة ماير. "ولكن"، تقول جوزي ماير، "هذا لا يقلقني. أستمتع بصحبتهن. [على الأقل] أتحدث مع أحد ما بينما أقوم بأعمال المطبخ.

تشعر بالأسف على معظم هؤلاء النساء. كلها مشاكل مع الرجال. بالطبع هيكوك وسميث قضية مختلفة. بحسب معرفتي، سميث هو أول رجل يوضع في زنزانة النساء على الإطلاق. السبب هو أن العمدة أراد فصله عن هيكوك حتى تنتهي محاكمتهما. في عصر اليوم الذي أودعوهما السجن فيه، صنعت ست فطائر تفاح وخبزت بعض الخبز وفي كل مرة كنت أتابع ما يجري تحت في الساحة. نافذة مطبخي تطل على الساحة؛ لا يمكن أن يوجد أجمل من إطلالة كهذه. لست خبيرة في الحشود، ولكن أخمن أنه كان هناك بضع مئات ينتظرون الأولاد الذين قتلوا عائلة كلاتر. من جهتي لم أقابل أي فرد من عائلة كلاتر، ولكن مما سمعته عنهم، لا بد أنهم من أفضل الناس. وما حصل لهم يصعب غفرانه، وأعرف أن ويندل كان قلقاً مما يمكن أن يفعله الحشد حين يرون هيكوك وسميث. كان يخشى أن يحاول أحد ما النيل منهم. لذلك، صار قلبي في فمي حين وصلت السيارت، ورأيت المراسلين وكل جماعة الصحف يركضون ويتدافعون؛ ولكن في ذلك الوقت كان قد هبط الليل، كانت الساعة تجاوزت السادسة، برد قارس – أكثر من نصف الجمهور يئس وعاد إلى البيت. ومن بقوا، لم يصدر عنهم أي صوت. اكتفوا بالتحديق.

"فيما بعد، حين جلبوا الولدين إلى هنا، رأيت في البداية هيكوك. كان يرتدي سروالًا صيفيًا خفيفًا وقميص قماش قديم. عجبت كيف لا يصاب بالتهاب رئة، نظراً إلى البرد الذي كان حينها. لكنه بدا مريضاً على كل حال. كان أبيضاً كالشبح. الحقيقة، إنها تجربة فظيعة ولا شك – أن يحدق إليك جمع من الغرباء، وأن تمشي بينهم، وهم يعرفون من أنت وماذا فعلت. بعدئذ أحضروا سميث. كان العشاء لدي جاهزاً لأقدمه

لهما في الزنازين، شوربة ساخنة وقهوة وبعض السندويش وفطيرة. في العادة، نقدم الطعام مرتين في اليوم. فطور في السابعة والنصف، وفي الرابعة والنصف نقدم الوجبة الرئيسية. ولكني لم أرغب في ترك هذين الولدين ينامان بمعدة فارغة؛ بدا لي إنهما، دون ذلك، في حالة لا يحسدان عليها. ولكن حين أخذت العشاء لسميث على صينية، قال إنه ليس جائعاً. كان ينظر من نافذة زنزانة النساء، واقفاً وظهره إليّ. تلك النافذة لها نفس إطلالة نافذة المطبخ: أشجار وساحة وأسطح منازل. قلت له، /تذوق الشوربة فقط، إنها من الخضار الطازجة وليس المعلبة. وقد صنعتها بنفسي. والفطيرة أيضاً./ بعد ساعة عدت لأحضر الصينية ولكنه لم يكن قد لمس منها شيئاً. وكان لا يزال على النافذة. كأنه لم يتحرك. كانت تثلج، وأذكر أنني قلت إنه الثلج الأول لهذا العام، وكم كان لدينا خريف جميل طويل حتى هذا اليوم. والآن جاء الثلج. ثم سألته إذا كان يفضل نوعاً خاصاً من الطعام؛ لكي أحاول إعداده له في اليوم التالي. استدار ونظر إلي. كان يشك في أنني أسخر منه. ثم قال شيئاً ما عن فيلم سينما – كانت له طريقة هادئة في الكلام، مثل الهمس تقريباً. أراد أن يعرف إذا كنت شاهدت فيلماً. نسيت اسم الفيلم، على كل حال، أنا لم أره: لم أكن يوماً مغرمة بالسينما. قال إن هذا الفيلم يتحدث عن العصور القديمة، وفيه مشهد حيث يرمى رجل من شرفة إلى حشد من الرجال والنساء يمزقونه إرباً. وقال إن هذا المشهد عاد إلى ذاكرته حين رأى الحشد في الساحة. صورة الرجل الممزق، وتخيل أنه يمكن أن يحدث له الشيء نفسه، أخافه كثيراً إلى حد أن معدته لا تزال تؤلمه، كما قال. ولهذا لم يستطع أن يأكل. بالطبع كان مخطئاً، وأخبرته ذلك – لا أحد سيؤذيه، بصرف النظر عما فعل: الأهالي هنا

ليسوا من هذا النوع.

"تكلمنا قليلاً، كان خجولاً للغاية، ولكن بعد فترة قال، /الطبخة التي أفضلها فعلاً هي الأرز الإسباني./ وعدته أن أطبخ له منه، وبدا كأنه ابتسم، وقررت أن أطبخه له – يعني، لم يكن أسوأ شاب أقابله في حياتي. تلك الليلة، بعد أن خلدت إلى سريري، حكيت ما جرى لزوجي. لكن ويندل تذمر. كان ويندل من أوائل من وصلوا إلى مكان الجريمة بعد اكتشافها. قال إنه كان يتمنى لو أنني ذهبت إلى هناك حيث وجدوا الجثث. عندئذ كان يمكنني أن أحكم بنفسي كم هو لطيف السيد سميث. هو وصديقه هيكوك. قال إنهما يستخرجان قلبك دون أن يرف لهما جفن. لا شك في هذا الكلام – لا شك طالما أنهما قتلا أربعة أشخاص. استلقيت وأنا مستيقظة أتساءل إذا كان أي منهما يقلقه التفكير بتلك القبور الأربعة.

o o

مر شهر، وآخر، والثلج ينهمر كل يوم تقريباً. الثلج أحال سهول القمح الصفراء المسمرة إلى بيضاء، وتكدس في طرقات البلدة وأخمد الحركة فيها.

الفروع العليا المثقلة بالثلج من شجرة الدردار كانت تلامس نافذة زنزانة النساء. تعيش السناجب في الشجرة، وبعد أسابيع من إغرائها بالفتات المتبقي من وجبات الفطور، جذب بيري سنجاباً من الغصن إلى عتبة النافذة عبر القضبان. كان سنجاباً ذكراً بلون كستنائي. أسماه ريد، وسرعان ما استقر ريد عنده وقد رضي فيما يبدو بمشاركة صديقه الأسر. علمه بيري مجموعة حيل: أن يلعب بكرة من الورق، أن يتوسل، أن يجلس على كتفه. هذا ساعد بيري على تقطيع

الوقت، ومع ذلك، كانت تتبقى ساعات كثيرة عليه أن يقطعها. لم يكن مسموحاً له قراءة الصحف، وشعر بالضجر من مجلات السيدة ماير، فقد أعارته أعدادًا قديمة من غود هاوس كيبينغ وماكولز. لكنه وجد ما يفعله: يبرد أظافره بالمبرد، ويصقلها حتى تمسي بلمعة ورديّة حريرية؛ يمشط مراراً شعره المعطر والمنقوع بسائل منظف؛ ينظف أسنانه ثلاث أو أربع مرات في اليوم؛ يحلق ذقنه ويستحم بنفس العدد تقريباً. ويحافظ على الزنزانة التي تحوي تواليت، وحمّامًا، وسريرًا نقّالًا، وكرسيًّا، وطاولة، نظيفة كجسمه. وكان فخوراً بالإطراء الذي سمعه من السيدة ماير. "انظر"، قالت له، وهي تشير إلى سريره. "انظر إلى تلك البطانية! إنها في منتهى الترتيب." ولكنه يقضي جلّ وقته وهو مستيقظ إلى الطاولة؛ يتناول وجباته عليها، ويجلس إليها أيضاً ليرسم بورتريهات لريد، يرسم زهوراً، ويرسم وجه المسيح، ووجوه وجذوع نساء متخيلات؛ وعلى الطاولة كان يكتب على صفحات رخيصة من لفافات الورق ما يشبه المذكرات اليومية لما يجري في اليوم.

الخميس 7 يناير. جاء ديوي. جلب علبة سجائر. كما طبع نسخاً من أقوالي وطلب مني التوقيع. رفضت.

"الأقوال،" هي وثيقة من ثماني وسبعين صفحة أملاها على الكاتب في محكمة مقاطعة فيني، وتضم الاعترافات التي قالها من قبل إلى ألفن ديوي وكليرانس دونتز. وفي حديثه عن اللقاء مع بيري سميث في هذا اليوم، قال ديوي إنه فوجئ تماماً حين رفض بيري التوقيع على الأقوال. "لم تكن مهمة: يمكنني دائماً أن أشهد في المحكمة على الاعتراف الشفهي الذي قاله بحضوري وحضور دونتز. وبالطبع، هيكوك أعطانا اعترافاً موقعاً عندما كنا لا نزال في لاس فيغاس – وفيه

يتهم سميث بارتكاب الجرائم الأربع. ولكن فضولي دفعني لسؤال بيري لماذا غير رأيه. فقال، /كل ما جاء في أقوالي دقيق سوى تفصيلين اثنين. إذا سمحت لي بتعديلهما سوف أوقع./ الحقيقة كان يمكنني أن أخمن التفصيلين المقصودين. لأن الفارق الجدي الوحيد بين روايته ورواية هيكوك هي إنكاره أنه قتل جميع أفراد العائلة. حتى الآن كان يقسم إن هيكوك هو من قتل نانسي وأمها.

"وكنت على حق! هذا بالضبط ما أراد فعله: أن يعترف أن هيكوك قال الحقيقة، وهي إن بيري سميث، هو من قتل كل أفراد العائلة. وقال إنه كذب لأنه، حسب كلامه، /أردت أن أنتقم من دك لكونه جبانًا. سفح كل ما في أمعائه [من اعترافات] على الأرض./ والسبب الذي جعله يعود ليقول الحقيقة ليس أنه شعر فجأة بأي شفقة على هيكوك. بل، بحسب ما قال، تقديراً لوالدي هيكوك – قال إنه آسف من أجل والدة دك. قال، /إنها امرأة لطيفة بالفعل. قد تجد بعض العزاء إذا علمت أن دك لم يضغط أبداً على الزناد. ما كان ليحدث شيء لولاه، وبطريقة ما فإن معظم الخطأ منه، ولكن تبقى الحقيقة أنني أنا من قتلهم./ لكني لم أطمئن تماماً إلى هذا القول. لم أطمئن إلى حد أن أسمح له بتغيير أقواله. وكما قلت، لم نكن بحاجة إلى اعتراف رسمي من سميث للبرهان على أي جزء من القضية. بأقواله ودونها، كان لدينا ما يكفي لشنقهما عشر مرات."

من بين العناصر التي ساهمت في ثقة ديوي كان استرجاع جهاز الراديو والمنظار الثنائي اللذان سرقهما القتلة من بيت كلاتر وتخلصا منهما في مكسيكو سيتي (طار المحقق هارولد ناي إلى هناك لهذا الغرض، وتتبعهما إلى أحد مكاتب الرهن). أكثر من ذلك، فإن سميث

كشف، أثناء اعترافاته، عن أماكن أدلة أخرى ممكنة. "أخذنا الطريق السريع وسقنا إلى الشرق،" قال وهو يصف ماذا فعل هو وهيكوك بعد هروبهما من مكان الجريمة. "سقنا بسرعة جنونية، دك كان يسوق. أعتقد أننا كنا في مزاج عال جداً. من جهتي كان مزاجي عالياً. عالياً للغاية، وكنت أشعر براحة كبيرة في الوقت نفسه. لم نستطع التوقف عن الضحك، كلانا؛ فجأة، بدا لنا الأمر مضحكاً بشدة – لا أعرف لماذا، هكذا بدا ببساطة. ولكن الدم كان يقطر من البندقية، وملابسي ملطخة بالدم؛ يوجد دم حتى على شعري. لذلك، أخذنا طريقًا ريفيًّا، وسقنا ربما ثمانية أميال حتى وصلنا إلى منطقة براري. أمكننا سماع عوي الذئاب هناك. دخّنا سيجارة، وراح دك يطلق النكات حول ما جرى معنا هناك. خرجت من السيارة، وأخذت بعض الماء من خزان الماء وغسلت الدم عن سبطانة البندقية. ثم حفرت حفرة في الأرض بسكين الصيد الخاصة بدك، السكين التي استخدمناها لذبح السيد كلاتر، ودفنت هناك الرصاصات الفارغة وكل ما تبقى من لفافة حبل النايلون والشريط اللاصق. بعد ذلك سقنا حتى وصلنا إلى الطريق U.S. 83، وتوجهنا شرقاً باتجاه كانساس سيتي وأولاث. حوالي الفجر توقف دك في واحدة من أماكن الرحلات: ما يسمونه مناطق الاستراحات – حيث يوجد مواقد نار مفتوحة. أشعلنا ناراً وحرقنا بعض الأشياء. الكفوف التي لبسناها، وقميصي. قال دك إنه يتمنى لو كان لدينا ثوراً لنشويه؛ قال إنه لم يكن جائعاً في أي وقت كما هو في ذاك الوقت. وصلنا إلى أولاث عند الظهيرة تقريباً. أنزلني دك في فندق، وذهب إلى البيت ليتناول غداء الأحد مع عائلته. نعم، أخذ معه السكين. والبندقية أيضاً."

انطلق محققو مكتب تحقيقات كانساس إلى بيت هيكوك، وجدوا السكين في صندوق صيد السمك وكانت البندقية لا تزال مستندة كيفما اتفق إلى حائط المطبخ. (أصر والد هيكوك، الذي رفض أن يصدق أن "ولده" يمكن أن يكون قد شارك في مثل هذه "الجريمة المرعبة،" على أن البندقية لم تخرج من البيت منذ الأسبوع الأول من نوفمبر، ولذلك لا يمكن أن تكون سلاح الجريمة.) أما بالنسبة للرصاصات الفارغة والحبل والشريط اللاصق، فهذه الأشياء تم استرجاعها بمساعدة فيرجيل بيتز، موظف طرق سريعة في المقاطعة، الذي استخدم آلة تمهيد الأرض في المنطقة التي حددها بيري سميث، فكشف الأرض إنشاً وراء إنش حتى ظهرت الأشياء المطمورة. وهكذا يكون قد تم ربط آخر الخيوط السائبة: مكتب تحقيقات كانساس لديه الآن قضية صلبة، لأن الاختبارات أثبتت أن الرصاصات الفارغة صادرة عن بندقية هيكوك، وبقايا الحبل والشريط اللاصق كانت مطابقة للمواد المستخدمة في ربط وتكميم الضحايا.

الاثنين ١١ يناير. صار لي محامي. السيد فليمنغ. عجوز بربطة عنق حمراء.

بعد إبلاغها أن المتهمين لا يملكان المال لتوكيل مستشار قانوني، قررت المحكمة بشخص القاضي رولاند أتش. تيت، تعيين محاميين محليين للنيابة عنهما، السيد أرثر فليمنغ والسيد هاريسون سميث. فليمنغ، وهو رجل يبلغ الواحدة والسبعين من العمر، محافظ سابق لغاردن سيتي، قصير ويغطي على بلادة مظهره بربطة عنق بارزة، قاوم التعيين. "لا أريد أن أخدِم،" قال للقاضي. "ولكن إذا كانت المحكمة ترى أنّه من المناسب تعييني، عندها بالطبع، لا خيار أمامي." محامي

هيكوك، هاريسون سميث، 45 عاماً، بطول ستة أقدام، لاعب غولف، وعضو بارز في جمعية حماية الأيل، ارتضى المهمة على مضض: "أحد ما يجب أن يقوم بذلك. سأبذل ما في وسعي. رغم أني أشك أن هذا سوف يمنحني الكثير من الشعبية هنا."

الجمعة 15 يناير. السيدة ماير تشغل الراديو في مطبخها وسمعت رجلاً يقول إن نائب المقاطعة سيطلب عقوبة الإعدام. "الأغنياء لا يُشنقون أبداً. فقط الفقراء ومن لا أصدقاء لهم."

في تصريحه للإعلام قال نائب المقاطعة، دوان ويست، وهو شاب طموح بدين في الثامنة والعشرين ويبدو في الأربعين وأحياناً في الخمسين، "إذا عُرضت القضية على هيئة محلفين، سأطلب من الهيئة، لدى تثبيت التهمة عليهما، الحكم بالإعدام. وإذا تخلى المتهمان عن حق المحاكمة أمام هيئة محلفين، وأقروا بالذنب أمام القاضي، سأطلب من القاضي تحديد عقوبة الإعدام. هذه قضية أعرف أنهم سوف يطلبونني لاتخاذ قرار فيها، ولم أتوصل إلى قراري بخفة. أشعر أنه نظراً إلى عنف الجريمة والغياب التام والواضح لأي رحمة إزاء الضحايا، فإن الطريقة الوحيدة التي يمكن بها حماية العموم بشكل مطلق هو تنفيذ عقوبة الإعدام بحق هذين المتهمين. ويصح هذا بشكل خاص لأنه لا يوجد في كانساس حكم مؤبد دون إمكانية الإفراج المشروط. في الواقع، يقضي المحكومون بالمؤبد، في المتوسط، أقل من خمس عشرة سنة."

الأربعاء 20 يناير. طلب مني أن أخضع لجهاز كشف الكذب في ما يخص قضية ووكر.

قضية مثل قضية كلاتر، الجرائم التي بهذا الحجم، تثير اهتمام

رجال القانون في كل مكان، ولاسيما اهتمام المحققين الذين يتولون قضايا مشابهة لم تحل بعد، لأنه من الممكن دائماً أن يقود حل غموض جريمة ما إلى حل غموض جريمة أخرى. من بين الضباط الكثر الذين أثار اهتمامهم ما حدث في غاردن سيتي عُمدة مقاطعة سارازوستا، فلوريدا، حيث تقع أوسبري، وهي قرية تعيش على صيد السمك وليست بعيدة عن تامبا، وكانت بعد أكثر من شهر بقليل من تاريخ جريمة كلاتر، مسرحاً لجريمة قتل رباعية في مزرعة مواشي معزولة، وهي الجريمة التي قرأ عنها سميث في إحدى صحف ميامي في عيد الكريسماس. الضحايا كانوا أيضاً أربع أفراد من عائلة واحدة: زوج وزوجة شابان، السيد والسيدة كليفورد ووكر، وطفلاهما، صبي وبنت، وقد قتلوا جميعاً برصاصة في الرأس من بندقية. وبما أن قاتلي عائلة كلاتر كانا قد أمضيا ليل التاسع عشر من ديسمبر، وهو تاريخ وقوع الجريمة، في فندق في تالاهاسي، فمن المفهوم أن يطلب عُمدة أوسبري، الذي لم يكن لديه أي خيط يسترشد به لحل غموض الجريمة، استجواب الرجلين ووضعهما على جهاز كشف الكذب. ارتضى هيكوك بالاختبار، وكذلك سميث، الذي قال للسلطات في كانساس، "لاحظت في ذلك الوقت، وقلت لدك، أراهن أن من قام بهذه الجريمة، كائناً من يكون، لا بد أنّه قرأ عما حدث في كانساس. أحمق." كانت نتيجة الاختبار سلبية تماماً، ما سبّب قنوط عُمدة أوسبري وأيضاً قنوط ألفن ديوي، الذي لا يقتنع بالمصادفات الاستثنائية. ويبقى قاتل عائلة ووكر مجهولاً.

الأحد 31 يناير. والد دك هنا لزيارته. سلّمتُ عليه عندما رأيته يمر [أمام باب الزنزانة] لكنه واصل سيره. ربما لم يسمعني. فهمت من

السيدة م. [ماير] أن السيدة هـ [هيكوك] لم تأت لأنها شعرت بالعجز عن القدوم. الثلج يتساقط مثل عاهرة. حلمت الليلة الماضية أنني كنت في ألاسكا مع أبي – استيقظت وسط بركة من البول البارد!!!

قضى والد هيكوك مع ابنه ثلاث ساعات. بعد ذلك مشى عبر الثلج إلى محطة القطار في غاردن سيتي، عجوز أنهكه العمل، محدودب ونحيل بسبب مرض السرطان الذي يمكن أن يقتله بعد بضعة أشهر. في المحطة، بينما هو ينتظر قطاراً ينقله صوب البيت، تكلم لأحد المراسلين: "رأيت دك، أوه-هووه. تحدثنا طويلاً. وصدقني الأمر ليس كما يتداوله الناس. أو كما تكتب عنه الصحف. لم يذهب هذان الصبيان إلى البيت وفي نيتهم العنف. ابني لم يفعل. قد يكون لديه جوانب سيئة، ولكنه أبداً ليس إلى هذا الحد من السوء. سميتي هو المجرم. قال لي دك إنه فوجئ حين هاجم سميتي الرجل [السيد كلاتر]، وجز عنقه. حتى أن دك لم يكن في الغرفة نفسها. هو دخل الغرفة مسرعاً حين سمع صوت عراكهما. كان دك يحمل البندقية، ووصف لي الحالة كما يلي: /أخذ سميتي البندقية وفجّر رأس الرجل./ وقال، /بابا، كان يجب أن أنتزع البندقية منه وأقتله بالرصاص قبل أن يقتل بقية العائلة. لو فعلت ذلك لكنت في حال أفضل من الحال الذي أنا عليه الآن./ وأنا أعتقد ذلك أيضاً. على هذا الحال، وكما يشعر الأهالي، فليس أمامه فرصة. سوف يشنقون الاثنين معاً. و" أضاف متعباً والهزيمة تطفئ عينيه، "أن يُشنق ابنك، أن تعلم إنه سوف يُشنق، لا شيء أقسى من ذلك على قلب الرجل."

أما بيري سميث فلم يكتب له أو يأت لرؤيته أحد، لا أبوه ولا أخته. من المتوقع أن تيكس جون سميث كان ينقب عن الذهب في

مكان ما في ألاسكا – رغم أن رجال القانون، لم يتمكنوا من تحديد مكانه، رغم مساعيهم الكبيرة. الأخت قالت للمحققين إنها تخاف من أخيها، وطلبت منهم برجاء أن لا يعطوه عنوانها الحالي. (وحين علم سميث بهذا، ابتسم قليلاً وقال، "ليتها كانت في ذلك البيت تلك الليلة. يا له من مشهد ممتع!")

لولا السنجاب، ولولا عائلة ماير واللقاءات الاستشارية العارضة مع محاميه السيد فليمنغ، لأمسى بيري في وحدة شديدة. كان يفتقد دك. لأفكار دك الكثيرة، كما كتب يوماً في يومياته الطارئة. لم يسمح لهما بالتواصل منذ اعتقالهما، وكان هذا، إذا وضعنا الحرية جانباً، أكثر ما يتمناه – أن يتكلم مع دك، أن يكون معه ثانية. لم يكن دك "الصخرة الصلبة" كما خاله مرة: "براغماتياً،" و"رجولياً،" "ولد شجاع حقاً"؛ لكنه أثبت أنه "ضعيف جداً وسطحي،" "جبان." مع ذلك، من كل العالم، كان هو الشخص الأقرب إليه في تلك اللحظة، لأنهما كانا على الأقل من النوع نفسه، أخوة من سلالة قابيل؛ بعيداً عنه، كان يشعر بيري إنه "مقطوع. كشخص تغطيه القروح. شخص لا قيمة له إلا في نظر الحمقى."

ولكن في صبيحة يوم من أيام أواسط فبراير تلقى بيري رسالة. كان الختم عليها يحمل اسم ماساشوستس، وفيها:

عزيزي بيري، تأسفت كثيراً لسماع المشكلة التي وقعت فيها فقررت أن أكتب لك لتعرف إنني أتذكرك وأتمنى أن أساعدك بأي طريقة أستطيع. اسمي دون كوليفان، إذا كنت لا تتذكر اسمي، وقد أرسلت لك صورة مأخوذة في الوقت الذي التقينا فيه. لقد صعقت حين قرأت لأول مرة عنك في الأخبار

مؤخراً، وعادت بي الذاكرة إلى أيام معرفتي بك. رغم أننا لم نكن يوماً صديقين شخصيين قريبين، إلا أنني أستطيع أن أتذكرك بوضوح أكثر بكثير من معظم الزملاء الذين قابلتهم في الجيش. يجب أن يكون ذلك في خريف 1951، حين عينوك في سرية المعدات الهندسية الخفيفة 761، في فورت لويس، واشنطن. كنت قصيراً (أنا لستُ أطول منك بكثير)، ذا بنية قوية، داكن البشرة مع شعر أسود كثيف وابتسامة على وجهك طوال الوقت تقريباً. وعلى اعتبار أنك كنت تعيش في ألاسكا، الكثير من الزملاء كانوا يسمونك "إسكيمو." من ذكرياتي الأولى عنك، في أحد جولات تفتيش السَّريّة، حيث كان ينبغي فتح كل الحقائب من أجل التفتيش. وكما أذكر كانت جميع الحقائب نظامية بما فيها حقيبتك، سوى أن البطانة الداخلية لغطاء حقيبتك كان مليئاً بملصقات لصور بنات. كنا واثقين كلنا أنك سوف تقع في مشكلة. ولكن الضابط المفتش لم يتوقف عند الأمر وحين انتهى كل شيء والضابط مررها هكذا، شعرنا جميعاً أنك جسور. أذكر أنك كنت لاعب بلياردو جيد ويمكنني أن أتصورك بوضوح في غرفة استراحة السرية وأنت تلعب البلياردو. وكنت أحد أفضل سائقي الشاحنات في المجموعة. هل تذكر المشكلات الميدانية التي كنا نواجهها في الجيش؟ في إحدى الرحلات التي جرت في الشتاء أذكر أنهم سلموا كلًّا منا شاحنة طوال مدة المشكلة. في دفعتنا، لم يكن كبين السائق مدفأً وكان البرد شديداً داخل الكبين. أذكر أنك فتحت ثقباً في أرضية كبين شاحنتك لكي تسمح لحرارة المحرك بالوصول

إلى الكبين. والسبب في أنني أذكر هذا جيداً، هو الانطباع الذي تركه عندي لأن "تشويه" ممتلكات الجيش كان يعتبر جريمة يمكن أن تعاقب عليها بقسوة. بالطبع أنا كنت ساذجًا في الجيش وربما كنت أخاف أن أمدّ القوانين ولو قليلاً، لكني أذكر أنك كنت تضحك من هذا (وتتمتع بالدفء) بينما كنت أنا أحسب مئة حساب و(أتجمد). أذكر أنك اشتريت دراجة نارية، وأذكر بشكل غامض أنه حدث لك مشكلة بسببها – طاردتك الشرطة؟ - حادث؟ مهما تكن، فقد كانت المرة الأولى التي أدرك فيها الخيط الجنوني فيك. قد تكون بعض ذكرياتي خاطئة؛ هذه أحداث منذ ثماني سنوات وأنا عرفتك خلال فترة لا تتجاوز ثمانية أشهر، ولكن مما أتذكره، أنني كنت على علاقة طيبة معك طوال الوقت، ويمكن أن أقول إنني أحببتك. كنت تبدو مرحاً ومعجباً بنفسك على الدوام، كنت جيداً في عملك العسكري ولا أذكر أنك كنت كثير الشكوى. بالطبع كان يبدو عليك أنك جنونيّ، ولكني لم أعرف الكثير عن هذا الجانب فيك. لكنك الآن في مشكلة حقيقية. أحاول أن أتخيلك الآن. بماذا تفكر. حين قرأت الخبر صعقت. بالفعل صعقت. لكني وضعت الجريدة من يدي بعد ذلك والتفت إلى شيء آخر. ولكن عاودني التفكير بك. لم يرضني أن أضرب صفحاً عما قرأت، هكذا ببساطة. أنا متدين قليلاً [كاثوليكي]، أو أحاول أن أكون. لم أكن هكذا دائماً. فقط اعتدت أن أنجرف قليلاً مع التفكير بالشيء المهم الوحيد الموجود. لم أفكر قط بالموت، أو بإمكانية وجود حياة بعد الموت. كنت حيوياً أكثر من اللزوم:

سيارة، وجامعة، ومواعيد مع البنات، ..الخ. لكن أخي الصغير مات باللوكيميا وهو في السابعة عشرة من عمره. كان يعلم إنه سيموت، بعد ذلك صرت أتساءل بماذا كان يفكر. والآن أنا أفكر بك، وأتساءل بماذا تفكر. لم أعلم ما أقول لأخي في الأسبوع الأخير قبل موته. لكني أعلم ماذا أقول الآن. ولهذا أنا أكتب لك: لأن الله خلقك كما خلقني، ويحبك تماماً كما يحبني، ولأن ما نعرفه عن مشيئة الله محدود جدًّا، فإن ما حدث لك كان يمكن أن يحدث لي.

صديقك، دون كوليفان.

لم يعن الاسم شيئاً لبيري، لكنه تعرف على الوجه فوراً في الصورة، مجنّد شاب بشعر قصير، وعينين مدوّرتين جديّتين للغاية. قرأ الرسالة مراراً؛ ورغم أنه وجد التلميحات الدينية غير مقنعة ("حاولت أن أؤمن، ولكن أنا لا أؤمن، لا أستطيع، وليس من داع للتظاهر")، إلا أنه ارتعد بسببها. ها هنا شخص يعرض المساعدة، رجل عاقل محترم عرفه مرة وأحبه، رجل يختم رسالته بكلمة صديقك. بامتنان، وبسرعة، بدأ يكتب جواباً: "عزيزي دون، نعم بالتأكيد أذكر دون كوليفان ..."

o o

زنزانة هيكوك بلا نافذة؛ أمامها ممرّ عريض وواجهةٌ لزنازين أخرى. لكنه لم يكن معزولاً، فهناك من يشاركه العزلة، محصول وافر من السكارى، والمزوّرين، وضاربي زوجاتهم، والمتشردين المكسيكيين؛ وكان دك، بنموذجه المحتال الخليّ البال، وأحاديثة الجنسية ونكاته

الزنخة، مشهوراً بين النزلاء (ولكن كان بينهم شخص لم يتسع له صدره أبداً، عجوز يحتقره مردداً: "قاتل! قاتل!"، وذات مرة صبّ عليه سطلا من الماء القذر.)

ظاهرياً، بدا هيكوك للجميع شاباً مطمئناً على نحو غير عادي. خارج أوقات النوم أو التواصل مع النزلاء الآخرين، كان يستلقي على سريره يدخن أو يعلك ويقرأ مجلات رياضية أو قصص رعب. وكثيراً ما كان يستلقي على سريره وهو يصفر أغانيه المفضلة القديمة ("You Must Have Been a Beautiful Baby"، "Shuffle Off to Buffalo")، محدقاً في لمبة السقف التي تحترق ليلاً نهاراً. كان يكره الرقابة الرتيبة لهذه اللمبة؛ إنها تقلق نومه، والأهم إنها تعرّض للخطر مشروعه الخاص– الهرب. لم يكن مستسلماً أو خليّ البال كما كان يبدو؛ فقد كان يضمر اتخاذ أي خطوة ممكنة لتجنب "التأرجح على **تلك الأرجوحة**." فهو على قناعة أن هذا الحفل سيكون النتيجة الأكيدة لأي محاكمة – أي محاكمة تعقد في ولاية كانساس – وقد قرر أن "يهرب من السجن. ثم يستولي على سيارة ثم يثير الغبار خلفه." ولكن لا بد له في البداية من سلاح؛ وخلال هذه الأسابيع التي انقضت كان قد أعد سلاحه: "شيف،" أداة تشبه كاسر الجليد إلى حد بعيد – شيء مناسب لطعنة قاتلة بين لوحي كتف نائب العمدة السيد ماير. يتألف السلاح من قطعة خشبية مع نصل قاس طويل هو في الأصل جزء من فرشاة مرحاض كان قد صادرها، وفككها وأخفاها تحت فراشه. وفي وقت متأخر من الليل، حين لا يسمع سوى أصوات الشخير والسعال والعويل الصافر الحزين لقطارات سانتافي الهادرة عبر البلدة المظلمة، كان يشحذ النصل على أرض الزنزانة الاسمنتية، فيما هو يرسم الخطط في ذهنه.

ذات مرة، في أول شتاء له بعد إنهاء دراسته الثانوية، انتظر هيكوك يستوقف السيارات بين كانساس وكولورادو: "كان هذا حين كنت أبحث عن عمل. المهم، ركبت في شاحنة، وكنت أنا والسائق قد دخلنا في جدال بسيط، وبدون سبب محدد، ضربني ورماني من السيارة. وتركني هناك ببساطة. في جبال روكي العالية حتى السماء. تحت الزمهرير مشيت أميالاً، وأنفي ينزف دماً مثل ستين خنزيرًا. ثم وصلت إلى مجموعة أكواخ على سفح شجري. أكواخ صيفية، كلها مقفلة وخالية في ذلك الوقت من السنة. كسرت باب أحدها ودخلت. كان فيه حطب ومعلبات، وحتى بعض الويسكي. بقيت هناك أكثر من أسبوع، وكان من أجمل فترات عمري. رغم أن أنفي كان يؤلمني، وكانت عيناي بلون أخضر وأصفر. حين كان يتوقف الثلج وتظهر الشمس، كنت ترى سماء لا مثيل لها. مثل المكسيك. إذا كانت المكسيك في مناخ بارد. دخلت الأكواخ الأخرى، وعثرت على بعض من لحم الخنزير المدخن، وعلى جهاز راديو وبندقية. كانت فترة رائعة. أخرج بالبندقية طوال اليوم. والشمس في وجهي. يا رجل، كنت أشعر بسعادة. شعرت كأنني طرزان. كل ليلة كنت أتناول الفاصولياء واللحم المقلي وألف نفسي ببطانية بجانب النار وأنام وأنا أصغي إلى الموسيقى من الراديو. لم يقترب أحد من المكان. أراهن أنه كان يمكنني أن أبقى حتى الربيع. "إذا نجحت خطة الهرب، هذا هو المسار الذي قرر أن يتخذه دك – أن يتجه إلى جبال كولورادو، وأن يجد كوخاً يختبئ فيه حتى الربيع (وحيداً بالطبع؛ فمستقبل بيري لا يهمه). الأمل بفترة شاعرية إلى هذا الحد، مضافاً إلى السرية الملهمة التي راح يشحذ بها النصل، جعلت هذا الأخير حادّاً كخنجر مرن.

○ ○

الخميس 10 مارس. العمدة قام بجولة تفتيش. فتش كل الزنازين ووجد نصلاً (شيف) مخبأ تحت فراش "د". أتساءل ماذا كان يخطط (ابتسامة).

في الواقع لم يعتبر بيري أن هذا الأمر يدعو للابتسام، لأن قيام دك بصناعة سلاح خطير، كان يمكن أن يلعب دوراً حاسماً في الخطط التي كان يعدها هو نفسه. فمع مرور الأسابيع صار على معرفة بالحياة في ساحة المحكمة، بساكنيها وعاداتهم. القطط، مثلاً: هران نحيلان رماديان يظهران كل شفق ويجوبان الساحة، يتوقفان للتدقيق في السيارات المركونة حول الساحة – ظل هذا السلوك غامضاً بالنسبة له حتى شرحت له السيدة ماير إنهما يبحثان عن العصافير الميتة العالقة في شبك محرك السيارة. بعد ذلك، صار يؤلمه تتبع مناوراتهما: "لأنني قضيت معظم حياتي أفعل ما يفعلان. شيئاً مشابهاً."

هناك رجل واحد أولاه بيري انتباهاً خاصاً، رجل قوي البنية منتصب القامة بشعر مثل قلنسوة رمادية وفضية؛ وجهه، الممتلئ والثابت الفكين بدا مثل مشاكس في حالة الراحة، الفم منحن إلى الأسفل، والعينان مسبلتان كما لو في استغراق صفراوي – لوحة من قسوة لا ترحم. ومع ذلك كان هذا الانطباع خاطئاً إلى حد ما، لأن بيري كان يلمح الرجل من حين لآخر حين يتوقف ويتكلم مع رجال آخرين، يمازحهم ويضحك، وعندها كان يبدو مبتهجاً ومرحاً وسمحاً: "الشخص الذي يمكن أن يرى الجانب الإنساني" –وهذه خصلة هامة، لأن الرجل كان رونالد أتش. تيت، قاضي الدائرة القضائية الثانية والثلاثين، الذي سيرأس محكمة ولاية كانساس ضد سميث وهيكوك. كان تيت، كما علم بيري مبكراً، اسمًا قديمًا ومرهوبًا في غرب كانساس.

كان القاضي ثرياً، يربي الخيل، ويمتلك مساحات واسعة من الأراضي، ويقال إن زوجته في غاية الجمال. أب لولدين، غير أن الابن الأصغر مات، وهي المأساة التي نكبت الوالدين بعمق ودفعتهما لتبني صبي صغير ظهر أمام المحكمة كولد مهجور ومشرد. "يبدو لي ليّن القلب،" قال بيري مرة للسيدة ماير. "ربما كان لطيفاً معنا."

لكن ليست هذه في الحقيقة قناعة بيري الذي كان مؤمناً بما كتبه لدون كوليفان، الذي يتراسل معه الآن بانتظام: جريمته "لا يمكن غفرانها،" وهو يتوقع تماماً أنه سوف "يتسلق الدرجات الثلاث عشرة تلك". لكنه لم يكن بالكامل بلا أمل، لأنه كان خطط للهرب هو أيضاً. توقف الأمر على شابين كثيراً ما لاحظ إنهما يراقبانه. أحدهما كان أحمر الشعر، والثاني داكن. أحياناً، بينما هما يقفان في الساحة تحت الشجرة التي تلامس نافذة الزنزانة، كانا يبتسمان ويشيران إليه – أو هكذا تخيل. دائماً، بعد حوالي دقيقة، ودون أي كلمة، كانا يذهبان مبتعدين. لكن السجين أقنع نفسه أن هذين الشابين، ربما بدافع حب المغامرة، يقصدان مساعدته على الهرب. وبناء على هذا، رسم مخططاً للساحة، ووضع عليها النقاط التي يستحسن أن تنتظر فيها "سيارة الهرب". وكتب تحت المخطط: أحتاج شفرة منشار قياس 5. لا شيء آخر. ولكن هل تدركان العواقب إذا ألقي القبض عليكما (أومئا بالرأس إذا كنتما تدركان)؟ هذا قد يعني فترة طويلة في السجن. أو قد تُقتلان. كل هذا من أجل شخص لا تعرفانه. **الأفضل أن تفكرا جيداً في الأمر!!** بجدية! ثم، كيف أعلم أنه يمكن الاعتماد عليكما؟ كيف لي أن أعرف أن هذه ليست خدعة لإخراجي من هنا وتردوني قتيلًا؟ وماذا عن هيكوك؟ يجب أن يكون مشمولاً في كل الترتيبات.

ترك بيري هذه الوثيقة على طاولته، ملفوفة وجاهزة لترمى من النافذة حين يظهر الشابان في المرة التالية. ولكنهما لم يظهرا؛ لم يرهما مرة أخرى. في النهاية، صار يتساءل إن كان قد اخترعهما بخياله (فكرة أنه "قد لا يكون طبيعياً، قد يكون مجنوناً" أربكته "حتى حين كنت صغيراً، وكانت اختاي تضحكان لأني كنت أحب ضوء القمر، كنت أختبئ في الظلال وأراقب القمر"). خيالات أم لا، توقف عن التفكير بالشابين. حل محلهما في تأملاته، طريقة أخرى للهرب، الانتحار؛ ورغم احتياطات السجانين (منع المرايا والأحزمة وربطات العنق وأربطة الحذاء)، فقد ابتكر طريقة من أجل ذلك. كان لديه هو أيضاً لمبة في السقف تشتعل على نحو أبدي، ولكن، على خلاف هيكوك، كان لديه في الزنزانة مكنسة، وحين يضغط فرشاة المكنسة على اللمبة كان يمكنه فكها. ذات يوم حلم أنه فك اللمبة، وكسرها، وبواسطة الزجاج المكسور قطع شرايينه في الرسغ والكاحل. "شعرت أن النّفس والضوء مجتمعين يغادرانني،" قال في وصف تالٍ لأحاسيسه. "تلاشت جدران الزنزانة، ودنت السماء مني، ورأيت الطائر الأصفر الكبير."

طوال حياته – كطفل، مسكين يُعامَل باحتقار، وكفتىً جوّاب آفاق، وكرجل سجين – الطائر الأصفر، العملاق الذي له وجه ببغاء، كان يحلق في أحلام بيري، ملاكٌ مُنتقم يهاجم أعداءه، أو، كما هو الحال الآن، يُنقذه في لحظات الخطر المميت: "رفعني، كنت خفيفاً كفأر، صعدنا إلى الأعلى والأعلى، رأيت الساحة تحتي، رجال يركضون، يصرخون، العمدة يطلق النار باتجاهنا، الجميع تكدروا إلى أقصى حد لأنني كنت حراً، كنت أطير، كنت أفضل منهم جميعاً."

٥ ٥

تقرر أن تبدأ المحاكمة في 22 مارس، 1960. في الأسابيع التي تسبق الموعد يقابل محامو الدفاع بشكل متكرر المتهمين. نوقشت فكرة طلب تغيير مكان المحاكمة، لكن السيد فليمنغ العجوز قال لموكله، "لا يهم أين في كانساس ستعقد المحاكمة. المشاعر هي نفسها في كل الولاية. وربما كان من الأفضل لنا أن تعقد في غاردن سيتي. هنا المجتمع متدين. 11 ألف نسمة واثنتان وعشرون كنيسة. ومعظم القساوسة يعارضون عقوبة الإعدام، ويقولون إنها غير أخلاقية، وغير مسيحية؛ حتى القس كاوان، الكاهن الخاص بعائلة كلاتر والصديق المقرب من العائلة، يعظ ضد عقوبة الموت في هذه القضية بالذات. تذكر، كل ما نأمله هو إنقاذ روحيكما. أعتقد أن فرصتنا في ذلك هنا مثلها في أي مكان آخر."

بعد استدعاء سميث وهيكوك إلى المحكمة فوراً، وقف محاميا الدفاع أمام القاضي تيت للمطالبة بإصدار قرار بإجراء فحوصات نفسية شاملة للمتهمين. بالتحديد طالبا المحكمة السماح لمشفى الولاية في لارند، كانساس، وهو مصح عقلي فيه مرافق أمنية مشددة، أن يتولى الوصاية على السجناء، لمعرفة ما إذا كان أحدهما أو كلاهما "مجنوناً أو أبلهاً أو ناقص القدرات العقلية وغير قادر على فهم الموقف الذي هو فيه بما يساعده في الدفاع عنهما."

تقع لارند على بعد مئة ميل شرق غاردن سيتي؛ وقد أبلغ محامي هيكوك، هاريسون سميث، المحكمة بأنه ساق إلى هناك في اليوم السابق وقابل عدداً من طاقم المستشفى: "ليس لدينا أطباء نفسيين أكفاء هنا. والحقيقة أن لارند هي المكان الوحيد الذي يمكنك أن تجد مثل هؤلاء الأطباء في دائرة نصف قطرها مئتان وخمسة وعشرون

ميلاً – أطباء مدربين في إعطاء تقييمات نفسية جديّة. هذا يستغرق من أربعة إلى ثمانية أسابيع. لكن الطاقم الذين ناقشتهم في الأمر قالوا إنهم جاهزون للبدء الفوري بالعمل؛ وبالطبع هذا لن يكلف البلد درهماً واحداً، طالما أن المصح تابع للولاية."

قوبلت هذه الخطة بمعارضة المساعد الخاص لممثل الادعاء، لوغان غرين، الذي أكد أن "الجنون المؤقت" هو الدفاع الذي يحاول خصومه تقديمه في المحاكمة المزمعة، وأنه يخشى أن تكون النتيجة النهائية للاقتراح، كما تنبأ في حوار خاص، أن يقف على منصة الشهود "مجموعة من معالجي الرأس" المتعاطفين مع المتهمين ("هؤلاء الناس يبكون دائماً على القتلة ولا يفكرون ابداً بالضحية"). بدأ غرين، وهو قصير شرس من مواليد كنتاكي، يلفت نظر المحكمة إلى أن قانون كانساس، فيما يخص الجنون، يلتزم قاعدة مناتن، القاعدة البريطانية القديمة التي تقول إنه إذا كان المتهم يعرف طبيعة فعلته، ويعرف إنها خطأ، فإنه إذن مؤهل عقلياً ومسؤول عن أعماله. علاوة على ذلك، قال غرين، إنه لا يوجد في قوانين كانساس ما يشير إلى أن الأطباء المختارين لتحديد الحالة العقلية للمتهم يجب أن يكونوا مختصين: "مجرد أطباء عاديين. أطباء في الممارسة العامة. هذا كل ما يتطلبه القانون. لدينا تحقيقات أولية تخص السلامة العقلية نجريها سنوياً في هذه المقاطعة بغرض إيداع الناس في المصح. لم نستدع يوماً أي شخص من لارند أو من أي مصح عقلي. أطباؤنا المحليون يفون بالغرض. ليس أمراً معقداً أن تعرف ما إذا كان الرجل مجنوناً أو أبلهاً أو ناقص القدرات العقلية ... لا داع لذلك إطلاقاً، وإرسال المتهمين إلى لارند هو مضيعة للوقت."

في الرد، قال المستشار سميث إن الوضع الحالي "أخطر بكثير

من شهادة سلامة عقلية في محكمة الإرث والوصايا. روحان في خطر هنا. مهما تكن جريمتهما، يحق لهما أن يخضعا لفحص من قبل أشخاص مدربين وذوي خبرة. الطب النفسي،" أضاف راجياً القاضي بصورة مباشرة، "نضج بسرعة خلال السنوات العشرين الماضية. وقد بدأت المحاكم الفدرالية بالانسجام مع هذا العلم فيما يتعلق بالمتهمين بجرائم جنائية. يبدو لي إن لدينا فرصة ذهبية أن نستفيد من المفاهيم الجديدة في هذا الحقل."

لقد كانت فرصة فضّل القاضي أن يرفضها، لأنه كما لاحظ أحد زملائه من القضاة ذات مرة، "تيت هو ما يمكن تسميته محامي كتب قانون، لأنه لا يجرّب، بل يلتزم بالنص بصرامة"؛ ولكن الناقد نفسه قال عنه، "إذا كنتُ بريئاً، فإنه الرجل الأول الذي أتمناه على منصة القُضاة؛ وإذا كنتُ مذنباً فالعكس." لم يرفض القاضي تيت الاقتراح بالكامل؛ بل عمل كل ما يتطلبه القانون بتعيين لجنة من ثلاثة أطباء من غاردن سيتي والطلب منهم إعطاء حكم عن القدرات العقلية للسجينين. في الوقت المحدد قابل الأطباء الثلاثة المتهمين، وبعد حوالي الساعة من محادثة دقيقة، أعلنوا أن لا أحد من المتهمين يعاني من اي اضطراب عقلي. وحين علم بيري سميث بتشخيصهم قال، "كيف عرفوا ذلك؟ جاؤوا للتسلية. ليسمعوا كل التفاصيل المروعة من فم القاتل نفسه. أوه، كانت عيونهم تشعّ." وكان محامي هيكوك غاضباً أيضاً؛ ذهب مرة أخرى إلى مستشفى الولاية في لارند، حيث طلب خدمات مجانية من أي طبيب نفسي يرغب في الذهاب إلى غاردن سيتي لمقابلة المتهمين. الرجل الوحيد الذي تطوّع، هو الدكتور دبليو ميتشل جونز، وهو كفؤ على نحو ممتاز؛ لم يبلغ الثلاثين بعد، يحمل

اختصاصًا عالٍ في السيكولوجيا الجُرمية والجنون الجُرمي، وقد عمل ودرّس في أوروبا والولايات المتحدة، وافق على فحص سميث وهيكوك، وعلى أن يشهد في صالحهما، إذا كانت نتيجة فحصه تستدعي ذلك.

صباح الرابع عشر من آذار، وقف محاميا الدفاع ثانية أمام القاضي تيت، للمطالبة بتأجيل المحاكمة، التي كان موعدها بعد ثمانية أيام. وتم تقديم سببين، الأول هو أن أحد "أهم الشهود الرئيسيين"، والد هيكوك، كان مريضاً إلى حد يمنعه من الشهادة. الثاني كانت مسألة أدق، فخلال الأسبوع الماضي بدأ يظهر في واجاهت المحلات والبنوك والمطاعم وفي محطة السكك الحديدة بلاغ مكتوب بجرأة: **بَيْع بالمزاد العلني لعقارات أتش. دبليو. كلاتر. 21 مارس 1960. في عزبة عائلة كلاتر.** توجه هاريسون سميث إلى المنصة بالقول، "الآن، أعرف إنه من شبه المستحيل إثبات التحامل. ولكن موعد هذا البيع، المزاد على أملاك الضحية، يأتي بعد اسبوع من الآن – بكلام آخر، في اليوم السابق تماماً على بدء المحاكمة. لا أستطيع أن أقول إذا كان هذا ضارًا بالمتهمين. ولكن هذه العلامات، إضافة إلى الإعلانات في الصحف وفي الراديو، ستكون بمثابة مذكر دائم لكل مواطني المجتمع الذين استدعي منهم 150 كمحلفين محتملين."

لم يتأثر القاضي تيت، وأنكر الاقتراح دون تعليق.

o o

في وقت أبكر من العام باع هيديو أشيدا، الجار الياباني للسيد كلاتر، معدات مزرعته بالمزاد وانتقل إلى نبراسكا. اعتبر مزاد أشيدا ناجحاً، فقد جذب أقل بقليل من مئة زبون. أما مزاد كلاتر فقد حضره أكثر من خمسة آلاف شخص. وقد توقع مواطنو هولكومب حضوراً

غير عادي – فمجموعة السيدات في كنيسة الجماعة في هولكومب حولت أحد مخازن كلاتر إلى كافيتيريا فيها مئتا فطيرة بيتية الصنع، ومئتان وخمسون باوند من لحم الهمبرغر، وستون باوند من شرائح اللحم – ولكن لم يستعد أحد لأكبر حشد لمزاد علني في تاريخ غرب كانساس. وصلت السيارات إلى هولكومب من نصف مقاطعات الولاية، ومن أوكلاهوما، وكولورادو، وتكساس، ونبراسكا. جاءت متلاصقة تقريباً وهي تسير على الطريق المؤدي إلى مزرعة ريفر فالي.

كانت تلك المرة الأولى التي يسمح فيها للعموم بزيارة منزل كلاتر منذ اكتشاف الجريمة، الحال التي تفسر حضور ثلث الحشد الهائل ربما – الناس القادمون بدافع الفضول. وبالطبع كان الطقس يساعد على الحضور، ففي منتصف مارس كانت ثلوج الشتاء العالية قد ذابت، وفي المناطق التي ذاب فيها الثلج بالكامل، ظهرت الأرض فداناً إثر فدان موحلة حتى الكاحل؛ ولا يمكن لأي مزارع أن يعمل حتى تتصلب الأرض. "الأرض رطبة وقذرة،" قالت السيدة بيل رمسي، زوجة أحد المزارعين. "لا يمكن العمل البتة. قلنا يمكننا إذن أن نأتي إلى المزاد." في الواقع كان يوماً جميلاً. ربيع. رغم أن الوحل كان كثيراً تحت الأرجل، فإن الشمس التي حجبت طويلاً بسبب الثلوج والغيوم، بدت كأنها حديثة الصنع، والأشجار – بستان السيد كلاتر من أشجار الإجاص والتفاح، وأشجار الدردار التي تظلل الطريق – كان يكتنفها ضباب من خضرة عذراء. والمرجة الجميلة المحيطة ببيت السيد كلاتر كانت أيضاً تكتسي بخضرة جديدة، وراحت تدوسها نساء متلهفات لإلقاء نظرة أقرب على البيت الخالي، يتسللن عبر العشب وينظرن عبر النوافذ كما لو أنهن يأملن ويخشين أن تتبدى لهم ظهورات حزينة، في الظلمة خلف

الستائر المزهرة الجميلة.

راح الدلّال يصيح مُشيداً بالبضاعة - جرارات، شاحنات، عربات يدوية، براميل مسامير ومطارق ثقيلة وخشب غير مستخدم، دلاء حليب، قطع حديدية لوسم المواشي، خيول، حدوات الخيل، كل ما يلزم لتشغيل مزرعة من الحبل وعدة الفرس إلى غسول الغنم وأحواض الغسيل الصفيحية - الأمل بشراء هذه البضائع بأسعار منافسة هو ما أغرى معظم القادمين. ولكن أيدي المنافسين كانت ترتفع بخجل - أيد مخشوشنة بالعمل ومترددة خائفة من دفع النقود التي كسبتها بشق النفس؛ ومع ذلك لم يبق شيء لم يُبع، حتى أنه كان هناك شخص يرغب في اقتناء مجموعة مفاتيح صدئة؛ واشترى راعي بقر شاب يلبس بوطاً أصفر فاتح "عربة الذئاب" الخاصة بكينيون كلاتر، السيارة المهلهلة التي كان يستخدمها الصبي المتوفى لإخافة الذئاب ومطاردتها في الليالي المقمرة.

العمال المساعدون، الرجال الذين كانوا يجرون القطع الصغيرة إلى منصة الدلال ومنها، كانوا باول هيلم، وفيك إرسك وألفريد ستوكلين، كل منهم موظف كبير في السن ولا يزال مخلصاً للمرحوم هيربرت دبليو كلاتر. المساعدة في التخلص من ممتلكاته كانت خدمتهم الأخيرة، لأن اليوم كان يومهم الأخير في مزرعة ريفر فالي؛ فقد تم تأجير المزرعة إلى مزارع من أوكلاهوما، ومنذ اليوم سيعيش عليها غرباء ويعملون فيها. مع تقدم المزاد، كان المجال الدنيويّ للسيد كلاتر ينكمش، ويتلاشى بالتدريج. قال باول هيلم، وهو يسترجع دفن العائلة القتيلة، "إنها أشبه ما تكون بجنازة ثانية." .

كان آخر ما بيع، محتويات زريبة المواشي، وغالبيتها من الخيول،

بما فيها فرس نانسي، الكبيرة، السمينة بيبي، التي كانت قد تجاوزت بكثير شبابها. حين بدأ المزاد على الفرس، كان في وقت متأخر من بعد الظهر، والدوام المدرسي قد انتهى، والعديد من زملاء نانسي كانوا بين المتفرجين؛ وكانت بينهم سوزان كيدويل. رغبت سو، التي كانت قد تبنت أحد الحيوانات التي يتمها موت نانسي، قطة، في أن تتمكن من منح بيبي بيتاً، لأنها كانت تحب الفرس العجوز وتعرف كم كانت نانسي تحبها. كثيراً ما ذهبت البنتان على ظهر بيبي العريض معاً، وكانت تهرول بهما عبر حقول القمح في أماسي الصيف الحارة نزولاً إلى النهر وتخوض في الماء عكس التيار حتى، كما وصفت سو الحالة مرة، "نصبح نحن الثلاثة باردات كالسمك." ولكن لم يكن لدى سو مكان للفرس.

"سمعت خمسين ... خمسة وستين ... سبعين...": الإقبال عليها كان ضعيفاً، لا أحد يريد حقاً أن يشتري بيبي كما يبدو، والرجل الذي اشتراها، مزارع مينونيت قال إنه يمكن أن يستخدمها في الحراثة، دفع خمسة وسبعين دولار. وبينما هو يأخذها من الزريبة، اندفعت سو كيدويل؛ رفعت يدها كما لو أنها تريد أن تلوح مودعة، ولكنها بدلاً من ذلك صفقت بها على فمها.

ο ο

عشية بدء المحاكمة، كتبت التيليغرام في غاردن سيتي الافتتاحية التالية: "قد يعتقد البعض أن عيون كل الأمة شاخصة إلى غاردن سيتي خلال هذه المحاكمة التي تنظر في جريمة قتل رهيبة. ولكن لا. حتى على بعد مئة ميل إلى الغرب من هنا، في كولورادو، قليلون هم الأشخاص الذين يعرفون عن هذه القضية، أكثر من تذكر أنه تم قتل بعض أفراد عائلة بارزة. هذا تعليق حزين على حالة الجريمة في أمتنا.

منذ أن قتل أربع أفراد من عائلة كلاتر الخريف الفائت، حدثت مثلها جرائم قتل متعددة الضحايا في مختلف أنحاء البلاد. فقط خلال الأيام القليلة التي سبقت انعقاد هذه المحاكمة ظهرت على الأقل ثلاث جرائم جماعية في عناوين الصحف. والنتيجة، أن هذه الجريمة والمحاكمة هي مجرد واحدة من قضايا كثيرة مشابهة قرأ عنها الناس ونسوها..."

ورغم أن عيون الأمة لم تكن عليهم، فإن سلوك المشاركين الرئيسيين، من كاتب المحكمة حتى القاضي نفسه، كان متزناً في الصباح الذي عقدت فيه المحكمة جلستها الأولى. المحامون الأربعة يرتدون بدلات جديدة؛ الحذاء الجديد لنائب المقاطعة الكبير القدمين كان يصرّ ويولول مع كل خطوة. هيكوك أيضاً، كان يرتدي بأناقة ملابس أحضرها له والداه: سروال سيرج أزرق مرتب، وقميص أبيض، وربطة عنق كحلية ضيقة. أما بيري، الذي لم يكن لديه لا جاكيت ولا ربطة عنق، فقد بدا يغرد خارج السرب من الناحية اللباسية، إذ كان يرتدي قميصاً بقبة مفتوحة (استعاره من السيد ماير) وسروال جينز أزرق ملفوف من الأسفل عند القيد، وقد بدا وحيداً وغير ملائم مثل نورس في حقل من القمح.

قاعة المحكمة، غرفة متواضعة تقع في الطابق الثالث من مبنى محكمة مقاطعة فيني، لها حيطان بيضاء بليدة وأثاثها من الخشب المدهون بلون قاتم. يمكن أن تستوعب مقاعد الناظرين مئة وستين شخصاً. في صباح يوم الثلاثاء، 22 مارس، كانت المقاعد مشغولة حصراً من مجموعة من الرجال فقط من سكان مقاطعة فيني. ومن هذه المجموعة سيتم اختيار هيئة المحلفين. لم يكن الكثير من المواطنين المدعوين متلهفين للمشاركة (أحد المحلفين المحتملين قال

في محادثة مع زميل آخر، "لا يمكنهم استخدامي. أنا لا أسمع جيداً كما يجب." ورد صديقه، بعد قليل من التأمل الماكر، "إذا أردت الحقيقة، وسمعي أنا ليس جيداً هو الآخر")، وكان يعتقد عموماً أن اختيار هيئة المحلفين يستغرق عدة أيام. وكما تبين، اكتملت العملية في غضون أربع ساعات؛ أكثر من ذلك، تشكلت الهيئة، مع عضوين احتياط، من أول أربعة وأربعين مرشّحًا. جرى رفض سبعة بالطعن القطعي من قبل الدفاع، وإعفاء ثلاثة بطلب من الادعاء؛ وفُصل عشرون آخرون إما بسبب معارضتهم عقوبة الإعدام، أو لأنهم اعترفوا أنهم شكلوا رأياً نهائياً يدين المتهمين سلفاً.

الرجال الأربعة عشر الذين جرى اختيارهم أخيراً يتألفون من ستة مزارعين، وصيدلي، ومدير حضانة، وموظف في مطار، وحفار آبار، وبياعين، وميكانيكي، ومدير صالة راي للبولينغ. كلهم كانوا أرباب أسر (العديد منهم لديه خمسة أولاد أو أكثر)، وينتسبون جدياً إلى هذه الكنيسة المحلية أو تلك. خلال الاستجواب، قال أربعة منهم للمحكمة، إنهم يعرفون السيد كلاتر شخصياً، وإن كان بشكل غير حميم؛ ولكن بعد مزيد من الاستجواب قال كل منهم إنه لا يشعر أن هذا الأمر يعيق قدرته التوصل إلى حكم محايد. وحين سئل عن رأيه بعقوبة الإعدام، قال موظف المطار، وهو رجل في منتصف العمر يدعى ن. ل. دونان، "عادة أنا ضدها، ولكن في هذه القضية، لا" – وقد بدا هذا التصريح، لبعض من سمعه، دليلًا واضحًا على الحكم المسبق. ومع ذلك قُبل دونان في الهيئة. كان المتهمان مراقبَين غافلين لإجراءات استجواب أعضاء هيئة المحلفين. في اليوم السابق، قابلهما الدكتور جونز، الطبيب النفسي الذي تطوع لفحصهما، كل على حدة لمدة

ساعتين تقريباً: في نهاية المقابلة، اقترح أن يقدم له كل منهما بيان سيرة ذاتية مكتوباً، وكان المتهمان مشغولان بكتابة البيان خلال ساعات تشكيل هيئة المحلفين. كانا يجلسان على الطرفين المتقابلين من طاولة محاميهما، هيكوك يمسك بقلم حبر وسميث بقلم رصاص.

كتب سميث:

أنا بيري إدوارد سميث ولدت في 27 أكتوبر 1928 في هونتنغتون، مقاطعة إلكو، نيفادا، الواقعة في آخر ما عمّر الله، إذا جاز التعبير. أذكر أن عائلتي غامرت في 1929 بالذهاب إلى جونو، ألاسكا. في عائلتي كان أخي تيكس جينيور (فيما بعد غير اسمه إلى جيمس بسبب سخف اسم "تيكس" وأعتقد أيضاً إنه كان يكره أبي في سنواته المبكرة – بتأثير أمي). أختي فيرن (هي أيضاً غيرت اسمها إلى جوي). أختي باربارا. وأنا... في جونو كان أبي يصنع خموراً محظورة. أعتقد أنه خلال تلك الفترة اعتادت أمي على الكحول. بدأت المشاكل بين أبي وأمي. أذكر أن أمي كانت "تسلّي" بعض البحارة حين كان أبي بعيداً. وعندما عاد وقع شجار بينهما، وبعد قتال عنيف طرد أبي البحّارة واستمرّ في ضرب أمي. كنت خائفاً إلى حد كبير، الحقيقة كلنا نحن الأطفال كنا نصرخ مرعوبين. كنت خائفاً لأني ظننت أن أبي سوف يؤذيني، وأيضاً لأنه كان يضرب أمي. أنا فعلاً لم أفهم لماذا كان يضربها، لكني شعرت إنها لا بد قد ارتكبت خطأً رهيباً... الشيء الثاني الذي أستطيع تذكره بشكل مبهم، الحياة في فورت براغ، كاليفورنيا. قُدّم لأخي مسدس ب.ب. وقد أطلق النار على طائر طنان، وبعد ذلك تأسف. طلبت منه أن يسمح لي باستخدام

المسدس. دفعني بعيداً، وقال إنني صغير على هذا. أثار ذلك جنوني وبدأت أبكي. بعد أن أنهيت بكائي، ارتفع غيظي مجدداً، وفي المساء حين كان المسدس خلف الكرسيّ الذي يجلس عليه أخي، أخذت المسدس ووجّهته إلى أذن أخي وصرخت **بانغ**! ضربني أبي (أو أمي) وجعلني أعتذر. اعتاد أخي أن يطلق النار [حول] حصان أبيض كبير، كان يمتطيه جارنا الذي يمر بجانب بيتنا في طريقه إلى المدينة. قبض الجار علينا أنا وأخي ونحن مختبئين في الأدغال، وأخذَنا إلى أبي الذي ضربنا، وصادر المسدس من أخي، وقد كنت سعيداً لأن أخي خسر المسدس... هذا كل ما أذكره عن حياتنا في فورت براغ (أوه! نحن الأولاد اعتدنا أن نقفز عن سطح مخزن تبن -حاملين مظلة- إلى كومة من القش على الأرض).... الذكرى التالية بعد بضع سنوات عندما كنا نعيش في كاليفورنيا؟ نيفادا؟ أذكر حادثة بغيضة بين أمي وزنجيّ. كنا ننام نحن الأولاد في شُرفة البيت وقت الصيف. أحد الأسرّة كان مباشرة تحت غرفة أبي وأمي. كل واحد منا كان يلقي نظرة [من الخارج] عبر الستائر المفتوحة جزئياً ويرى ما كان يجري. كان أبي قد استأجر زنجياً (سام) للقيام بأعمال متفرقة في الحقل، أو المزرعة، بينما كان هو يعمل في مكان ما على الطريق. واعتاد أن يعود إلى البيت في وقت متأخر في شاحنته موديل (A). لا أذكر تسلسل الأحداث ولكن أعتقد أن أبي كان قد علم أو شكّ أن شيئاً ما يحدث. انتهى الأمر إلى انفصال أبي عن أمي. أخذتنا أمي نحن الأولاد إلى سان فرانسيسكو. غادرت بشاحنة أبي وكل التذكارات الكثيرة التي جلبها من الاسكا. أعتقد أن هذا كان في

1935(؟).... في فريسكو كنت في مشاكل دائمة. بدأت أمشي مع عصابة، كل أفرادها كانوا أكبر مني سناً. أمي دائماً مخمورة، ولم تكن يوماً في حالة جيدة لتقدّم العناية اللازمة لنا. صرت حراً ومتوحشاً كذئب. لا قاعدة ولا انضباط، ولا أحد يُظهر لي الصحيح من الخطأ. أذهب وأعود كما يحلو لي – حتى واجهتني أول مشكلة. الكثير الكثير من المرات دخلت وخرجت من سجن الأحداث بسبب هروبي من البيت وبسبب السرقة. أذكر أحد الأماكن التي أُرسلت إليها. كان لدي كليتان ضعيفتان، كنت أبلل فراشي كل ليلة. وهذا كان مذلاً لي، لكني لم أستطع السيطرة على نفسي. كنت أتعرض لضرب شديد على يد مديرة البيت التي كانت تلقبني ألقاباً وتسخر مني أمام كل الأولاد. كانت تقوم بجولات طوال الليل لترى إن كنت قد بللت فراشي. وكانت تسحب الغطاء وتضربني ضرباً شديداً بحزام جلدي أسود عريض – تسحبني من السرير بشعري وتجرّني إلى الحمام وترميني في الحوض ثم تفتح الماء البارد وتطلب مني أن أغسل نفسي والشراشف. كل ليلة كانت كابوساً. فيما بعد ظنّت أنه من المسلّي جداً أن تضع نوعاً من المراهم على قضيبي. كان هذا شيئاً لا يطاق. كان يحرقني بشكل فظيع. فيما بعد طُردت من عملها. ولكن هذا لم يغير أبداً رأيي بها وبرغبتي في أن أنتقم منها ومن كل الناس الذين سخروا مني.

ولأن الدكتور جونس أخبره إنه يريد البيان بعد الظهر، فقد قفز بيري إلى بداية المراهقة والسنوات التي عاشها مع أبيه، يجوبان أرجاء الغرب والغرب الأقصى، ينقبان عن الذهب، ينصبان الفخاخ، يقومان

بأعمال مختلفة:

كنت أحب أبي ولكن كانت تأتي أوقات يتسرب فيها هذا الحب والتعلّق من قلبي كما تتسرب المياه المهدورة. كان ذلك حين لا يحاول فهم مشاكلي. حين لا يمنحني القليل من الاعتبار والصوت والمسؤولية. كان عليّ أن أبتعد عنه. في السادسة عشرة التحقت بالبحرية التجارية. وفي 1948 التحقت بالجيش – ضابط التجنيد أعطاني استراحة ورفع اختباري. منذ ذلك الوقت بدأت أدرك أهمية التعليم. وهذا زاد من كرهي ومرارتي تجاه الآخرين. بدأت أدخل في شجارات. رميت رجل شرطة ياباني عن جسر إلى الماء. قُدّمت إلى محكمة عسكرية لأنني حطمت مقهى صيني. وقُدمت إلى محكمة عسكرية لأني سرقت سيارة أجرة يابانية. بقيت في الجيش حوالي أربع سنوات. انفجرت عدة مرات في نوبات غضب عنيفة حين خدمت في اليابان وكوريا. بقيت في كوريا 15 شهراً، ثم استبدلونا وعدت إلى الولايات المتحدة – واستلمت اعترافاً خاصاً باعتباري أول محارب سابق في الحرب الكورية يعود إلى أراضي الاسكا. وكتبوا عني أشياء كبيرة في الصحف مع صورة، وثمن تذكرة السفر بالطائرة إلى الاسكا، وكل هذه الأشياء ... أنهيت خدمتي العسكرية في فورت لويس، واشنطن.

تسارعت حركة قلم الرصاص في يد سميث إلى حد غير مقروء تقريباً حين اقترب من كتابة تاريخه الأحدث: حادث الدراجة النارية الذي أقعده، سرقة فيليبسبورغ، كانساس، التي قادت إلى أول حكم عليه بالسجن:

... حكم عليّ بالسجن من خمس إلى عشر سنوات بسبب سرقة كبيرة وسطو وهرب من السجن. شعرت أنني عوملت بظلم شديد. وبقيت أشعر بالمرارة طوال فترة سجني. حين أفرجوا عني، كان يفترض أن أذهب إلى ألاسكا مع أبي – لم أذهب – عملت لبعض الوقت في نيفادا وإيداهو - ذهبت إلى لاس فيغاس وتابعت إلى كانساس حيث تورطت في الوضع الذي أنا فيه الآن.

لا وقت لكتابة المزيد.

وقّع باسمه، وأضاف تذييلًا:

"أرغب أن أتكلم معك ثانية. هناك أشياء كثيرة لم أقلها قد يكون لها أهمية بالنسبة لك. دائماً أشعر بالبهجة حين أكون بين أناس لهم هدف، ولديهم الإخلاص لتنفيذ هذا الهدف. شعرت بحضورك وأنك من هذا الصنف."

لم يكتب هيكوك بالحماسة التي كتب بها شريكه. كثيراً ما توقف يصغي إلى استجواب أحد المحلَّفين المحتملين، أو يحدق في الوجوه من حوله – بشكل خاص، وبامتعاض صريح إلى الوجه العضلي لنائب المقاطعة، دوان ويست، الذي كان بنفس عمره، ثمانية وعشرون. لكن بيانه، المكتوب بخط نمطي يشبه المطر المائل، انتهى قبل أن تنفضّ المحكمة لموعد لاحق:

سأحاول أن أخبركم كل ما أستطيعه عن نفسي، رغم أني لا أذكر جيداً معظم حياتي المبكرة – حتى عيد ميلادي العاشر. سنوات المدرسة مضت تماماً مثل معظم الأولاد الآخرين في عمري. كان لي نصيبي من المشاجرات والبنات والأشياء الأخرى

التي تحدث مع الصبي في مرحلة النمو. حياتي البيتية كانت أيضاً عادية، ولكن كما أخبرتكم من قبل، نادراً ما كان يُسمح لي أن أخرج من البيت وأزور رفاق اللعب. كان أبي صارماً دائماً معنا نحن الصبيان [أخوه وهو] في هذا الخط. وكان عليّ أيضاً أن أساعد أبي كثيراً حول المنزل.... أستطيع فقط أن اذكر مشكلة بين أبي وأمي وصلت إلى كل شيء. لا أدري ما هو السبب... اشترى أبي لي دراجة هوائية مرة، وأعتقد أنني كنت أكثر الأولاد افتخاراً في البلدة. كانت دراجة بناتية ولكنه غيّرها لتصبح صبيانية. دهنها كلها بحيث بدت كأنها جديدة. ولكن كان عندي الكثير من الألعاب عندما كنت صغيراً، الكثير قياساً على الوضع المالي الذي كان فيه أهلي. كنا دائماً في ما يمكن أن تسميه نصف فقر. لم نهبط ونتشرد أبداً، ولكن في مرات عديدة كنا على شفا ذلك. كان أبي عاملاً نشيطاً وقد اشتغل بكل قدرته ليعولنا. وأمي كانت أيضاً نشيطة. دائماً كان بيتها نظيفاً، وكنا نغسل الملابس بكثرة. أذكر أن أبي كان يرتدي تلك القبعات المسطحة القديمة الزي وكان يجعلني ألبسها أيضاً ولم أكن أحبها.... في المدرسة الثانوية اشتغلت جيداً بالفعل، كنت فوق المعدل الوسط في أول سنة أو سنتين. ولكن بعد ذلك بدأت أنحدر قليلاً. صار لدي صديقة. كانت لطيفة، لم أحاول مرة أن ألمسها بأي شكل سوى القُبل. كان حباً نظيفاً بالفعل... حين كنا في المدرسة شاركت في كل الرياضات، وبرعتُ فيها كلها. كرة السلة، كرة القدم، البيسبول، الجري. سنة التخرج كانت الأفضل. لم يكن لي أية فتاة ثابتة، فقط كنت ألعب رياضة.

حينها نشأت علاقتي الأولى مع بنت. بالطبع قلت للأولاد أنه كان عندي الكثير من البنات.... جاءني عروض من كليتين للعب الكرة، ولكني لم ألتحق بأي منهما. بعد أن تخرجت من المدرسة ذهبت للعمل في سكك حديد سانتا في، وبقيت حتى الشتاء التالي حين فصلوني من العمل. في الربيع التالي حصلت على عمل في شركة رورك للسيارات. بعد بضعة أشهر من عملي هناك وقع لي حادث بإحدى سيارات الشركة. أقمت في المستشفى عدة أيام بسبب إصابات شديدة في الرأس. فبينما كنت في هذه الحالة لم أستطع العثور على عمل آخر، لذلك بقيت معظم الشتاء عاطلاً عن العمل. في هذه الأثناء تعرفت على بنت ووقعت في حبها. كان أبوها واعظًا في الكنيسة المعمدانية، ولم يكن راضياً عن علاقتي بها. في يوليو تزوجنا. أقام أبوها الدنيا ولم يقعدها، إلى أن علم أنها حامل. ولكنه مع ذلك لم يتمنّ لي حظاً طيباً وكان دائماً يناكدنا. بعد زواجنا، اشتغلت في محطة بنزين قرب كانساس سيتي. كنت أعمل من الثامنة مساء حتى الثامنة صباحاً. وأحياناً كانت تبقى معي زوجتي طوال الليل – كانت تخشى أن لا أستطيع مقاومة النعس، فكانت تأتي لتساعدني. ثم جاءني عرض للعمل في بيري بونتياك، العرض الذي قبلته بسرور. كان عملاً جيداً، رغم أني لم أجن منه الكثير من المال – 57 دولار في الأسبوع. علاقتي جيدة مع العمال الآخرين، ورئيسي يحبني. اشتغلت هناك خمس سنوات.... خلال عملي هناك كانت بداية بعض أسوأ الأشياء التي عملتها في حياتي.

هنا كشف هيكوك عن ولعه الجنسي بالأطفال، وبعد وصف

عدة تجارب له، كتب:

أعرف أن هذا خطأ. ولكن في ذلك الوقت لم يكن يهمني ما إذا كان خطأ أم لا. وهذا ينطبق أيضاً على السرقة. يبدو كأن هناك دافع ما. هناك شيء بخصوص قضية كلاتر لم أخبركم عنه. قبل أن أذهب إلى بيتهم كنت أعلم أنه لديهم بنت. وأعتقد أن السبب الرئيسي في ذهابي إلى هناك لم تكن سرقة البيت بقدر ما كان اغتصاب البنت. لأنني فكرت في الأمر كثيراً. هذا هو سبب أنني لم أرغب أبداً بالعودة بعد أن بدأنا. حتى بعد أن علمت أنه لا يوجد هناك أيّة خزنة. توددت قليلاً للبنت بينما كنّا هناك. لكن بيري لم يمنحني الفرصة. آمل أن لا يعرف أحد هذا الشيء سواك، فأنا لم أخبر حتى المحامي بهذا. هناك أشياء أخرى كان ينبغي أن أخبرك إياها، لكن أخشى أن يطّلع عليها أهلي. لأنني أخجل منها (هذه الأشياء التي فعلتها) أكثر من الشنق.... أنا مريض. السبب، باعتقادي، هو حادث السيارة. نوبات من فقد الوعي، وأحياناً ينزف الدم من أنفي وأذني اليسرى. جاءتني إحدى هذه النوبات بينما كنت في بيت عائلة تدعى كريست – يعيشون جنوب بيت أهلي. ومنذ فترة ليست بعيدة خرجت من رأسي قطعة زجاج، برزت عند زاوية عيني. ساعدني أبي في استخراجها.... أعتقد إنني يجب أن أخبرك الأشياء التي تسببت في طلاقي، والأشياء التي أوصلتني إلى السجن. بدأ الموضوع في بداية 1957. كنت أعيش مع زوجتي في شقة في كانساس سيتي. كنت قد تركت عملي في شركة السيارات، وانخرطت أشتغل في كراج لي. استأجرت الكراج من

سيدة عندها كنّة تدعى مرغريت. قابلت هذه البنت بينما كنت أعمل، وشربنا القهوة معاً. زوجها كان بعيداً في مُشاة البحرية. بالمختصر، بدأت أخرج معها. رفعت زوجتي دعوى طلاق. بدأت أفكر، أنا لم أحب زوجتي حباً حقيقياً أبداً. لأنني لو أحببتها بالفعل لما أقدمت على فعل الأشياء التي فعلتها. لذلك لم أمانع الطلاق. بدأت أشرب، وبقيت مخموراً لحوالي الشهر. أهملت عملي، وصرفت من النقود أكثر مما كنت أكسب، وكتبت شيكات مزورة، وفي النهاية أصبحت لصاً. وبسبب السرقة أُرسلت إلى الإصلاحية.... قال محاميّ إنني يجب أن أكون صريحاً معك لأنك تستطيع مساعدتي. وأنا بحاجة للمساعدة، كما تعلم.

o o

اليوم التالي، الأربعاء، كانت البداية الفعلية للمحاكمة؛ وكانت أيضاً المرة الأولى التي يسمح فيها للجمهور العادي بالدخول إلى قاعة المحكمة، وهي مساحة ضيقة لا تستوعب أكثر من نسبة متواضعة من الجمهور المنتظر على الباب. حُجزت أفضل الأماكن من أجل عشرين شخصاً من الصحافة، ومن أجل شخصيات خاصة مثل والديّ هيكوك ودونالد كوليفان (الذي سافر، بناء على طلب محامي بيري سميث، من ماساشوسيتس ليكون بمثابة شاهد شخصي نيابة عن صديقه السابق في الجيش). وسرت شائعة تقول إن ابنتَي كلاتر الناجيتين ستحضران أيضاً؛ لكنهما لم تحضرا هذه الجلسة ولا أي جلسة تالية. ومن مثّل العائلة هو الأخ الأصغر للسيد كلاتر، آرثر، الذي ساق مئة ميل ليصل إلى المحكمة. وقال للصحفيين: "كل ما أريده هو أن أشبع عيني منهما

[سميث وهيكوك]. أريد أن أرى أي نوع من الحيوانات هما. ما أشعر به، يجعلني قادراً على تمزيقهما إرباً." أخذ مقعداً وراء المتهمين مباشرة، وثبّت نظره عليهما بإصرار فريد، كأنه يخطط لرسم بورتريهات لهما من الذاكرة. الآن، وكما لو أن آرثر كلاتر أراده أن يفعل ذلك، التفت بيري ونظر إليه – وتعرف على وجه شديد الشبه بوجه الرجل الذي قتله: العيون المتسامحة، الشفاه الرقيقة، الذقن الصارمة. بيري، الذي كان يعلك، توقف عن المضغ، وخفض عينيه، مرت دقيقة، ثم ببطء راحت فكّاه تتحركان مجدداً. سوى هذه اللحظة، فإن سميث، وهيكوك أيضاً، انحسم موقف قاعة محكمة غير مبالية وضجرة في الوقت نفسه: كانا يعلكان ويقرعان أقدامهما بانعدام صبر، حين استدعت المحكمة الشاهد الأول.

نانسي إيوالت. وبعد نانسي، سوزان كيدويل. وصفت الشابتان ما شاهدتا عند دخولهما بيت كلاتر يوم الأحد، 15 نوفمبر: الغرف الهادئة، محفظة فارغة على أرض المطبخ، الشمس في غرفة نوم، وزميلتهما في المدرسة نانسي كلاتر غارقة بدمها. تخلى الدفاع عن استجواب الشهود، السياسة التي اتبعها أيضاً مع الشهود الثلاثة التاليين (والد نانسي إيوالت، كليرانس، العمدة إيرل روبينسون، الطبيب الشرعي للمقاطعة، الدكتور روبيرت فينتون)، وكل منهم أضاف لرواية أحداث ذلك الصباح المشمس من نوفمبر: اكتشاف كل الضحايا، في نهاية المطاف، ووصف الحالة التي كانوا عليها، مع تشخيص طبي من الدكتور فينتون حول – "رضوض شديدة على الدماغ والتراكيب الحيوية في القحف ناجمة عن طلق ناري."

ثم تولى الكلام ريتشارد ج. روليدير.

روليدير هو محقق رئيسي في قسم الشرطة في غاردن سيتي. هوايته التصوير، هو جيد في هذه الهواية. وهو من أخذ الصور التي كشفت، عند معالجتها، آثار أقدام هيكوك في قبو كلاتر، الآثار التي يمكن للكاميرا أن تميزها رغم أن العين البشرية المجردة لا تستطيع. وهو من صوّر الجثث، صور مسرح الموت تلك التي كان يتأملها باستمرار ألفن ديوي حين كانت الجريمة لا تزال غامضة. الغرض من شهادة روليدير هو تأكيد حقيقة أنه أخذ الصور التي اقترح الادعاء تقديمها كأدلة. لكن محامي هيكوك اعترض: "السبب الوحيد لتقديم الصور هو لإلهاب مشاعر المحلفين ثم كسبهم." القاضي تيت رفض الاعتراض وسمح بإدخال الصور في الأدلة، ما يعني أن يتم عرضها على المحلفين.

أثناء ذلك، كان والد هيكوك يقول لصحفي يجلس بجواره، "ذاك القاضي! لم أر في حياتي رجلاً أكثر انحيازاً. هذه ليست محاكمة، طالما هو المسؤول. يا أخي، هذا الرجل كان حامل نعش في الجنازة! [جنازة عائلة كلاتر]" (في الواقع تيت كان على معرفة خفيفة بالضحايا، ولم يكن حاضراً في الجنازة أصلاً.) لكن صوت السيد هيكوك كان الصوت الوحيد الذي ارتفع في قاعة المحكمة الصامتة إلى أبعد حد. كان هناك ما مجموعه سبعة عشر أثر قدم، ومع تمرير الصور من يد إلى يد، كانت تعابير المحلفين تعكس التأثير الذي صنعته الصور: وجنتا أحدهم احمرّت وكأنها صُفعت؛ والبعض، بعد إلقاء أول نظرة مؤلمة، كان من الواضح إنهم غير قادرين على المتابعة؛ كما لو أن الصور تمكنت من فتح عين العقل عندهم، وأرغمتها أخيراً أن ترى حقاً الشيء المحزن والحقيقي الذي حدث لجار وزوجته وولديه. دُهشوا، غضبوا، والعديد منهم – الصيدلي ومدير صالة البولينغ – حدقوا إلى المتهمين

بازدراء تام.

السيد هيكوك العجوز، راح يهز رأسه متبرماً، ويكرر، "لا معنى لهذا. هذه ليست محاكمة."

وعدت المحكمة بتقديم "رجل غامض" ليكون آخر شاهد لليوم. إنه الرجل الذي قدم المعلومات التي قادت إلى اعتقال المتهمين: فلويد ويلس، شريك هيكوك السابق في الزنزانة. ولأنه كان لا يزال يقضي فترة حكمه في إصلاحية ولاية كانساس، وبالتالي يقع تحت خطر الانتقام من نزلاء آخرين، فإنه لم يتم الإعلان عن اسمه من قبل. الآن، ولكي يتمكن أن يشهد بأمان في المحكمة، فقد نقل من السجن ووضع في سجن صغير في مقاطعة مجاورة. ومع ذلك، مرّ ويلس عبر قاعة المحكمة إلى مكان الشهود خلسة على نحو غريب - كما لو أنه يتوقع أن يعترض طريقه قاتل - وحين مر أمام هيكوك، تلوت شفتا هذا الأخير وهو يلفظ بضع كلمات شنيعة. تظاهر ويلس بأنه لم يلاحظ؛ ولكن مثل حصان سمع فحيح أفعى، ابتعد عن المحيط السام للرجل المغدور. وقف في المكان، وحدق إلى الأمام مباشرة، إنه مثل صبي مزرعة صغير الحجم بلا ذقن تقريباً، يرتدي بدلة كحلية لائقة اشترتها له ولاية كانساس من أجل هذه المناسبة - فالولاية كانت معنية بأن يظهر أهم شهودها بمظهر مقبول، وبالتالي جدير بالثقة.

كانت شهادة ويلس، بسبب البروفات السابقة للمحاكمة، متقنة مثل مظهره. اعترف الشاهد، تشجعه التحفيزات المتعاطفة من لوغان غرين، إنه عمل مرة، لمدة سنة تقريباً، كعامل أجير في مزرعة ريفر فالي؛ وتابع يقول إنه بعد حوالي عشر سنوات، بعد إدانته بتهمة سطو، صادق سجين سطو آخر يدعى ريتشارد هيكوك، ووصف له مزرعة

وعائلة كلاتر.

"الآن،" سأل غرين، "خلال محادثاتك مع السيد هيكوك ماذا قال كل منكما عن السيد كلاتر؟"

"كان حديثنا عن السيد كلاتر مقتضباً. قال هيكوك إنه سيخرج بإفراج مشروط، وإنه سيتجه إلى الغرب بحثاً عن عمل؛ وقد يتوقف عند السيد كلاتر لهذا الغرض. كنت أخبره عن مدى ثروة السيد كلاتر."

"هل أثار هذا اهتمام هيكوك، كما بدا لك؟"

"الحقيقة، أراد أن يعرف إذا كان لدى السيد كلاتر خزنة في البيت."

"وهل كنت تعتقد في ذاك الوقت أن لدى السيد كلاتر خزنة في البيت؟"

"الحقيقة، أنا اشتغلت لديه منذ زمن طويل. كنت أعتقد أن لديه خزنة. كنت أعلم أن هناك خزانة من نوع ما .... الشيء الثاني الذي علمته إنه [هيكوك] كان يتحدث عن سرقة السيد كلاتر."

"هل أخبرك أي شيء عن الطريقة التي سينفذ بها السرقة؟"

"قال إذا قام بشيء كهذا فإنه لن يترك أي شهود."

"هل قال فعلاً ماذا سيفعل بالشهود؟"

"نعم، قال إنه ربما يربطهم ويسرقهم ثم يقتلهم."

بعد أن أكد غرين درجة كبيرة من سبق الإصرار والترصد، ترك الشاهد لأسئلة الدفاع. السيد فليمنغ العجوز، محام كلاسيكي في المقاطعة يسعده البيت وأعمال الأرض أكثر من الأعمال الشريرة، افتتح الاستجواب. القصد من أسئلته، كما أكد، هو عرض جانب

تجنّبه الإدعاء بشكل تام: موضوع دور ويلس في مؤامرة القتل، ومسؤوليته الأخلاقية.

قال فليمنغ، داخلاً مباشرة في لب الموضوع، "ألم تقل شيئاً على الإطلاق للسيد هيكوك يثنيه عن المجيء إلى هنا وسرقة وقتل عائلة كلاتر؟"

"لا. أي شخص يخبرك شيئاً من هذا هناك [إصلاحية ولاية كانساس]، لا تكترث له لأنك تعتقد أنه مجرد كلام."

"تقصد أنك تكلمت مثل هذا ولم تكن تعني شيئاً؟ ألم تقصد أن تنقل له [هيكوك] فكرة إن لدى السيد كلاتر خزنة؟ كنت تريد للسيد هيكوك أن يصدق ذلك، أليس كذلك؟"

بطريقته الهادئة، كان فليمنغ يحشر الشاهد في الزاوية؛ علق ويلس في الأنشوطة، كما لو أن العقدة ضاقت على نحو مفاجئ.

"وكنت تقصد أن يصدق السيد هيكوك أن لدى السيد كلاتر الكثير من المال، أليس كذلك؟"

"قلت له إن السيد كلاتر لديه الكثير من المال، نعم."

مرة أخرى استعرض فليمنغ كيف أن هيكوك أبلغ ويلس بشكل كامل خطته العنيفة ضد عائلة كلاتر. ثم، وكأن شكوى خاصة اكتنفته، قال المحامي بنبرة كئيبة، "حتى بعد كل هذا لم تفعل شيئاً يثنيه؟"

"لم أصدق أنه سينفذ."

"لم تصدق. إذن لماذا، حين سمعت بالشيء الذي حدث، لماذا ظننت إنه هو المسؤول؟"

أجاب ويلس بتبجح، "لأنه حدث تماماً كما قال إنه سيفعل!"

تولى الكلام هاريسون سميث، نصف الشاب من فريق الدفاع. وقد اعتمد أسلوباً عدوانياً وساخراً بدا إنه مصطنعاً، لأنه في الحقيقة رجل لطيف ومتساهل، سأل سميث الشاهد إن كان لديه اسم تحبُّب.

"لا. أكتفي باسمي /فلويد./"

صرخ المحامي. "ألا يدعونك الآن /الخائن/؟ أم يسمونك / الواشي./؟

"أكتفي باسمي /فلويد،/" كرر ويلس، بشيء من الذل.

"كم مرة دخلت إلى السجن؟"

"حوالي ثلاث مرات."

"كان بعضها بسبب الكذب، أليس كذلك؟"

أنكر الشاهد ذلك، وقال إنه دخل السجن مرة بسبب قيادة سيارة دون رخصة، وأنه دخل السجن في المرة الثانية بسبب السطو، والثالثة فترة تسعين يوماً في أحد مستودعات الجيش نتيجة شيء حدث بينما كان جندياً: "كنا حرسًا لرحلة قطار. شربنا وسكرنا قليلاً ونحن على متنه، وقمنا بإطلاق النار على بعض النوافذ والأضواء."

الجميع ضحكوا؛ الجميع ما عدا المتهمين (هيكوك بصق على الأرض) وهاريسون سميث، الذي سأل الآن ويلس لماذا، بعد معرفته بمأساة هولكومب، تأخر عدة أسابيع قبل أن يخبر السلطات بما يعرفه. "ألم تكن تنتظر شيئاً قد يحصل؟ مثل مكافأة ربما؟"

"لا."

"ألم تسمع شيئاً عن مكافأة؟" كان المحامي يشير إلى مكافأة ألف دولار عرضتها أخبار هوتشينسون، لقاء معلومات تؤدي إلى اعتقال وإدانة قتلة عائلة كلاتر.

"قرأتها في الصحف."

"كان هذا قبل أن تتوجه بإفادتك إلى السلطات، أليس كذلك؟" وحين أقر الشاهد بأن هذا صحيح، تابع سميث بنبرة انتصار يسأله، "ما نوع الحصانة التي قدمها لك نائب المقاطعة لكي تأتي اليوم وتقدم شهادتك؟"

لكن لوغان غرين اعترض: "نعترض على شكل السؤال، فخامتكم. لا يوجد أي إقرار بحصانة لأي شخص." قُبل الاعتراض، وصُرف الشاهد؛ وبينما هو يغادر مكان الشهود، أعلن هيكوك بأعلى صوته، "ابن العاهرة. إذا كان سيُشنق أحد، هو من يجب أن يُشنق. انظروا إليه. سيخرج من هنا ويأخذ تلك النقود وينجوا بفعلته."

تبين أن نبوءته كانت صحيحة، لأنه بعد وقت غير طويل، نال ويلس المكافأة وإفراجاً مشروطاً. لكن حظه الجيد لم يعمّر طويلاً. فسرعان ما وقع في المشاكل ثانية، وعاش مع مَرّ السنين العديد من التقلبات. وحالياً هو أحد نزلاء سجن ولاية ميسيسيبي في بارشمان، ميسيسيبي، حيث يقضي حكماً بالسجن مدته ثلاثون عاماً بسبب السرقة المسلحة.

ه ه

يوم الجمعة، عندما أوقفت المحكمة جلساتها لعطلة نهاية الأسبوع، كانت الولاية قد استكملت قضيتها، شمل هذا قدوم أربع مندوبين خاصين من مكتب التحقيقات الفيدرالي في واشنطن دي سي. وقد درس هؤلاء الرجال، وهم مَخبريّون متمرسون في مختلف بنود التحري الجنائي العلمي، الأدلة المادية المتعلقة بالجريمة (عينات الدم، آثار الأقدام، الطلقات الفارغة، الحبل، الشريط اللاصق)، وأكد

كل منهم صحة المواد المقدمة. وأخيراً، قدم مندوبو مكتب تحقيقات كانساس الأربعة تقريراً عن المقابلات مع السجناء، وعن الاعترافات التي أدلوا بها في النهاية. وفي استجواب طاقم مكتب تحقيقات كانساس، جادل محاميا الدفاع، وقد أُسقط في يدهم، أن الاعترافات بالذنب قد أُخذت بوسائل غير مناسبة – استجواب وحشي في غرف قائظة شديدة الإضاءة شبيهة بالمعزل. هذا الزعم الذي لم يكن حقيقياً، أغاظ المحققين ودفعهم إلى تقديم ردود شديدة الإقناع. (فيما بعد، في رده على المراسل الذي سأله عن سبب كل هذا القدر من تتبع خيط زائف، أجاب محامي هيكوك بنزق، "ماذا يفترض بي أن أفعل؟ اللعنة، أنا ألعب بدون أوراق. ولكن لا يمكنني أن أكتفي بالجلوس كالتمثال. عليّ أن أتكلم من حين لآخر.")

تبين أن الشاهد الأخطر عند الادعاء هو ألفن ديوي؛ كانت شهادته العرض العام الأول للأحداث كما جاءت مفصلة في اعترافات بيري، وقد كانت مصدراً لعناوين كبيرة (**إماطة اللثام عن رعب جريمة صامتة** – كشف حقائق باردة تقشعر لها الأبدان)، كما صدمت المستمعين – وكان أكثر المصدومين ريتشارد هيكوك، الذي بات مشدوهاً مُذلاً حين قال ديوي في سياق شرحه، "هناك حدث واحد رواه سميث لي ولم أذكره بعد. وهو أنه بعد أن تم ربط أفراد عائلة كلاتر، قال له هيكوك كم يرى نانسي كلاتر جميلة، وإنه سوف يغتصبها. قال سميث إنه أخبر هيكوك بأن شيئاً من هذا لن يحدث. وأخبرني سميث إنه لا يحترم أبداً أي شخص لا يستطيع السيطرة على رغباته الجنسية، وإنه كان على استعداد لمقاتلة هيكوك لمنعه من اغتصاب البنت." حتى هذه اللحظة لم يكن هيكوك يعرف أن شريكه قد أخبر الشرطة بالاعتداء

المقترح؛ ولم يكن يعلم أن بيري غيّر، بروح وديّة، روايته الأصلية ليقول إنه هو وحده من قتل الضحايا الأربعة – وهي الحقيقة التي كشفها ديوي وهو يقترب من نهاية شهادته: "قال لي سميث إنه يرغب بتغيير شيئين في الإفادة التي أعطاها لنا. وقال كل ما في الإفادة، ما عدا هذين الشيئين، صحيح وحقيقي. فقد أراد أن يقول إنه هو من قتل السيدة كلاتر ونانسي كلاتر، وليس هيكوك. قال لي إن هيكوك... لم يرغب أن يموت وأمه تظن إنه قتل أياً من أفراد عائلة كلاتر. وقال إن أهل هيكوك أناس طيبون. إذن لماذا لا أقول الأمر بهذه الطريقة."

لدى سماعها ذلك، بكت السيدة هيكوك. طوال المحاكمة كانت تجلس هادئة بجوار زوجها، ويداها تصرفان قلقها في منديل مجعد. وبقدر ما تمكنت كان تلتقط عينا ابنها وتهز له رأسها وتعتصر ابتسامة تؤكد، رغم هشاشتها، مناصرتها له. ولكن من الواضح أن قدرة المرأة على ضبط نفسها كانت قد استنفدت؛ فقد طفقت تبكي. التفت إليها بعض الحاضرين، وأشاحوا بوجوههم محرجين؛ أما البقية فقد بدوا غافلين عن هذا الرثاء الصريح الذي يعاكس استمرار ديوي في سرده؛ حتى زوجها، ربما لأنه كان يعتقد إنه ليس من الرجولة أن يهتم بها، فقد بقي بارداً ومتحفظاً. أخيراً تقدمت مراسلة، وهي المرأة الوحيدة الموجودة، من السيدة هيكوك وقادتها إلى خارج القاعة، إلى خلوة في غرفة السيدات.

بعد أن هدأ التياعها، عبرت السيدة هيكوك عن حاجتها للبوح. "لا يوجد أحد أستطيع أن أفضي له ما بنفسي سواك،" قالت لمرافقتها. "لا أقصد أن الناس ليسوا لطيفين، الجيران والكل. والغرباء أيضاً – الغرباء كتبوا لنا رسائل يقولون إنهم يعلمون الصعوبة التي نحن فيها

وإنهم آسفون. لم يوجّه أحد لنا كلمة سيئة، لا لزوجي ولا لي. حتى هنا، حيث يمكن أن تتوقعي الإساءة. الجميع هنا كبسوا جرحهم بالملح ليكونوا ودودين. النادلة هناك، في المحل الذي نتناول فيه وجباتنا، تضع آيس كريم على الفطيرة ولا تضيفها إلى الحساب. أقول لها لا تفعلي ذلك، لا أستطيع أكلها. كنت أستطيع، من قبل، أن آكل أي شيء شرط أن لا يأكلني قبل أن آكله. لكنها تضع الآيس كريم. كنوع من اللطف. تقول شيلا، هذا اسمها، إن ما حدث ليس ذنبنا. لكن يبدو لي أن الناس ينظرون إليّ ويقولون في نفسهم، لا بأس، ولكنها تُلام مع ذلك على طريقتها في تربية دك. قد أكون أخطأت في شيء ما. ولكني لا أعرف بماذا أخطأت بالضبط؛ يؤلمني رأسي وأنا أحاول أن أتذكر. نحن أناس بسطاء، أهل ريف لا أكثر ولا أقل، نمضي حياتنا كالآخرين. أمضينا في بيتنا بعض الأوقات السعيدة. علّمت دك رقصة الفوكستروت. كنت دائماً مهووسة بالرقص، كان الرقص كل حياتي عندما كنت شابة؛ وكان هناك شاب، يا إلهي، يرقص بشكل رائع – ربحنا معاً الكأس الفضي في رقص الفالس. خططنا لوقت طويل بأن نهرب معاً ونعمل على المسرح. فودفيل[15]. كان مجرد حلم. حلم أولاد. غادر هو البلدة، وذات يوم تزوجت أنا من والتر، ووالتر هيكوك كان في الرقص صفراً على الشمال. كان يقول لي إذا كنت تريدين من ذوات الحافر[16]، فكان عليك أن تتزوجي حصاناً. لم يرقص معي أحد بعدئذ حتى علّمت دك، وهو لم يتولع بالرقص تماماً، لكنه كان لذيذاً. لقد كان من أطيب الأطفال معشراً."

(15) فن شائع في أمريكا في بدايات القرن العشرين، يضم مزيجًا من الكوميديا الساخرة، والغناء والرقص. م.

(16) إشارة إلى الرقص بالنقر على الأرض بالأقدام. م.

نزعت السيدة هيكوك النظارات التي كانت تضعها، ونظفت العدسات الملطخة وأعادت وضعها على وجهها الممتلئ الحلو. "في دك أشياء أكثر بكثير مما تسمعينه عنه هناك في قاعة المحكمة. المحامون يثرثرون للقول كم هو مرعب –وإنه في غاية السوء. أنا لا أجد أي أعذار لما فعله، لدوره فيما جرى. لا أنسى تلك العائلة؛ أصلي لهم كل ليلة. ولكني أصلي لدك أيضاً. ولهذا الولد بيري. كان من الخطأ أن أكرهه؛ والآن لا أشعر تجاهه سوى بالشفقة. وتعلمين – أعتقد أن السيدة كلاتر كانت ستشعر بالشفقة أيضاً. على ما سمعت عن طيبتها."

انفضت المحكمة إلى موعد لاحق؛ وكان ضجيج خروج الحضور يقعقع في الممر خلف باب المغاسل. قالت السيدة هيكوك إنها يجب أن تلحق بزوجها. "إنه يموت. وأعتقد أنه بات لا يكترث لهذا الأمر."

٥ ٥

حار الكثير من مراقبي مجريات المحاكمة بأمر الزائر القادم من بوسطن، دونالد كوليفان. لم يتمكنوا أن يفهموا تماماً لماذا يختار هذا الكاثوليكي الوقور، هذا المهندس الناجح الذي يحمل شهادة من جامعة هارفارد، المتزوج وله ثلاثة أبناء، أن يكون صديقاً لهجين قاتل غير متعلم، وهو لم يعرفه إلا قليلاً ولم يره منذ تسع سنوات. كوليفان نفسه قال، "زوجتي لم تفهم هذا أيضاً. ليس المجيء إلى هنا بالمهمة السهلة عليّ – لقد عنت أن أستهلك أسبوعاً من إجازاتي، ومالاً كنا نحتاجه حقاً لأشياء أخرى. ومن جهة ثانية، كان هذا شيئاً لم أكن قادراً على الامتناع عنه. أرسل لي محامي بيري يطلب مني أن أكون شاهداً شخصياً؛ لحظة قراءتي الرسالة علمت أنني يجب أن آتي. لأنني قدمت لهذا الرجل صداقتي. ولأنني – الحقيقة أنا أؤمن بالحياة

الأبدية. الأرواح جميعاً في حفظ الله."

إنقاذ روح، وبالتحديد روح بيري سميث، كان مشروعاً يتوق الكاثوليكي المؤمن نائب العمدة وزوجته، إلى خدمته - رغم أن بيري رفض اقتراح السيدة ماير باستشارة الأب غوبو، القس المحلي. (قال بيري، "أخذ القساوسة والراهبات فرصتهم معي. ولا أزال أحمل ندبات على جسمي كبرهان على ذلك.") وهكذا، خلال عطلة نهاية الأسبوع، قدمت عائلة ماير دعوة إلى كوليفان لتناول الغداء مع السجين في زنزانته.

سُرَّ بيري بفرصة استضافة صديقه، ولعب دور المضيف ضمن الشروط المتاحة، وكان يبدو أن ألوان الطعام المقررة - إوزة برية محشوة ومحمرة، والبطاطا مع الكريم بالمرقة، والفاصولياء، وسلطة الهلام اللحمي، والبسكويت الحار، والحليب البارد، وفطائر الكرز الطازج، والجبن والقهوة - أهمّ عنده من نتيجة المحاكمة. (التي لم يعتبرها، بالتأكيد، مسألة مشوقة: "تيوس البرية أولئك، سيصوتون لصالح الشنق بأسرع ممّا تلتهم الخنازير الفضلات. انظر في عيونهم. لتحلّ اللعنة عليّ إذا كنت القاتل الوحيد في تلك القاعة"). قضى كل صباح الأحد وهو يستعد لاستقبال ضيفه. كان النهار دافئاً، مع ريح خفيفة، وظلال الأوراق مع الآثار اللطيفة لأغصان الشجرة وهي تضرب بنعومة النافذة المقضّبة للزنزانة، أغوت سنجاب بيري المروّض. راح بيغ ريد يطارد الظلال المتأرجحة بينما كان سيده يكنس ويمسح الغبار، ويفرك الأرض، ويلمّع التواليت وينظف المكتب من التراكمات الأدبيّة. المكتب سيكون طاولة الغداء، وحين أنهى بيري ترتيبها، بدت في غاية الجاذبية، لأن السيدة ماير كانت قد أعطته غطاء طاولة من الكتان، ومفارش منشاة، وأفضل ما لديها من الخزف الصيني والأطباق الفضية.

تأثر كوليفان – صفر متعجباً حين وضعت الوليمة، التي وصلت بالصواني، على الطاولة – وقبل الجلوس سأل المضيف إذا كان يمكنه تقديم المباركة. المضيف لم يحن رأسه، وراح يطقطق أصابع يديه بينما كوليفان يرتل، برأس محنية وراحتين مضمومتين، "باركنا يا رب، وبارك هذه العطايا التي نتَّخذها من سخائك وارزق الجائع طعاماً، بربنا يسوع المسيح. آمين." قال بيري هامساً إن أي فضل في هذا إنما يعود، برأيه، إلى السيدة ماير. "إنها فعلت كل شيء." قال وهو يملأ صحن ضيفه، "الحقيقة إني سعيد برؤيتك يا دون. إنك تبدو تماماً كما كنت. لم تتغير قيد شعرة."

وافق كوليفان، وهو في المظهر موظف بنك متحفظ بشعر خفيف ووجه لا يعلق بالذاكرة، على أنه لم يتغير كثيرًا من الخارج. لكن ذاته الداخلية، الرجل الخفيّ، كان موضوعاً مختلفاً: "كنت هائماً على وجهي. لا أعرف أن الله هو الحقيقة الوحيدة. وحين تدرك ذلك، يعود كل شيء إلى مكانه الصحيح. للحياة معنى – كما للموت. هل دائماً تأكل على هذا الشكل يا رجل؟"

ضحك بيري. "السيدة ماير طباخة رائعة حقاً. يجب أن تتذوق الأرز الإسباني الذي تطبخه. لقد كسبت خمسة عشر باوند منذ وصلت إلى هنا. بالطبع كنت جلداً على عظم. خسرت الكثير من الوزن بينما كنت مع دك على الطرق، نقطع مسافات جهنمية – وبالكاد نشبع على وجبة، نشعر بالجوع كالكلاب معظم الوقت. كنا نعيش كالحيوانات. كان دك يسرق المعلبات دائماً من مخازن السمانة. فول بالصلصة وسباكيتي معلبة. نفتحها في السيارة ونبتلعها كما هي باردة. حيوانات. دك يحب السرقة. شيء نفسي لديه – مرض. أنا أيضاً لص، لكني لا

أسرق إلا حين لا أملك نقوداً لأدفع. أما دك، إذا كان يحمل في جيبه مئة دولار، فإنه يسرق علبة علك."

فيما بعد، عاد بيري لموضوع السرقة مع السجائر والقهوة. "كان صديقي ويلي جي يتكلم في هذا الموضوع. كان يقول إن كل الجرائم ليست سوى /تنويعات من السرقة./ بما في ذلك جريمة القتل. حين تقتل رجلاً، فأنت تسرق حياته. أعتقد إن هذا يجعلني لصًّا كبيرًا. انظر، دون – أنا قتلتهم. في المحكمة، ديوي الطيب جعل الأمر يبدو وكأنني أراوغ – مراعاة لوالدة دك. الحقيقة، ليس كذلك. دك ساعدني، أمسك المصباح اليدوي وجمع الرصاصات الفارغة. وكانت الفكرة فكرته أيضاً. لكن دك لم يطلق النار عليهم، وما كان يمكنه أن يفعل- رغم أنه ليس بطيئاً حين يتعلق الأمر بمطاردة كلب عجوز. أتساءل لماذا فعلت أنا ذلك." اكفهر وكأن المشكلة كانت جديدة عليه، كأنها حجر مدهش حديث الاكتشاف، لون غير مصنف. "لا أدري لماذا،" قال، وكأنه يضعه تحت الضوء ويقلبه يمنة ويسرة. "كنت غاضباً من دك. الولد المتعجرف الجلف. لكن ليس هذا هو السبب. وليس الخوف من أن يتعرفوا علي. كانت بي رغبة لدخول تلك المغامرة. ولم يكن السبب في أي شيء فعله أحد من أفراد العائلة. لم يؤذني منهم أحد. ككل الناس. ككل الناس الذين صادفتهم في حياتي. الأمر وما فيه ربما هو أن عائلة كلاتر هي التي دفعت الثمن."

استقصى كوليفان محاولاً أن يعرف مدى العمق الذي بلغه ما اعتبره ندماً عند بيري. لا شك أنه يعيش الآن ندماً عميقاً بما يكفي لاستدعاء الرغبة برحمة الله وغفرانه؟ قال بيري، "هل أنا آسف؟ إذا كان هذا ما تقصد – كلا. لا أشعر بشيء من هذا. أتمنى لو كنت. لكن

لا شيء في هذا يثقل عليّ بوزن قشة. بعد نصف ساعة من الحادثة، كان دك يقص النكات وكنت أنا أضحك منها. ربما لسنا إنسانيّين. أنا إنساني بما يكفي لأشعر بالأسف على نفسي. آسف لأنني لا أستطيع أن أخرج من هنا حين ستخرج أنت. لكن هذا كل شيء." لم يستطع كوليفان أن يصدق موقفاً لا مبالياً إلى هذا الحد؛ كان بيري ضالاً، مخطئاً، ليس من الممكن لإنسان أن يكون مجرداً إلى هذا الحد من الضمير أو العاطفة. قال بيري، "لماذا؟ الجنود ينامون دون قلق. يقتلون ويحصلون على الميداليات بالمقابل. أهالي كانساس الطيبون يريدون قتلي – وهناك جلاد سوف يسره أن يفعل ذلك. من السهل أن تقتل – أسهل بكثير من أن تكتب شيكاً مزوراً. فقط تذكر: عرفت عائلة كلاتر لمدة ساعة ربما. لو كنت أعرفهم حقاً، لكان الأمر مختلفاً باعتقادي. أظن ما كان يمكنني أن أطيق نفسي. ولكن الحادث كما جرى، كان شبيهاً بالرمي على أهداف في صالة رمي."

كان كوليفان صامتاً، وصمته أزعج بيري، الذي يبدو أنه فسر ذلك على أنه استنكار مبطن. "أرجوك يا دون، لا تجعلني أنافق في الحديث معك. أن أقول لك كم أنا آسف، وكل ما أريده الآن أن أزحف على ركبتي وأصلي. هذا الكلام لا يعني لي شيئاً. لا أستطيع أن أقبل بين ليلة وضحاها ما رفضته طوال عمري. الحقيقة هي أنك أنت فعلت من أجلي أكثر مما فعله من أجلي من تسميه الله، أو ما سيفعله. بكتابتك لي. بتوقيع رسالتك بكلمة /صديقك./ في الوقت الذي لم يكن لي أصدقاء سوى جو جيمس." وشرح لكوليفان أن جو جيمس هو حطّاب هندي شاب عاش معه ذات مرة في الغابة قرب بيلينغهام، واشنطن. "هذه بعيدة جداً عن غاردن سيتي. حوالي ألفي كيلومتر.

أرسلت رسالة إلى جو عن المشكلة التي أنا فيها. جو رجل فقير، لديه سبعة أولاد عليه أن يطعمهم، لكنه وعد بأنه سوف يأتي إلى هنا حتى لو اضطر أن يمشي. لم يصل بعد، وربما لن يصل، ولكني أعتقد أنه سيصل. جو كان يحبني دائماً. هل تحبني يا دون؟"

"نعم. أحبك."

ردُّ كوليفان الإيجابي الهادئ أسعد بيري وأربكه قليلاً. ابتسم وقال، "إذن لا بد أنك مجنون نوعاً ما." فجأة نهض، اجتاز الزنزانة وأمسك مكنسة. "لا أعرف لماذا عليّ أن أموت بين غرباء. أن أدع ثلة من تيوس البرية يلتفون حولي ويتفرجون على شنقي. القرف. عليّ أن أقتل نفسي أولاً." رفع المكنسة وضغط الفرشاة على اللمبة التي تحترق في السقف. "أفك اللمبة وأكسرها وأقطع رسغي. هذا ما يجب أن أفعله. بينما أنت هنا. أمام شخص يكترث قليلاً بي."

○ ○

استؤنفت المحاكمة صباح الاثنين في الساعة العاشرة. بعد تسعين دقيقة رفعت الجلسة، القضية بالنسبة للدفاع اكتملت في ذلك الوقت الوجيز. رفض المتهمان أن يشهدا بنفسيهما، ولذلك لم يُطرح موضوع هل هيكوك وسميث هما القاتلان الفعليان لعائلة كلاتر أم لا.

من بين الشهود الخمسة الذين ظهروا، كان السيد هيكوك بعينيه الغائرتين، هو الأول. ورغم أنه تكلم بوضوح فيه كبرياء وحزن، إلا أنه لم تكن لديه سوى مساهمة يقدمها وهي تتعلق بزعم جنون مؤقت. قال إن ابنه عانى من إصابات في الرأس في حادث سيارة في يوليو 1950 . قبل الحادث كان دك "ولداً سعيداً،" ناجحاً في مدرسته، محبوباً من زملائه، وباراً لوالديه –

"لم يكن مشكلة لأحد."

قال هاريسون سميث، موجّهاً الشاهد بلطف، "سأسألك إذا لاحظت، بعد يوليو 1950، أي تغير في شخصية وعادات وأفعال ابنك، ريتشارد؟"

"إنه ببساطة لم يعد هو الولد نفسه."

"ما هي التغيرات التي لاحظتها؟"

ذكر السيد هيكوك، بين برهات تفكير وتردد، بضع تغييرات: أصبح دك عبوساً وضيق الصدر، يميل لمعاشرة الرجال الأكبر سناً، يشرب ويقامر. "إنه ببساطة لم يعد هو الولد نفسه."

سرعان ما تحدى لوغان غرين هذا التأكيد الأخير، حين شرع باستجواب الشاهد. "سيد هيكوك، تقول لم يكن لديك أي مشكلة مع ابنك حتى ما بعد 1950؟"

"... أعتقد إنه اعتقل في 1949."

لوت ابتسامة حامضة شفتي غرين الناعمتين. "هل تتذكر سبب اعتقاله؟"

"اتهم باقتحام صيدلية"

"اتهم؟ ألم يعترف أنه اقتحم المخزن؟"

"صحيح، اعترف."

"كان هذا في 1949. ومع ذلك تخبرنا الآن أن ابنك تغير في مواقفه وسلوكه بعد 1950؟"

"أقول ذلك، نعم."

"هل تقصد إنه أصبح بعد 1950 ولداً صالحاً؟"

نوبة من السعال الحاد أربكت العجوز؛ بصق في منديل.

"لا،" قال، وهو يتفحص القشع. "لا أقول هذا."

"إذن ما هو التغير الذي حدث؟"

"الحقيقة من الصعب جداً أن أشرح هذا. إنه ببساطة لم يعد بسلوكه السابق."

"هل تقصد إنه فقد ميوله الجرمية؟"

أثار هجوم المحامي قهقهات، موجة من الهياج عمت المحكمة وأخمدها القاضي تيت حالاً بنظرة صارمة. حالياً يُفك أسر السيد هيكوك، ويحل محله الدكتور دبليو ميتشيل جونس.

الدكتور جونس عرّف نفسه للمحكمة بوصفه "طبيبًا متخصّصًا في المجال النفسي،" ولدعم مؤهلاته، أضاف إنه اعتنى بحوالي 1500 مريضاً منذ 1956، السنة التي دخل فيها الإقامة النفسية في مستشفى الولاية في توبيكا، كانساس. خلال السنتين الماضيتين كان أحد أفراد طاقم مستشفى الولاية في لارند، حيث كان مسؤولاً عن مبنى ديلون، القسم الخاص بالجنون الجنائي.

سأل هاريسون سميث الشاهد، "كم عدد مجرمي القتل الذين تعاملت معهم، تقريباً؟"

"حوالي خمسة وعشرين."

"أود أن أسألك يا دكتور إن كنت تعرف موكلي، ريتشارد أوجين هيكوك؟"

"أعرفه."

"هل أتيحت لك فرصة فحصه على نحو مهني؟"

"نعم يا سيد ... أجريت تقييماً نفسياً للسيد هيكوك."

"اعتماداً على فحصك، هل لديك رأي حول ما إذا كان ريتشارد

إيوجين هيكوك يدرك أو لا يدرك الصح من الخطأ في وقت ارتكاب الجريمة؟"

أخذ الشاهد، رجل ممتلئ في الثامنة والعشرين بوجه ناعم مع مكر وعلى شكل القمر ولكن مع ذكاء، نفساً عميقاً وكأنه يعد نفسه لرد طويل – غير أن القاضي نبهه حينها: "يجب أن تجيب بنعم أو لا، يا دكتور. ليكن جوابك نعم أو لا."

"نعم."

"وما هو رأيك؟"

"أعتقد أنه وفق التعريفات المعتادة فإن السيد هيكوك كان يعرف الصح من الخطأ."

لم يكن بمقدور الدكتور جونس أن يجيب بشكل آخر، لأنه مقيد **بقاعدة مناتن** ("التعريفات المعتادة")، الصيغة التي تطمس كل الألوان الواقعة بين الأبيض والأسود. لكن جوابه كان، بالطبع، محبطاً لمحامي هيكوك الذي سأل بلا رجاء، "هل يمكن أن تشرح ذلك الجواب؟"

كان بلا رجاء، رغم أن الدكتور جونس وافق على الشرح، لأن الإدعاء كان مخولاً بالرفض – وقد رفض، مستنداً إلى حقيقة أن قانون كانساس لا يسمح بالرد على السؤال المعني بأكثر من نعم أو لا. وافقت المحكمة على الاعتراض وصُرف الشاهد. ولكن لو سمح للدكتور جيمس أن يتكلم أكثر، لكانت هذه هي شهادته: "إن مستوى ذكاء ريتشارد هيكوك هو فوق المتوسط، يفهم الأفكار الجديدة بسهولة ولديه مخزون واسع من المعلومات. وهو على دراية بما يحيط به، ومتوجه في الزمان والمكان ولا يبدي أي علامة من علامات الاضطراب

العقلي. تفكيره منظم ومنطقي ويبدي صلة سليمة بالواقع. ورغم أني لم أجد العلامات المألوفة لتأذ عضوي في الدماغ – فقد ذاكرة، تشكيل مفهوم محدد، تدهور فكري – إلا أنه لا يمكن استبعاد ذلك بالكامل. فقد سبق له أن تعرض لأذية خطيرة في الرأس مع ارتجاج في المخ وفقد وعيه لعدة ساعات في 1950. وقد تأكدت من هذا من مراجعة سجلات المستشفى. يقول إنه عانى بعد ذلك من نوبات غشي، وفجوات في الذاكرة، وصداع؛ وإن القسم الأكبر من سلوكه المعادي للمجتمع حدث عقب ذلك. لم يخضع أبداً لاختبارات طبية تثبت أو تنفي بشكل قطعي وجود تلف دماغي متبق. وعليه فإنه يوصى بإجراء تقييم طبي تام للوصول إلى تقييم قطعي.... يبدي هيكوك علامات اضطراب عاطفي. وقد يكون أوضح تظاهر لهذه الحقيقة هي أنه يعرف ماذا يفعل ومع ذلك يستمر فيه. إن شخص اندفاعي في الفعل، يميل للقيام بأشياء دون تفكير بالتبعات أو بالمكروه المستقبلي الذي سيلحق به أو بالآخرين. ولا يبدو أنه قادر على التعلم من تجاربه، ويُبدي نموذجاً غير مألوف من فترات متقطعة من النشاط المنتج تتبعها تصرفات غير مسؤولة بالكامل. لا يستطيع تحمل مشاعر الإحباط كما يمكن أن يتحملها شخص أكثر سلامة منه، وبالكاد يستطيع تحرير نفسه من هذه المشاعر سوى عبر النشاط المضاد للمجتمع.... تقييمه الذاتي متدن جداً، ويشعر خفية بأنه أدنى من الآخرين وإنه غير ملائم جنسياً. ويبدو أنه يجري التعويض المُبالغ عن هذه المشاعر بأحلام الغنى والسلطة، والميل للتباهي بأعماله، الإسراف بالإنفاق إذا كان لديه المال، وعدم الرضى عن التقدم البطيء العادي الذي يحققه عمله.... علاقاته مع الآخرين غير مريحة له، ولديه عجز مرضي عن إقامة صلات

شخصية والثبات عليها. ورغم أنه يجاهر بالمعايير الأخلاقية المألوفة، فإنه يبدو في تصرفاته بعيداً عنها بوضوح. الخلاصة، إنه يُبدي بوضوح المواصفات النموذجية لما يسمى نفسياً اضطراب الشخصية الحاد. من المهم اتخاذ إجراءات لنفي إمكانية وجود أذية دماغية عضوية، لأنها، في حال وجودها، قد تكون مسؤولة إلى حد كبير عن سلوكه خلال بضع السنوات الماضية وفي وقت الجريمة."

ما خلا الالتماس الرسمي إلى هيئة المحلفين، والذي لن يتم تقديمه حتى الغد، فإن شهادة الطبيب النفسي كانت خاتمة الدفاع المقرر لهيكوك. بعد ذلك جاء دور أرثر فليمنغ، المستشار العجوز لسميث. وقد قدم أربعة شهود: القس جيمس ي. بوست، الكاهن البروتستانتي في إصلاحية ولاية كانساس؛ والصديق الهندي لبيري، جو جيمس، الذي وصل أخيراً ذلك الصباح في باص، بعد سفر يوم وليلتين من بيته النائي في أقصى الشمال الغربي؛ دونالد كوليفان؛ ومرة ثانية، الدكتور جونس. وباستثناء هذه الأخير، فإن البقية جرى تقديمهم "كشهود شخصيين" – أشخاص يُتوقع منهم أن ينسبوا للمتهم ببعض الفضائل الإنسانية. لم يصيبوا نجاحاً كبيراً في هذا، رغم أن كلّا منهم قال شيئاً مناسباً ما، قبل أن يسكتهم الادعاء المحتج ويبعدهم، مؤكداً أن الملاحظات الشخصية من هذه الطبيعة "غير جديرة بالاعتبار، وليست ذات صلة، وبلا أهمية."

على سبيل المثال، عندما وقف جو جيمس، وهو شخص رشيق بشعر داكن، وبشرة قاتمة أكثر حتى من بشرة بيري، بقميص صيادين وقدمين يسترهما حذاء من النوع الذي بلا كعب، وقد بدا كما لو أنه ظهر في تلك اللحظة على نحو غامض من وسط ظلال الغابات، يخبر

المحكمة إن المتهم عاش معه أكثر من سنتين. "كان بيري ولداً لطيفاً، محبوباً من الجيران – لم يقدم على أي شيء خارج الطريق على حد علمي." أوقفه الادعاء هنا؛ وأوقف أيضاً كوليفان، عندما قال، "خلال الفترة التي عرفته فيها في الجيش، كان بيري زميلاً محبباً جداً."

استمر حديث القس بوست فترة أطول، لأنه لم يقم بأي محاولة مباشرة لإطراء السجين، بل وصف بتعاطف مقابلة له معه في لانسينغ.. "التقيت بيري لأوّل مرّة حين جاء إلى مكتبي في معبد السجن وبيده لوحة قد رسمها – بورتريه رأس وأكتاف ليسوع المسيح مرسومة بتلوين الباستيل. أراد أن يقدمها لي لاستخدامها في المعبد. وهي معلقة على جدار المعبد منذ ذلك الوقت."

قال فليمنغ، "هل لديك صورة فوتوغرافية عن اللوحة؟" كان مع الكاهن ظرف ممتلئ؛ ولكن حين أخرجه بغرض توزيع الصورة على المحلفين، قفز لوغان غرين على قدميه مستاءً: "بعد إذن **سماحتك**، الأمر تجاوز حدّه كثيراً..." وقد رأى **سماحته** أن الأمر انتهى عند هذا الحد.

أستدعي الآن الدكتور جونس، وبعد المقدمات التي رافقت ظهوره الأول، طرح عليه فليمنغ السؤال الحاسم: "من خلال محادثاتك وفحصك لبيري إدوارد سميث، هل توصلت إلى رأي فيما إذا كان المذكور يعرف الصح من الخطأ في وقت الاعتداء المشمول في هذه الدعوى القضائية؟" ومرة أخرى نبّهت المحكمة الشاهد: "أجب بنعم أو لا، هل تشكل لديك رأي؟"

"لا."

وسط همهمات المدهوشين، قال فبيمنغ، المدهوش هو أيضاً،

"هل لك أن تقول للمحلفين لماذا لم تتوصل إلى رأي."

اعترض غرين: "الرجل ليس لديه رأي، انتهى الأمر." وهذا صحيح، من الناحية القانونية.

ولكن لو سُمح للدكتور جونس أن يتكلم عن سبب عدم توصله لرأي، لقال: "لدى بيري سميث علامات واضحة لاعتلال عقلي شديد. اتسمت طفولته، كما رواها لي وكما تحققت من بعض سجلات السجن، بالقسوة ونقص الاهتمام من جانب الوالدين. واضح أنه نشأ دون توجيه، دون محبة، ودون أن يتشرّب أي معنى ثابت للقيم الأخلاقية.... متوجّه ويقظ جداً للأشياء التي تدور من حوله، ولا يُبدي أي علامة تشوش. فوق المعدل الوسطي من حيث الذكاء، ولديه معلومات لا بأس بها قياساً على مستواه التعليمي المتدني.... يبرز في بنيته الشخصيه ملمحان مرضيان على نحو خاص. الأول هو موقفه "البارانويدي" تجاه العالم. فهو يشكّك ولا يثق بالآخرين، ويميل للشعور بأن لدى الآخرين موقف تمييزي ضده، وأن الآخرين غير نزيهين معه ولا يفهمونه. وهو شديد الحساسية للنقد الذي يمكن أن يقدمه له الآخرون، ولا يستطيع التسامح مع من يسخر منه. وسرعان ما يشعر بالضعف أو الإهانة في الأشياء التي يقولها الآخرون، وكثيراً ما قد يسيء تفسير سلوكات حسنة النية. يشعر بحاجة ماسة للصداقة والتفاهم، ولكنه لا يميل للثقة بالآخرين، وحين يضع ثقته بأحد فإنه يتوقع أن يساء فهمه أو حتى أن يتعرض للخيانة. وفي تقييمه لنوايا ومشاعر الآخرين، فإن قدرته على الفصل بين الوضع الحقيقي وإسقاطاته الذهنية الخاصة، ضعيفة جداً. ليس نادراً أن يضع الناس جميعاً في خانة النفاق، والعدوانية، معتبراً

إنهم يستحقون كل ما يستطيع عمله بهم. ويرتبط الملمح الثاني بهذه السمة الأولى، ذلك أن لديه حنق دائم وغير منضبط بشكل جيد ويمكن إطلاقه بسهولة لدى أي شعور بأن الآخرين خدعوه أو أهانوه أو استخفوا به. في الغالب، توجه حنقه في الماضي ضد رموز السلطة – الأب، الأخ، رقيب الجيش، ضابط الإفراج المشروط في الولاية – وقاد إلى سلوك عدواني عنيف في مناسبات عدة. إنه يدرك، كما يدرك معارفه أيضاً، أمر نوبات الغضب هذه، التي يقول إنها "تتصاعد" في داخله، وأمر سيطرته الضعيفة عليها. وحين يتوجه الحنق إلى نفسه فإنه يفكر بالانتحار. القوة غير المتناسبة لغضبه وغياب قدرته على ضبطه أو توجيهه، تعكس ضعفاً أساسياً في بنيته الشخصية.... وفضلاً عن هذه السمات، يُبدي الشخص المدروس علامات خفيفة مبكرة لاضطراب في آليات التفكير. قدرته ضعيفة على تنظيم تفكيره، ويبدو عاجزاً عن إجمال فكره أو تلخيصه، فيغرق، وأحيانا يضيع، في التفاصيل؛ ويعكس بعض تفكيره خاصية "سحرية"، انفصالًا عن الواقع.... عاش علاقات عاطفية حميمة مع آخرين، لكنها علاقات لم تستطع أن تصمد أمام أزمات صغيرة. لديه مشاعر شبه ميتة تجاه الآخرين خارج دائرة أصدقائه الضيقة جداً، ولا يعطي كبير وزن للحياة البشرية. هذا التجرّد العاطفي والبلادة في بعض المجالات هي مؤشر آخر على اضطرابه العقلي. هناك ضرورة لتقييم أكثر شمولية من أجل وضع تشخيص نفسي دقيق، ولكن بنيته الشخصية الحالية هي أقرب ما تكون إلى رد الفعل الفصامي البارانويدي."

من الجدير ذكره أن المتمرس وذا الاحترام الواسع في مجال الطب النفسي الشرعي، الدكتور جوزيف ساتين من عيادة مينِنجير

في توبيكا، كانساس، تشاور مع الدكتور جونس ووافق على تقييمه لكل من هيكوك وسميث. وبرأي الدكتور ساتين، الذي أوْلى القضية فيما بعد اهتماماً شديداً، إنه بالرغم من أن الجريمة ما كانت لتحدث لولا تفاعل متبادل بين المرتكبين، فقد كانت الجريمة أساساً من فعل بيري سميث، الذي، كما يشعر، يمثل نموذج القاتل الذي وصفه في مقالة بعنوان: "**جريمة القتل دون دوافع ظاهرة – دراسة في اضطراب الشخصية.**"

المقالة التي نشرت في مجلة الطب النفسي الأميركي (يوليو، 1960)، كتبت بالتعاون مع ثلاثة زملاء، كارل مينجر، إروان روزن، ومارتن ميمان؛ وهي تحدد هدفها في المستهل: "في محاولة تقييم المسؤولية الجنائية لمرتكبي جرائم القتل، يحاول القانون تقسيمهم (كما يفعل مع كل الجناة) إلى مجموعتين، "عقلاء" و"مختلين." القاتل "العاقل" هو القاتل الذي يتصرف بتأثير دوافع معقولة يمكن فهمها، رغم أنها مدانة، والقاتل "المختل" يتصرف بتأثير دوافع غير معقولة وعديمة المعنى. حين تكون الدوافع المعقولة واضحة (مثلاً، رجل يقتل من أجل الكسب الشخصي) أو عندما تكون الدوافع غير المعقولة مترافقة مع أوهام أو هلوسات (مثلاً، مريض بارانويدي يقتل مضطهِده المُتوهَّم)، لا يسبب الأمر إشكالاً كبيراً للطبيب النفسي. أما مجرمو القتل الذين يبدون معقولين ومتماسكين ومنضبطين، ولكن أفعالهم الجرمية تحمل طبيعة غريبة وبلا معنى ظاهر، فإنهم يطرحون مشكلة معقدة، لا تجيب عليها خلافات قاعة المحكمة والتقارير المتناقضة عن المجرم نفسه. أطروحتنا تقول إن المرض النفسي لمثل هؤلاء القتلة يشكل، على الأقل، متلازمة محددة سنعمل على وصفها. بشكل عام،

هؤلاء الأشخاص عرضة لسقطات حادة من السيطرة على الذات تفتح المجال لتعبير صريح عن العنف البدائي المنبثق من تجارب مرضية سابقة، بعيدة عن الإدراك الراهن."

فحص المؤلفون، كجزء من إجراءات استئناف، أربعة رجال مدانين وتبدو جرائمهم بلا دوافع. وكان قد جرى فحص هؤلاء جميعاً قبل محاكماتهم، واعتبر كل منهم "عاقل" و"بدون ذُهان." ثلاثة منهم كانوا محكومين بالإعدام، والرابع يقضي فترة سجن طويلة. في كل من هذه الحالات، طُلبت المزيد من التحريات النفسية لأن أحداً ما – إما المحامي أو قريب أو صديق – لم يكن راض عن التفاسير النفسية المقدمة سابقاً، وسأل في الواقع، "كيف يمكن لشخص عاقل كما يبدو هذا الرجل، أن يرتكب فعلاً مجنوناً كالذي أدين به؟" بعد وصف المجرمين الأربعة وجرائمهم (جندي زنجي شوّه وقطع أوصال عاهرة، وعامل شنق ولدًا في الرابعة عشرة لأنه رفض طلبه الجنسي، وعريف في الجيش ضرب حتى الموت فتىً آخر لأنه تخيل أن الضحية كان يسخر منه، وموظف في مستشفى أغرق طفلة في التاسعة بأن أمسك رأسها تحت الماء)، بحث المؤلفون عن نقاط التشابه. الرجال أنفسهم كانوا محتارين، كما كتبوا، لماذا قتلوا ضحاياهم، الذين كانوا مجهولين لهم نسبياً، وفي كل حالة يبدو أن القاتل قد سقط في غيبوبة فصامية تشبه الحلم، استيقظ منها "ليجد نفسه فجأة" يهاجم ضحيته. "المشترك الأكبر في تاريخ هؤلاء الرجال، وربما الأكثر أهمية، هو قصة سيطرة مضطربة، لفترة طويلة، وأحياناً مدى الحياة، على الدوافع العدوانية عندهم. مثلاً، ثلاثة من هؤلاء الرجال كانوا قد شاركوا مراراً، خلال حياتهم، بمشاجرات أكبر من مجرد مشادّات عادية، وكان يمكن أن

تصل إلى مستوى القتل لولا تدخل آخرين."

نقتطف لكم، هنا، عدداً من الملاحظات الأخرى التي تضمنتها الدراسة: "رغم إقدامهم على العنف في حياتهم، فإن لدى هؤلاء الرجال صوراً ذاتية عن أنفسهم على أنهم أدنى جسدياً، وضعفاء، وغير أكفاء. وكشفت تواريخهم إن لدى كل منهم درجة شديدة من الكبت الجنسي. بالنسبة لهم جميعاً، كانت النساء البالغات مخلوقات خطيرة، وفي اثنين من الحالات هناك انحراف جنسي صريح. جميعهم، أيضاً، كان يقلقهم في سنواتهم المبكرة أن ينظر إلى أحدهم على أنه "مخنث،" أو غير عادي من الناحية الجسدية، أو رخو....في القضايا الأربع كلها، يوجد في تاريخ كل شخص، أدلة عن تبدل في حالات الوعي، وغالباً بالارتباط مع نوبات من العنف. في سجل اثنين من الرجال، حالات تشبه الغيبوبة الفصامية الحادة يتصرفون خلالها بشكل عنيف وغريب، أما الرجلان الآخران ففي سجلهم حوادث فقد ذاكرة أقل شدة وربما أقل انتظاماً. في لحظات العنف الفعلي، غالباً ما يشعرون أنهم منفصلين عم أنفسهم أو معزولين عنها، كما لو أنهم يراقبون شخصاً آخر....كما شوهد في الخلفية التاريخية لكل هذه الحالات وجود عنف أبوي شديد خلال الطفولة....أحدهم قال /كان يضربني بالسوط كلما التفتُّ./.... رجل آخر تعرض مراراً لضرب عنيف من أجل /تخليصه/ من تأتأته و/نوباته،/ وأيضاً لتقويم سلوكه /السيء/ المزعوم.... التاريخ الشخصي المتعلق بالعنف الشديد، سواء تخيله الطفل أو شاهده في الواقع أو وقع عليه فعلياً، يتماشى مع فرضية التحليل النفسي بأن تعرض الطفل لمؤثرات طاغية، قبل أن يمتلك قدرة السيطرة عليها، يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالعيوب الباكرة في تكون

الذات وفيما بعد باضطرابات شديدة في السيطرة على الانفعالات. في كل هذه القضايا، هناك دليل على حرمان عاطفي شديد في الحياة المبكرة. وقد يشمل هذا الحرمان غياب طويل أو متكرر لأحد الوالدين أو لكليهما، أو حياة عائلية مشوشة حيث الأبوان غير معروفين، أو رفض صريح للولد من جانب أحد أو كلا الوالدين، ما يؤدي إلى أن يربى الطفل عند آخرين....كما شوهدت أدلة على اضطرابات في تنظيم العاطفة. الجانب الأكثر نموذجية عند هؤلاء الرجال هو الميل إلى عدم الارتباط بين الغضب أو الهياج وبين الاعتداءات العنيفة. لم ينقل عن أحد منهم مشاعر غضب مرتبطة بالجريمة، ولم يظهر الغضب الشديد أو الواضح على أحد منهم، رغم أن كل منهم كان يرتكب عدواناً وحشياً هائلاً.... علاقاتهم بالآخرين كانت سطحية، من طبيعة باردة، ما يعطي للآخرين انطباعاً بوحدة وعزلة هؤلاء الرجال. بالنسبة لهؤلاء الرجال نادراً ما يكون الناس حقيقيين، بمعنى إنهم لا يشعرون تجاههم بدفء أو إيجابية (أو حتى بغضب)....الرجال الثلاثة المحكومون بالإعدام سطحيو المشاعر تجاه مصيرهم الخاص وتجاه مصير ضحاياهم. يغيب الشعور بالذنب أو الحزن أو الندم غياباً ملفتاً.... يمكن اعتبار هؤلاء الأشخاص ميالين للقتل، بمعنى إما أنهم يحملون شحنة كبيرة من الطاقة العدوانية أو أن لديهم نظام دفاع غير مستقر عن الذات يسمح من حين لحين بالتعبير البدائي والعاري لهذه الطاقة. يمكن أن تتفعّل طاقة القتل، ولاسيما حين يكون هناك سلفاً شيء من اختلال التوازن، حين يدرك المختل، بطريقة لا واعية، أن الضحية المرشّحة هي شخصيّة أساسيّة ضمن سياق صدمات نفسيّة سابقة. إن سلوك، أو حتى مجرد وجود هذه الشخصية تزيد في إجهاد توازن القوى المختلّة

ما يؤدي إلى تفريغ عنيف مفاجئ للعنف، شبيه بالانفجار الذي يحدث عندما تؤدي كبسولة إلى انفجار شحنة من الديناميت.... فرضية التحفيز غير الواعي هذه تشرح لماذا يرى مجرمو القتل في ضحايا مسالمين وتقريباً غير معروفين لهم مصدر استفزاز وبالتالي أهدافاً مناسبة للاعتداء. ولكن لماذا القتل؟ غالبية الناس، لحسن الحظ، لا يستجيبون بهيجان قاتل حتى تحت ضغط استفزازات قصوى. الحالات المذكورة، من جهة أخرى، كان القتلة عرضة لإخفاقات كبيرة في العلاقة مع الواقع ولضعف شديد في السيطرة على الانفعال خلال فترات ارتفاع التوتر وزيادة الاختلال. في مثل هذه الحالات، يمكن لأحد المعارف الطارئين، أو حتى لغريب، أن يفقد معناه /الحقيقي/ ويتخذ هوية ما في سياق صدمات نفسيّة سابقة لا يعيه المختل. يتفعّل الصراع /القديم/ وسرعان ما تصل العدوانية إلى منسوبات قاتلة.... عندما تقع مثل هذه الجرائم الفاقدة للمعنى، فإنها تكون النتيجة النهائية لفترة من التوتر والاختلال المتصاعدين في دخيلة القاتل منذ فترة سابقة على لقائه بالضحية التي، في دخولها إلى عالم الصراعات غير الواعية للقاتل، تفعّل طاقة القتل داخل القاتل."

نظراً للكثير من التشابهات بين خلفية وشخصية بيري سميث وشخصيات دراسته، يشعر الدكتور ساتين بالأمان في وضعه ضمن صفوفهم. أكثر من ذلك، فإن ظروف الجريمة تبدو له مناسبة تماماً لمفهوم "جريمة قتل بدون دافع ظاهر." من الواضح أن ثلاثة من جرائم القتل التي ارتكبها بيري كان لها دافع من الناحية المنطقية – قتل نانسي وكينيون والأم لأنه كان قد قتل السيد كلاتر. لكن الدكتور ساتين يؤكد أن الجريمة الأولى فقط هي التي تهم من الناحية النفسية، وأنه

حين هاجم سميث السيد كلاتر كان في حالة كسوف ذهني، عميقاً في ظلمة فصامية، لأن الشخص الذي "وجد نفسه فجأة" يقتله، لم يكن رجلاً من لحم ودم، بل "شخصية رئيسية في سياق صدمات نفسيّة سابقة": أبوه؟ راهبات الميتم اللواتي سخرن منه وضربنه؟ رقيب الجيش البغيض؟ ضابط الإفراج المشروط الذي أمره "بالبقاء خارج كانساس"؟ أحد من هؤلاء، أو كلهم.

في اعترافاته قال سميث، "لم أكن أريد أن أؤذي الرجل. أعتقد إنه رجل في منتهى اللطف. كلامه حلو. كان هذا رأيي حتى اللحظة التي ذبحته فيها." وبينما كان يتكلم إلى كوليفان، قال سميث عن عائلة كلاتر، "لم يؤذني منهم أحد. ككل الناس. ككل الناس الذين صادفتهم في حياتي. الأمر وما فيه ربما هو أن عائلة كلاتر هي التي دفعت الثمن".

وهكذا يبدو أن المحلل المحترف والمحلل الهاوي توصلا، عبر طرق مستقلة، إلى استنتاجات متشابهة.

○ ○

تجاهلَت أرستقراطية مقاطعة فيني المحاكمة. أعلنت زوجة أحد المزارعين الأثرياء، "من غير المناسب أن نبدي فضولاً حيال شيء كهذا." ومع ذلك، فإن شريحة لا بأس بها من المؤسسة المحلية حضرت الجلسة الختامية وجلست إلى جانب المواطنين البسطاء. كان حضور هؤلاء لفتة كياسة تجاه القاضي تيت وتجاه لوغان غرين، العضوين المرموقين من المرتبة نفسها. إضافة إلى عدد كبير من محامين من خارج البلدة، العديد منهم جاء من مسافات بعيدة، وشغلوا العديد من المقاعد؛ وقد حضروا بالتحديد ليسمعوا الخطاب الأخير للسيد غرين الموجه إلى هيئة المحلفين. يتمتع غرين، السبعيني الصغير

الصارم الواثق، بسمعة مهيبة بين أقرانه، الذين يعجبون بمهارته المسرحية – مجموعة مواهب تمثيلية تتضمن إحساسًا حادًّا بالتوقيت مثل إحساس ممثّل في ناد ليلي. محام جنائي خبير، من المألوف عنه أنه محامي دفاع، غير أن الولاية في هذه الحالة احتفظت به ليكون مساعداً خاصاً لدوان ويست، خشية أن يكون نائب المقاطعة الشاب غير ناضج بعد لمتابعة القضية دون مساندة خبيرة.

ولكن مثل معظم أدوار النجوم، كان غرين هو الممثل الأخير في البرنامج. سبقته التعليمات الرزينة التي قدمها القاضي تيت لهيئة المحلفين، كما سبقته الخلاصة التي قدمها نائب المقاطعة: "هل يمكن أن يكون في أذهانكم أدنى شك فيما يخص ذنب هذين المتهمين؟ لا! بصرف النظر عمن ضغط على زناد بندقية ريتشارد إيوجين هيكوك، كلاهما مذنب بنفس الدرجة. وهناك طريقة وحيدة لضمان أن لا يتجول هذان الرجلان في البلدات والمدن على هذه الأرض. إننا نطلب العقوبة القصوى – الإعدام. وهذا الطلب ليس بدافع الانتقام بل بكل التواضع...."

بعدئذ سُمع التماس محامي الدفاع. وصلت كلمة فليمنغ، التي وصفها أحد الصحفيين بأنها "بَيْع ناعم"، إلى مستوى الوعظ الكنسي المتسامح: "الإنسان ليس حيواناً. له جسد، وله روح خالدة. لا أعتقد أن للإنسان الحق في تدمير ذلك البيت، المعبد، الذي تسكنه الروح...." أما هاريسون سميث، ورغم أنه توجّه أيضاً إلى المسيحية المفترضة لدى المحلفين، فإنه اتخذ من شرور عقوبة الإعدام أطروحته الأساسية: "إنها من بقايا البربرية البشرية. القانون يقول إن زهق روح بشريّة خطأ، ثم يمضي ويعطي المثل. إن الإعدام هو على نفس درجة سوء الجريمة

التي يعاقب عليها. ليس من حق الولاية أن تفرض هذه العقوبة. إنها عقوبة غير فعالة. لا تردع الجريمة، إنها فقط تفقر الحياة البشرية وتزيد من جرائم القتل. كل ما نطلبه هو الرحمة. ولا شك أننا لا نطلب رحمة كبيرة حين نطلب السجن المؤبد بدلاً من الإعدام...." لم يكن جميع المحلفين مكترثين؛ فقد جلس أحدهم، وكما لو أنه تسمّم بفعل حمّى التثاؤب التي تملأ الجو، بعينين ناعستين وفكين متباعدين بحيث يمكن للنحل أن يدخل ويخرج بينهما بسهولة.

أما غرين فقد أيقظهم. "أيها السادة،" قال مرتجلاً، "لقد سمعتم للتو التماسين حماسيين طلباً للرحمة بالمتهمين. يبدو لي إنه من محاسن الصدف أن هذين المحاميين الرائعين، السيد فليمنغ والسيد سميث، لم يكونا في بيت عائلة كلاتر تلك الليلة المصيرية – من حسن الحظ وإلا لما كانا هنا يلتمسان الرحمة نيابة عن العائلة المنكوبة. لو كانا هناك – لكان علينا في اليوم التالي أن نحصي أكثر من أربع جثث."

عندما كان صبياً في مسقط رأسه كنتاكي، كان غرين يُلقّب بالوردي، بسبب لونه المنمش؛ الآن وهو يختال أمام هيئة المحلفين، فإن ضغط المهمة زاد من حرارة وجهه وملأه ببقع وردية. "لا نية لي في الدخول في جدال لاهوتي. لكني توقعت أن يلجأ الدفاع إلى الكتاب المقدس للمحاججة ضد عقوبة الإعدام. وقد سمعتم مقتطفات من الكتاب المقدس. لكن أنا أستطيع أن أقرأ أيضاً. فتح نسخة من العهد القديم. "إليكم بعض الأشياء التي يقولها الكتاب المبجل عن الموضوع. في سفر الخروج الإصحاح عشرين. الآية الثالثة عشرة، لدينا واحدة من الوصايا العشرة: /لا تقتل./ هذا يشير إلى القتل غير القانوني. بالطبع يقصد القتل غير القانوني، لأنه في الفصل التالي، الآية

الثانية عشرة، نقرأ عقوبة عصيان هذه الوصية: /من ضرب إنساناً فمات يُقتل قتلاً/. الآن، هل تعتقد يا سيد فليمنغ أن هذا تغيّر بمجيء المسيح. ليس كذلك. لأن المسيح يقول، /لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء، ما جئت لأنقض بل لأكمل./ وأخيراً–" تعثر غرين، وبدا كما لو أنه أغلق الكتاب المقدس خطأً، ما أثار الابتسام واللكز بين كبار الشخصيات القانونية الزائرة، لأن هذا كان مجرد حيلة في قاعة محكمة موقرة – فالمحامي الذي تظاهر أن توازنه اختل بينما هو يقرأ في الكتاب وأغلقه عن غير قصد، يقول، "ليست مشكلة. أعتقد أن بإمكاني أن أكمل من الذاكرة. سفر التكوين الإصحاح التاسع، الآية السادسة: /سافك دم الإنسان بالإنسان يسفك دمه./

"ولكن،" تابع غرين، "لا أرى جدوى من المجادلة في الكتاب المقدس. ولايتنا تقول إن عقوبة جريمة القتل من الدرجة الأولى هي السجن المؤبد أو الإعدام شنقاً. هذا هو القانون. وأنتم هنا، أيها السادة، لفرض القانون. وإذا كان هناك قضية تستحق عقوبة الحد الأقصى، فإنها هذه القضية. نحن أمام أربع جرائم قتل غريبة، وحشية. أربعة من مواطنيكم ذُبحوا مثل خنازير في زريبة. ولماذا؟ ليس انتقاماً أو كراهية. بل من أجل المال. المال. إنها موازنة باردة ومحسوبة بين مثاقيل من الفضة مقابل مثاقيل من الدم. ويا لرخص ما زهقت لأجله هذه الأرواح! مقابل غنيمة أربعين دولارا! عشرة دولارات لكل روح!" ثم التفت وأشار بإصبعه التي راحت تتحرك بين هيكوك وسميث. "ذهبا مسلحين ببندقية وخنجر. ذهبا بغرض السرقة والقتل –" ارتجف صوته، وتعثر واختفى، وكأنه اختنق بكراهيته الخاصة للمتهمين اللذين كانا يمضغان العلكة مبتهجين. استدار مرة أخرى إلى هيئة المحلفين

وسأل بصوت أجش، "ماذا ستفعلون؟ ماذا ستفعلون مع هذين الرجلين الذين قيّدا قدمي ويدي رجل وذبحاه وفجرا رأسه؟ أتعطونهما العقوبة الأدنى؟ نعم، وتلك كانت جريمة قتل واحدة من أربع جرائم. ماذا عن كينيون كلاتر، الفتى الذي كانت الحياة كاملة أمامه، الذي كان مقيداً عاجزاً يرى صراع أبيه مع الموت. أو الفتاة نانسي كلاتر، وهي تسمع إطلاق النار وتعرف إن دورها قادم. نانسي التي راحت تتوسلهما من أجل أن لا يقتلاها: /لا. أوه، أرجوك لا. أرجوك. أرجوك./ يا للحسرة! يا للعذاب الذي يفوق الوصف! وتبقى أيضاً الأم، المقيدة والمكمومة الفم والتي سمعت إلى موت زوجها وابنها وابنتها واحداً واحداً. أصغت، حتى دخل أخيراً القتلة، هذان المتهمان اللذان أمامكم، إلى غرفتها، ثبتوا نور المصباح اليدوي في عينيها، وتركا رصاصة تنهي وجود عائلة كاملة."

توقف غرين ولمس بحذر دملاً في الجزء الخلفي من رقبته، دملاً ملتهباً ناضجاً بدا، مثل حامله الغاضب، على وشك الانفجار. "إذن، أيها السادة، ماذا ستفعلون؟ تعطون العقوبة الأدنى؟ ترسلانهما إلى الإصلاحية، وتعطيانهما فرصة للهرب أو للإفراج المشروط؟ في المرة القادمة سيكون الدور على عائلتك ربما. أقول لكم، قال بوَقار، وهو يحدق إلى المحلفين بطريقة تشملهم جميعاً وتتحداهم جميعاً، "بعض أكبر جرائمنا تحدث فقط لأن مجموعة محلفين بقلوب دجاجات رفضوا ذات يوم أن يقوموا بواجبهم. الآن، أيها السادة، أترك الأمر لكم ولضمائركم."

جلس. همس له ويست، "كنت بارعاً يا سيدي."

غير أن بعض مستعمي غرين كانوا أقل حماسة؛ وبعد أن انسحبت هيئة المحلفين لمناقشة الحكم، تبادل أحد المستمعين، وهو

مراسل شاب من أوكلاهوما، كلمات حادة مع صحفي آخر، ريتشارد بار من صحيفة ستار في كانساس سيتي. بالنسبة للأوكلاهومي، كان خطاب غرين "تحريضياً، قاسياً."

"كان يقول الحقيقة فقط،" قال بار. "يمكن أن تكون الحقيقة قاسية، كما يقولون."

"ولكن لم يكن من المفروض أن يضرب بهذه القسوة. هذا غير عادل."

"ما هو غير العادل؟"

"كل المحاكمة. ليس أمام هذين الرجلين أي فرصة."

"أعطيا الفرصة الثمينة لنانسي كلاتر."

"بيري سميث. يا إلهي. عاش حياة بائسة –"

قال بار، "كثير من الناس يمكن أن تتشابه آلامهم مع آلام هذا الوغد. بما فيهم أنا. ربما أنا اشرب كثيراً، ولكني واثق حتى السماء أنني لم أقتل أربعة أشخاص بدم بارد."

"صحيح، وماذا عن شنق هذا الوغد؟ هذا أيضاً قتل بدم بارد تماماً."

سمع القس بوست المحادثة فانضم إليها. قال، وهو يوزع صورة عن رسمة بيري سميث للمسيح، "أي شخص يمكن أن يرسم هذه الصورة لا يمكن أن يكون سيئاً مئة بالمئة. مع ذلك من الصعب أن تعرف ما العمل. عقوبة الإعدام ليست هي الحل: إنها لا تعطي المذنب الوقت الكافي للمجيء إلى الله. أحياناً أشعر باليأس." كرر شخص مرح بأسنان محلاة بالذهب وغرّة شعر فضية، "أحياناً اشعر باليأس. أحياناً أعتقد أن دوك سافاج العجوز كان محقاً." دوك سافاج الذي

يشير إليه كان بطلاً خيالياً له شعبية عند المراهقين الذين يقرؤون مجلات الإثارة، منذ جيل مضى. "إذا كنتم تذكرون يا جماعة، كان دوك سافاج نوعاً من السوبرمان. جعل نفسه خبيراً في كل ميدان – الطب، العلوم، الفلسفة، الفن. ليس هناك شيئ لا يعرفه دوك العجوز أو لا يستطيع فعله. أحد مشاريعه كانت أنه قرر أن يخلص العالم من المجرمين. في البداية اشترى جزيرة كبيرة في المحيط. ثم قام هو ومساعدوه – كان لديه جيش من المساعدين المدربين – بخطف كل مجرمي العالم وأحضرهم إلى هذه الجزيرة. واشتغل دوك سافاج على أدمغتهم. أزال الجزء الذي يحوي الأفكاراً الشريرة. وحين استعادوا وعيهم كانوا كلهم مواطنين صالحين. لم يعد بمقدورهم ارتكاب الجرائم لأن ذلك الجزء من أدمغتهم قد أزيل. الآن، يبدو لي إن جراحة من هذه الطبيعة يمكن أن تكون الحل لـ"

قاطعه الجرس الذي يعلن عودة هيئة المحلفين. دامت مداولات الهيئة أربعين دقيقة. الكثير من الحضور لم يغادروا مقاعدهم لأنهم كانوا يتوقعون أن القرار لن يستغرق وقتاً طويلاً. ولكن كان ينبغي إحضار القاضي تيت من مزرعته، حيث ذهب لإطعام حصانه. وحين وصل أخيراً، كان يتلاعب الهواء بالرداء الأسود الذي ارتداه على عجل، ولكنه سأل برصانة ومهابة مؤثّرتين، "السادة المحلفين، هل توصلتم إلى قراراتكم؟" أجاب رئيس المحلفين: "نعم، فخامتكم." حمل حاجب المحكمة القرارات المختومة إلى المنصة.

يصفّر قطار، وتخترق قاعة المحكمة جلبة مرور قطار سانتافي السريع. يتداخل صوت تيت الجهير مع صرخات القاطرة وهو يقرأ: "رقم واحد. نحن هيئة المحلفين نجد أن المتهم ريتشارد إيوجين هيكوك،

مذنب بجريمة قتل من الدرجة الأولى، والعقوبة هي الإعدام." ثم، وكأنه أراد معرفة رد فعل المتهمين، نظر إلى السجينين اللذين كانا أمامه مقيدين إلى الحرس؛ ردّا نظرته بلا مبالاة إلى أن استأنف قراءة الفقرات السبع التالية: ثلاثة تهم أخرى بحق هيكوك، وأربعة بحق سميث.

"- والعقوبة هي الإعدام"؛ في كل مرة يصل إلى هذه الجملة، يلفظها بخواء ذي نبرة داكنة كأنها تردّد صدى صوت القطار الحزين الذي راح يتلاشى الآن. بعد ذلك صرف هيئة المحلفين ("لقد أدّيتم عملاً شجاعاً")، واقتيد المدانان بعيداً. عند الباب قال سميث لهيكوك، "هؤلاء، ليسوا محلفين بقلوب دجاجات!" وضحك الاثنان بصوت عال، والتقط لهما مصوّر صورة. ظهرت الصورة في إحدى صحف كانساس وتحتها تعليق: "الضحكة الأخيرة؟"

٥ ٥

بعد أسبوع كانت السيدة ماير في صالونها تتحدث إلى إحدى صديقاتها. "نعم، عاد الهدوء إلى هنا،" قالت. "أعتقد أننا يجب أن نكون شاكرين لأن الأمور سُوّيت. ولكني لا أزال أشعر بالحزن. لم أتعامل مع دك، ولكن بيري وأنا بتنا نعرف بعضنا جيّداً. عصر ذلك اليوم، بعد أن سمع الحكم وأعادوه إلى هنا – أغلقت على نفسي في المطبخ كي لا أراه. جلست أمام نافذة المطبخ أراقب الناس الخارجين من مبنى المحكمة. السيد كوليفان، نظر إلى الأعلى وشاهدني وحيّاني. والدا هيكوك. الجميع يغادرون. هذا الصباح تماماً تلقيت رسالة من السيدة هيكوك؛ زارتني عدة مرات خلال أيام المحاكمة، وكنت أتمنى لو بمقدوري مساعدتها، ولكن ماذا يمكنك أن تقولي لشخص في مثل هذا الوضع؟ بعد أن ذهب الجميع، وبدأت أغسل بعض الصحون –

سمعته يبكي. أشعلت الراديو، كي لا أسمعه. لكني بقيت أسمعه. يبكي مثل طفل. لم يسبق له أن انهار، أو أظهر أي علامة انهيار. المهم، ذهبت إليه. إلى باب زنزانته. مد يديه. كان يريد أن أمسك يديه، وفعلت، أمسكت يديه، وكل ما قاله كان، /أنا غارق في العار./ أردت أن أرسل في طلب الأب غوبو – وقلت إن أول ما سأفعله غداً هو أن أطبخ له الأرز الإسباني – ولكنه شدّ على يدي أكثر.

"تلك الليلة، من بين كل الليالي، اضطررنا أن نتركه وحيداً. نادراً جداً ما نخرج من البيت، ويندل وأنا، ولكن في تلك الليلة كان علينا الذهاب لحضور خطوبة مقررة منذ فترة طويلة، ورأى ويندل إنه ينبغي أن لا نخلف الموعد. ولكني سأبقى نادمة على تركه وحيداً. في اليوم التالي طبخت له الأرز الإسباني. لم يلمسه. وبالكاد تكلم معي. كان يكره العالم كله. ولكن في الصباح، حين جاء الرجال لاقتياده إلى الإصلاحية، شكرني وأعطاني صورة له. صورة كوداك صغيرة وهو في السادسة عشرة. قال هكذا يريدني أن أتذكره، مثل الصبي الذي في الصورة.

"الشيء الأصعب كان وداعه، حين تعلمين إلى أين هو ذاهب، وماذا سيحدث له. لا شك أن هذا السنجاب، سنجابه، يفتقده. لا ينفك يأتي إلى الزنزانة يبحث عنه. حاولت أن أطعمه، ولكنه لم يقبل التعامل معي. إنه يحب بيري فقط."

o o

السجون مهمة لاقتصاد مقاطعة ليفينورث، كانساس. هنا يوجد سجنا الولاية، سجن لكل جنس؛ وكذلك ليفينورث، أكبر سجن فيدرالي، وفي فورت ليفينورث، السجن العسكري الرئيسي في البلاد،

ثكنات تأديب القوى الجوية وجيش الولايات المتحدة. لو يطلق سراح كل نزلاء هذه المؤسسات، يمكنهم أن يشكلوا سكان مدينة صغيرة.

أقدم هذه السجون هو إصلاحية ولاية كانساس للرجال، وهو قصر أبيض وأسود ذو أبراج، وهو ما يميّز بصرياً بلدة لانسينغ الريفية، ولولاه لكانت عاديّة جدًّا. تم بناؤه خلال الحرب الأهلية، واستقبل أول النزلاء في 1864. عدد المحكومين في الوقت الحالي، حوالي ألفين؛ ويحتفظ مدير السجن شيرمان أتش. كروز، بمخطط يحمل العدد اليومي موزعاً حسب العِرق (مثلاً، 1405 بيض، 360 ملون، 12 مكسيكي، 6 هنود). وبصرف النظر عن العِرق، فإن كل محكوم هو مواطن في قرية حجريّة توجد داخل جدران السجن المحميّ بتحصينات شديدة الانحدار ومحروسة بالرشاشات – اثنا عشر فدّاناً رمادياً من الشوارع الإسمنتية والزنازين والمشاغل.

في القسم الجنوبي من مبنى السجن يوجد بناء صغير غريب، بناء من طابقين على هيئة النعش. يسمى هذا البناء رسمياً بمبنى الفصل والعزل، ويشكل سجناً داخل السجن. الطابق السفلي منه يسميه النزلاء **الحفرة** – المكان الذي يوضع فيه، من حين لآخر، السجناء العنيفون، أصحاب المشاكل القساة. يتم بلوغ الطابق العلوي بواسطة درج حديدي دائري؛ وفي الأعلى يوجد **طابور الموت** (المحكوم عليهم بالإعدام).

أول مرة يصعد فيها قتلة عائلة كلاتر الدرج كانت في وقت متأخر من بعد ظهر يوم نيسانيّ ماطر. عند وصولهم إلى لانسينغ بعد رحلة بالسيارة من غاردن سيتي، استغرقت ثماني ساعات، قطعوا خلالها أربع مئة ميل، خضع القادمان الجدد لتجريد من الملابس وحمام

وقص شعر قصير، ثم تم تزويدهما ببدلة دنيم خشنة وشحاّط ناعم (هذه الشحّاطات هي لباس القدم للرجل المحكوم في كل السجون الأمريكية)؛ ثم قادهما، عند الغروب الرطب، مرافقون مسلحون إلى المبنى الذي يشبه النعش، دفعوهما عبر الدرج اللولبي إلى اثنتين من الزنازين الاثنتي عشرة المتراصفة جنباً إلى جنب والتي تشكل **طابور الموت في لانسينغ.**

الزنازين متشابهة. مساحة الواحدة سبعة أقدام في عشرة، وغير مجهّزة سوى بسرير خفيف وتواليت ومغسلة ولمبة سقفيّة تحترق ليلاً نهاراً. نوافذ الزنزانة ضيقة جداً، وهي مقضّبة، وفوق هذا مغطّاة بشبك معدني أسود يشبه حجاب الأرملة؛ بحيث يصعب تمييز وجوه هؤلاء المحكومين بالشنق من قبل المارة. أما المحكومون فيمكنهم أن يروا الخارج جيداً؛ وما يطلون عليه هو أرض خالية قذرة تستخدم في الصيف للعب البيسبول، وخلف الأرض يوجد جدار السجن، وفوقه قطعة من السماء.

الجدار مصنوع من حجر قاس؛ يعشش الحمام في تجاويفه. وفي الجزء من الجدار الذي يراه شاغلو **الطابور**، يوجد باب حديدي صدئ، يوقظ الحمام كلما فتح، ويدفعه إلى الطيران، لأن المفصلات تصر عالياً، تصرخ. يقود الباب إلى غرفة تخزين كهفية، حيث يكون الهواء رطباً وبارداً حتى في أشد الأيام قيظاً. أشياء عديدة تخزن هناك: كميات من المعدن الذي يستخدمه المحكومون لتصنيع لوحات السيارات، خشب، آلات قديمة، أدوات البيسبول – وأيضاً مشنقة خشبية غير مدهونة لها رائحة صنوبر خفيفة. لأن هذه غرفة الإعدام في الولاية؛ وحين يؤتى برجل إلى هنا كي يُعدم، يقول السجناء "ذهب إلى

الركن،" أو، بطريقة أخرى، "ذهب في زيارة إلى المستودع."

بموجب الحكم الذي أصدرته المحكمة، وضع سميث وهيكوك على الجدول لزيارة المستودع بعد ستة أسابيع: بعد دقيقة من منتصف ليل الجمعة، 31 مايو 1960.

o o

ألغت ولاية كانساس عقوبة الإعدام في 1907؛ في 1935، نظراً لانتشار مفاجئ في الغرب الأوسط لمجرمين محترفين منفلتين (ألفن "المخيف العجوز" كاربس، تشارلز "الفتى الظريف" فلويد، كلايد بارو وحبيبته القاتلة، بوني باركر)، صوّت مشرعو الولاية لصالح استعادة العقوبة. ولكن لم يتح للجلاد فرصة استخدام مهنته حتى 1944؛ وفي السنوات العشر التالية أتيحت له تسع فرص إضافية. ولكن منذ ست سنوات، أو منذ 1954، لم يكن هناك مخصصات مالية لجلاد في كانساس (سوى في ثكنات تأديب القوى الجوية والجيش، التي فيها مشنقة أيضاً). وكان المرحوم جورج دوكينغ، حاكم كانساس من 1957 حتى 1960، هو المسؤول عن هذه الفجوة، لأنه معارض صريح لعقوبة الإعدام ("ببساطة لا أريد أن أقتل الناس").

الآن، في ذلك الوقت – نيسان، 1960 – كان في سجون الولايات المتحدة مئة وتسعون شخصاً ينتظرون الإعدام المدني؛ خمسة منهم، من بينهم قاتلا عائلة كلاتر، كانوا من نزلاء لانسينغ. أحياناً، تتم دعوة الزوار الهامين للسجن إلى إلقاء ما سماه أحد المسؤولين الكبار "نظرة خاطفة على **طابور الموت.**"

ويُعيَّن حارس للمسؤول الذي يقبل زيارة طابور الموت. وغالباً ما يقوم الحارس، بينما هو يقود السائح على طول الممشى الحديدي

المقابل لزنازين الموت، بتعريف المحكومين بصيغة يعتبرها كوميدية. "وهذا،" قال للزائر في 1960، "هذا السيد بيري إدوارد سميث. والآن الباب المجاور، هذا يكون صديق السيد سميث، السيد ريتشارد إيوجين هيكوك. وهنا لدينا السيد إيرل ويلسون. وبعد السيد ويلسون – نقابل السيد بوبي جو سبينسر. وأما بالنسبة لهذا الجنتلمان الأخير، أنا واثق إنك تعرف السيد لويل لي أندروز الشهير."

إيرل ويلسون، مغني ترانيم زنجي ضخم، حكم عليه بالإعدام لأنه خطف واغتصب وعذب شابة بيضاء؛ لم تمت الضحية، ولكنها بقيت معاقة إعاقة شديدة. بوبي جو سبينسر، شاب أبيض مخنث، اعترف بقتل امرأة عجوز في كانساس سيتي، صاحبة البنسيون الذي يسكن فيه. وقبل أن يغادر مكتبه في يناير 1961، قام الحاكم دوكينغ، الذي هزم ولم يُنتخب مرة ثانية (وذلك إلى حد كبير بسبب موقفه من عقوبة الإعدام)، بتخفيف حكم هذين الرجلين إلى الحبس المؤبد، وهذا يعني أنه بمقدورهما طلب الإفراج المشروط بعد سبع سنوات. ولكن سرعان ما كرر بوبي جو سبينسر القتل: فقد طعن بواسطة شيف (نصل) محكوماً شاباً آخر، ينافسه على حب نزيل أكبر سناً (بحسب أحد ضباط السجن، "مجرد غلامين يتصارعان على جوكر"). هذا الفعل أعطى سبينسر حكماً مؤبداً ثانياً. ولكن الجمهور لم يكن كثير الاهتمام بويلسون أو سبينسر بقدر اهتمامه بسميث وهيكوك، أو بالرجل الخامس في الطابور، لويل لي أندروز، حتى أن الصحافة تجاهلتهما تقريباً.

قبل عامين، كان لويل لي أندروز، فتى ضعيف البصر في الثامنة عشرة من عمره يضع نظارات بحواف سميكة ويزن حوالي ثلاث مئة

باوند، في السنة الثانية في جامعة كانساس، طالب متفوق يتخصص في علم الأحياء. ورغم أنه كان مخلوقاً انعزالياً، منسحبًا وضعيف التواصل، فإن معارفه، سواء في الجامعة أو في بلدته وولكوت، كانساس، كانوا ينظرون إليه على أنه لطيف إلى حد استثنائي وذو "طبيعة محببة" (فيما بعد كتبت عنه صحيفة كانساسية مقالة بعنوان: "أظرف فتى في وولكوت"). ولكن داخل الطالب الشاب الهادئ كانت توجد شخصية ثانية بعيدة عن ظن الجميع، شخصية بمشاعر معاقة وذهنية مشوهة تسيل منها أفكار باردة باتجاهات وحشية. كانت ستُصعق عائلته – والداه وأخته الأكبر منه بقليل، جيني ماري – لو علموا بأحلام اليقظة التي كان يحلم بها لويل لي طوال صيف وخريف 1958؛ الولد اللامع، الأخ المعبود، كان يخطط لتسميم العائلة كلها.

كان أندروز الكبير مزارعاً ناجحاً؛ لم يكن لديه الكثير من المال في البنك، ولكنه يملك أرضاً تقدر قيمتها بمئتي ألف دولار. ظاهرياً، كانت الرغبة في وراثة هذه الأرض هي الدافع وراء خطة لويل لي لقتل عائلته. لأن لويل لي السري، المختفي داخل طالب البيولوجيا الخجول الذي يذهب إلى الكنيسة، تخيل نفسه مجرماً ماهراً بارد القلب: أراد أن يرتدي قمصان حرير شبيهة بقمصان رجال العصابات، وأن يقود سيارات رياضية حمراء؛ أراد أن يُعرف ليس كمجرد طالب بَدين لا يعرف النساء ويقرأ الكتب ويضع نظارات سميكة. لم يكن يكره أحداً من أفراد اسرته، على الأقل في وعيه، ولكن قتل العائلة كان الطريق الأسرع والأكثر منطقية لتنفيذ التخيلات التي استحوذت عليه. الزرنيخ كان هو السلاح الذي قرر استخدامه؛ بعد تسميم الضحايا، سيقوم بحرق البيت، على أمل أن يصدق المحققون أن الموت ناجم

عن حادث. ولكن هناك تفصيل واحد أقلقه: لنفترض أن تشريح الجثث كشف عن وجود الزرنيخ؟ ولنفترض أن تعقب شراء السم أمكن أن يقود إليه؟ مع نهاية الصيف كان قد طور خطة أخرى. قضى ثلاثة أشهر في تشذيبها. أخيراً، اقتربت ساعة الصفر في ليلة من نوفمبر حين كان جاهزا للعمل.

كان أسبوع عيد الشكر، ولويل لي في البيت بسبب العطلة، وكذلك كانت جيني ماري، وهي فتاة ذكية ولكنها، إلى حد ما، بسيطة، وكانت طالبة في جامعة في أوكلاهوما. في مساء الثامن والعشرين من نوفمبر، حوالي السابعة مساء، كانت جيني ماري جالسة في الصالون مع والديها تشاهد التلفزيون؛ وكان لويل لي محبوسًا في غرفة نومه يقرأ الفصل الأخير من الأخوة كارامازوف. أنهى القراءة، حلق ذقنه، ولبس أفضل بدلة لديه، وملأ بالرصاص بندقية عيار 22 نصف آلية ومسدس روجر عيار 22. وضع المسدس في قراب على خصره، ووضع البندقية في كتفه، ومشى على مهل باتجاه الصالون الذي كان مظلماً سوى من الضوء الوامض لشاشة التلفزيون. أشعل الضوء، وسدد البندقية، وشد الزناد، وضرب أخته بين عينيها فقتلها على الفور. أطلق النار على أمه ثلاث مرات، وعلى أبيه مرتين. حاولت الأم بعينين مفتوحتين باتساع، ويدين ممدودتين، وهي تترنح باتجاهه، أن تتكلم، فتحت فمها وأغلقته، لكن لويل قال: "اخرسي." ومن المؤكد أنها أطاعته، فقد أطلق عليها ثلاث طلقات إضافية. لكن السيد أندروز كان لا يزال حياً؛ تقلب على الأرض باتجاه المطبخ وهو يتنهد وينشج، ولكن على عتبة المطبخ، فك ابنه المسدس من القراب وأفرغ القرص كاملاً، ثم أعاد ملئه وأفراغه ثانية؛ في الإجمال، استقبل أبوه سبع عشرة طلقة.

وفق تصريحات منسوبة لأندروز، فإنه "لم يشعر بأي شيء حيال الجريمة. جاء الوقت المحدد، وعملت ما كان علي عمله. هذا كل ما في الأمر." بعد إطلاق النار فتح نافذة في غرفة نومه وأزال الستائر، ثم طاف في البيت ينكش الخزن والأدراج ويبعثر محتوياتها: كان هدفه أن تبدو العملية جريمة لصوص. بعد ذلك، ساق سيارة أبيه لمسافة أربعين ميلاً على طرق زلقة بسبب الثلج وصولاً إلى لورانس، البلدة التي توجد فيها جامعة كانساس؛ في الطريق، توقف على جسر، فكك أسلحته القاتلة، وتخلص منها بأن رمى أجزاءها في نهر كانساس. ولكن الغرض الحقيقي للرحلة بالطبع هو إثبات أنه كان خارج البيت وقت الجريمة. في البداية توقف في السكن الجامعي حيث يقيم؛ تحدث مع المديرة قائلاً إنه جاء لأخذ آلته الكاتبة، وإن الطريق من وولكوت إلى لورانس استغرق منه ساعتين بسبب سوء الطقس. وعند المغادرة زار صالة سينما، حيث تحادث على غير عادته مع بائع حلوى ومع أحد المشرّدين. وحين بدأ عرض الفيلم في الحادية عشرة، عاد إلى وولكوت. الكلب الهجين للعائلة كان ينتظر على الشرفة الأمامية؛ كان يئنّ من الجوع، وهكذا أعد له لويل لي، بعد أن دخل البيت وعبر فوق جثة أبيه، زبديّة من الحليب الدافئ والعصيدة؛ ثم، وبينما كان الكلب يقفز باتجاه الزبدية، اتصل بمكتب العمدة وقال، "اسمي لونيل لي أندروز. أسكن في وولكوت درايف 6040، أريد أن أبلغكم عن سرقة-"

استجاب أربعة ضباط من دوريات شريف مقاطعة وايندوت. وقد وصف أحدهم، الشرطي مايرز، المشهد كالتالي: "وصلنا هناك في الساعة الواحدة بعد منتصف الليل. كانت كل أضواء البيت مشتعلة. وكان هذا الصبي الغامق الشعر، لويل لي، جالساً على الشرفة يداعب

كلبه. يربت على رأسه. سأله الملازم آتي ما الذي حدث، فأشار إلى الباب، بكل برود، وقال، /أنظر هناك./" بعد أن صعق العناصر مما رأوه، استدعوا الطبيب الشرعي للمقاطعة، وهو بدوره انتبه إلى اللامبالاة اللافتة للصبي، لأنه حين سأل الصبي عن ترتيبات الجنازة التي يريدها، أجاب مستهجناً، "أنا لا يهمني ما تفعلونه بهم."

بعد وقت قصير، وصل اثنان من كبار المحققين وباشرا باستجواب الناجي الوحيد من العائلة. ورغم القناعة بأنه يكذب، إلا أنهما أصغيا إلى روايته باحترام، كيف أنه ساق إلى لورانس ليحضر آلته الكاتبة، وذهب إلى صالة سينما، ووصل إلى البيت بعد منتصف الليل ليجد غرف النوم منكوشة وعائلته مقتولة. ثبت على روايته، وكان يمكن أن لا يغيرها أبداً لولا حصول السلطات، عقب اعتقاله وتحويله إلى سجن المقاطعة، على مساعدة من القس السيد فيترو سي. داميرون.

كان القس داميرون، وهو شخصية دكنزيّة، خطيبًا متملّقًا ويرهب مستمعيه إلى حد كبير بعذابات الآخرة، كاهن كنيسة غراندفيو المعمدانية في كانساس سيتي، كانساس، وهي الكنيسة التي تحضرها بشكل منتظم عائلة أندروز. بعد أن أيقظه الطبيب الشرعي باتصال طارئ، جاء داميرون إلى السجن في الثالثة صباحاً، فيما انسحب المحققون، الذين كانوا يستجوبون المشتبه به بقوة ولكن دون نتيجة، إلى غرفة أخرى، تاركين الكاهن يناقش ابن أبرشيته سراً. وقد تبين إنها مقابلة قاتلة بالنسبة لهذا الأخير، الذي قال لصديق بعد عدة أشهر: "قال السيد داميرون،./الآن يا لي، أنا أعرفك طوال حياتك. منذ أن كنت شرغوفاً صغيراً. وأعرف أبيك طوال حياته، نشأنا معاً، وكنا

أصدقاء طفولة. ولهذا السبب أنا هنا – وليس فقط لأنني كاهنك، بل لأنني أشعر أنك جزء من عائلتي. ولأنك بحاجة إلى صديق يمكن أن تتكلم إليه وتثق به. أشعر بفظاعة هذه الجريمة الشنيعة، وأنا في توق مثلك بالضبط لمعرفة الجاني وإمساكه ومعاقبته./"

"سألني إن كنت أشعر بالعطش، وقد كنت، فجلب لي علبة كوكا، وبعد ذلك تحدث عن عطلة عيد الشكر وعن حبي للدراسة، ثم فجأة قال، /الآن، لي، يبدو أن الجماعة هنا لديهم بعض الشكوك حول براءتك. أنا واثق إنك ترغب في الخضوع لجهاز كشف الكذب كي تقنع هؤلاء الرجال بأنك بريء فيتفرغون للبحث وإمساك الطرف الجاني./ ثم قال، /لي، أنت لم تفعل هذا الشيء الفظيع، أليس كذلك؟ إذا كنت أنت من فعل ذلك، الآن هو الوقت لتطهير روحك./ بعد ذلك، قلت في نفسي وما هو الفارق، وأخبرته الحقيقة، أخبرته تقريباً كل شيء عما جرى. ظل يهز رأسه ويقلب عينيه في كل الاتجاهات ويفرك يديه ببعضهما البعض، وقال إن هذا أمر رهيب، وإن عليّ أن أجيب العلي القدير وأن أطهر روحي بإخبار المحققين بما أخبرته، وهل سأفعل؟"

بعد أن تلقى مني إيماءة بالموافقة، دخل المستشار الروحي للسجين إلى الغرفة المجاورة، التي كانت تعج برجال الشرطة المنتظرين، وببهجة كبيرة أطلق دعوته: "هيا ادخلوا! الولد جاهز لإعطاء إفادة."

أصبحت قضية أندروز ركيزة لحملة طبية وقانونية محمومة. قبل المحاكمة التي التمس فيها أندروز البراءة بسبب عدم السلامة العقلية، أجرى فريق نفسي من عيادة مييننجر فحصاً شاملاً للمتهم؛ وجاء التشخيص، "فصام من النمط البسيط." وقد قصد المشخصون بكلمة "بسيط" أن أندروز لم تكن لديه أيّة أوهام، ولا تصورات خاطئة،

ولا هلوسات، ولكنه يعاني من المرض الأساسي وهو انفصال التفكير عن الشعور. هو يفهم طبيعة أفعاله، وأنها أفعال محظورة، وأنه عرضة لعقوبة. "ولكن،" بحسب كلام الدكتور جوزيف ساتين، أحد الأطباء الذين فحصوه، "ليس لدى لويل لي أندروز مشاعر من أي نوع. فهو يعتبر نفسه الشخص الوحيد المهم، والشخص الوحيد العظيم في العالم. وفي عالمه المنغلق الخاص يبدو له إن قتْل والدته يعادل تماماً قتل حيوان أو ذبابة."

بحسب رأي الدكتور ساتين وزملائه، ترقى جريمة أندروز إلى مستوى نموذج أكيد عن تقلص المسؤولية، وهي القضية التي تشكل مناسبة مثالية لتحدي قاعدة مناتن في محاكم كانساس. قاعدة مناتن، كما سبقت الإشارة، لا تعترف بأي شكل من انعدام السلامة العقلية طالما أن المتهم قادر على التمييز بين الصح والخطأ – من الناحية القانونية وليس من الناحية الأخلاقية. وما لا يروق لكثير من الأطباء النفسيين ومن الفقهاء الليبراليين، أن هذه القاعدة معمول بها في محاكم الكومونويلث البريطاني؛ وفي الولايات المتحدة معمول بها في كل المحاكم سوى في حوالي ست ولايات وفي مقاطعة كولومبيا، التي تلتزم بقاعدة دورهام الأكثر تساهلاً، رغم أنها غير عملية كما يراها البعض، والتي تقول إن المتهم غير مسؤول جنائياً إذا كان فعله غير القانوني ناجماً عن مرض عقلي أو خلل عقلي.

باختصار، ما أمل به المدافعين عن أندروز، فريق مؤلف من الأطباء النفسيين في عيادة مينجر مع محامين من الصف الأول، هو تحقيق نصر يشكل علامة فارقة قانونية. الغرض الجوهري هو إقناع المحكمة باستبدال قاعدة مناتن بقاعدة دورهام. إذا تحقق

هذا، فإن أندروز، بسبب الأدلة الوافرة على حالته الفصامية، سوف ينجو بالتأكيد من المشنقة، أو حتى من السجن، كي يوضع في الحجز في مشفى الولاية الخاص بالمجانين الجنائيين.

لكن الدفاع لم يأخذ في الحسبان المستشار الديني للمتهم، القس السيد داميرون الذي لا يتعب، والذي ظهر في المحاكمة بوصفه الشاهد الرئيسي لجهة الإدعاء، والذي قال للمحكمة، بأسلوب منمّق وكثير الزخرفة يليق بممثل يحيي عروض الخيم المسرحية، إنه لطالما حذر تلميذه السابق في **مدرسة الأحد** من غضب الله الوشيك: "يا سادة يا كرام! قال له الداعي لكم، ليس في هذا العالم من شيء أغلى من روحك، واعترفت لي مرات عديدة خلال محادثاتنا إن إيمانك ضعيف، وإنك لا تؤمن بالله. أنت تعلم إن كل خطيئة إنما هي ضد الله، والله هو الحكم النهائي عليك، وعليك أن تجيبه. هذا ما قلته له لكي يشعر بفظاعة ما ارتكبت يداه، وإن عليه أن يجيب العلي القدير عن هذه الجريمة."

يبدو أن القس داميرون كان مصمماً على أن يجيب الفتى أندروز ليس فقط العلي القدير، بل أيضاً سلطات أكثر زمنية، لأن شهادته مشفوعة باعتراف المتهم، أوصلت الأمور إلى خواتيمها. أيّد القاضي الذي يرأس الجلسة قاعدة مانتن، وأعطت هيئة المحلفين العقوبة التي طلبتها الولاية وهي عقوبة الإعدام.

o o

مر يوم الجمعة، 13 مايو، الموعد الأول المحدد لإعدام سميث وهيكوك، بسلام. ذلك أن المحكمة العليا في كانساس منحتهما فترة من الحياة إلى أن تظهر نتيجة الاستئناف لمحاكمة جديدة بناء على طلب المحامين. في هذه الأثناء كان المحكوم أندروز تحت إعادة النظر من

المحكمة نفسها.

كانت زنزانة بيري مجاورة لزنزانة دك؛ ورغم أن أحدهما لا يستطيع رؤية الآخر، إلا أنه كان بإمكانهما التحادث بسهولة. مع ذلك نادراً ما تحدث بيري إلى دك، ولم يكن ذلك جراء أي عداوة بينهما (بعد تبادل القليل من الشتائم الخفيفة، عادت علاقتهما إلى نوع من التقبل المتبادل: القبول بحالة توأم سيامي غير ولادي ولكن لا فكاك منه)؛ بل لأن بيري، الحذر دائماً، والكتوم والمرتاب، لم يرغب أن يسمع الحرس أو النزلاء الآخرين "شؤونه الخاصة" – ولاسيما أندروز، أو أندي، كما كانوا يسمونه في **الطابور**. لغة المتعلمين الخاصة بأندروز والصفة الرسمية لذكائه المدرسي كانت لعنة بالنسبة لبيري، الذي، رغم أنه لم يتجاوز الصف الثالث، كان يتخيل نفسه أعلى من معظم معارفه، ويستمتع بتصحيح كلامهم، وخاصة في مجال القواعد واللفظ. ولكن ها هنا يوجد شخص – "مجرد ولد!" – يصحح له. هل من المستغرب أنه لا يفتح فمه. من الأفضل أن تترك فمك مغلقاً عن أن تغامر بواحدة من التصحيحات المقرفة لابن المدرسة، مثل: "لا تقل أكّد على الشيء، بل قل أكّد الشيء." لم يكن يقصد أندروز أي شر، فقد كان طيباً، لكن بيري كان قادراً أن يغليه في الزيت – مع أنه لم يعترف بهذا، ولم يسمح لأحد أن يخمن سبب سكوته، بعد أحد هذه الحوادث المهينة، جلس مغتاظاً وأهمل الوجبات التي قدمت له ثلاث مرات في اليوم. في بداية يونيو توقف عن الأكل بالكامل – قال لدك، "أنت يمكنك أن تنتظر الحبل. أما أنا فلا" – ومنذ تلك اللحظة رفض أن يلمس الطعام أو الماء، أو أن يقول كلمة لأحد.

استمر الصيام خمسة أيام قبل أن يأخذه مدير السجن على

محمل الجد. في اليوم السادس طلب نقل سميث إلى مستشفى السجن، لكن هذا لم يخفف من إصرار بيري؛ حين حاولوا إطعامه بالقوة قاوم، يبعد رأسه ويغلق فكيه حتى يصبحان قاسيين مثل حدوة حصان. أخيراً، توجب إطعامه عبر الوريد أو عبر أنبوب يمرّر من خلال الأنف. مع ذلك، انخفض وزنه خلال الأسابيع التسعة التالية من 168 باوند حتى 115، وقد أُخطر مدير السجن أن التغذية القسريّة وحدها لا يمكن أن تُبقي المريض حياً إلى أجل غير مسمى.

رغم أن دك تأثر بقوّة إرادة بيري، إلا أنه لم يقتنع أن غرضه من ذلك الانتحار؛ حتى حين قيل إن بيري دخل في غيبوبة، قال لأندروز، الذي أصبح ودوداً معه، إن شريكه السابق يمثّل. "يريد فقط أن يجعلهم يظنون إنه مجنون."

قال أندروز، الذي كان نهماً قسرياً (لديه دفتر مليء بصور المأكولات، كل شيء، من فطيرة الفريز إلى الخنزير المشوي)، "بعد أن ترك نفسه يجوع هكذا، قد يكون مجنوناً بالفعل."

"كل ما يريده هو أن يخرج من هنا. يمثّل. وهكذا سيقولون إنه مجنون ويضعونه في بيت المجانين."

بعد ذلك صار دك مغرماً باقتباس جواب أندروز، لأنه بدا له عينة من "التفكير الغريب" للصبي، الرضا عن النفس "فوق السحاب". زعم أن أندروز قال، "مؤكد أنه من الصعب جداً عليّ فعل ذلك. أن أدع نفسي أتضوّر جوعاً. فنحن جميعاً سنخرج من هنا عاجلاً أم آجلاً. إما على أقدامنا – أو محمولين في نعش. أنا من جهتي، لا أبالي سواء مشيت أو حُملت. الأمر سيّان في النهاية."

قال دك، "مشكلتك يا أندي، أنك لا تحترم الحياة البشرية، بما

في ذلك حياتك."

وافق أندروز وقال، "وسأقول لك شيئاً آخر. إذا خرجت حياً من هنا، أقصد خارج الجدران وتماماً في الخارج - ربما لن يعرف أحد أين ذهب أندي، لكنهم سيعرفون بالتأكيد أين كان."

تموّج بيري طوال الصيف بين ذاهل نصف مستيقظ ومريض ونائم غارق في التعرق. أصوات تزأر في رأسه؛ أحد هذه الأصوات يسأله بإصرار، "أين المسيح؟ أين؟" وحين استيقظ مرة يصرخ، "الطائر هو المسيح! الطائر هو المسيح!" عاد توهّمه المسرحي القديم الأثير على نفسه، التوهم الذي يرى نفسه فيه "بيري أوبارسونس، سيمفونية برجل واحد،" على شكل حلم معاود. المركز الجغرافي للحلم كان ناد ليلي في لاس فيغاس حيث يمشي مختالاً وهو يرتدي قبعة بيضاء وبدلة رسمية بيضاء، على خشبة مسرح مضاءة يعزف بالتتابع هرمونيكا، غيتار، بانجو، درامز، ويغني "You Are My Sunshine"، ويرقص رقصاً إيقاعيّاً صاعداً مسافة قصيرة على درجات دعائمها بلون الذهب؛ وفي القمة، يقف على منصة، وينحني. لم يكن ثمة تصفيق، أبداً، رغم أن آلاف الحضور يملؤون الغرفة الواسعة والمبهرجة - جمهور غريب، معظمه من الرجال ومعظمهم من الزنوج. حدق المضيف المتعرق بهم، وفهم أخيراً صمتهم، لأنه عرف فجأة إنهم أشباح، خيالات الذين أبادهم القانون، الذين أُعدموا شنقاً أو بالغاز أو بالكهرباء - وفي اللحظة ذاتها أدرك إنه هناك لينضم إليهم، وإن الدرجات الذهبية قادته إلى السقالة، وأن المنصة التي وقف عليها كانت تنفتح تحت قدميه. سقطت قبعته؛ انفلت منه البول والغائط، بيري أوبارسونس يدخل الأبدية.

ذات عصر، نجا من حلم واستيقظ ليجد مدير السجن يقف

بجانب السرير. قال المدير، "يبدو كأنك كنت في كابوس صغير؟" لكن بيري لم يجبه. قال المدير، الذي قد زار المستشفى مرات عديدة ليقنع السجين بوقف صيامه، "لدي شيء ما هنا. من أبيك. ظننت أنك ترغب في رؤيته." بعيون كبيرة لامعة في وجه بات شاحباً بلون فوسفوري، تأمل بيري السقف؛ والآن، بعد أن وضع البطاقة البريدية على الطاولة بجانب المريض، غادر الزائر المرفوض.

في تلك الليلة نظر بيري إلى البطاقة. كانت موجهة إلى مدير السجن، وعليها ختم بلو ليك، كاليفورنيا؛ الرسالة مكتوبة بخط خشن مألوف، وتقول: "سيدي العزيز، أفهم أن ابني بيري في الحجز لديكم ثانية. اكتب لي من فضلك ما الخطأ الذي ارتكبه وإذا جئت هل يمكنني أن أراه. أنا بخير وآمل أنك كذلك. تيكس ج. سميث." هشّم بيري البطاقة ولكن عقله احتفظ بها، لأن الكلمات البسيطة القليلة أحيته عاطفياً، أحيت الحب والكراهية، وذكرته إنه لا يزال ما حاول أن لا يكون – لا يزال حياً. "وقررت للتو،" قال فيما بعد لصديق، "إنني يجب أن أبقى بهذه الطريقة. من يريد أن يأخذ حياتي لن يلقى مني أي مساعدة. عليه أن يتعب لأجل ذلك."

في الصباح التالي طلب كأساً من الحليب، أول قوت يقبله طوعاً منذ أربعة عشر أسبوعاً. بالتدريج، مع عصير البرتقال وشراب البيض، بدأ يستعيد وزنه؛ بحلول أوكتوبر، اعتبر طبيب السجن، الدكتور روبيرت مور، إنه قوي بما يكفي للعودة إلى **الطابور**. حين وصل إلى هناك، ضحك دك وقال، "أهلا بك في بيتك يا حبيب."

○ ○

مرّ عامان. رحيل ويلسون وسبينسر ترك سميث وهيكوك

وأندروز وحيدين مع أضواء **الطابور** المشتعلة ونوافذه المحجّبة. امتيازات السجناء العاديين كانت ممنوعة عنهم؛ لا أجهزة راديو ولا ورق للعب ولا فترة تمارين حتى – بالفعل، كانوا محرومين من الخروج من زنازينهم تماماً إلا يوم السبت حين يؤخذون إلى غرفة الحمام، ثم يعطونهم ملابس بديلة كل أسبوع؛ الفرص الوحيدة الأخرى للإفراج المؤقت هي الزيارات المتباعدة جداً من المحامين أو الأقارب. السيدة هيكوك كانت تأتي مرة كل شهر؛ زوجها توفي، وخسرت المزرعة، وتعيش حيناً، كما قالت لدك، عند أحد الأقارب وحيناً عند آخر.

كان يشعر لبيري أنه يعيش "عميقاً تحت الماء" – ربما لأن الطابور عادة رمادي وهادئ مثل أعماق المحيط، لا صوت فيه سوى صوت الشخير والسعال وهمس الأقدام بالشحاطات، والجلبة الخفيفة للحمائم المعششة في جدران السجن. ولكن الحال ليس هكذا دائماً. "أحياناً،" كتب دك في رسالة إلى أمه، "لا يمكنك أن تسمع نفسك. حين يرمون رجالاً في زنازين الطابق السفلي، التي يسمونها **الحفرة**، والكثير منهم يتقاتلون بجنون واختلال أيضاً. يشتمون ويصرخون طوال الوقت. شيء لا يحتمل، ولذلك يبدأ الجميع بالصراخ: اسكتوا! ليتك أرسلت لي سدادة أذن. ولكن لن يسمحوا لي بإدخالها. لا راحة للملعونين، كما أظن."

هذا المبنى الصغير موجود منذ أكثر من قرن، ويحمل مختلف الأعراض التي تركها عليه تعاقب الفصول: برد الشتاء ترك أثره على الحجر والحديد، وفي الصيف، حين تصل الحرارة إلى ما فوق المئة فهرنهايت، تصبح الزنازين القديمة مراجل كريهة الرائحة. "حرارة عالية، جلدي يحترق،" كتب دك في رسالة بتاريخ 5 يوليو 1961.

"أحاول أن لا أتحرك كثيراً. فقط أجلس على الأرض. سريري ممتلء بالعرق لا يمكنني الاستلقاء عليه، والرائحة تثير الغثيان، لأننا نستحم مرة واحدة في الأسبوع ونبقى في الملابس نفسها. لا يوجد تهوية من أي نوع واللمبات تزيد من حرارة الجو. البق لا يكف عن الارتطام بالجدران."

على خلاف السجناء العاديين، لا يخضع سجناء الإعدام لنظام عمل؛ يمكنهم أن يقضوا وقتهم كما يشاؤون – ينامون طوال النهار، كما يفعل بيري غالباً ("أتظاهر أنني طفل صغير للغاية لا يستطيع فتح عينيه")؛ أو، كما يفعل أندروز، يقرؤون طوال الليل. يقرأ أندروز كمعدل وسطي بين خمسة عشر وعشرين كتاباً في الأسبوع؛ وذوقه يشمل الهراء كما يشمل الأدب الجميل، هو يحب الشعر، وبشكل خاص شعر روبيرت فروست، ولكنه معجب أيضاً بوايتمان وإيميلي ديكنسون والقصائد الفكاهية لأوجدن ناش. ورغم أن تعطشه لقراءة الأدب التهم سريعاً كل رفوف مكتبة السجن، إلا أن قسيس السجن، ومتعاطفين آخرين مع أندروز، كانوا يزودونه دائماً برزم من المكتبة العامة في كانساس سيتي.

يمكن اعتبار دك دودة كتب أيضاً؛ ولكن اهتمامه يقتصر على موضوعين – الجنس، كما تعرضه روايات هارولد روبنسون وإيفرينغ والاس (بعد أن أعار إحدى هذه الروايات لبيري، أعادها هذا مع ملاحظة غاضبة: "قذارة منحطة لعقول منحطة قذرة!")، وكتب القانون. كان يستهلك ساعات وهو يقرأ في كتب القانون، يجمع بحثاً كان يأمل أن يساعده في إلغاء إدانته. وأيضاً في متابعة القضية عينها، أطلق رسائل هجومية إلى منظمات مثل اتحاد الحريات المدنية الأمريكية ونقابة

محامي ولاية كانساس – رسائل تهاجم محاكمته باعتبارها "مهزلة بإجراءات قانونية،" وحثّ مستلمي الرسائل على مساعدته في طلبه إعادة المحاكمة. اقتنع بيري بكتابة التماسات مشابهة، ولكن حين اقترح دك على أندي أن يحذو حذوهم وأن يكتب احتجاجات بالأصالة عن نفسه، أجاب أندروز، "سأهتم برقبتي وأنتم اهتموا برقابكم." (في الواقع لم تكن رقبة دك هي الجزء التشريحي الوحيد الذي كان يقلقه في تلك اللحظة. فقد أسرّ لأمه في رسالة أخرى أيضاً: "شعري يتساقط بغزارة. أنا سأجن. لا أحد في عائلتنا أصلع بقدر ما أذكر، ترعبني فكرة أن أكون عجوزاً أصلع بشع.")

في مساء خريفي من 1961، وصل الحارسان الليليان إلى **الطابور،** وكان معهما خبر. قال أحدهما، "يبدو أنه يمكنكم توقّع رِفقة جديدة، يا شباب." مغزى الملاحظة كان واضحاً للمستمعين: فقد عنت أن الجنديين الشابين اللذين كانا يُحاكمان بتهمة قتل عامل سكة الحديد في كانساس، قد صدر بحقهما الحكم. "نعم سيدي،" قال الحارس، مؤكداً هذا، "حكم عليهما بالإعدام." فقال دك، "مؤكد. هذا شائع جداً في كانساس. هيئات المحلفين هنا توزع هذا الحكم كأنها توزع الحلوى على الأولاد."

أحد الجنديين، جورج رونالد يورك، كان في الثامنة عشرة؛ ورفيقه، جيمس دوغلاس لاثام، كان يكبره بعام. كانا وسيمين على نحو استثنائي، وهذا ربما ما يفسر حشود المراهقات اللواتي حضرن محاكمتهما. ورغم أنهما أدينا بجريمة قتل واحدة، فإنهما قتلا سبع ضحايا في سياق موجة قتل شملت البلد.

روني يورك، أشقر بعينين زرقاوين، ولد ونشأ في فلوريدا، كان

أبوه غواصاً شهيراً وعالي الأجر. وكانت الحياة البيتية لعائلة يورك مريحة وسعيدة، وكان روني، المحبوب والذي لا يكف والداه وأخته الأصغر الرائعة عن مدحه، المركز المعبود للعائلة. أما خلفية لاثام فكانت على النقيض تماماً، فقد كانت كئيبة بصورة مطابقة لخلفية بيري سميث. ولد في تكساس، وكان الولد الأصغر لأبوين فقيرين متحاربين انفصلا في النهاية تاركين أولادهما يتدبرون أمر نفسهم، يتشردون هنا وهناك، سائبين ومرفوضين كشجيرات شوك من أرض غريبة. في سن السابعة عشرة، وبغرض الحصول على مأوى، انضم لاثام إلى الجيش؛ بعد عامين أدين بجريمة فرار، وسجن في حصن في فورت هوت، تكساس. هناك تعرف على روني يورك، الذي كان يعاقب بسبب الفرار أيضاً. ورغم أنهما كانا مختلفان، حتى بالشكل، يورك طويل وبارد الطبع، أما التكساسي فكان قصيراً بعينين بنيتين ماكرتين تنعشان وجهاً صغيراً متراصاً جذاباً – فقد وجدا أنهما يتشاركان على الأقل برأي ثابت: العالم بغيض، ويستحسن التخلص من أي شخص فيه. "عالم نتن،" قال لاثام. "لا يستحق سوى السفالة. تلك هي اللغة التي يفهمها الجميع. احرق مستودع الرجل – سيفهم. سمم كلبه. اقتله." قال روني إن لاثام كان "على حق مئة بالمئة،" مضيفاً، "على كل حال، حين تقتل شخصاً، فإنك تسدي له معروفاً."

أول ما اختارا أن يسديا معروفاً له كانتا امرأتين من جورجيا. ربتا منزل محترمتين، من سوء حظهما أنهما التقيا يورك ولاثام بعد فترة قصيرة من فرار هذين القاتلين من حصن فورت هود، حيث سرقا شاحنة بيك أب وساقا حتى جاكسونفيل، فلوريدا، بلدة يورك. مكان الالتقاء كان محطة وقود **إسو** في المحيط المظلم من جاكسونفيل؛

التاريخ كان ليل 29 مايو 1961. في الأصل، كان الجنديان الفاران قد جاءا إلى مدينة فلوريدا بنيّة زيارة عائلة يورك؛ ولكن بعد وصولهما، قرر يورك إنه قد لا يكون من الحكمة التواصل مع والديه؛ لأن أباه لديه حالات من الغضب لا بأس بها. ناقشا الأمر، واختارا الاتجاه إلى نيو أورليانز وفي الطريق توقفا في محطة **إسو** لشراء الوقود. إلى جانبهما كانت سيارة تملأ الوقود، وفيها الضحيتان الوقورتان القادمتان، اللتان كانتا بعد يوم من التسوّق والمتعة في جاكسونفيل، عائدتين إلى بيتهما الكائنين في بلدة صغيرة قرب الحدود بين فلوريدا وجورجيا. وللأسف، ضلّتا الطريق. كان يورك خدوماً إلى الحد الأقصى، حين طلبتا منه أن يدلهما على الاتجاه: "فقط اتبعانا. سنرشدكما على الطريق الصحيح." لكن الطريق الذي أرشدهما إليه كان خاطئاً بالفعل: طريق ضيّق ملتفّ ينتهي بمستنقع. مع ذلك، تابعت السيدتان بكل وفاء حتى توقفت السيارة القائدة، ورأتا على ضوء سيارتهما، الشابين الخدومين يقتربان منهما ماشيين، وشاهدتا، ولكن بعد فوات الأوان، أن كلًّا منهما مسلّح بسوط أسود. السوطين من ممتلكات المالك الشرعي للشاحنة، مربي ماشية؛ وكانت فكرة لاثام أن يستخدما السياط للخنق – وكان هذا ما فعلاه بعد أن سرقا السيدتين. في نيو أورليناز اشترى الشابان مسدساً وحفرا ثلمين في قبضته [إشارة إلى جثّتي السيّدتين].

خلال الأيام العشرة التالية أُضيفت أثلام أخرى إلى المسدّس في تولاهوما، تينيسي، حيث حصلا على سيارة دودج مكشوفة سريعة بعد قتل مالكها، مُسوّق مبيعات؛ وفي ضاحية سانت لويس في إلينوي، قتلا رجلين آخرين. الضحية الكانساسية التي تلت هؤلاء الضحايا الخمس، كان جَدًّا؛ اسمه أوتو زيغلر، في الثانية والستين. رجل ودود سمين، من

النوع الذي لا يمرّ بسائقي السيارات المتعثرة دون عرض المساعدة. بينما كان مسرعاً على إحدى الطرق السريعة في كانساس، ذات صباح حزيرانيّ جميل، لمح السيد زيغلر سيارة كشف حمراء مركونة إلى جانب الطريق، غطاء المحرك مرفوع، وشابان وسيمان يعبثان بالمحرك. كيف للسيد زيغلر، صاحب القلب الطيب، أن يعرف أنه ليس هناك أي مشكلة في المحرك، وأن هذه حيلة مدبرة لسرقة وقتل من سيتطوع للمساعدة؟ آخر كلماته كانت، "هل يمكنني أن أساعدكما بشيء؟" عن مسافة عشرين قدم، أرسل يورك رصاصة حطمت جمجمة العجوز، ثم استدار إلى لاثام وقال، "إصابة محققة، أليس كذلك؟"

الضحية الأخيرة، كانت الأكثر إثارة للشفقة. فتاة في الثامنة عشرة تعمل خادمة في موتيل في كولورادو حيث قضى الثنائي الهائج إحدى الليالي، وقد سمحت لهما في تلك الليلة أن يمارسا الجنس معها. ثم قالا لها، إنهما سيذهبان إلى كاليفورنيا، وطلبا منها أن ترافقهما. "هيا،" شجعها لاثام، "قد نصبح جميعاً نجوم سينما." وقد أصبحت الفتاة وحقيبتها الكرتونية المضبوبة بسرعة حطاماً مخضباً بالدماء في قاع واد قرب كريج، كولورادو؛ ولكن بعد ساعات قليلة من قتلها بالرصاص ورميها هناك، كان الثنائي القاتل يمثُلان في الحقيقة أمام كاميرات السينما.

فقد وُزّعت أوصاف راكبي السيارة الحمراء، كما قدمها شهود شاهدوهما يتسكعان في المنطقة التي عُثر فيها على جثة أوتو زيغلر، على الولايات الغربية والوسط الغربي. أقيمت حواجز على الطرق، رصدت طائرات الهليكوبتر الطرق السريعة؛ وألقي القبض على يورك ولاثام على حاجز في يوتا. فيما بعد، سُمح لشركة تلفزيون محلي أن تصور

مقابلة معهما في مقر قيادة الشرطة في مدينة سالت ليك. والنتيجة، إذا شوهد الفيلم بدون صوت، تعتقد أنهما رياضيان مرحان من شارِبِي الحليب يتحدثان بشأن الهوكي أو البيسبول – أو بشأن أي شيء آخر سوى جريمة قتل، ودورهما الذي اعترفا به بتباه في قتل سبعة أشخاص. "لماذا؟" سأل الصحفي، "لماذا فعلتم هذا؟" أجاب يورك مع ابتسامة رضى عن النفس، "نحن نكره العالم."

الولايات الخمس التي تنافست للحصول على حق مقاضاة يورك ولاثام تؤيد القتل القضائي: فلوريدا (إعدام بالكهرباء)، تينيسي (إعدام بالكهرباء)، إلينوي (إعدام بالكهرباء)، كانساس (الإعدام شنقاً)، كولورادو (الغاز القاتل). ولكن على اعتبار أن كانساس تحوز على أقوى الأدلة، فقد فازت.

أول لقاء لسكان **الطابور** مع زملائهم الجدد كان في 2 نوفمبر 1961 . عرّف الحارس، الذي رافق الوافدين إلى زنازينهم، بهما، "السيد يورك، السيد لاثام، أود أن أعرفكما على السيد سميث هنا، والسيد هيكوك. والسيد لويل لي أندروز - /ألطف فتى في وولكوت!/"

بعد انتهاء العرض، سمع هيكوك ضحك أندروز، فقال، "ما المضحك يا ابن العاهرة؟"

"لا شيء،" قال أندروز. "لكني كنت أفكر: إذا جمعنا ثلاثتي مع أربعتكم مع سبعتهم، نحصل على أربعة عشرة منهم وخمسة منا. الآن خمسة مقابل أربعة عشرة يكون المعدّل –"

"أربعة مقابل أربعة عشرة،" صحح له هيكوك بفظاظة. "يوجد هنا أربعة قتلة ورجل مُقحم بينهم. اللعنة، أنا لست قاتلاً، لم ألمس شعرة من رأس إنسان."

○ ○

واظب هيكوك على كتابة الرسائل التي يحتج فيها على حكمه، وأخيراً أثمرت إحدى هذه الرسائل. وصلت الرسالة إلى إفيريت ستيرمان، رئيس لجنة المساعدة القانونية في نقابة المحامين في ولاية كانساس. وقد انزعج من مزاعم المرسل الذي يصر على أن محاكمته هو وشريكه لم تكن عادلة. فبحسب هيكوك، "الجو العدائي" في غاردن سيتي جعل من المستحيل اختيار هيئة محلفين حيادية، ولذلك كان يجب تأمين مكان آخر للدعوى. وأما بخصوص المحلفين الذين تم اختيارهم، اثنان على الأقل أشارا بوضوح إلى حكم مسبق بالإدانة خلال استجواب القاضي ("حين سئل عن رأيه بعقوبة الإعدام، قال أحدهما إنه في الحالة العادية ضد هذه العقوبة، ولكن في هذه الحالة لا")؛ ومن سوء الحظ أن الاستجواب ليس مسجلاً لأن قانون كانساس لا يفرض ذلك إلا إذا تم تقديم طلب خاص بذلك. كما أن العديد من المحلفين كانوا "على معرفة بالمتوفين. وكذلك القاضي. القاضي تيت كان صديقاً حميماً للسيد كلاتر."

لكن أضخم فطائر الطين التي أعدها هيكوك كانت موجهة ضد محامي الدفاع، أرثور فليمنغ وهاريسون سميث، فالسبب الرئيسي للمحنة الحالية للمرسل هو "عدم كفاءتهما وضعفهما"، لأنهما لم يُعدا أو يقدما دفاعاً حقيقياً، وهذا الإهمال كان مقصوداً، كما توحي الرسالة – كان مؤامرة بين الدفاع والادعاء.

هذه ادعاءات جسيمة تشكّك في نزاهة محامين محترمين وقاض مميز في المنطقة، ولكن لو كانت هذه الادعاءات صحيحة ولو بنسبة ضئيلة، فهذا يعني أنه جرى انتهاك الحقوق الدستورية

للمتهمين. وعليه، شرعت نقابة المحامين بطلب من السيد ستيرمان بإجراء لا سابق له في التاريخ القضائي في كانساس: فقد عيّنت محام شاب من ويتشيتا، روسيل شولتز، للتحقيق في التهم، وإذا تبين أن هناك أدلة تبررها، يجري الاعتراض على صحة الحكم عبر إجراءات طلب المثول أمام المحكمة العليا في كانساس التي أيّدت مؤخراً الحكم.

سوف يبدو أن استقصاء شولتز كان أحاديّ الجانب إلى حد ما، باعتباره اقتصر تقريباً على مقابلة سميث وهيكوك، المقابلة التي خرج منها المحامي بعبارات هجومية للصحافة: "السؤال هو – هل من حق المتهمين الفقراء الواضحي الذنب الحصول على دفاع كامل؟ لا أعتقد أن ولاية كانساس ستتضرّر كثيراً، أو لوقت طويل، بموت هذين المُستأنفين. ولكني لا أعتقد أنها يمكن أن تشفى يوماً من موت الإجراءات القانونية السليمة."

قدم شولتز التماس المثول أمام المحكمة، وكلفت المحكمة العليا في كانساس أحد قضاتها المتقاعدين، السيد الموقر والتر جي. ثيل، لعقد جلسة استماع كاملة. وهكذا حدث بعد حوالي سنتين من المحاكمة، اجتمع كل الطاقم في قاعة المحكمة في غاردن سيتي. وغاب من المشاركين الرئيسيين المتهمين الأصليين فقط؛ ووقف في مكانهما، يمكن القول، القاضي تيت، والسيد فليمنغ العجوز، وهاريسون سميث، الذين كانت مهنتهم في خطر – ليس بسبب مزاعم الاستئناف بحد ذاتها، بل بسبب الأهمية الظاهرة التي كانت تسبغها عليهم نقابة المحامين.

استغرق اكتمال الجلسة، التي انتقلت عند نقطة معينة إلى لانسينغ، حيث استمع القاضي ثيل إلى شهادة هيكوك وسميث، ستة

أيام؛ بعدها تمّت تغطية كل النقاط. أقسم ثمانية محلفين إنهم لا يعرفون أيًّا من أفراد العائلة المغدورة؛ واعترف أربعة بمعرفة خفيفة بالسيد كلاتر، ولكن كل منهم، بمن فيهم ن. ل. دونان، موظف المطار وصاحب الرد المثير للجدل خلال استجواب المحلفين، قال إنه دخل صندوق هيئة المحلفين بذهن غير منحاز. لكن شولتز حاجج دونان: "هل تشعر يا سيد إنك كنت ترغب بأن تتقدم إلى محاكمة أمام هيئة محلفين فيها محلّف بحالة ذهنية تشبه حالتك؟" دونان قال نعم، يرغب؛ فقال شولتز، "هل تذكر أنهم سألوك إذا كنت مع أو ضد عقوبة الإعدام؟" أومأ الشاهد برأسه وأجاب، "قلت لهم في الظروف العادية، قد أكون ضدها. ولكن في جريمة بهذا الحجم يمكن أن أصوت لصالحها."

الاشتباك مع تيت كان أصعب: سرعان ما أدرك شولتز أنه تورّط بإمساك نمر من الذيل. رداً على سؤال يتعلق بعلاقته الحميمة بالسيد كلاتر، قال القاضي، "كان [كلاتر] طرفاً في دعوى هنا، وكنت رئيس المحكمة في هذه الدعوى، ضد ضرر بسبب سقوط طائرة في أرضه؛ كان يرفع قضية ضرر أصاب – أعتقد بعض الأشجار المثمرة. سوى ذلك لم يحدث أن اجتمعتُ به. ليس على الإطلاق، رأيته ربما مرة أو مرتين في السنة ..." تبلبل شولتز، غيّر الموضوع. "هل تعرف،" سأل، "موقف الناس في هذا المجتمع عقب اعتقال هذين الرجلين؟" "أعتقد أنني أعرف،" أجاب القاضي بثقة لاذعة. "برأيي إن الموقف منهما هو الموقف من أي شخص آخر متهم بجريمة قتل – وهو إنه يجب محاكمتهما وفق القانون؛ وإذا كانا مذنبين يجب إدانتهما؛ ويجب أن يخضعا لنفس المعاملة العادلة التي يخضع لها أي شخص آخر. لم يكن هناك

أي تحيز ضدهما لأنهما متهمان بجريمة." "تقصد،" قال شولتز بمكر، "إنك لم تجد أي سبب يدعو المحكمة أن تبادر من تلقاء نفسها لتغيير مكان المقاضاة؟" انحنت شفتا تيت إلى الأسفل، والتمعت عيناه. "سيد شولتز،" قال، كما لو أن الاسم كان صفيراً طويلاً، "لا يمكن للمحكمة من تلقاء ذاتها أن تغير المكان. هذا مخالف لقانون كانساس. لم يكن بإمكاني التغيير إلا إذا طُلب ذلك وفق الأصول."

ولكن لماذا لم يقدم هذا الطلب من قبل محامي المتهمين؟ تابع الآن شولتز هذا السؤال مع المحاميين أنفسهم، لأن إضعاف الثقة بهما وإثبات أنهما لم يقدما للموكلين الحماية الدنيا كان الهدف الرئيسي من الجلسة، من وجهة نظر محامي ويتشيتا. تلقى فليمنغ وسميث الهجوم بأسلوب جيد، ولاسيما فليمنغ الذي كان يرتدي ربطة عنق حمراء جريئة وابتسامة ثابتة، فقد تحمل هجوم شولتز بتسامح نبيل. وقال، شارحاً عدم تقديمه طلبًا لتغيير المكان، "شعرت أنه باعتبار القس كاوان، كاهن الكنيسة الميثودية، رجلًا صاحب أملاك هنا وله مكانته، إضافة إلى الكثير من الكهنة الآخرين هنا، يعارضون عقوبة الإعدام، فهذا يشكل خميرة لمثل هذا الموقف في المنطقة، ومن الراجح أن يكون هناك كثير من الناس المتساهلين في العقوبة أكثر ربما من مناطق أخرى في الولاية. ثم هناك بيان كتبه على ما أعتقد أخو السيدة كلاتر وظهر في الصحف يقول إنه لا يرى أنه يجب إعدام المتهمين."

كان لدى شولتز الكثير من التهم، ولكن أهم ما فيها إضمار القول بأن فليمنغ وسميث، وتحت ضغط المجتمع، أهملا عمداً واجباتهما. يعتقد شولتز أن كليهما خان موكله ولم يتداول معه بما يكفي (أجاب فليمنغ، "عملت على القضية بأقصى ما أستطيع، وأعطيتها من الوقت

أكثر مما أعطي لمعظم القضايا")؛ بالتنازل عن جلسة استماع أولية (أجاب سميث، "ولكن يا سيد، لم نكن، لا السيد فليمنغ ولا أنا، قد تم تعيينا كمحامي دفاع في وقت التنازل")؛ وبإعطاء تصريحات للصحف تضر بالمتهمين (شولتز لسميث: "هل تعلم أن أحد المراسلين، رون كول من ديلي كابيتال توبيكا، نقل عنك في اليوم التالي من المحاكمة، القول إنه لا يوجد شك في أن السيد هيكوك مذنب، ولكن ما يهمك هو فقط الحصول على السجن المؤبد بدلاً من الإعدام؟" سميث لشولتز: "لا، يا سيد. إذا نقل عني هذا القول فهو غير صحيح")؛ وبالفشل في إعداد دفاع مناسب.

اشتغل شولتز كثيراً على هذا الاقتراح الأخير؛ لذلك يجدر بنا، أن نذكر رأياً حوله، كتبه ثلاثة قضاة فيدراليين نتيجة استئناف تال إلى محكمة الاستئناف في الولايات المتحدة، الدائرة العاشرة: "نعتقد، على أي حال، إن هؤلاء الذين ينظرون إلى الوضع بنظرة راجعة، فاتهم أن يروا المشاكل التي واجهت المحامين سميث وفليمنغ حين توليا الدفاع عن هذين المُلتمسين. عندما قبلا التعيين كان كل من الملتمسين قد أدلى باعتراف كامل، ولم يجادل أي منهما، ولم يجادلا جدياً في أي وقت في محاكم الولاية، بأن هذه الاعترافات لم تكن طوعية. تم استرداد راديو مسروق من بيت كلاتر كان قد باعه الملتمسين في مكسيكو سيتي، كما علم المحاميان بأدلة إثبات أخرى كانت في حوزة الادعاء. وحين طُلب منهما الرد على التهم الموجهة ضدهما وقفا صامتين، وكان من الضروري للمحكمة أن تعيّن مدافعين عنهما. لم تكن هناك أدلة متينة حينها، ولم يظهر أيّ دليل بعد المحكمة، لإثبات الدفاع بعدم السلامة العقلية. ولم تكن محاولة الدفاع بإثبات عدم السلامة العقلية استناداً

إلى إصابات خطيرة في حادث وقع من سنوات، وإلى صداع ونوبات غشي متقطعة تصيب هيكوك، سوى كالغريق الذي يتمسّك بقشّة، كما يقول المثل. واجه المحاميان وضعاً ارتُكبت فيه جرائم شنيعة ضد أبرياء واعترف بها الفاعلون. في مثل هذه الظروف، كان مبرّرًا لهما أن ينصحا الملتمسين أن يُقرّا بالجريمة ويضعا نفسيهما تحت رحمة المحكمة، فلعل تصاريف القدر تنقذ روحي هذين الضالين."

في التقرير الذي قدمه إلى المحكمة العليا في كانساس، وجد القاضي ثيل أن محاكمة الملتمسين كانت عادلة دستورياً؛ وعليه، ترفض المحكمة وثيقة إلغاء الحكم، وتحدد موعد الإعدام في 25 أكتوبر 1962 . وعليه، يكون موعد إعدام لويل لي أندروز، الذي سافرت قضيته مرتين قاطعة المسافة كلها إلى المحكمة العليا في الولايات المتحدة، قد تحدّد بعد شهر من موعدهما.

منح قاض فيدرالي قتلة عائلة كلاتر تأجيلاً، فمرّ موعدهما بسلام، أمّا أندروز فكان على الموعد.

o o

للبَتّ في قضايا الإعدام في الولايات المتحدة، فإن متوسّط الوقت المنقضي بين الحكم والتنفيذ هو سبعة عشر شهراً تقريباً. مؤخراً، في تكساس، أعدم بالكرسي الكهربائي سارق مسلح بعد شهر واحد من الإدانة؛ ولكن في لويزيانا، لا يزال، حتى كتابة هذه السطور، اثنين من المغتصبين ينتظران منذ اثنتي عشر سنة. يعتمد هذا التفاوت قليلاً على الحظ وكثيراً على مدى التقاضي. غالبية المحامين الذين يتولون هذه القضايا تعينهم المحكمة ويعملون بدون تعويض؛ ولكن غالباً ما تلجأ المحاكم، بغرض تجنب الاستئنافات المستقبلية القائمة على

الشكوى من عدم كفاءة التمثيل، إلى تعيين محامين من الصف الأول ممن يدافعون بنشاط مهني جدير بالثناء. ولكن، حتى محامي متواضع الموهبة يمكنه أن يؤجل يوم الحساب سنة وراء سنة، لأن نظام الطعون الذي يعمّ فلسفة التشريع الأمريكية يعادل دولاب نصيب قانوني، لعبة حظ، منحازة بشكل ما لصالح المجرم، المشاركون يلعبون بلا نهاية، أوّلاً في محاكم الولاية، ثم في المحاكم الفيدرالية، وصولاً إلى المحكمة النهائية – المحكمة العليا في الولايات المتحدة. ولكن حتى الخسارة هنا لا قيمة لها إذا استطاع محامي الملتمس اكتشاف أو اختراع أرضية جديدة للطعن؛ وهو عادة يستطيع، وهكذا يدور الدولاب مرة أخرى، ويدور، حتى يعود السجين، ربما بعد بضع سنوات، إلى أعلى محكمة في الأمة، وذلك ليس إلا كي يبدأ ثانية، ربما، السباق القاسي البطيء. ولكن في الفترات الفاصلة يتوقف الدولاب ليعلن الفائز – أو الخاسر، ولكن الخسارة تصبح نادرة أكثر فأكثر: قاتلَ محامو أندروز حتى اللحظة الأخيرة، لكن موكلهم ذهب إلى المشنقة يوم الجمعة، 30 نوفمبر 1962.

o o

"كانت ليلة باردة،" قال هيكوك، متحدثاً إلى مراسل سُمح له أن يزوره بشكل دوري. "باردة ورطبة. وكانت تمطر كالعاهرات، والوحل في ملعب البيسبول يصل إلى خصيتيك. وهكذا، حين أخذوا أندي إلى المستودع، كانوا مضطرين أن يمشوا به على طول الممر. كنا جميعاً على النوافذ نراقب – بيري وأنا، وروني يورك وجيمي لاثام. كان هذا بعد منتصف الليل تماماً، والمستودع مضاء كأنه يقطينة هالوين. الأبواب مفتوحة على اتساعها. أمكننا أن نرى الشهود، الكثير من الحرس،

وطبيب ومدير السجن – كنا نرى كل شيء ما عدا المشنقة. كانت بعيدة في زاوية، ولكن كان يمكننا رؤية ظلها. ظل على الحائط مثل ظل حلبة الملاكمة."

"القس وأربعة من الحرس تولوا أمر أندي، وحين وصلوا إلى الباب توقفوا لثانية. كان أندي ينظر إلى المشنقة – يمكنك أن تخمن هذا. كانت يداه مربوطتان أمامه. فجأة مد القس يده وانتزع نظارات أندي. كان شيئاً مثيراً للشفقة، أن ترى أندي بلا نظارات. قادوه إلى الداخل، وكنت أتساءل هل يستطيع أن يرى كي يتسلق الدرجات. كان الهدوء شاملاً، لا شيء سوى نباح كلاب بعيدة. كلب ما في البلدة. ثم سمعناه. سمعنا الصوت، وقال جيمي لاثام، "ما هذا؟": أخبرته ما هو – إنه الباب المسحور."

"ثم عاد الهدوء مجدداً. سوى ذلك الكلب. أندي الطيب، لقد رقص زمناً طويلاً. لا بد أن لديهم فوضى حقيقة بحاجة إلى ترتيب. كل بضع دقائق كان يأتي الطبيب إلى الباب ويخرج، ويقف هناك وفي يده سماعة الطبيب. لا يمكنني القول إنه يستمتع بعمله – كان يلهث، كأنه بحاجة إلى هواء، وكان يبكي، أيضاً. قال جيمي، /انظر إلى هذا المخنث./ أعتقد إنه كان يخرج لكي لا يرى الآخرون إنه يبكي. ثم يعود ويصغي ليسمع إن كان قد توقف قلب أندي. بدا كأنه لن يتوقف. الحقيقة، إن قلبه ظل يخفق لمدة تسع عشرة دقيقة."

"كان أندري ولداً ظريفاً،" قال هيكوك مبتسماً ابتسامة جانبية لأنه كان يمسك سيجارة بين شفتيه. "كان كما قلت له: لا يحترم الحياة البشرية، بما فيها حياته هو. قبيل أن يأخذوه إلى المشنقة، جلس وأكل دجاجتين مقليتين. في ما بعد ظهر اليوم الأخير له، كان يدخن

السيجار ويشرب الكولا ويكتب الشعر. وحين جاؤوا ليقتادوه، وقلنا له وداعاً، قلت، /سأراك قريباً، أندي. لأنني واثق من أننا سنذهب إلى المكان نفسه. لذلك استطلع المكان وحاول أن ترى بقعة ظليلة باردة لنا هناك في **الأسفل**./ ضحك وقال إنه لا يؤمن بالجنة والنار، فقط تراب في تراب. وقال إن عمته وعمه جاءا لزيارته وقالا له إنهما سينقلانه بنعش إلى مقبرة صغيرة في شمال ميزوري. في المكان الذي دفن فيه الأشخاص الثلاثة الذين قتلهم. قالا إنهما يخططان لدفنه بجانبهم. قال عندما أخبراه بذلك فإنه بالكاد منع نفسه من الضحك. قلت له، /الحقيقة إنك محظوظ ليكون لك قبر. على الأرجح سأنتهي أنا وبيري في المشرحة./ مزحنا على هذا النحو حتى جاء موعد ذهابه، وفي طريقه أعطاني ورقة عليها قصيدة. لا أدري إن كان هو الذي كتبها. إذا كان يهمك الأمر، سأرسلها لك."

فيما بعد أرسلها، وتبين أن رسالة وداع أندروز هي المقطع التاسع من "مرثية مكتوبة في باحة كنيسة ريفية" لتوماس غراي:

كل ما يعطيه تباهي النبالة وأبهة السلطة
كل ما يعطيه هذا الجمال وهذه الثروة
ينتظر أيضاً ساعة محتومة
فطريق المجد تنتهي، هي أيضاً، إلى القبر.

"الحقيقة أنني أحببت أندي. كان مجنونًا–ليس مجنوناً حقيقياً، كالذين يصرخون دائماً؛ ولكن، تعلم، مجرد أحمق. كان يتكلم دائماً عن الهرب من هنا والعمل كقاتل مأجور. كان يحب أن يتخيل نفسه وهو يتجول في شيكاغو أو لوس أنجلوس ببندقية ضمن حقيبة قيثارة. يُخمد الرجال. كان يقول التسعيرة ستكون ألف دولار على الجثة."

ضحك هيكوك، ربما على لا معقولية مطامح صديقه، تنهد، وهز رأسه. "ولكن قياساً بعمره، لم أقابل في حياتي شخصاً أذكى منه. مكتبة بشرية. عندما يقرأ ذلك الولد كتاباً يحفظه. بالطبع لا يعرف أدنى شيء عن الحياة. من ناحيتي، أنا جاهل إلا حين يتعلق الأمر بمعرفتي بالحياة. مشيت في الكثير من الشوارع الوضيعة. رأيت رجلاً أبيض يُجلد. شاهدت أطفالاً يولدون. رأيت فتاة، بعمر لا يزيد عن الرابعة عشرة، تعاشر ثلاثة رجال في الوقت نفسه وتعطيهم كل ما تستحقه نقودهم. سقطت عن سفينة ذات مرة على بعد خمسة أميال عن الشاطئ. سبحت خمسة أميال وحياتي تعبر أمامي مع كل ضربة. ذات مرة صافحت الرئيس ترومان في بهو فندق ميلويلباك. هاري س. ترومان. عندما كنت أعمل سائق سيارة إسعاف لصالح المستشفى، رأيت كل جوانب الحياة، هناك أشياء تجعل الكلب يتقيأ. ولكن أندي. لم يكن يعرف أدنى شيء سوى ما قرأه في الكتب."

"كان بريئاً مثل طفل صغير، مثل ولد بصندوق كراكر جاك. لم يعرف مرة ما هي المرأة. رجل أو بغل. هو نفسه قال هذا. وهذا أكثر ما أعجبني فيه ربما. كيف أنه لا يراوغ. البقية هنا في **الطابور**، نحن جميعاً حفنة من الكذابين المتصنعين. وأنا من أكثرهم سوءاً. هيا، عليك أن تتحدث عن شيء ما. تباهى. وإلآ ستكون لا أحد، لا شيء، نكرة لا تساوي شروى نقير. لكن أندي ليس من هذا الصنف. كان يقول: ما فائدة أن تقول أشياء لم تحدث أبداً؟"

"مع ذلك، بيري الطيب لم يكن حزيناً على اختفاء أندي عن وجه الأرض. أندي كان ما يريد أن يكونه بيري قبل كل شيء في العالم – متعلماً. ولم يستطع بيري أن يغفر هذا له. أنت تعلم كيف يستخدم

بيري كلمات كبيرة لا يعرف نصف معناها؟ فيبدو مثل هؤلاء الحثالة أبناء الجامعات؟ يا رجل، كانت تحترق مؤخرته برغبة اللحاق بأندي وإيقافه. بالطبع أندي كان يحاول فقط أن يعطيه ما كان يريد – التعليم. الحقيقة هي أنه لا أحد يستطيع أن ينسجم مع بيري. لا صديق له هنا. أقصد، من يظن نفسه بحق الآلهة؟ يسخر من الجميع. يرى الناس منحرفين ومتخلفين. لا يكف عن الحديث عن المستوى المنخفض للذكاء عند الناس. من المؤسف أننا لا نستطيع أن نكون ذوي روح حساسة مثل بيري الصغير. لا نستطيع أن نكون قديسين. يا رجل، أعرف أشخاصاً مستعدين أن يذهبوا إلى **الركن** بسرور مقابل أن يستفردوا به في غرفة الحمام لدقيقة ساخنة واحدة. الطريقة التي يتعالى بها على يورك ولاثام! روني يقول إنه يشتهي أن يحظى بكرباج. يقول إنه يرغب في عصر بيري قليلاً. أنا لا ألومه. بعد كل شيء نحن في نفس المكان، وهما شابان ممتازان."

ضحك هيكوك متأسفاً، رفع كتفيه، وقال، "أنت تعلم ما أقصد. ممتازان – مع أخذ كل شيء بعين الاعتبار. جاءت والدة روني يورك إلى هنا عدة مرات لزيارته. ذات يوم، التقت مع أمي في غرفة الانتظار، وصارتا الآن صديقتان من الدرجة الأولى. السيدة يورك طلبت من أمي أن تزورها في فلوريدا، وحتى أن تعيش هناك. يا مسيح، ليتها تفعل. عندها يمكن أن تخرج من هذه المحنة التي هي فيها. كل شهر تركب الباص إلى هنا كي تراني. تبتسم وتحاول أن تجد شيئاً ما تقوله كي تسعدني. المسكينة. لا أعلم كيف تتحمل هذا الوضع. أستغرب أنها لم تجن."

استدرات عينا هيكوك غير المتناظرتين باتجاه نافذة في غرفة

الزيارة: التمع وجهه المنتفخ والشاحب مثل زنبق الجنائز، تحت ضوء شمس شتوية خفيفة تتسلل عبر زجاج مقضّب.

"المسكينة. كتبت لمدير السجن تسأله إذا كان بمقدورها أن تتكلم إلى بيري في الزيارة القادمة. أرادت أن تسمع من بيري نفسه كيف قتل أولئك الناس، وهل أنا حقاً لم أطلق النار على أحد منهم. كل ما آمله أن تعاد محاكمتنا يوماً ما، وأن يشهد بيري ويقول الحقيقة. لكني أشك بذلك. إنه مصمم تماماً على أن لا يذهب دوني. ظهراً إلى ظهر. هذا غير عادل. كثير من الرجال قَتلوا ولم يدخلوا زنزانة الموت. وأنا لم أقتل أحداً. إذا كان لديك إمكانية لأن تصرف خمسين ألف دولار، يمكنك أن تقتل نصف كانساس سيتي وأنت تضحك ها ها." طمست ابتسامة مفاجئة سخطه الحزين. "أوه-هوه. ها أنا أعود ثانية. الولد البكّاء الطيب. قد تظن أنني تعلمت. ولكن، بشرف الإله، عملت أكثر مما أستطيع كي أنسجم مع بيري. المشكلة أنه كثير النقد. له وجهان. يغار للغاية من أبسط شيء. من كل رسالة تصلني، من كل زيارة. لم يأت أحد لزيارته سواك،" قال مومئاً إلى الصحفي، الذي كان يعرف سميث جيداً كما يعرف هيكوك. "أو محاميه. هل تذكر عندما كان في المستشفى؟ عرْض المجاعة الزائف ذاك؟ حين أرسل أبوه بطاقة بريدية؟ المهم، كتب مدير السجن إلى والد بيري إنه يرحب به هنا في أي وقت. ولكنه لم يأت. لا أدري. أحياناً عليك أن تشعر بالأسف من أجل بيري. لا بد أنه من أكثر الأشخاص وحدة على الإطلاق. ولكن. أووو، ليذهب إلى الجحيم. هو يتحمل مسؤولية الأمر بمعظمه."

سحب هيكوك سيجارة أخرى من علبة باول مول، غضّن أنفه، وقال، "حاولت أن أوقف التدخين. ثم قلت ماذا يفيد هذا في الوضع

الحالي. بقليل من الحظ، قد أُصاب بالسرطان وأهزم الولاية على ملعبها. لفترة كنت أدخن السيجار. كان يزودني به أندي. استيقظت في الصباح، بعد أن شنقوه، وناديته، /أندي؟/ - كما اعتدت أن أناديه. ثم تذكرت إنه كان في طريقه إلى ميزوري. مع العمة والعم. ألقيت نظرة على الكوريدور. كانت زنزانته فارغة، وكل أغراضه مكومة هناك. فراش سريره، الشحاطة، كتاب القصاصات وفيه كل صور الطعام – كان يسميه الثلاجة. وعلبة سيجار /ماكبث/. قلت للحارس أن أندي أعطاني علبة السيجار، تركها لي في وصيته. الحقيقة أنني لم أُكمل تدخينها. ربما كانت هذه فكرة أندي، ولكنها، بشكل ما، كانت تسبب لي عسرة هضم.

"المهم، ماذا نقول عن عقوبة الإعدام؟ أنا لست ضدها. هي انتقام ببساطة، وما الخطأ في الانتقام؟ إنه في غاية الأهمية. لو كنت من أقارب عائلة كلاتر، أو أيًّا من الأشخاص الذين قتلهم يورك ولاثام، فلن يهدأ لي بال حتى أرى القتلة يتأرجحون على المشنقة. هؤلاء الذين يكتبون الرسائل إلى الصحف. منذ أيام كانت هناك رسالتان في إحدى صحف توبيكا – إحداها من كاهن. يقول، في الحقيقة، ما كل هذه المهزلة القانونية، لماذا لم يلتف الحبل بعد حول رقبة أولاد العاهرة سميث وهيكوك حتى الآن، لماذا لا يزال أبناء العاهرة القتلة هؤلاء يأكلون من أموال دافعي الضرائب؟ الحقيقة، أنا أفهم موقفهم. إنهم غاضبون لأنهم لم يحصلوا على ما يريدون – الانتقام. ولن يحصلوا عليه إذا استطت منعه. أنا مع الشنق، طالما أنني لست الشخص الذي سيُشنق."

ه ه

لكنه بعد ذلك، كان الشخص الذي سيشنق. مرت ثلاث سنوات أخرى، وخلال هذه السنوات حلّ محاميان ماهران من كانساس سيتي، جوزيف ب. جينكنس وروبيرت بينغهام، محل شولتز الذي استقال من القضية. عينهما قاض فيدرالي ويعملان بدون تعويض (ولكن تدفعهما قناعة راسخة بأن المتهمين كانا ضحية "محاكمة ظالمة كابوسية"). تقدم المحاميان بطعون عديدة في إطار نظام المحاكم الفيدرالية، وبذلك تجنبوا ثلاثة مواعيد للإعدام: 25 أوكتوبر 1962، و8 أغسطس 1963، و18 فبراير 1965. جادل المحاميان بأن موكليهما حُكما ظلماً لأنه لم يتم تعيين مستشار قانوني لهما إلا بعد أن اعترفا وتنازلا عن جلسات الاستماع الأولية؛ ولأنه لم يتم تمثيلهما بكفاءة خلال المحاكمة، أُدينا بمساعدة أدلة تم الحصول عليها دون إذن تفتيش (البندقية والسكين المأخوذتان من بيت هيكوك)، ولم يُمنحا فرصة تغيير مكان المحاكمة رغم أن محيط المحاكمة كان "مشبعاً" بالدعاية المضادة للمتهمين.

بهذه المحاججات نجح جينكنس وبينغهام في حمل القضية ثلاث مرات إلى المحكمة العليا في الولايات المتحدة – الصبي الكبير، كما يسميها الكثير من سجناء التقاضي – ولكن في كل مرة كانت المحكمة، التي لا تعلق أبداً على قراراتها في مثل هذه الحالات، ترفض الطعون وتمتنع عن منح أوامر تسمح للطاعنين بجلسة استماع كاملة أمام المحكمة. في آذار 1965، بعد أن أمضى هيكوك وسميث في زنازين **طابور الموت** 2000 يوم تقريباً، قررت المحكمة العليا في كانساس أن حياتهما يجب أن تنتهي بين منتصف ليل والساعة الثانية صباحاً من يوم الأربعاء، 14 أبريل 1965. ومن ثم تم تقديم طلب رأفة إلى حاكم كانساس المنتخب

حديثاً، ويليام أفري؛ لكن أفري، وهو مزارع ثري حساس للرأي العام، رفض التدخل – وهو القرار الذي رأى إنه في "مصلحة أهالي كانساس." (بعد شهرين، رفض أفري طلبي الرأفة ليورك ولاثام اللذان أعدما في 22 يونيو 1965.)

وهكذا حدث في صباح يوم الأربعاء، أن ألفن ديوي، قرأ، بينما هو يتناول الفطور في مطعم أحد فنادق توبيكا، على الصفحة الأولى من صحيفة ستار الصادرة في كانساس سيتي، عنواناً رئيسياً طالما انتظره: **الموت شنقاً عقاباً على جريمة دموية.** تبدأ القصة التي كتبها مراسل أسوشيتد برس هكذا: "ريتشارد إيوجين هيكوك وبيري إدوارد سميث، الشركاء في الجريمة، يعدمان شنقاً في سجن الولاية صباح اليوم، عقاباً على أبشع جريمة قتل عرفتها سجلات كانساس. هيكوك، 33 عاماً، أعدم أولاً، في الساعة 12:41 صباحاً؛ سميث، 36، أعدم في الساعة 1:19 ..."

٥ ٥

كان ديوي قد شاهد إعدامهما، لأنه كان من بين الشهود العشرين المختلفين الذين تمت دعوتهم إلى المراسم. لم يسبق له أن حضر عملية إعدام، وحين دخل المستودع البارد بعد منتصف الليل، فاجأه المشهد: توقع أن يرى محيطاً بمهابة مناسبة، وليس هذا الكهف الكئيب الإضاءة والمزدحم بالخشب وغيره من الحطام. لكن المشنقة نفسها، بأنشوطتيها الشاحبتين المعلقتين إلى عارضة، كانت مهيبة بما يكفي؛ وهكذا، بنموذج غير متوقع، كان الجلاد الذي ألقى ظله الطويل من مكانه على المنصة في قمة الأداة الخشبية ذات الثلاثين درجة. جيء بالجلاد، وهو رجل خشن مجهول الاسم، من ميزوري لهذه المهمة التي

تقاضى عليها 600 دولار؛ وكان يرتدي بدلة قديمة ناعمة التخطيط مزدوجة الصدر، واسعة كثيراً قياساً على الهيكل الضيق الذي داخلها – كانت الجاكيت تصل تقريباً حتى ركبتيه؛ وعلى رأسه يضع قبعة كاوبوي، كانت خضراء لامعة ربما حين اشتراها، ولكنها الآن باتت شيئاً غريباً بالياً مبقعاً بالعرق.

كما وجد ديوي أن المحادثات العارضة المتوترة لزملائه الشهود، وهم ينتظرون بدء ما وصفه أحدهم بـ"الاحتفالات،" مقلقة.

"ما سمعته هو إنهم سيطلبون منهما أن يسحبا قرعة لمعرفة من سيُعدم أولاً. أو سيرمون قطعة نقود. ولكن سميث قال لماذا لا تعتمدون ترتيب الأحرف الأبجدية. أعتقد لأن حرف الهاء يأتي قبل حرف السين[17]، ها!"

"قرأت في الصحيفة، صحيفة بعد الظهر، ماذا طلبا من أجل وجبتهما الأخيرة. طلبا الطعام نفسه. روبيان. بطاطا مقلية. خبز بالثوم. آيس كريم وفريز وقشدة مخفوقة. مفهوم أن سميث لم يلمس طعامه تقريباً."

"كان لدى هيكوك حس النكتة. أخبروني أن أحد الحراس، قبل ساعة، قال له، /لا بد أن هذا أطول ليل في حياتك./ ضحك هيكوك وقال، /لا. أقصر ليل./"

"هل سمعت عن عيني هيكوك؟ أوصى بهما لطبيب عيون. حالما أنزلوه عن المشنقة، انتزعهما الطبيب ليضعهما في رأس شخص آخر. لا أتمنى أن أكون هذا الشخص الآخر. سأشعر أني غريب وتلك العينان في رأسي."

---

(17) كذلك في الترتيب الأبجدي الانكليزي. م.

"يا إلهي! هل هذا مطر؟ كل النوافذ مفتوحة في سيارتي الشيفرولية الجديدة. يا إلهي!"

مطر مفاجئ راح يضرب بقوة على سقف المستودع. الصوت، يشبه صوت طبول الاستعراض رات-آ-تات-تات، بشّر بقدوم هيكوك. دخل مكان الإعدام مصحوباً بستة من الحرس وقس يتمتم بالصلاة، يداه مكبلتان ويرتدي قيداً شنيعاً من أحزمة جلدية تثبت ذراعيه إلى جذعه. عند قدم المشنقة قرأ له مدير السجن الأمر الرسمي بإعدامه، وثيقة من صفحتين؛ وبينما يقرأ المدير، كانت عينا هيكوك اللتان أضعفهما نصف عقد من السنين في ظلال الزنازين، تجوبان الحضور، وحين لم ير ما يبحث عنه، سأل أقرب حارس هامساً، إذا كان يوجد أحد من عائلة كلاتر. وحين جاءه الجواب بالنفي، بدا عليه الإحباط، كما لو أنه اعتقد أن البروتوكول المحيط بطقس الانتقام هذا ليس مرعيّاً كما يجب.

كالعادة، بعد أن أنهى المدير تلاوته، سأل المحكوم إن كان لديه تصريح أخير يقوله. أومأ هيكوك بالإيجاب. "أريد فقط أن أقول إنني لا أحمل مشاعر سيئة. أنتم ترسلونني إلى عالم أفضل مما كانه هذا العالم في أي يوم"؛ ثم، وكما لو أنه يريد أن يؤكد على ما قال، صافح الرجال الأربعة المسؤولين بشكل رئيسي عن اعتقاله وإدانته، وجميعهم كانوا قد تقدموا بطلب لحضور تنفيذ الإعدام: مندوبو مكتب تحقيقات كانساس، روي تشيرش، وكليرانس دونتز، وهارولد ناي، وديوي نفسه. "سعيد برؤيتكم،" قال هيكوك بابتسامته الساحرة؛ كان كأنه يرحب بضيوف في جنازته.

سعل الجلاد – رفع قبعته بنفاد صبر وأعادها ثانية، ملمح يذكّر

بشكل ما بنفخ النسر التركي، ثم سوّى ريش رقبته – وصعد هيكوك، بعد أن لكزه أحد الحاضرين، درجات المشنقة. "الرب أعطى والرب أخذ، فليكن اسم الرب مُباركاً" رتّل القس، بينما كان صوت المطر يتسارع، وكانت الأنشوطة تسوّى حول العنق، ويوضع قناع أسود ناعم حول عيني السجين. "ليرحم الله روحك." فُتح الباب المسحور، وشُنق هيكوك على مرأى من الجميع لمدة عشرين دقيقة قبل أن يقول الطبيب أخيراً، "أُعلن أن هذا الرجل ميت." دخلت عربة الموتى إلى المستودع، وماء المطر يتقطر من مصابيحها الأمامية المتقدة، وُضع الجسد على نقالة ملفوفة ببطانية، حُمل إلى العربة ثم خارجاً إلى الليل.

متابعاً العربة بعينيه، هز روي تشيرش رأسه: "لم أكن لأصدق أنه سيتحلّى بالشجاعة ليقبل الأمر كما قبله. كنت قد صنّفته جباناً."

قال الرجل الذي كان يتكلم إليه، وهو محقق آخر، "أوو، روي. الرجل كان شريراً. وغد وضيع. يستحق ذلك."

واصل تشيرش هَزّ رأسه بعينين متأملتين.

وبينما هُم في انتظار الإعدام التالي، تحادث مراسل وحارس. قال المراسل، "هل هذه أول مشاركة لك في عملية إعدام؟"

"رأيتُ لي أندروز."

"هذه أول مرة بالنسبة لي."

"وكيف رأيت؟"

زمّ المراسل شفتيه. "لم يرغب أحد في المكتب بهذه المهمة. ولا أنا أيضاً. لكنها لم تكن بالسوء الذي تخيلته. فقط مثل القفز عن لوح غوص. ولكن مع وجود حبل حول الرقبة."

"إنهم لا يشعرون بشيء. سقوط، فرقعة، وانتهى الأمر. لا

يشعرون بشيء."

"هل أنت واثق؟ كنت أقف قريباً منه. سمعته يجهد لسحب النفس."

"أوه، هوه، لكنه لا يشعر بشيء. لن يكون هذا فعلاً إنسانياً إن كانوا يشعرون."

"المهم. أظن أنهم يطعمونهم الكثير من الأقراص. مهدئات."

"اللعنة، لا. هذا ضد القوانين. ها قد جاء سميث."

"يا إلهي، لم أكن أعلم أنه يشبه الروبيان."

"نعم، إنه صغير. ولكن عنكبوت الرتيلاء صغير أيضاً."

حين أُدخل إلى المستودع، تعرف سميث على عدوه القديم، ديوي؛ وقف يمضغ قطعة كبيرة من علكة النعناع المكثّفة كانت في فمه، ابتسم وغمز لديوي، بخبث ومرح. ولكن بعد أن سأله المدير إذا كان لديه ما يقوله، صار تعبيره يقظاً. حدقت عيناه الحساستان بصرامة في وجوه المحيطين، ثم صعوداً إلى الجلاد المعتم، ونزولاً إلى يديه المقيدتين. نظر إلى أصابعه، التي كانت ملطخة بالحبر والدهان، لأنه قضى سنواته الثلاثة في **طابور الموت** يرسم بورتريهات شخصية وصور أولاد، عادة صور أولاد نزلاء يقدمون له صور فوتوغرافية لأولاد نادراً ما رأوهم. "أعتقد،" قال، "إنه شيء مريع أن تنهوا حياة بهذا الشكل. لا أؤمن بعقوبة الإعدام، لا أخلاقياً ولا قانونياً. ربما كان لديّ ما أساهم به، شيء ما.." ترنحت ثقته؛ الخجل خنق صوته، خفضه إلى مستوى السمع فقط. "لا معنى لأن أعتذر عما فعلت. ومن غير الملائم أن أفعل. لكني أعتذر. أنا أعتذر."

درجات، أنشوطة، قناع؛ ولكن قبل أن يثبت القناع، بصق

السجين العلكة في راحة القس الممدودة. أغمض ديوي عينيه؛ وتركهما مغلقتين حتى سمع صوت الارتطام والفرقعة التي تعلن انكسار الرقبة بالحبل. كغالبية مسؤولي فرض القانون الأمريكيين، كان ديوي على يقين من أن عقوبة الإعدام هي رادع ضد جرائم العنف، وكان يشعر إنه إذا كانت هذه العقوبة مستحقة يوماً، فهي مستحقة في هذه القضية. لم يزعجه الإعدام السابق، لم يكن لهيكوك أي قيمة في نظره، فقد بدا له "نصّاب تافه وفارغ وعديم القيمة في أعماقه." لكن سميث، رغم أنه القاتل الحقيقي، كان يثير فيه شعوراً آخر، لأن بيري كان يمتلك خاصية، شعور الحيوان المنفي، مخلوق مجروح يمشي، وهذا ما لم يستطع المحقق إهماله. تذكر لقاءه الأول مع بيري في غرفة التحقيق في مقر الشرطة في لاس فيغاس – الرجل الصبي القزم على الكرسي المعدني، قدماه الصغيرتان في البوط بالكاد تصلان إلى الأرض. والآن حين يفتح ديوي عينيه، هذا ما يراه: القدمان الطفوليتان عينهما، تتدليان مائلتان.

تخيل ديوي إنه بموت سميث وهيكوك، سيشعر بالنشوة، بالراحة التي يمنحها الاكتمال العادل لمشروع. بدلاً من ذلك، وجد نفسه يسترجع حادثاً منذ أكثر من سنة، مقابلة عارضة في مقبرة فالي فيو، تبدو بنظرة راجعة، كما لو أنها أنهت، بكثير أو قليل، قضية عائلة كلاتر.

لا شك أن الرواد الذين أسسوا غاردن سيتي كانوا من شعب إسبارطة، ولكن حين جاء وقت إنشاء مقبرة رسمية، صمموا، رغم التربة القاحلة ورغم مشاكل نقل الماء، على إنشاء شيء مناقض تماماً للشوارع الترابية، والسهول الجرداء. والنتيجة، التي يسمونها فالي فيو،

تقع فوق البلدة على هضبة معتدلة الارتفاع. تبدو اليوم جزيرة قاتمة محاطة بمحيط مائج من حقول القمح – ملاذ جيد في النهار القائظ، لأن فيها العديد من الممرات الباردة بالظلال المستمرة لأشجار مغروسة منذ أجيال مضت.

في عصر يوم من مايو الماضي، الشهر الذي تتوهج فيه الحقول بنار ذهبية خضراء من القمح نصف الناضج، قضى ديوي بضع ساعات في فالي فيو يزيل العشب غير المرغوب به عن قبر أبيه، وهو واجب أهمله ديوي طويلاً. كان ديوي اليوم في الواحدة والخمسين، أكبر بأربع سنوات منه حين أشرف على التحقيق في قضية عائلة كلاتر؛ لكنه لا يزال نحيلاً ورشيقاً، ولا يزال المندوب الرئيسي في مكتب تحقيقات كانساس في غرب كانساس؛ منذ أسبوع فقط ألقى القبض على اثنين من سارقي المواشي. لم يتحقق حلمه في الاستقرار في مزرعته، لأن خوف زوجته من العيش في هذا النوع من العزلة لم يهدأ. بدلاً من ذلك، بنى ديوي بيتاً جديداً في البلدة؛ وكانا فخورين به، وفخورين أيضاً بابنيهما، وقد خشن صوتاهما وصارا بطول أبيهما. الابن البكر كان قد التحق بالجامعة في الخريف.

عندما انتهى ديوي من التعشيب، راح يمشي على طول الممرات الهادئة. توقف عند شاهدة قبر حديث مكتوب عليها اسم: تيت. كان قد توفي القاضي تيت بذات الرئة في نوفمبر الماضي؛ أكاليل الزهور، والورود اليابسة، والشرائط التي بهتت بفعل المطر كانت لا تزال مستلقية على الأرض. قريباً منه، وهناك ورود أكثر نضارة مرمية على كومة تراب أحدث، إنه قبر بوني جان أشيدا، البنت البكر لأشيدا، توفيت في حادث سيارة خلال زيارتها إلى غاردن سيتي. وفيات، ولادات،

زواجات. فمنذ بضعة أيام فقط، سمع أن صديق نانسي كلاتر، الشاب بوبي روب، قد تزوج.

في زاوية بعيدة من المقبرة، خلف الأشجار، تحت الشمس، تقريباً على الحافة اللامعة لحقل القمح، تقع قبور عائلة كلاتر، أربعة قبور تجتمع تحت حجر رمادي واحد. عندما اقترب منها ديوي، رأى زائراً آخر هناك: فتاة ممشوقة القوام، ترتدي قفازين بيضاوين في يديها، وغطاء ناعمًا على شعر عسليّ غامق، ولها ساقان طويلتان رشيقتان. ابتسمت له، لكنه تساءل من تكون؟

"هل نسيتني، يا سيد ديوي؟ سوزان كيدويل."

ضحك؛ اقتربت منه. "سو كيدويل. غير معقول!" لم يرها منذ المحاكمة؛ كانت صغيرة وقتها. "ما هي أخبارك؟ كيف أمك؟"

"لا بأس، شكراً. لا تزال تعلّم الموسيقى في مدرسة هولكومب."

"لم أزر تلك المنطقة منذ زمن. هل من تغيرات؟"

"أوه، يُقال إنهم سوف يعبّدون الشوارع. ولكنك تعرف هولكومب. الحقيقة، أنا لا أقضي الكثير من الوقت هناك. هذه سنة تخرجي في كي يو؛" قالت وهي تقصد جامعة كانساس. "أنا في البيت منذ بضعة أيام فقط."

"هذا رائع يا سو. وماذا تدرسين؟"

"كل شيء. الفن، أكثر شيء. أحبه. وأنا سعيدة بالفعل." ورمت نظرة نحو البراري. "قرّرنا، نانسي وأنا، أن نذهب معاً إلى الجامعة. كنا سنصبح شريكتين في غرفة واحدة. أفكر في الأمر أحياناً. فجأة، حين أكون سعيدة، أفكر في كل الخطط التي رسمناها."

نظر ديوي إلى الحجر الرمادي الذي يحمل الأسماء الأربعة،

وتاريخ موتهم: 15 نوفمبر 1959 . "هل تأتين كثيراً إلى هنا؟"

"من حين لآخر. يا إلهي، الشمس حادة." غطت عينيها بنظارات شمسية. "هل تذكر بوبي روب؟ تزوج فتاة جميلة."

"سمعت."

"كولين وايتهورست. جميلة حقاً. ولطيفة جداً."

"وفقه الله." ولكي يغيظها، أضاف، "ولكن ماذا عنك أنت؟ لا بد أن لديك الكثير من المعجبين!"

"الحقيقة، لا شيء مهم. ولكن هذا يحفز ذاكرتي. كم صارت الساعة؟ أوه،" صرخت حين قال لها إن الساعة تجاوزت الرابعة. عليّ أن أسرع! لكن سعدت برؤيتك، سيد ديوي."

"وأنا سعدت برؤيتك، سو. بالتوفيق،" تبعها وهي تختفي بعيداً في الممر، فتاة جميلة في عجلة من أمرها، بشعرها الناعم المتأرجح اللماع. امرأة شابة كما كان يمكن أن تكون نانسي تماماً. ثم، في طريقه إلى البيت، مشى باتجاه الشجيرات، وتحتها، تاركاً خلفه السماء الواسعة، وأصوات همس الريح في حقول القمح المتماوجة.

نبذة عن المؤلّف

ولد ترومان كابوتي (اسمه ترومان ستريكفوس بيرسونس) في 30 سبتمبر 1924، في نيو أورليانز. تأثرت سنواته المبكرة بحياة عائلية غير مستقرة. تولت العناية به عائلة أمه في مونروفيل، ألاباما؛ وقد سجن أبوه بسبب الاحتيال؛ انفصل والداه ودخلا في صراع طويل بشأن الوصاية على ترومان. في النهاية انتقل إلى نيويورك سيتي ليعيش مع أمه وزوجها الثاني، رجل أعمال كوبي تبنى ترومان كنيته. عمل كابوت الشاب كعامل نسخ في جريدة النيويوركر في أوائل الأربعينات، ولكنه فصل من العمل لأنه أساء لروبيرت فروست عن غير قصد. بدأت سمعته الأدبية مع نشر قصصه الأولى في مجلة هاربرز بازار، وكان لا يزال في العشرينات من عمره. تعززت سمعته الأولى مع صدور روايته "أصوات أخرى، غرف أخرى" (1948)، قصة نضوج غوتية، وصفها كابوتي بأنها "محاولة لطرد الأرواح الشريرة،" ثم روايته قيثارة العشب(1951)، فانتازيا أكثر هدوءاً تجد جذورها في سنواته التي قضاها في ألاباما.

منذ بداية اشتغاله بالكتابة، أقام كابوتي طيفاً واسعاً من العلاقات مع الكتاب والفنانين وكبار شخصيات المجتمع والمشاهير العالميين، وحظي بعناية متكررة من وسائل الإعلام بسبب حياته الاجتماعية الزاخرة. جمع قصصه في شجرة ليل (1949) ونشر رواية فطور عند تيفاني (1958)، ولكنه كرس طاقته بشكل متزايد للتعديل المسرحي لرواية قيثارة العشب وكتابة المسرحية الموسيقية بيت الزهور (1954) – وللصحافة، التي كان من أمثلتها المبكرة "لون محلي" (1950) و"الميوزات يسمعن" (1956). قام بغزوة سينمائية وكتب سيناريو

لفيلم جون هيوستن هزيمة الشيطان (1954).

اهتمام كابوتي بجريمة قتل عائلة في كانساس قاد إلى التحقيق الموسع الذي شكل أساس رواية بدم بارد (1966)، وهو أكثر كتبه نجاحاً وشهرة. من خلال "معالجة حدث حقيقي بتكنيك روائي،" أراد كابوتي أن يخلق تأليفاً جديداً: شيء "واقعي بحت" وعمل فني معاً. في كل الأحوال تحدد نوع العمل من اللحظة التي ظهر فيها بشكل حلقات في النيويوركر، شكل الكتاب جاذبية للقراء أكثر من أي عمل سبق لكابوتي أن كتبه. وكانت حفلة الرقص التنكرية في فندق بلازا التي حظيت بدعاية واسعة، والتي احتفل فيها كابوتي باختتام كتابه بدم بارد، حدثاً أيقونياً لعقد الستينات من القرن العشرين، وظل كابوتي لوقت غير قليل ذا حضور ثابت على التلفزيون وفي المجلات، حتى أنه جرب التمثيل السينمائي في جريمة قتل بجانب الموت.

عمل لسنوات على صلوات مستجابة، رواية لم تكتمل في النهاية، كان الغرض منها أن تكون عصارة كل ما لاحظه في الحياة بين الأثرياء والمشهورين؛ نشرت مقتطفات منها في إسكوير 1975 ما أرعب الكثير من أصدقاء كابوتي الأثرياء لما فيها من كشف لأسرار حميمية، ثم وجد نفسه مستبعداً من عالم كان مرة يهيمن عليه. في سنواته الأخيرة، نشر مجموعتان من الخيال والمقالات، الكلاب تنبح (1973) وموسيقى للحرباء (1980). مات في 25 أغسطس 1984، بعد سنولت من المشاكل بسبب المخدرات والكحول.

في 2004 نشرت قصص ترومان كابوتي الكاملة ونشرت أيضاً متعة وجيزة جداً: رسائل ترومان كابوتي. في 2005، نشرت في أرجاء العالم روايته الأولى التي اعتقد لوقت طويل أنها مفقودة، عبور الصيف.

نبذة عن المترجم

راتب شعبو كاتب ومترجم سوري. تعاون عدّة سنوات كمترجم لصالح المركز السوري الأوروبي للتوثيق (SEDC). ترجم العديد من الكتب، أهمّها "مات الرجل" رواية لوول سوينكا، و"قطار إلى باكستان" رواية لخوشوانت سينج، و"اكتشاف الإسلام" دراسة لدو باسكييه. ألّف رواية "وراء هذه الجدران" المنشورة عام 2014 وفاز عنها بجائزة دمشق لأدب اليوميّات.

رواية «بدم بارد» جعلت ترومان كابوتي أشهر كاتب في أمريكا فور صدورها عام 1966. لكنه لم يستطع أن ينهي كتابة رواية أخرى بعدها لتأثيرها الساحق عليه حتى دمّرت حياته تمامًا فتوفي عام 1984 جرّاء مضاعفات إدمانه على الكحول. كان الاقتباس الذي اختاره ليفتتح به روايته الأخيرة غير المُنجزة، من أقوال القدّيسة تيريزا، هو:

«More tears are shed over answered prayers than unanswered ones»

قضى كابوتي ست سنوات في كتابة «بدم بارد» التي تُعتبر إحدى إرهاصات الحركة الصحافية الجديدة وقتها في نيويورك من خلال "معالجة حدث حقيقي بتكنيك روائي." وهي تُعتبر اليوم ثاني أكثر روايات الجريمة مبيعًا في تاريخ نشر الكتب في العالم. حوّلت الرواية إلى فيلم، بيد أن قصّة كتابة كابوتي للرواية من الأساس، والتي استقصاها وكتبها غيرالد كلارك، حُوّلت إلى فيلم بعنوان Capote حيث لعب فيه الممثّل فيليب سيمور هوفمان دور كابوتي، وفاز عن دوره هذا بجائزة الأوسكار عام 2005.

ولـد ترومـان كابوتـي عـام 1924 فـي نيـو أورليانـز. رشّـخت قصصـه الأولـى التـي نُشـرت فـي مجلـة «ذه هاربــرز بــازار» شــهرته الأدبيــة وهــو مــا يــزال فـي العشـرينيات مـن عمـره، وعــزّزت روايتـاه التاليتـان مـن شـهرته المبكّـرة «أصـوات أخـرى، غـرف أخـرى» [1948] ثـمّ روايتــه «قيثــارة العشــب» [1951]. جمـع قصصــه فـي كتـاب «شـجرة ليـل» [1949] ونشـر الروايـة القصيـرة «إفطـار عنـد تيفانـي» [1958]، (أعدّهـا للسينما جـورج أكسيلورد وأخرجهـا فيلمًـا بـلاك إدوارد عـام 1961، وقـام بالدوريـن الرئيسـيّين كلّ مـن أودري هيبـورن وجـورج بيبـارد.) شـكّل اهتمامـه بجريمـة قتـل عائلـة كاملـة فـي كانسـاس، والـذي قـاده لتحقيـق مطـوّل، الأسـاس لروايتـه ذائعـة الصّيـت «بـدم بـارد» [1966] أكثـر كتبـه نجاحًـا. وعبـر «معالجـة أحـداث يوميّـة بتقنيـات روائيّـة» عمـد كابوتـي إلـى خلـق تركيبـة جديـدة: تمـزج بدرجـة مـا بيـن «الواقـع الخالـص» والفـن.

خلال الخامس عشر من نوفمبر 1959، في قرية صغيرة تُدعى هولكومب، قُتل أربعة أشخاص من عائلة واحدة بوحشيّة غير مسبوقة، حيث أُطلق عليهم الرصاص على بُعد سنتيمترات قليلة من وجوههم. ولم يجد المحققون أيّ دافع واضح للمذبحة، ولا أدلّة.

إن كابوتي، بمحاولته أن يُعيد بناء أحداث الجريمة والتحقيقات التي قادت إلى القبض على المتّهمين، وجلسات محاكمتهم، وإنزال العقوبة بحقّهم، يبعث في القارئ تعلّقًا سحريًّا بالأحداث وتعاطفًا قويًّا مع الضحايا والمجرمين على حدّ سواء. «بدم بارد» رواية تتجاوز سنوات كتابتها وأحداثها لتصرخ برؤى ومفاهيم عميقة حول طبيعة العنف والشرّ وجدوى الحياة ومآلاتها.

«من بين أهم 100 كتاب واقعي على مرّ العصور»
Modern Library

«رواية استثنائيّة، تحمل إثارة خالصة، كُتبت باقتدار بعد بحث طويل...»
The New York Times

«أهم محاولة توثيقيّة على الإطلاق لجريمة قتل أمريكية... إنّه يجمّد الدّم في العروق»
The New York Review of Books

ISBN 9789948100614
9 789948 100614

روايات
REWAYAT

Cover by: Alaina Ylitalo